حقيقة عالمية الإسلام
في القرآن الكريم والسنة



عيسى محسن









بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة عالمية الإسلام
في القرآن الكريم والسنة

210 رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2008/9/3215)
محسن، عيسى خليل
حقيقة عالمية الاسلام /عيسى خليل محسن/
عمان: دار المعتز ٢٠١٤

الواصفات :الإسلام//التاريخ الإسلامي /

يتحمل المؤلف كامل المسؤلية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية

الطبعة الأولى

٢٠١٤م — ١٤٣٥هـ

دار المعتز للنشر والتوزيع
الأردن- عمان- شارع الملكة رانيا العبدالله- الجامعة الأردنية
عمارة رقم ٢٣٣ مقابل كلية الزراعة الطابق الأرضي
تلفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٣٧٣٠٣٥ ص.ب: ١٨٤٠٣٤ عمان: ١١١١٨ الأردن
e-mail: daralmuotaz.pup@gmail.com

حقيقة عالمية الإسلام

في القرآن الكريم والسنة

تأليف

عيسى محسن

الطبعة الأولى

٢٠١٤م — ١٤٣٥هـ

دار المعتز للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى كل من انحدر من صلب آدم عليه السلام

ليتدبّر، ويعتبر

ويخشى، ويعمل، ويرجو

لأن الدين عند الله الإسلام

ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه

وهو في الآخرة من الخاسرين

عيسى محسن

شكر وتقدير

لا يسعني إلا أن أقدم وافر شكري وتقديري إلى ابن أخي

السيد رامي أحمد خليل محسن

لما قدمه من معونة

لإخراج هذا الجهد إلى حيّز الوجود

عيسى محسن

الفهرس

نسب المصطفى ﷺ سيد ولد آدم

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان بن أُدد.

أما أمه ﷺ فهي: السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

أما أم السيدة آمنة، فهي: برّة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

أما أم برّة، فهي: أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ابن مرّة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

أما أم حبيب، فهي: برّة بنت عوف بن عُبيد بن عُويج بن عدي بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

وكل هذه الأمهات قرشيات، صريحات النسب. ولهذا فإن رسول الله محمد ﷺ أشرف ولد آدم حسباً، وأفضلهم نسباً، من جهة أبيه وأمه ﷺ. وعن ابن عباس (حبر الأمة وترجمان القرآن)، قال: قال ﷺ: "ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء إلا نكاح الإسلام".

المقدمة

الحمد لله الذي شهدت له بالربوبية جميع مخلوقاته، وأقرت لـه بالألوهيـة، بما أودعها من عجائب صنعته، وبدائع آياته، سبحانه وتعالى وبحمده عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، ولا إله إلا هو، وحده لا شريك له في ألوهيته، ولا معين له في ربوبيته، ولا شبيه له في ذاته، ولا في أفعاله، ولا في صفاته، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، المبعوث بالدين القويم والمنهج المستقيم، أرسله الله رحمة للعالمين، وإماما للمتقين، وحجة على الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

لما كان الإسلام هو الرسالة الخاتمة والدين الحق، بلّغه رسولنا محمد النبي العربي الأمي عن ربه جل وعلا، بكل صدق وأمانة، عرّجت إلى ما يهمّ كل مسلم ومسلمة، من معرفة عالمية رسالة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وما يقوم به المستشرقون الضالون من بث الأباطيل والاتهامات والتزييف والتشكيك، محاولة لشق الصف الإسلامي العربي، وإزاحته عن جادة الصواب. كما عرجت إلى تعريف التوحيد، والشرك، والدعاء، والاستغفار، وذكر الله سبحانه، والتوبة، وهديه ﷺ في الوضوء والصلاة.

إن القرآن الكريم هو أصل الهداية، وأسّ الحق، ومنار الهدى، به أعز الله هذه الأمة، وأقام صرح مجدها، وبنى دولة الإسلام على الحق، والعدل، والمساواة، والقيم، والأخلاق، حتى شهد بذلك القاصي والداني، واعترف بعدالة هذه الشريعة ورجالها حتى ألد أعدائها، مما يدل على ما لهذه الشريعة من رسوخ في أرض التنزيه

والفضائل والسمو بكل معانيه.

وبما أن أشرف العلوم على الإطلاق، هي التدبّر بما في القرآن العظيم، وعلم التفسير لكلام العلي القدير، رغبت دخوله من أوسع أبوابه، لتفسير فاتحة الكتاب، وسورة الإخلاص، وسورتي المعوذتين، وآية الكرسي. واتبعت منهجا يعتمد قدر الإمكان على الرواية، وعلى تفسير القرآن بالقرآن، وما تقتضيه اللغة العربية.

ضارعا إليه سبحانه وتعالى، أن يوفقنا جميعا إلى ما يحبه ويرضاه، وأن يهدينا إلى سواء السبيل، وأن يحشرنا في مستقر رحمته مع الذين أنعم عليهم، إنه نعم الهادي، ونعم المجيب،،،

عيسى محسن

الباب الأول

الفصل الأول

محمد رسول الله ﷺ

نبي الرحمة وخاتم النبيين

منّ الله سبحانه وتعالى على الإنسان لمّا خلقه بنعمة العقل والإدراك، حتى يتمكن من التمييز بين الخير والشرّ، وبين الحقّ والباطل. ومع ذلك، فلم يَدَعِ الله اللطيف الخبير بعباده الإنسان أنْ يكابد وحده صعوبة هذا التمييز والاختيار، معتمداً فقط على عقله وإدراكه. وكثيراً ما يضعف عقل الإنسان عن القيام بهذه المهمّة وحده، فهو عرضة في كثير من الأحيان، للوقوع فريسة للأفكار المنحرفة، والأهواء المتباينة العاصفة، التي تبعده عن طريق تكامله وسعادته التي أرادها الله تعالى له. فكان لا بدّ من أن يجعل الله منارات على طريق الإنسانية، تضيء للعقل الإنساني السبيل، وتساعده على معرفة الحق واتّباع سبيله، وتشخيص الباطل، واجتناب كل ما يؤدي إليه.

إن النفس الإنسانية مزيج من الروح الإنسانية والجسد الإنساني، وعليها وقع التكليف، الذي يترتب عليه الثواب والعقاب من الله سبحانه، مع وجود العقل واليقظة والإدراك والتمييز والبلوغ. قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[1].

جاء في كلام الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره للقرآن الكريم أن الأمانة هنا تعني: التكليف، وهي تكليف الإنسان بحمل الشريعة، والعمل بهداها، وتطبيقها كاملة، وعدم الخروج عنها[2].

---

(1) سورة الأحزاب، آية 72.

(2) راجع التفسير الكبير، الإمام فخر الدين الرازي.

قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ ﴾[1].

أما المنهج الذي ترجع إليه هذه النفس في أمرها، فهو ما أنزله سبحانه على رسله من رسالات، آخرها رسالة الإسلام الخالد، من اتبعها فقد فاز، ومن تنكّبها فقد ضلّ وهوى في الدرك الأسفل من النار.

إن البشرية على اختلاف شعوبها وأممها وأمكنتها، وعلى مدار عصورها وأزمانها، قامت بمحاولات ذاتية لاستكشاف الحقيقة الأزلية في الخلق والوجود، وذلك بحثا عن الإله الخالق المبدع. واستمر الصراع الفكري بين الفلاسفة الإلهيين، والفلاسفة الطبيعيين في كافة العصور والأزمان، إلى أن وصلت رسالة السماء الخاتمة إلى الأرض.

إن كلمة نبي عربية لفظا ومعنى، عربية لفظا: لأن مادة النبأ والنبوءة أصيلة في اللغة العربية.

وعربية معنى: وتعني المخبّر عن الله سبحانه وتعالى، والمأمون الأمين على رسالة السماء، والمبلّغ بكل ما أنزل إليه، والمبشّر والمنذر، ليتم الله نوره ولو كره الكافرون.

وجدت كلمة النبوة في اللغة العربية، غير مستعارة من معنى آخر، لأنها لغة غنية جدا بكلمات الكهانة والعرافة والقيافة[2]، وما إليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى النبوة، كما تلتبس في الألسنة الأخرى عند أصل التسمية، أو عند اشتقاق المعاني الجديدة من الألفاظ القديمة. فكلمة النبي في اللغة العربية تدل على معنى واحد، ولا تدل على غيره، خلافا لأمثالها من الكلمات في كثير من اللغات.

---

(1) سورة الشمس، آية 7-9.

(2) الكهانة والعرافة: المقصود بهما مطالعة الغيب، وكشف حجبه، ومعرفة أسراره، والإخبار بالحوادث الماضية والآتية. أما القيافة: فهي قيافة البشر، وقيافة الأثر، فقيافة البشر هي الاستدلال بهيئة الإنسان وشكل أعضائه على نسبه. أما قيافة الأثر فهي الاهتداء بآثار الأقدام أو الحوافر أو الأخفاف في الثرى والرمال على أربابها وصفاتها ومرد فعالها، بغية الاهتداء إلى من يفر من الناس، أو ما يضل من الحيوان.

إن المعنى الذي تؤديه كلمة نبي في اللغة العربية، تجمع كل معاني الكشف والوحي والإنباء بالغيب والإنذار والتبشير. أما في اللغات الأجنبية، فيؤدى بكلمات متعددة، ذات معان متفرقة، ولا تجمعه كلمة واحدة. فالنبي تؤديه في اللغة الإنجليزية مثلا كلمة Prophet، والكشف تؤديه كلمة Revelation، والوحي تؤديه كلمة Inspiration، والإنباء بالغيب تؤديه كلمة Divination، أو Aracle، والتبشير تؤديه كلمة Preaching، ولا تجتمع كلها في معنى النبوة، كما تجتمع في كلمة نبي في اللغة العربية.

إن الأنبياء هم أسوة سلوكية تسهل على الناس التزامهم بالمنهج، والتزام الطريق القويم، ولا يأتون بمنهج جديد. أما الرسل، فهم أنبياء، وهم أسوة سلوكية، جاءوا بمنهج جديد، ورسالة سماوية جديدة. وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا.

أرسل الله سبحانه وتعالى إلى كلّ قوم أو أمة نبيّاً، أو رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده وطاعته، وينذرهم مغبّة مخالفته والكفر به. قال عزّ من قائل مؤكداً هذه الحقيقة: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1].

يؤكد القرآن الكريم أن الله عز وجل لا يرسل رسولا إلا من جنس المرسل إليهم، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [2]. هذه الآية الكريمة تبين القرار والمنطق الإلهي، في أن الله الحكيم الخبير بخلقه، قد قدر ألا يرسل إلى مرسل منهم رسولا إلا من جنسهم، حتى لو كانوا ملائكة. وهذا ينسجم أيضا مع العقل والمنطق الإنساني، في أن الأسوة أو المثل لقوم، يجب أن يكون من جنسهم، ولهم صفاته وقدراته الإنسانية ذاتها، حتى لا يكون لهم حجة على رسولهم قائلين له: نحن لا نقدر أن نتبعك، أو نتمثل أفعالك وأقوالك، لأنك تتميز بقدرات تختلف عن قدراتنا.

---

(1) سورة فاطر، آية 24.

(2) سورة الإسراء، آية 95.

قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ (1).

إن أدنى تفكر وتأمل، يبدي لنا أن هذا منطق بدهي، لا يحتاج إلى شرح أو بيان. إذن لا بد لكل رسول أن يكون من جنس المرسل إليهم، وبذلك يمكنهم أن يتعلموا منه ويقلدوه، ويتخذوا منه أسوة لهم، ويحاولوا أن يتمثلوا سيرته في كل أفعاله وأقواله وأحواله، ذلك أنه من جنسهم، وأنهم من جنسه، يقدرون على كل فعل يقوم به، إذا ما آمنوا به وتعلموا منه، ودربوا أنفسهم على الاقتداء به، والسير على هدي أقواله وأفعاله.

هذا هو المنطق الذي بينه الله العليم الحكيم الخبير، في كتابه القرآن الكريم، وذلك في معرض رده على احتجاج الناس، أن يبعث لهم بشرا رسولا، قال تعالى:

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (2).

من الواضح أن رسالة الأنبياء والرسل، ودعوتهم الجامعة هي الدّين، فهم جميعاً بُعثوا ليبشّروا به ديناً واحداً هو دين الإسلام، دين الخضوع والتذلل، والاستسلام المطلق لأمر الله سبحانه وتعالى، مع تفاوت في درجات التبليغ، واختلاف في منهج التعبّد.

قال تعالى على لسان نوح ﷺ: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (3).

وقال تعالى على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (4).

---

(1) سورة النساء، آية 165.

(2) سورة الإسراء، آية 94.

(3) سورة يونس، آية 72.

(4) سورة البقرة، آية 128.

وقال تعالى على لسان أولاد يعقوب عليه السلام: ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [1].

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [2].

وقال تعالى على لسان حواريي المسيح عيسى عليه السلام: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [3].

وبقدوم سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وبنزول القرآن الكريم، تمت النعمة، واكتمل الدين برسالة السماء إلى الأرض، وهي رسالة دين الإسلام الخالدة، قال تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴿٣﴾ ﴾ [4].

ومع هذا التفاوت في الرسالات والدعوات الإلهية، فإن معالمها الرئيسة، تتركّز في الرسالة الشاملة لهذا الدّين، وهي رسالة محمد ﷺ. فالرسالات جميعاً قبس من أنوار هذا الدين الحنيف، وتشكيلة عقائدية وتشريعية من مادة هذا المنهاج الكبير، سلكت خطوات تمهيدية، ومبادئ طبيعية تحضيرية، بإذن الله تعالى، لإعداد البشرية من أجل حمل رسالة هذا الدّين السماوي الخالد، والإيمان بدعوته الموجهة إلى كافة الناس، والتي تتمثل بما فسره رسول الله ﷺ، حين سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان، فقال: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره" [5].

(1) سورة البقرة، آية 133.
(2) سورة يونس، آية 84.
(3) سورة آل عمران، آية 52.
(4) سورة المائدة، آية 3.
(5) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، حديث رقم 50.

عمل أنبياء الله ورسله(عليهم السلام)، على تمهيد الطريق وتهيئة العقل الإنساني، لتقبّل الرسالة الإلهية الخاتمة، التي حملها محمد ﷺ للبشرية جمعاء، على اختلاف الأجناس، والعروق، والأمكنة، والأزمنة. ولهذا فإن معظم أنبياء الله ورسله قد بشّروا برسول الله ﷺ، وبرسالته الخاتمة لرسالاتهم، والتي تحوي كل ما تحتاجه البشرية كافة، من أجل الوصول إلى سعادتها وكمالها وفوزها، في الدنيا والآخرة.

إن بشرية محمد ﷺ هي من تمام الرسالة السماوية، قال الله تعالى على لسان نبيه المصطفى: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾[1]. ولهذا جاءت بعثته سماوية المصدر، بشرية التبليغ، وخاتمة للنبوة، ذات رسالة إصلاحية شاملة، بزغت من بطحاء أم القرى، لتنسخ جميع الديانات السابقة، ولترسخ دينا عالميا واحدا خالدا، من اعتصم به نجا، ومن استكبر عنه ورفضه، هوى في الدرك الأسفل من جهنم. قال سبحانه وتعالى وقوله الحق:

﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[2].

جاءت بعثته ﷺ لتنقذ البشرية كافة من دياجير الظلام والجهل، اللذين كانا يلفّان الكون، ولتمنح كل إنسان إنسانيته، من خلال تحطيم كل القيود التي كبّلت عقول البشر، ودمّرت كل القيم الأخلاقية، ولتعيد إلى الذاكرة كل ما نسيته البشرية من خير، وهي تعبر مسالك الجهل والجور والظلم، عبر تاريخها الطويل، ولتغرس كل فضيلة، وخير، وسمو خلق، في نفوس البشر جميعا، ولتحيي كل ما اندثر من توحيد الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وعبادته حق عبادته.

جاءت بعثته ﷺ رحمة للعالمين، ونورا يهدي البشرية عامة إلى الصراط المستقيم، لينال المؤمن جنته، ويزجر الكافر إلى جحيمه. هذه البعثة المباركة ما زالت تدعو إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى، والدعوة إلى سبيله بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمشورة، والعدل، والإخاء، والمساواة، ونبذ كل بذور الشر والفساد، وغرس كل القيم الإنسانية

(1) سورة الكهف، آية 110.

(2) سورة آل عمران، آية 85

والأخلاقية، واستئصال العبودية والرق من كافة المجتمعات، وليس كما يدعي الجهال والمارقون، من أنه ﷺ جاء لينشر دين الله سبحانه بالسيف والإرهاب، والعنت والجبروت، أو بالمكائد، والخديعة والتسلط.

حاشى لرسول الله المصطفى ﷺ أن يأتي بمثل هذا الافتراء، إنما هو كما قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

إن هؤلاء الذين يكيلون التهم جزافا وافتراء، ضد رسول الله محمد ﷺ والذين معه، يعلمون أنه الحق، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[2]. ولهذا فإنهم يستكبرون ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[3]. ولا نقول لهم إلا ما قال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[4]. **وقوله تعالى** ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾[5].

---

(1) سورة الفتح، آية 29.

(2) سورة البقرة، آية 146.

(3) سورة آل عمران، آية 75.

(4) سورة الروم، آية 9.

(5) سورة الأعراف، آية 101.

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ [1]. وقوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2].

جاء محمد ﷺ لإنقاذ البشرية جمعاء، والسير بها على دروب الصلاح والمحبة، والأخوة والسواسية، لا فرق بين أبيض وأسود، أو بين عربي وعجمي إلا بالتقوى، يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم. ولو كان هذا الرسول العربي العظيم ﷺ فظّا، غليظ القلب في تعامله مع البشر، لانفضوا من حوله، ويكفيه فخرا، أن خاطبه الله سبحانه بقوله من فوق سبع سموات : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [3].

عن سعيد بن هشام قال: "سألت عائشة فقلت: أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ. فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن". هذا مع ما جبله الله عليه من الحياء والكرم، والشجاعة والصفح والحلم، والتقشف والزهد، وكل خلق جميل.

ثبت في الصحيحين عن أنس ﷺ قال: "خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته. وكان ﷺ أحسن الناس خلقا، ولا مسست خزّا ولا حريرا، ولا شيئا كان ألين من كفّ رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكا ولا عطرا، كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ".

أخرج البيهقي عن خالد بن أبي عمران قال: بينما رسول الله ﷺ يدعو على مضر، إذ جاءه جبريل فأومأ إليه أن اسكت، فقال: "يا محمد، إن الله لم يبعثك سبّابا ولا لعّانا، وإنما بعثك رحمة للعالمين، وليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فهم ظالمون".

---

(1) سورة غافر، آية 50.

(2) سورة الروم، آية 47.

(3) سورة القلم، آية 4.

ولهذا قال ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وقال ﷺ: "اتقوا الله ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة". متفق عليه. وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "الكلمة الطيبة صدقة". متفق عليه.

وليؤكد الله سبحانه سمو خلق هذا النبي العربي، ورحمته بالمؤمنين، قال تعالى:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (1). حيث وصف الله سبحانه نبيه العظيم بالرأفة والرحمة، وهما صفتان من صفات العليّ القدير، لأن من أسمائه تعالى: الرءوف والرحيم.

لقد اعترف العدو والصديق بسيرة محمد رسول الله ﷺ في الحكم كنموذج يحتذى به، كيف لا وهو القائل في قصّة المرأة المخزومية التي سرقت: "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها". متفق عليه.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (2).

لا تزال هذه البعثة المباركة نبراسا، ومثلا أعلى، وقدوة حسنة، يجب أن تقتدي بها جميع القيادات البشرية، خاصة بالريادة النبوية الشريفة، على اعتبار أن الدين الإسلامي هو الرافد الأكبر، والمعين الأزلي، الذي لن ينضب، من أجل تجسيد المبادئ العليا والقيم الروحية، والتحلي بكل معاني الشرف والمطامح النبيلة، التي هيأ لها الرسول ﷺ نفسه، وجسّدها على واقع الحياة الإسلامية. وأصبحت جموع المسلمين قادرة في كل وقت، على تخطّي كل الحواجز والعقبات، التي تقف في سبيل تحقيق مجد الإسلام الخالد، وترسيخ كافة المعاني الإنسانية، وأهدافها السامية بكل قيمها.

أكّد الله سبحانه وتعالى حقيقة عالمية الإسلام، وأنه قد أرسل رسوله ﷺ إلى الناس

---

(1) سورة التوبة، آية 128.

(2) سورة الأحزاب، آية 21.

كافّة دون استثناء. فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (1).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (2).

كان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة، وبعث رسول الله محمد ﷺ إلى الناس كافة، وكانت معجزات الرسل حسية، تصلح لإثبات الرسالات المحدودة في الزمان والمكان والأقوام، ولما أذن الحكيم الخبير بنزول الرسالة الأخيرة، الرسالة العامة، جعل المعجزة في صميم الرسالة، لتبقى المعجزة خالدة بخلود الرسالة.

أما بالنسبة لمفهوم المعجزة، فقد جاء في قاموس محيط المحيط لبطرس البستاني: المعجزة: اسم فاعل من الإعجاز، وهي في الشرع أمر خارق العادة، من ترك أو فعل المقرون بالتحدي مع عدم المعارضة. والهاء للمبالغة. وسميت معجزة، لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، ولا يقدر عليها إلا الله سبحانه. وقال في التعريفات: المعجزة أمر خارق للعادة، داعية إلى الخير والسعادة، مقرونة بدعوى النبوة، قصد بها إظهار صدق رسول الله محمد ﷺ .

كانت معجزة سيدنا موسى هي العصا واليد، وكان عليه السلام شاهدا للتوراة، وكانت معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وكان شاهد الإنجيل، وذهبت المعجزات والشهود، وإن ذهب محمد ﷺ ، إلى ربه راضيا مرضيا، فمعجزته (شاهد القرآن) باقية خالدة أبد الدهر.

لم يَدَّعِ أي من الأنبياء والرسل (عليهم السلام)، أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ولكن الله سبحانه وتعالى حدّد ذلك للنبيّ، فقال عزّ من قائل .

---

(1) سورة سبأ، آية 28.

(2) سورة الأعراف، آية 158.

قال تعالى :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (1).

ومن تشريف الله سبحانه وتعالى وتكريمه، وتنويه بفضل المصطفى(صلوات الله وسلامه عليه)، أنه صرح باسمه: محمد رسول الله، وإذا خاطبه سبحانه وتعالى قال: "يا أيها النبي"(2)، الذي يخبر عن الخالق عز وجل، والمأمون على أسراره، والمبلغ خطابه إلى أحبابه المؤمنين، ولم يقل: يا محمد، كما قال: يا آدم، أو يا موسى، أو يا عيسى.

النبـي الأمـي

هذا أبو الأنبياء وأبو الضيفان سيدنا إبراهيم عليه السلام، يضرع إلى ربه أن يبعث في هذه الأمة نبياً منها، هادياً ومنقذاً، أمام بيت الله العتيق، وعلى تراب مكة الطهور، قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (3). فكان هذا الدعاء المستجاب، بشارة وإشارة إلى بعثة نبي الرحمة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (4).

كانت الجزيرة العربية تنوفة جرداء، إلا في بعض بطاح مكة، وحيث كان بعض الأماكن الأخرى، التي مارس قاطنوها مهنة الرعي وتربية المواشي والإبل، وكانت حياتهم وقتذاك في الطور الأخير من أطوار الجاهلية.. حياة لاهية يغلب عليها الجهل بسطوته وسلطانه، متمثلا في عبادة الأصنام وضياع عقيدة التوحيد، في غياهب التخلف وظلمات التقهقر، والجهل الفكري والانحلال الخلقي. ورغم هذا فقد اشتهروا بالفصاحة

---

(1) سورة الأحزاب، آية 40.

(2) كثيرة هي الآيات التي خاطب بها سبحانه وتعالى نبيه المصطفى.. راجع كتاب الله.

(3) سورة البقرة، آية 129 ،

(4) سورة الجمعة، آية 2.

والبيان والبلاغة، وكان الشعراء يلقون بأشعارهم في سوق عكاظ، وتعلق القصائد الفائزة على صدر الكعبة، وأسموها المعلقات.

لهذا لن نغلو في وصف العرب – قبيل الإسلام – بجهل الكتابة وعدم التمرس بها، لندرة أدواتها المتيسرة لديهم، وتعويلهم على الذاكرة في حفظ آثارهم، ورواية آدابهم.

لا شك أن شمال الجزيرة العربية قد عرف الكتابة والقراءة، وأن مكة بمركزها التجاري الممتاز، شهدت من القارئين الكاتبين قبيل البعثة، أكثر مما شهدت المدينة، وإنا لنستبعد ألا يكون في ذلك الحين بمكة – كما جاء في بعض الأخبار – "إلا بضعة عشر رجلا يقرأون ويكتبون". لأن هذه الأخبار إذا صحت أسانيدها لا تبلغ أن تكون إحصاء دقيقا، أو استقراء شاملا. فما فيها إلا دلالة ظنية غامضة، لا يحسن مع مثلها القطع في هذا الموضوع الخطير.غير أننا لا نملك من الحجج والبراهين العقلية والنقلية، ما نؤكد به كثرة القارئين الكاتبين في تلك الفترة من حياة العرب، إلا أن يصيبنا من الجهالة العمياء، ما يغرينا باتباع المستشرقين، الذين يزعمون أن وصف العرب بالأميين في القرآن الكريم، لا ينافي معرفتهم القراءة والكتابة. فما الأمي عندهم – على حدّ زعم المستشرقين – إلا الذي يجهل الشريعة الإلهية، وما كان محمد ﷺ أميا، إلا لأنه نبي هؤلاء الأميين الوثنيين، الذين لم يصدقوا رسولا أرسله الله، ولا كتابا أنزله الله، فكتبوا كتابا بأيديهم".

وجد المستشرقون في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴿٧٨﴾ ﴾[1]، مسوغا لزعمهم أن رسول الله ﷺ كان كاتبا قارئا، وأن وصفه بالأمية – كوصف العرب بها – لا ينافي معرفته القراءة والكتابة.

قال تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا

(1) سورة البقرة، آية 78.

يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ [1].

إن تفسير هذه الآية يدل دلالة واضحة على أن المقصودين فيها، هم اليهود المنافقون، لأن اليهود هم الذين كانوا يحرفون التوراة، وإذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا، وإذا خلوا قالوا لبعض: كيف تحدثونهم بما فتح الله عليكم؟ إنهم سيحاجونكم عند ربكم.. أو لا يعلم اليهود أن الله يعرف ما يسرون وما يعلنون؟ وأن فيهم أميون لا يقرؤون ولا يكتبون، ولا يعلّمون أن التوراة إلا أماني، أي أكاذيب تلقوها من رؤسائهم، الذين خدعوا الأميين منهم، ومنّوهم بأن الله سيعفو عنهم وسيرحمهم. فمن أين جاء وصف العرب بالأمية في هذه الآيات؟؟

والواقع، إن هذا الربط المضطرب بين الأمي، عندما يوصف به النبي ﷺ، وبين الأميين وصفا للعرب، ليس من المنطق في شيء، لأنه تجزئة لا مصوغ لها في أصل اللغة، ولا وحي السياق للفظ قرآني واحد، ينبغي تفسيره بمعنى واحد لا بمعنيين متباينين. فإما أن يكون الأمي هو الذي يجهل الشريعة الإلهية، أو هو الذي يجهل القراءة والكتابة.

من هنا يكبر خطأ المفسرين الذين أولوا الأميين العرب بجهلة الشريعة الإلهية، على حين أولوا النبي الأمي بالذي لا يعرف القراءة والكتابة.

أما خطأ المستشرقين فمركب مضاعف، لأنهم عوّلوا فيه على رأي ضعيف شطروه شطرين، ثم آمنوا ببعضه وكفروا ببعض، وجاءوا على الأثر برأيهم الصبياني: "فأما العرب – بزعمهم – فهم أميون لجهلهم الشريعة الإلهية، وأما النبي فأمي نسبة إلى هؤلاء الجاهلين، لتعليمه إياهم شريعة الله فهو نبي هؤلاء الجاهلين، أو نبي هؤلاء الأميين".

إن الذي ينقذنا من هذا الهذيان: وضوح النص القرآني، فهو أسمى من أن يؤول، ولفظ الأمي فيه سواء، أكان وصفا للعرب أم للنبي ﷺ، لا يعني إلا الذي يجهل القراءة والكتابة، وهو ما فهمه جمهور المفسرين، وما عليه علماء الأمة إلى يومنا هذا[2].

---

(1) سورة البقرة، آية 75-78.

(2) تفسير الطبري، 1/ 296-297.

وعلى هذا، لا يكون في وصف العرب بالأميين غلو في جهلهم الكتابة، إذ الأمية بهذا المعنى كانت غالبة على أكثرهم، وإنما يكون الغلو يقينا في ادعاء كثرة الكتابة وأدواتها بين العرب، وفي الزعم القائل: إنهم لم يجهلوا الكتابة بل جهلوا شريعة الله، لأن أحدا من الباحثين لم يأت ببرهان يؤيد هذا الرأي العقيم.

إن الفوقية الإلهية، هي التي جعلت الله سبحانه وتعالى يختار أمة أميّة، ليجعل منها آخر وصلة للسماء والأرض. ولو تدبرنا اختيار الله سبحانه وتعالى الرسول محمد ﷺ، وإعداده للرسالة السماوية، لوجدنا أن الله تبارك وتعالى اختاره أميّا لا يقرأ، ولا يكتب، ولم يتثقف، ولكن الذي علمه هو الله جلت قدرته، وأجرى عليه معجزات كلها تنطق بصدق رسالته، أولها: إنه ﷺ لم يشتهر بأنه نبغ في شعر أو نثر، ومن هنا كان حظه ﷺ من البلاغة عاديا دون نبوغ.

إذن، فالأمية شرف لرسول الله ﷺ، لأنها تؤكد أن كل ما جاء به هو من الله سبحانه، لذلك فكل ما ياتي به فإنه معجزة، لأنه من وحي السماء. فلو أن القرآن نزل على أمة متحضرة كالفرس أو الروم، أو على نبي غير أمي، قد قرأ كتب الفلاسفة والعلماء من الشرق والغرب، لقيل: إن القرآن الكريم التقاء حضارات، وهبات عقل، وإصلاحات، ليقود الناس بأنفسهم حركة حياتهم.

ولكن، لا. إن الأمة العربية أمة أميّة، تأكيدا لصلتها بالسماء، وإن ما جاء به محمد ﷺ، لا دخل لبشر، ولا ثقافة، ولا حضارة به، وهو ليس من معطيات البشر، ولكنه من الله تبارك وتعالى، ليصبح محمد ﷺ وهو الرسول الأمي، معلما للبشرية جمعاء، وليكون الدين الإسلامي هو دين العالم كله.

ولو أنه ﷺ كان مشهورا بالشعر أو النثر أو الخطابة، لقالوا إن القرآن عبقرية أدائية، لمواهب كانت موجودة عند رسول الله ﷺ منذ الصغر. ومواهب الناس عادة تظهر قبل سن العشرين أو الثلاثين، إذا كانت الموهبة متأخرة. ولكنها لا تظهر فجأة على الإنسان في سن الأربعين، ولا توجد عبقرية تتأخر أبدا حتى الأربعين، ولكن الناس فوجئوا أن محمدا ﷺ الذي ما خطب، وما كتب، وما قال شعرا قطّ، يأتي بقرآن يعجز عنه أشهر

البلغاء، وأكثرهم موهبة في فن الكلام.

ولسقم عقول الكفار والمشركين وبلاهتهم، وسخف تفكيرهم، واعتقادهم أن القرآن الكريم من عند رسول الله محمد ﷺ، فقد جاءوا وطلبوا منه أن يغيّر القرآن أو يبدّله، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [1].

ولو كان القرآن من عند محمد ﷺ ربما بدّله، حتى يؤمن من كفر، ولكنه تبارك وتعالى يعلّم رسوله ليردّ عليهم بالحجة البالغة﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [2].

لقد حذا المستشرقون حذو الكفار وقالوا إن القرآن من عند محمد، وكان على رأس هؤلاء المغرضين: المستشرق (يوليوس فلهاوزون)، في كتابه تاريخ الدولة العربية، صفحة 8، والدكتور (بروز) أستاذ الفقه الإنجيلي في جامعة بيرل وبيرمنجهام، والدكتور (د. لوبون) في كتابه حضارة العرب، صفحة (111).

ونقول لهؤلاء وأمثالهم: "إن إسلوب القرآن يخالف مخالفة تامة أسلوب كلام محمد، فلو رجعنا إلى كتب الأحاديث التي جمعت أقواله ﷺ، وقارناها بالقرآن، لرأينا الفرق الواضح، والتغاير الظاهر في كل شيء، في أسلوب التعبير، وفي الموضوعات. فحديث محمد ﷺ تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهيم والتعليم، والخطابة في صورها ومعناها المألوف لدى العرب كافة، بخلاف أسلوب القرآن الذي لا يعرف له شبيه في أساليب العرب.

هل يمكن لرسول الله ﷺ، الذي لم يقرأ ولم يكتب، أن تكون له ثلاثة أساليب تختلف بعضها عن بعض تماما؟ وهي: أسلوب القرآن الكريم، وأسلوب الحديث القدسي، وأسلوب الحديث النبوي. لا توجد عبقرية في الدنيا من يوم أن خلقت إلى

---

(1) سورة يونس، آية 15.

(2) سورة يونس، آية 16.

اليوم، لها ثلاثة أساليب لكل منها طابع مميز، لا يتشابه مع الآخر.

ونقول أيضا: يستشعر القارئ في فطرته عند قراءة كتب الأحاديث شخصية بشرية وذاتية، تعتريها الخشية والمهابة والضعف أمام الله سبحانه، بخلاف القرآن الذي يتراءى للقارئ من خلال آياته ذاتية جبارة عادلة حكيمة خالقة مصورة، رحيمة لا تضعف حتى في مواطن الرحمة، فلو كان القرآن من كلام محمد ﷺ، لكان أسلوبه وأسلوب الأحاديث النبوية سواء.

إذن، فالفروق الأساسية الهائلة في الأساليب، واختلاف القرآن الكريم والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية، أكبر دليل على أن القرآن والأحاديث القدسية ليست من عند رسول الله ﷺ، لأن الشخصية الأسلوبية لأي إنسان، هي شخصية مميزة، ولا يمكن أن ينفعل أحد بأحداث الحياة، فيكتب في كل مرة بأسلوب مختلف تماما عن الأسلوب الأخر.

إن نظرة القرآن الكاملة الشاملة للكون والحياة والفكر، والمعاملات والحروب والزواج والعبادات والاقتصاد، لو كانت من صنع محمد ﷺ، لما كان محمد بشرا. إن هذه التنظيمات وهذه التشريعات والآراء، تعجز عن القيام بها لجان كثيرة لها ثقافات عالمية، وتخصص عميق، مهما أتيح لها من المراجع والدراسات والوقت. فهل يتسنى لرجل أمي أن يأتي بهذه النظرة الشاملة الكاملة في الكون والحياة والفكر؟

في القرآن الكريم أخبار الأولين بما يغاير أخبارهم في الكتب المتداولة أيام محمد ﷺ، وفيه إعجاز علمي في الكون والطب والرياضيات والحياة، فهل يعقل أن هذا الأمي قد وضعها؟ وكيف عرف أن الأرض كروية بشكل بيضاوي؟ وكيف عرف الأمي نظرية الرتق والفتق؟ إلى آخر ما هنالك من معجزات.

بيد أن طائفة من العرب افترضوا أن يكون أحد من البشر قد علم النبي ﷺ القرآن، فالتمسوا مصدر الوحي خارج الذات المحمدية، ولم يجرؤوا وهم الأميون على دعوى تعلمه من أحد منهم، فقد أدركوا بالفطرة أن الجاهل لا يعلم الناس شيئا، وإذا هم يهتدون إلى معلم محمدﷺ.

كان ذلك المعلم المزعوم غلاما روميا أعجميا نصرانيا، يعمل في مكة قينا (حدادا) يصنع السيوف، وكان على عاميته ملما بالقراءة والكتابة، ولو لم يعلم الكتاب إلا أماني. وربما بدا للنبي ﷺ أحيانا أن يقف عليه يشاهد صنعته، فما أنسبها فرصة ليقول العرب الأميون: "هذا هو معلمه... إنما يعلمه بشر". وما أنسبها فرصة ليرد القرآن على أحلامهم الطائشة، هذا الرد البديع المتوقع، والمؤثر المقنع، قال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝﴾ (1).

لقد ذهب المستشرقون إلى أبعد من هذا، فقال (نولدكه): "إن سبب الوحي النازل على محمد ﷺ هو ما كان ينتابه من داء الصرع". وعزا الوحي إلى نوبات هستيرية كانت تأتيه بين حين وحين(2).

لو كان محمد ﷺ مريضا – كما يزعم هذا المستشرق – بالصرع، لنقل لنا معاصروه وصحابته أعراض ذلك المرض، أو تمسك به كفار قريش واليهود خاصة، كسلاح ذي حدين ضد رسول الله ﷺ، والقرآن الكريم لا يمكن أن يأتي به مصروع من تلقاء نفسه، كما لا يمكن أن ينقله دون تحوير أو تغيير، وهل يمكن لمصروع أن يأتي بمثل هذا؟ وهل يمكن لله سبحانه وتعالى أن يرسل رسولا مصروعا، برسالة عالمية خاتمة؟

ولما أسقط في أيدي كفار قريش، ووجدوا أن لا قبل لهم بتعيين معلم محمد ﷺ، آثروا أن يرفعوا دعواهم ضد مجهول، وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا. وبهذا رسم العرب الأميون المنهج لمن بعدهم من ملاحدة المثقفين، لينطلقوا من دعواهم هذا، إلى محاولة تعيين الذي أملى على محمد ﷺ حقائق الدين وفلسفة التاريخ، فرأى قوم أنه راهب اسمه (سرجيوس أو بحيرى) من أتباع آريوس، لقيه النبي ﷺ في طفولته في سوق بصرى بالشام، خلال رحلته مع عمه أبي طالب. ورأى آخرون أنه ورقة ابن نوفل، ابن عم خديجة، وهو من العلماء بالنصرانية، لقيه ﷺ في مكة على إثر نزول

(1) سورة النحل، آية 103.

(2) الإعجاز الطبي في القرآن، د. السيد الجميلي، صفحة 317، عن رد بعض الشبهات أثارها المستشرقون حول القرآن الكريم، الدكتور أبو الوفا التفتازاني، 1971م.

الوحي عليه أول مرة.

إن كل الذي صح في أمر هذين الرجلين، أن الرسول لقي الراهب بحيرى وهو ابن تسع سنين، وقيل ابن اثنتي عشرة سنة، مرة واحدة. وكان معه عمه أبو طالب، وركب قافلة تجارية، وقال هذا الراهب لعمه: سيكون لابن أخيك هذا شأن عظيم. فهل يعقل أن يتعلم الرسول ﷺ حقائق الدين وبلاغة المنطق، وهو طفل غض، في جلسة لم تتعدّ ساعتين، أو يوما أو يومين من الزمن؟

أما بالنسبة لورقة بن نوفل، فقد لقيه ﷺ عقب إخباره خديجة بما رآه في غار حراء، فقد انطلقت به خديجة إلى ورقة، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له: يا بن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل على الرسل جميعاً. ولم يلبث ورقة أن توفي.

في القرآن الكريم آيات لا توافق عقيدة المسيحية، فكيف يكتبها بحيرى أو ورقة؟ كنفي صلب السيد المسيح ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾[1]،

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾[2]،﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[3].

احتار الكفار ماذا يقولون وماذا يتهمون؟ لقد أسقط في أيديهم، ولم يجدوا ثغرة واحدة من منطق ينفذون منها، فقالوا: ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾[4]، ولهذا نقول بكل بساطة: إن المسحور ليست له إرادة مع الساحر، بحيث يستطيع أن يدفع السحر عن نفسه،

---

(1) سورة النساء، آية 157.

(2) سورة النساء، آية 171.

(3) سورة المائدة، آية 72.

(4) سورة ص، آية 4.

وأن الساحر يسحر من أمامه، رغما عن إرادتهم، فإذا كان محمد ﷺ ساحرا، فلماذا لم يسحر هؤلاء الكفار المعاندين أنفسهم، حتى يؤمنوا به، وبأي شيء رد هؤلاء السحر عن أنفسهم؟ ولو كان ساحرا حقيقيا، لأجبرهم بسحره أن يتبعوه.

وقالوا: هذا مجنون، فالجنون عمل بغير رتابة، بمعنى أنك لا تستطيع أن تتنبأ بما يفعله المجنون في اللحظة القادمة، فقد يجلس ويتحدث معك، وبعد دقيقة واحدة يضربك، وتجده يبكي وبعد دقيقة واحدة تجده يضحك، أي أنه يتصرف بلا منطق وبلا سبب، ورد الله عليهم بقوله: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[1]. فهل المجنون على خلق عظيم؟

وقالوا: شاعر وكاهن، فرد الله عليهم: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

لقد تحير العرب، في الربط بين الذات الملقية، وبين الذات المتلقية، فتخبطوا تخبط شهود الزور، وتبلبلت أذهانهم، وتضاربت آراؤهم، ولم يطمئنوا إلى تفسير يرضي عقولهم السقيمة، وصور الله حيرتهم هذه الصورة المضحكة الساخرة، قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[4].

فردوا مصدر القرآن الكريم إلى رؤى النائم، أو شطحات المجنون، وإلى افتراءات

---

(1) سورة القلم، آية 1-4.

(2) سورة الحاقة، آية 40-43.

(3) سورة يس، آية 69.

(4) سورة الأنبياءآية 5 .

المختلق، أو تخرصات الكذوب، وإلى أخيلة الشاعر، أو سبحات الأديب، وفي توالي حرف الإضراب (بل) ثلاث مرات، تهكم لاذع باضطرابهم وتضاربهم، ألا ساء ما يحكمون.

أما أخيلة الشاعر أو سبحات الأديب، فقد نسبها بعض العرب إلى الرسول الأمين، حين راع القرآن خيالهم بصوره الحية، ومشاهده الشاخصة، وألفاظه الموحية، وفواصله الشافية، وألحانه العذاب، فقالوا: شاعر نتربص به ريب المنون. ولا شك أن الفصحاء منهم عرفوا أن ليس في القرآن شيء من الشعر، وأن أسلوبه يعلو ولا يعلى عليه،".

ولهذا قال الوليد بن المغيرة، بعد أن سمع رسول الله ﷺ يقرأ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (1). قال: " والله ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله: رجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.. إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمغدق، وإن أسفله لمثمر، وما هو بقول بشر ".

ولما أعيتهم التهم والحيل، وأغلقت في وجوههم كل السبل، قالوا: نستطيع أن نأتي بمثل هذا القرآن، فرد تبارك وتعالى عليهم متحديا: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾(2)

وحينما فشلوا بإتيان مثله ضاعف سبحانه تحديهم لهم من الآتيان بمثله، إلى التحدي بعشر سور مثله، ولو كانت مفتريات، لا أصل لها ولا سند.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن

---

(1) سورة يونس، آية 36-37.

(2)سورة الطور،آية 33-34.

﴿ دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1]

كون شبيهة للقرآن الكريم في البلاغة وحسن النظم.

وإمعانا في التهكم عليهم، وهم البلغاء والفصحاء، قال تعالى:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝ ﴾[2].

لقد تحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بمثل القرآن أولا، ثم طالبهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن، ولما أبرزوا صفحة عجزهم، تدرج التحدي، فطلب منهم أن يأتوا بسورة[3] واحدة من مثله، ولكن هيهات، بعدا لهم وسحقا.

حتى إذا عجزوا عن معارضة سورة واحدة من سوره، جلجل صوته جلّ وعلا في الآفاق، وتحدى أمم العالم قائلا في ثقة ويقين: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝ ﴾[4].

تحدّ سافر، حيث قدم الإنس على الجن، مع أن الجن أقوى من الإنس، لأنه قد تميز الإنسان بالعقل والفصاحة على الجن، وهو تحد من قبيل الإعجاز البياني اللغوي. وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝ ﴾[5].

إن إعجاز القرآن الكريم، يتمثل في قوة أسلوبه ورصانة عباراته، وإيحاء ألفاظه،

(1) سورة هود، آية 13.

(2) سورة البقرة، آية 23-24.

(3) السورة طائفة من القرآن، أقلها ثلاث آيات.

(4) سورة الإسراء، آية 88.

(5) سورة النساء، آية 82.

وجزالة كلماته، ووضع الكلمة في الموضع اللائق بها، وهو أسلوب سهل ممتنع.

أما فصاحة القرآن، فتنتهي إلى حسن نظمه، وتنسيقه ورونقه، وهذا ما رآه الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني. وكلنا يدرك روعة النظم، وجمال التعبير، ودقة الإيحاء، واتساع الفكرة، وسرد القصص الرائع، ورونق العبارة وتآلف المعاني والكلمات، وما لهذا التآلف من جرس وإيقاع في النفس، كذلك وضع الفواصل والكلم، التي تختتم بها الآيات، وما تنطوي عليه من روعة وجلال، مثلها الربط بين الجمل من وصل وترتيب، ودلالاتها وإيحائها.

لقد فجر الإسلام في الإنسان العربي ينابيع الإنسانية، من صفاء الإيمان، ونقاء الروح، وسمو الخلق، ونور الحق واليقين، مما جعل ذلك البدوي الأشعث الأغبر، يقف شامخا أمام هرقل الروم وكسرى الفرس، حاملا قرآنه في صدره وقلبه، غير مبهور بحضارة تلك الإمبراطوريات الزائفة، ولا يزال هذا القرآن معجزة، تتلوها عشرات المعجزات لمن تدبر وفكر، وستظل تتوالى حتى يرث الله سبحانه الأرض وما عليها.

التوراة تبشر بمجيء رسول الله محمد ﷺ

كان اليهود ينتظرون بعثة نبيّ يبعثه الله منقذاً، وهادياً للبشرية، يعرفونه في كتبهم وتباشير مستقبلهم، وكانوا يصرّحون بذلك وينتظرون بعثته، لينتصروا به على العرب من الأوس والخزرج. وقد شكل القرآن هذه الحقيقة، وذكّر اليهود بها فخاطبهم بقوله:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[1].

روى العياشي بإسناده رفعه إلى أبي بصير عن الإمام أبي عبد الله الحسين بن علي قال: "كانت اليهود تجد في كتبها أن مهاجر محمد رسول الله ﷺ ما بين عَير وأحد (جبلان بالمدينة)، فخرجوا يطلبون الموضع فمرّوا بجبل يُقال له (حِداد) فقالوا: "حِداد

(1) سورة البقرة، الآية: 89.

وأُحُد سواء". فتفرقوا عنده، فنـزل بعضهم بتيماء، وبعضهم بِفَدَك، وآخرون بخيبر، فاشتاق الذين بتيماء إلى بعض إخوانهم، فمرّ بهم أعرابي من قيس، فتكارَوا منه، وقال لهم: "أمرّ بكم ما بين عَيْر وأُحُد"، فقالوا له: "إذا مررتَ بهما، فآذِنّا بهما". فلما توسّط أرض المدينة قال: "ذاك عَيْر وهذا أُحُد". فنزلوا عن ظهر أبله وقالوا له: "قد أصبنا بغيتنا، فلا حاجة بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شئت". وكتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك وخيبر: "إنّا قد أصبنا الموضع، فهلمّوا إلينا". فكتبوا إليهم: "إنّا قد استقرّت بنا الدّار، واتخذنا بها الأموال، وما أقربنا منكم، فإن كان ذلك، فما أسرعنا إليكم"[1].

اتّخذ اليهود بأرض المدينة أموالا ' فلما كثرت أموالهم، بلغ ذلك (تُبَّع) ملك اليمن فغزاهم، فتحصّنوا منه فحاصرهم، فبينا (تبّع) على ذلك في قتالهم، إذ جاءه حبران من أحبار اليهود، وكانا عالِمَيْنِ راسخَيْنِ في العلم، حين سمعا من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: "أيها الملك، لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة". فقال لهما: "ولم ذلك؟" فقالا: "هي مهاجر نبيّ، يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره". فتناهى عن ذلك.

ويُروى أن (تبّع) قال للحبرين: "فإني مخلف فيكم من أسرتي، من إذا كان ذلك ساعده ونصره". فخلّف حيّين تراهم الأوس والخزرج. فلما كثروا فيها كانوا يتناولون أموال اليهود فكانت اليهود تقول لهم: "أما لو بعث محمد لنخرجكم من ديارنا وأموالنا". فلما بعث الله محمداً ﷺ آمنت به الأنصار، وكفرت به اليهود، وهو قوله تعالى: { ولما جاءهم كتاب ......} الآية.

لقد حدثت أحداث ووقائع تاريخية مشهورة في التاريخ اليهودي من قبل مجيء محمد ﷺ، دلّت على ذات المعنى، الذي أشارت إليه الآية الكريمة من بعد البعثة. فقد ورد عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قوله: "كان اليهود يستفتحون – أي يستنصرون– على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، ولم يكن من بني إسرائيل كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء

---

(1) إعلام الورى، ص18.

بن معرور: " يا معشر يهود، اتّقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك، وتصفونه، وتذكرون أنه مبعوث". فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: " ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنّا نذكر لكم". فأنزل الله هذه الآية.

وجاء في السيرة النبوية لابن هشام[1]: " وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه قالوا: " إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه، لما كنا نسمع من رجال يهود... كنا أهل شرك، أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: " إنه تقارب زمان نبي، يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم". فكنا كثيراً نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ، أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعّدون به، فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت الآية الكريمة، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾[2].

وجاء في السيرة[3]: " وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد، أخي بني عبد الأشهل، عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان سلمة من أصحاب بدر، قال: "كان لنا جار من يهود من بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيهم سنّاً، عليّ بردة لي مضّطجع فيها بفناء أهلي. فذكر القيامة والبعث والحساب، والميزان والجنة والنار، قال: فقال ذلك لقوم أهل شرك وأصحاب أوثان، لايرون أن بعثنا كائن بعد الموت، فقالوا له: " ويحك يا فلان، أو ترى هذا كائناً، إن الناس يبعثون بعد موتهم، إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم". قال: " نعم، والذي يحلف اليهود به، ويودّ أن له بحظّه من تلك النار أعظم تنور في الدار، يحمونه ثم يدفعونه إياه، فيطيّنونه عليه، بأن ينجو

(1) السيرة النبوية لابن هشام، مكتبة الرياض الحديثة، ضبط طه عبد الرؤوف سعد، ج1، ص 195.
(2) سورة المائدة، آية: 15.
(3) السيرة النبوية لابن هشام ج1/ 196.

من تلك النار غداً". فقالوا له: " ويحك يافلان، فما آية ذلك؟ " قال: "نبي مبعوث من نحو هذه البلاد – وأشار بيده إلى مكة واليمن –". فقالوا: " ومتى نراه؟ " قال: فنظر إليّ – وأنا من أحدثهم سنّاً – فقال: " إن يستنفد هذا الغلام عمره، يدركه". فقال سلمة: " فوالله ما ذهب الليل والنهار، حتى بعث الله محمداً ﷺ، وهو حيّ بين أظهرنا، فآمنّا به، وكفروا به بغياً وحسداً". قال: فقلنا له: " ويحك يا فلان، ألست الذي قلت فيه ما قلت؟ " قال: " بلى، ولكن ليس به".

وأضاف ابن هشام في السيرة [1]: "كان رجلاً من يهود من أهل الشام، يقال له ابن الهيبان، قدم إلينا قبيل الإسلام بسنين، فحلّ بين أظهرنا، فأقام عندنا، فكنّا إذا قحط عندنا المطر قلنا له: " اخرج يا ابن الهيبان، فاستسق لنا". فيقول: " لا والله، حتى تقدّموا بين يدي مخرجكم صدقة". فنقول له: "كم؟ " فيقول: " صاعاً من تمر، أو مدّين من شعير". قال: " فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرّتنا، فيستسقي الله لنا، فوالله ما يبرح مجلسه حتى تمرّ السحابة فنُسقى. قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث". قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميّت قال: " يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير، إلى أرض البؤس والجوع؟ ". قال: قلنا: " إنك أعلم". قال: " فإني إنما قدمت إلى هذه البلاد أتوكد خروج نبي قد أظلّ زمانه، وهذه البلدة مهاجره، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلّكم زمانه، فلا تسبقن إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري، والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه".

فلما بعث الله رسوله ﷺ، وحاصر بني قريظة، قال هؤلاء الفتية – وكانوا شباباً أحداثاً –: " يا بني قريظة، والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان". قالوا: " ليس به". قالوا: " بلى، والله، إنه لهو بصفته، فنزلوا، وأسلموا".

إن البشارات التي جاءت في التوراة والإنجيل، بشأن الرسول ﷺ، قد أكّد القرآن المجيد على وجودها في هذين الكتابين، كما أكّد على وجود منتظرين للرسول الأكرم من

(1) المرجع السابق، ج1/ 196-197.

اليهود والنصارى في المدينة المنورة[1]. قال سبحانه وتعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[2].

لكن يد التحريف التي امتدّت إلى الكتاب المقدس، طمست الكثير من معالمه وحقائقه، خاصة ما يتعلق منها بخاتم الأنبياء والمرسلين، والتي بشّرت به الكتب المقدسة. وهذا مما يجعل مهمة الكشف عن البشارات في هذه الكتب، يكتنفها الكثير من المصاعب. ولكن اتّباع المنهج التحليلي للنصّ، وإرجاعه إلى أصوله اللغوية، ونفي ما يتعلّق به من إضافات وتشويهات متعمّدة، وبحثه في إطار سياقه ومحتواه المعرفي ودلالاته العامة، يكفي لإماطة اللثام عن الحقائق المتضمنة فيه أو المستترة في بنيانه. وهذا ما سوف نعتمده في بحثنا هذا، كشفاً للحقيقة التي طالما حاول اليهود والنصارى طمسها، ولكن دون جدوى.

في الواقع، فإنه من غير المعقول أن يكون أنبياء بني اسرائيل،ابتداءً من موسى عليه السلام، وانتهاءً بآخر نبي أرسل إليهم خاصة، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام، أن يكونوا قد أغفلوا ذكر رسول الله محمد ﷺ،وإعلان البشارة به،أثناءحديثهم لتلاميذهم وأتباعهم، عما يجري في المستقبل من حوادث كبيرها وصغيرها. ورغم وجود هذه البشارات،فقد حاول بعض من كتب عن البشارات الواردة بحقّ نبي الإسلام، في أسفار الكتاب المقدس

---

(1) العلامة الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 5، صفحة 129-130.

(2) سورة الأعراف، الآيتان: 157- 158.

بعهديه القديم والجديد، حاولوا جاهدين طمس جميع ما ورد في هذه الأسفار من بشارات [1].

أحسّ سيدنا إبراهيم عليه السلام بالحزن والأسى، بعد أن تقدمت به السنّ، ولم يرزق ولداً يرثه، ويخلفه في أهله، ويتابع طريقه في الدعوة إلى الله، ولكن الله عزّ وجلّ أوحى إليه مطمْئِناً، وواعداً إياه، بأنه سيكرمه ويجزيه خير الجزاء وأفضله، على صبره ومعاناته الطويلة في سبيله، فقال له: " لا تخف يا أبرام، أنا تُرْس لك، أجرك كثير جداً". فقال أبرام: " أيها السيد الرب ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً؟ ومالك بيتي هو اليعازر الدمشقي". وقال أبرام أيضا: " إنك لم تعطني نسلاً، وهو ذا ابن بيتي وارث لي". فإذا كلام الرب إليه قائلا: " لا يرثك هذا، بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك". ثم أخرجه إلى خارج وقال: " انظر إلى السماء، وعُدّ النجوم إن استطعت أن تعدّها". وقال له: " هكذا يكون نسلك " [2].

لقد تحقق هذا الوعد الإلهي لإبراهيم عليه السلام، بعد عودته من مصر إلى فلسطين، حيث قامت زوجته سارة بتزويجه من جاريتها هاجر[3] على أمل أن يرزق منها ذرية تقرّ بها عيناه. وشاء الله أن تحمل هاجر، وتضع له ابنه البكر إسماعيل. جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين:

" وأما ساراي امرأة أبرام فلم تلد له، وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر. فقالت ساراي لأبرام: " هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة، ادخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين". فسمع أبرام لقول ساراي، فأخذت ساراي امرأة أبرام هاجرَ المصرية جاريتها، من بعد عشر سنين، لإقامة أبرام في أرض كنعان، وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له. فدخل على هاجر فحبلت. ولما رأت أنها حبلت، صغرتْ مولاتها في عينيها. فقالت

---

(1) للمزيد من الفائدة،راجع كتاب محمد في التوراة والإنجيل، عبد الأحد داود، ترجمة حمدي رضا، المطابع التعاونية، عمان 1997.وكتاب بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار، تامر مير مصطفى، التوحيد للنشر، طهران 1994.

(2) سفر التكوين، الإصحاح 15: الآية 1- 6.

(3) هاجر أم إسماعيل هي أم العرب من قرية كانت أمام الفرما في صعيد مصر، وأم إبراهيم مارية من حفن من كورة أنصنا في صعيد مصر.

ساراي لأبرام: "ظلمي عليك، أنا دفعت جاريتي إلى حضنك، فلما رأت أنها حبلت صغرتُ في عينيها. يقضي الرب بيني وبينك". فقال أبرام لساراي: "هو ذا جاريتك في يدك، افعلي بها ما يحسن في عينيك". فأذلّتها ساراي، فهربت من وجهها. فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البريّة، على العين التي في طريق شور. وقال: "يا هاجر جارية ساراي، من أين أتيت، وإلى أين تذهبين؟" فقالت: "أنا هاربة من وجه جاريتي ساراي". فقال لها ملاك الرب: "ارجعي إلى مولاتك، واخضعي تحت يديها".

وقال لها ملاك الرب: "تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة". وقال لها ملاك الرب: "ها أنت حبلى فتلدين ابناً، وتدعين اسمه إسماعيل، لأن الرب سمع لمذلّتك، وإنه يكون (إنساناً وحشيّا)، يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن[1].

إن الذي نريد إثباته هنا، رغم التناقضات التي تضمنها هذا النص التوراتي، هو كون إسماعيل الابن الأول، والبكر لسيدنا إبراهيم، والذي رزقه الله إياه من زوجته الثانية هاجر، وذلك بعد أن وعده بأن يكثّر نسله، ويجعل منه أمة عظيمة، ويبارك فيه جميع قبائل الأرض. ولهذا تحقّقت بركة إسماعيل عليه السلام هذه، بأن جعل الله تعالى من نسله خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو حفيده محمد ﷺ.

ولإتمام الفائدة نشير هنا إلى أن الكثير من علماء أهل الكتاب العارفين باللغة العبرية، ذكروا أن اسم (محمد) قد ورد في سياق بركة إسماعيل عليه السلام بحساب الجُمَل. ومن هؤلاء العلماء نذكر صاحب كتاب "أنيس الأعلام في نصرة الإسلام" المرحوم محمد صادق الملقب بفخر الإسلام، والذي اعتنق الإسلام بعد أن كان قسّيساً مسيحياً، من الفرقة النسطورية، في مدينة أرومية في شمال غرب إيران، والذي توفي سنة 1330هـ. وكان قد ذكر في كتابه المذكور، حول ورود اسم رسول الله محمد ﷺ، في سياق بركة إسماعيل عليه السلام، بحساب الجمل ما ملخصه: إن مباركة الله تعالى لإسماعيل عليه السلام، الواردة في الفقرة (20)، من الفصل السابع عشر من سفر التكوين، قد تضمنت اسم

---

(1) سفر التكوين، الإصحاح 16،آية: 1- 12.

رسول الله محمد ﷺ، حفيد إسماعيل عليه السلام. ثم أورد النصّ العبري لهذه المباركة وهو: "وليشْمعيل شمعتيخا هنّي بريخْتي أتود وهفرتي، أتو بماد ماد، شنَيْم عسر أسارنسي إم يوليد. وأني تيتو لغوي غدول". والمعنى بالعربية هو: "لقد سمعت دعاءك بخصوص إسماعيل، ها أنا أباركه، وأثمره، وأكثّره كثيراً جداً (بماد ماد). اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمةً كبيرة (لغوي غدول)".

وقال المؤلف: "لقد ورد اسم رسول الله ﷺ، في موضعين من هذا النص التوراتي، حيث يمكن استخراجهِ عن طريق حساب الجُمَل الشائع عند علماء اليهود. ففي المرة الأولى جاء ذكر اسم رسول الله ﷺ بلفظ: "بماد ماد". والتي تعني كثيراً جداً، وفي حساب الجمل، فإن كلمة (بماد ماد) تساوي العدد (92)، وذلك كما يلي:

(ب = 2، م = 40، أ = 1، د = 4، م = 40، أ =1، د =4)، فيكون المجموع (92).

وكذلك فإن اسم (محمد) يساوي بحساب الجمل العدد (92) كما يلي:

(م =40، ح = 8، م = 40، د = 4)، فيكون المجموع (92) [1].

وإذا احتجّ بعضهم بأن حرف (الباء) في كلمة (بماد ماد) هو حرف جر، وليس من أصل الكلمة، ولذا فإن حساب كلمة (ماد ماد)، هو (90)، وهذا مخالف لحساب حروف (محمد) الذي هو (92)، فإننا نجيب: بأنه معروف وشائع عند أدباء اليهود، أنه إذا اجتمع في أول الكلمة باءان، أحدهما ليست من أصل الكلمة، والثانية من أصلها، فإن الباء الأولى التي ليست من أصل الكلمة تحذف، ويُبقى على الباء التي هي من الأصل. وهذا أمر شائع عندهم، وكل إنسان لديه اطلاع في الأدب اليهودي، لا بدّ أن يلاحظ أمثلة كثيرة من هذا القبيل في كتبهم [2].

وقد أشار إلى هذا المعنى غير واحد من علماء اليهود، مؤكدين على أن اسم رسول الله محمد ﷺ، قد ورد مرتين في النص التوراني، الخاص بمباركة الله تعالى لإسماعيل

(1) راجع كتاب التوراة السامرية للكاهن السامري أبو الحسن إسحق الصوري صفحة 406-407.

(2) محمد صادق فخرالإسلام، أنيس الإعلام في نصرة الإسلام، ج5، ص69-70، ايران،طهران، الناشر مرتضوي 1364هـ.

عليه السلام، وقالوا إن عبارة (كثير جداً) العربية، جاءت ترجمة لكلمة (بماد ماد) في النصّ العبري لهذه البشارة، وكذلك الأمر بالنسبة لعبارة (أمة كبيرة)، التي جاءت ترجمة للعبارة العبرية في النص (لغوي غدول).

فهذا هو العالم[1] اليهودي شموئيل بن يهوذا بن أيوب [2]، قد أشار في كتابه "بذل المجهود في إفحام اليهود" تحت عنوان الإشارة إلى اسمه ﷺ ما نصّه: "قال الله تعالى في الإصحاح الثالث عشر من السفر الأول من التوراة، مخاطباً إبراهيم الخليل[3] عليه السلام: "وفي إسماعيل استجبت منك، هو ذا باركته، وأثمّره، وأكثّره جداً جداً"[4](بماد ماد)". فهذه الكلمة (بماد ماد)، إذا عددنا حساب حروفها بالجمل، وجدناها اثنين وتسعين، وذلك عند حساب حروف محمد ﷺ، فإنه أيضاً اثنان وتسعون، وإنما جعل ذلك في هذا الوضع ملغزاً، لأنه لو صرّح به لبدّلته اليهود، وأسقطته من التوراة، كما عملوا في غير ذلك[5].

أكد الدكتور محمد حجازي السقا، أن الله تعالى قد صرّح باسم رسوله محمد ﷺ، من قبل أن تغيّر التوراة. واليهود هم الذين غيّروا الاسم الصريح بالرمز في مدينة بابل، ليعرفوه هم أنفسهم إذا جاء، ويسهل عليهم جحد نبوّته، إذا جاءهم بما لا تهوى أنفسهم[6].

أما الموضع الثاني في هذا النصّ، الذي يمكن استخراج اسم محمد ﷺ منه، فهو عبارة

---

(1) العالم هو من عقل عن الله سبحانه، وعمل بطاعته، واجتنب سخطه.

(2) شموئيل بن يهوذا بن أيوب الذي سمي اسمه بعد اعتناقه الإسلام السموأل بن يحيى، ولد في مدينة فاس بالمغرب، وتوفي بالمراغة من اعمال اذربيجان سنة 570هـ.

(3) أصل الخلة: الاستصفاء. وسمي ابراهيم خليل الله لأنه يوالي في الله ويعادي في الله، وخلة الله له: نصره، وجعله إماماً لمن بعده. والخليل اصله الفقير المحتاج المنقطع، مأخوذ من الخلة وهي الحاجة. روي عن النبي(ص- إنه قال لجبريل: "يا جبريل، لم اتخذ الله ابراهيم خليلا؟" قال: "لإطعامه الطعام".

(4) التوراة السامرية، الكاهن ابو الحسن إسحق الصوري، القاهرة، دار الأنصار، ط1، 1978.

(5) تامر مير مصطفى، بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار، صفحة 56-57.

(6) الدكتور محمد حجازي السقا، البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، دار البيان العربي، مصر، 1985، ج1، صفحة 132-133.

(لغوي غدول)، التي تعني (أمة عظيمة)، حيث أن اللام بحساب الجمل =30، والغين = 3 (وهي في موقع حرف الجيم، لأنه لا يوجد حرف (ج) في اللغة العبرية)، والواو= 6، والياء = 10، والغين الثانية = 3، والدال = 4، والواو= 6، واللام = 30 فيكون المجموع (92)، وهو عدد حساب حروف *محمد* ﷺ.

ورغم هذا، فإن كتبة التوراة ومترجميه إلى اللغات الأخرى، لم يعجبهم كون إسماعيل قد بورك فيه من الله تعالى، وأنه أصبح وارثاً لأبيه إبراهيم عليه السلام. ولذلك عمدوا إلى الحطّ من مقامه الشريف، حسداً من عند أنفسهم، وكراهية وظلماً منهم له ولذريّته من بعده، فقاموا بترجمة العبارة العبرية(بيريا آدام)، التي جاءت في وصفه في النصّ العبري إلى: (Unane Sauvage) بالفرنسية، والتي تعني (حماراً وحشياً).

ومما يدعو إلى التعجب والاستغراب هو: كيف جوّزوا لأنفسهم ترجمة كلمة (آدام) العبرية إلى كلمة (حمار) بالفرنسية؟ والصحيح أن كلمة (آدام) في العبرية تعني إنساناً وليس حماراً. كما جاءت ترجمتها العربية في نسخة الكتاب المقدس الصادرة عن المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة1960(رجلاً وحشيّاً). وكذلك في الطبعة الصادرة عن دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط عام 1987م، نجد ترجمتها إلى العربية (إنساناً وحشياً)[1].

وبما أن كلمة (بيريا) أو (باره)، تأتي بمعنى مثمر باللغة العبرية، و(Fertile) بالفرنسية، فإن الترجمة الصحيحة لهذه العبارة هي (إنسان مثمر)، وهذا ما يناسب المقام الرفيع لإسماعيل عليه السلام الذي خصّه الله تعالى به.

أما عبارة: "يده على كل واحد ويد كل واحد عليه"، فإنها حشوٌ واضح للدسّ، فإن كان قصدهم إظهار العنف والوحشيّة في بني إسماعيل، فإن ما تحدثت به التوراة عن عنف بني إسرائيل ووحشيتهم وكفرهم، أضعاف أضعاف ما عرف به أحفاد إسماعيل.

حاول اليهود إقصاء إسماعيل عن ساحة البركة الإلهية، تارة بادّعائهم أنه ليس ابناً شرعياً لإبراهيم، كونه ابن جارية (هاجر)، وأن الابن الشرعي الوحيد لإبراهيم هو

---

(1) تقول التوراة السامرية:"وهو يكون وحشياً من الناس، يده بالكل ويد الكل به".

إسحق عليه السلام [1]، بصفته ابن السيدة سارة. وعلى هذا ادّعوا أن الابن الذي ضحّى به إبراهيم في سبيل الله هو إسحق، وليس إسماعيل، وبالتالي فإن العهد والبركة الإلهيين، يخصّان إسحق وأبناءه من بني إسرائيل فقط، ولا يشاركهم بها أحد غيرهم من أبناء إبراهيم عليه السلام.

ونقول: حاشا لإسماعيل عليه السلام أن يكون ابن سفاح أو زنا، حتى يعدّ ابناً غير شرعي لأبيه إبراهيم، والتوراة تؤكد أن هاجر كانت الزوجة الشرعية لإبراهيم، الذي رزقه الله منها ولده البكر إسماعيل عليه السلام. ومن النص التالي الذي ورد في سفر التكوين [2]، يتبين أن سارة زوجة إبراهيم الأولى، قد قامت بنفسها بزفّ هاجر إلى سيدنا إبراهيم، لتصبح هاجر الزوجة الشرعية الثانية. وتؤكد التوراة على شرعية بنوّة إسماعيل عليه السلام لإبراهيم، حين تذكر وعد الله لإبراهيم بخصوص ابنه إسماعيل، حيث قال الله تعالى لإبراهيم: " وابن الجارية – أي إسماعيل ابن هاجر– أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك[3].

فكيف يكون إسماعيل ابناً غير شرعي، وقد بشّر الله تعالى بولادته وخصّه ببركته؟

وإذا كان اعتراض علماء اليهود على كون إسماعيل ابن الجارية، وليس ابن السيدة، ولذا ليس له نصيب في الإرث والبركة، فماذا يقولون عن (دان ونفثالي)، ابني يعقوب من (بلهة) جارية راحيل؟ وماذا يقولون عن (جاد وأشير)، ابني يعقوب أيضاً من (زلفة) جارية ليئة؟ حيث اعتبروهم من الأسباط الاثني عشر، ونالوا نصيبهم من الميراث؟

وماذا يقول اليهود عن أبناء سيدنا إبراهيم من زوجته قطورة، التي أعقبت له: زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا؟ الذين اعترفت التوراة بوجودهم؟ [4].

ورغم اعتراضاتهم، فإننا نجد أن الله تعالى قد بارك إسماعيل عليه السلام ثلاث مرات

---

(1) إسحق معناه باللغة العبرية: يضحك(يتسحق)، لأن أمه سارة ضحكت عندما بشرت به.

(2) سفر التكوين، الإصحاح 16 الآية: 1-3.

(3) سفر التكوين الإصحاح 21 الآية: 13.

(4) سفر التكوين، الإصحاح 25، آية 1-2.

متتالية ومترابطة، بحيث تشكّل وحدة لا تنفكّ، ولا تنفصم، وهذه البركات هي: "وأما إسماعيل، فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه، وأثمّره، وأكثّره كثيراً جدا، اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمّة عظيمة".

وتأكيداً لهذه البركات يقول الله تعالى مخاطباً سيدنا إبراهيم: "أباركك مباركة، وأكثّر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر[1]".

ونقول: إن بني إسرائيل لم يكثر عددهم كثيراً، ولم يصبحوا كنجوم السماء، أو كالرمل الذي على شاطئ البحر. ونحن في بداية القرن الحادي والعشرين، ولم يتجاوز عددهم الخمسة عشر مليوناً، بينما بنو إسماعيل وحدهم، يتخطّى عددهم المائتي مليون. أما إذا أخذنا بعين الاعتبار الأمة الإسلامية التي هي أمة محمد ﷺ حفيد إسماعيل، فإن عدد أفرادها اليوم تجاوز المليار مسلم.

وهنا يأتي القول الفصل، القول الدامغ والقاطع، وهو ما جاء في إنجيل برنابا [2] على لسان أحد التلاميذ: قال يعقوب: "يا معلم، مع من صُنع هذا العهد؟ فإن اليهود يقولون بإسحق، والإسماعيليون يقولون بإسماعيل".

أجاب يسوع: "ابن من كان داود؟ ومن أي ذرية [3]؟" أجاب يعقوب: "من إسحق، لأن إسحق كان أبا يعقوب، ويعقوب كان أبا يهوذا من ذريته داود".

أجاب التلاميذ: "من ذرية داود؟" فأجاب يسوع: "لا تغشّوا أنفسكم، لأن داود يدعوه في الروح ربّاً، قائلا هكذا: "قال الله لربي: اجلس عن يميني، حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك.. يرسل الله قضيبك الذي يكون ذا سلطان في وسط أعدائك [4]. فإذا كان

---

(1) سفر التكوين الإصحاح 22 آية: 18.

(2) هو الإنجيل الذي رفضته المسيحية (انظر المزيد من الإيضاح لاحقاً في كتابنا).

(3) هو داود بن يسّى بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عميناداب بن أرام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام. بينما أم يسوع مريم بنت عمران من سبط لاوي من هارون.حيث ورد في التوراة:"أما سبط لاوي فلا تحسبه ولا تعده بين بني إسرائيل".(سفر العدد إصحاح ه آية49-.حتى يلصقوا العذراء بسبط يهوذا.

(4) مزامير داود،6:45، وجاء في رسالة بطرس للعبرانيين:"قضيب استقامة قضيب ملكك، أحببت البرّ وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أكثر من شركائك".(اصحاح 1:89.

رسول الله الذي تسمّونه مَسيّا ابن داود، فكيف يسميه داود ربّاً؟ وكيف يكون ابنه؟ صدّقوني، إني أقول لكم الحق، إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحق"[1]. حينئذ قال التلاميذ: "يا معلم، هكذا كُتب في كتاب موسى: إن العهد كان بإسحق". أجاب يسوع متأوهاً: "هذا هو المكتوب، ولكن موسى لم يكتبه، ولا يسوع، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله"[2].

تقول التوراة: "خذ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحق، واذهب إلى أرض المُريّا[3]، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال"[4].

وتقول التوراة السامرية: "خذ الآن ابنك خصيصك الذي أحببت إسحق، وسر ذاهباً إلى الأرض المرشدة، وأصعده هناك صعيدة على أخصّ الجبال الذي قلت لك"[5]. فكيف يكون إسحق ابنه الوحيد، مع أنه ابنه الثاني في الترتيب؟ فعندما نقول: "ابنه الوحيد"، فإنما ينطبق ذلك على إسماعيل، لأنه هو الذي كان ابنه الوحيد، قبل أن يولد إسحق، والذي يصغر إسماعيل بثلاث عشرة سنة، حسب أقوال التوراة. والمنطق يحتّم أن تقول الآية: "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسماعيل، واذهب إلى أرض منى[6]، وأصعده هناك محرقة". طالما أنه لم يكن لديه غيره من الأبناء، وكان يسكن في أرض فاران، بالقرب من البيت الحرام، حيث الكعبة المشرفة، وبئر زمزم.

وهنا يأتي القول الفصل، فقد جاء في إنجيل برنابا: "فكلّم الله حينئذ إبراهيم قائلاً: "خذ ابنك بكرك إسماعيل، واصعد الجبل، لتقدّمه ذبيحة". وكان إسماعيل ابن سبع سنين"[7].

---

(1) إنجيل برنابا، فصل 43 آية:20 – 31.

(2) إنجيل برنابا، فصل 44 آية: 1– 5.

(3) جبل المريّا (الموريا– هو الجبل الذي بنيت عليه قبة الصخرة والمسجد الأقصى ببيت المقدس

(4) سفر التكوين، الإصحاح 22 الآية: 1– 2.

(5) التوراة السامرية، الكاهن السامري أبو الحسن إسحق الصوري، دار الأنصار، القاهرة، 1978 (لاحظ الاختلاف الواضح بين التوراة العبرانية والتوراة السامرية التي لم تحدد اسم المكان أو الجبل.

(6) منى المعروفة والتي تقع شرق مكة المكرمة، وهي مكان النحر أيام الحج، ويرمى فيها الجمار.

(7) إنجيل برنابا الفصل 44 آية: 10–11.

وجاء أيضاً: " فأجاب الملاك جبريل: " انهض يا يسوع، واذكر إبراهيم الذي كان يريد أن يقدم ولده إسماعيل ذبيحة لله، ليتمّ كلمة الله. فلما لم تَقْوَ المدية على ذبح ابنه، قدّم عملاً بكلمتي كبشاً، فعليك أن تفعل يا يسوع خادم الله" (1).

قال الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (2).

إن إسماعيل هو أول ولد بشر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب المنصفين، وإن إسماعيل ولد ولإبراهيم ست وثمانون سنة، وولد إسحق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعند أهل الكتاب: إن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده – يزعمون أنه إسحق– ولا يقال وحيدك: إلا لمن ليس له غيره.

والثابت لدى جميع المفسرين والمسلمين والمنصفين من أهل الديانات الأخرى، أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، الذي كان يسكن وأمه هاجر في مكة المكرمة، عندما بلغ مع والده السعي في منى ' وأن الله سبحانه وتعالى افتداه بذبح عظيم.

قال ابن جريج: قال عبيد بن عمير: ذبحه عند المقام. وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر(3). والله أعلم.

(1) إنجيل برنابا الفصل 13 آية: 15-17.

(2) سورة الصافات، آية: 102.

(3) ولهذا يقوم الحجاج المسلمون بتقديم الأضاحي يوم النحر في منى، اقتداء بسيدنا إبراهيم عليه السلام.

وتأكيدا لما نزل في القرآن الكريم، فلنقرأ بعض ما ورد من بشارات في العهدين القديم والجديد:

النبي موسى عليه السلام يذكر أوصاف النبي الآتي

وخاطب الله موسى قائلاً: "أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيخاطبهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه، وأما النبي الذي يُطغي فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي، وإن تقول في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ [1]

من هذا النص التوراتي، نتبين أوصاف هذا النبي وهي:

- هو نبي، مثل موسى.
- من بني إسماعيل، "من وسط إخوتهم".
- أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب، "وأجعل كلامي في فمه".
- ينسخ شريعة موسى، "ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه".
- أمين على الوحي، "فيخاطبهم بكل ما أوصيه به".
- لا يُقتَل، لأنه لا ينطق عن الهوى." أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي".
- يتحدث عن غيب سيقع في المستقبل." وإذ تقول في سرك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟"

ومن سيكون هذا النبي غير محمد العربي الهاشمي الأمّي؟

(1) سفر التثنية إصحاح 18، آية: 18-22.

محمد رسول الله ﷺ على لسان داود عليه السلام

لعل نبي الله داود عليه السلام من أكثر أنبياء العهد القديم ذِكْراً، ومدحاً، لرسول الله محمد ﷺ في وصاياه وترانيمه، فهو لم يكتف بالتبشير به ﷺ، حاملاً للرسالة الخاتمة لجميع الرسالات الإلهية، بل قام بمدح صفاته الخَلْقية والخُلُقية. وأشار إلى أهم الحوادث التاريخية التي ستجري في عهده وتحت إشرافه، والتي كان لها أكبر الأثر في تغيير وجه التاريخ، إلى الاتجاه الذي يعود بالخير والمنفعة على سطح الأرض بشكل عام، وعلى بني البشر بشكل خاص. كما لم يَنْسَ نبي الله داود عليه السلام ذكر محمد ﷺ وآله، ومدحهم في أقواله ووصاياه، مظهراً بذلك قدرهم الجليل، ومقامهم الرفيع عند الله تعالى، ودورهم العظيم في قيادة الناس بعد رسول الله ﷺ، على طريق الهدى والحق.

لقد ورد أن داود عليه السلام قال في المزمور (45) من مزاميره:

- فاض قلبي بكلام صالح. متكلّم أنا بإنشائي للملك. لساني قلم كاتب ماهر.
- أنتَ أبرع جمالاً من بني البشر. انسكبت النعمة على شفتيك، لذلك باركك الله إلى الأبد.
- تقلّد سيفك على فخذك أيها الجبار جلالك وبهاءك.
- وبجلالك اقتحم. اركب. من أجل الحق والدّعة والبرّ، فتريك يمينك مخاوف.
- نُبلك المسنونة في قلب أعداء الملك. شعوبٌ تحتك يسقطون.
- كُرسيّك يا الله إلى دهر الدهور. قضيب استقامةٍ قضيب ملكك.
- أحببت البرّ وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك.
- كل ثيابك مرّ وعود وسليخة. من قصور العاج سرّتك الأوتار.
- بنات ملوك بين حظيّاتك. جُعلت الملكة عن يمينك بذهب أوفير.
- اسمعي يا بنت وانظري، وأميلي أذنك، وانسي شعبك وبيت أبيك.
- فيشتهي الملك حسنك لأنه هو سيدك فاسجدي له.
- وبنت صور أغنى الشعوب تترضى وجهك بهدية.

- كلّها مجد ابنة الملك في خدرها، منسوجة بذهب ملابسها.
- في إثرها عذارى صاحباتها... يُحضرن بفرح وابتهاج، يدخلن إلى قصر الملك.
- عوضاً عن آبائك يكون بنوك تقيمهم رؤساء في كل الأرض.
- أذكر اسمك في كل دَوْرٍ فدَور. من أجل ذلك تحمدك الشعوب إلى الدهر والأبد(1).

ويمكن تلخيص صفات تلك الشخصية العظيمة المبشّر بها في هذا المزمور على لسان داود ﷺ:

1. كونه أبرع جمالاً من جميع بني البشر.
2. انسكاب النعمة على شفتيه.
3. محارب يقظ لا يعرف الكلل ولا الملل، يقاتل في سبيل الله من أجل إحقاق الحق والعدل.
4. قبائل وشعوب كثيرة تخضع لسلطته وتتبع شريعته وتذعن لأمره.
5. سيرته في الحكم نموذج للصراط المستقيم، لأنه أحبّ العدل وأبغض الإثم والظلم.
6. يتزوج من إحدى حفيدات داود ﷺ، بعد أن تؤمن به وتتبع الشريعة التي بعث بها.
7. ابنته جليلة القدر عالية المقام.
8. يتلقى الهدايا ويتزوج من ابنة صور.
9. ينصّب أبناءه (أحفاده) بأمر من الله قادةً وهُداة لجميع الأمم.
10. باركه الله إلى الأبد، ولذا تمدحه الشعوب، ويذكر اسمه إلى أبد الدهر.

فمن هي تلك الشخصية العظيمة التي بشّر بها داود ﷺ، والتي تمتلك تلك الصفات السامية المذكورة أعلاه؟ فعلماء اليهود يدّعون أن المبشّر به هو سليمان بن داود

(1) مزامير داود 45 من 1-17.

عليهما السلام، ولكن ذلك لا يصحّ من عدّة وجوه منها:

لقد ورد في هذه البشارة أن المبشّر به سيباركه الله إلى الأبد، وستخدمه الشعوب، ويذكر اسمه إلى أبد الدّهر. ومعلوم أن هذه الصفة لا تنطبق على سليمان عليه السلام، فاسمه لا يكاد يذكر إلا في كتب التاريخ، وهو ليس موضع مدح الشعوب حتى اليهود منهم، الذين اتهموه بالارتداد عن دين التوحيد، وعن عبادة الله تعالى، حيث عكف – بزعمهم – على عبادة الأصنام والأوثان، التي كانت تعبدها الأمم المعاصرة له، كما ورد ذلك مفصلاً في العهد القديم.... ومن هذه التّهم:

- "فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتروت إلاهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين"[1].

  وجاء في الإصحاح الثاني عشر أن كل جماعة إسرائيل جاءوا إلى يربعام ابن سليمان وقالوا: "إن أباك قسّى نيرنا، وأما أنت فخفّف الآن من عبودية أبيك القاسية، ومن نيره الثقيل ....". وكان جوابه لهم: "والآن أبي حمّلكم نيراً ثقيلاً، وأنا أزيد على نيركم... أبي أدّبكم بالسياط، وأنا أؤدّبكم بالعقارب"[2].

- لم يرد في أسفار العهد القديم أن سليمان عليه السلام كان أبرع جمالاً من بني البشر.
- إن النبي داود عليه السلام يخاطب في هذه البشارة ابنة أو حفيدة له، حيث سيتزوجها هذا المبشّر به، ولذا يوصيها بطاعته والخضوع له ، وأن تنسى شعبها وبيت أبيها. ولو تزوجت هذه البنت من عبراني من بني شعبها، فكيف يوصيها أن تنسى شعبها وبيت أبيها وهي عبرانية؟
- جاء في هذه البشارة إن الله عز وجل قال: إن المبشّر به يكون أبناؤه رؤساء في كل الأرض. بينما لم يذكر لنا التاريخ، ولا حتى في أسفار العهد القديم أن

(1) الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر، 3-6.

(2) الملوك الأول، الإصحاح الثاني عشر، 4-11.

أبناء سليمان عليه السلام قد أصبحوا قادة هُداة بأمر من الله تعالى، بل على العكس، فقد جاء في العهد القديم أن أكثرهم ارتدّ عن دين التوحيد كافراً، ليعكف على عبادة الأصنام[1].

وبهذا يظهر لنا فساد ادعاء اليهود وبطلانه، وأنه لا يمكن أن يكون المبشّر به هو سليمان بن داود عليهما السلام.

أما بخصوص ادعاء النصارى القائل بأن هذه البشارة جاءت بخصوص عيسى المسيح عليه السلام، فهذا أيضاً باطل من عدة وجوه، منها:

- لم نجد آية واحدة تصف السيد المسيح في العهد الجديد، وتقول إنه كان من أبدع الناس جمالاً، بل وجدنا ما وصفه به رسول الله ﷺ عندما أُسري به بالروح والجسد، وتجاوز منزلة جبريل، وتجاوز سدرة المنتهى، قال ﷺ: "وأما عيسى ابن مريم، فرجل أحمر، بين القصير والطويل، سبط الشعر، كثير خيلان الوجه، كأنه خرج من ديماس، تخال رأسه يقطر ماء، وليس به ماء. أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفي[2]".
- وعن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال بعد أن أسري به: "عرض عليّ الأنبياء، ورأيت إبراهيم، وأنا أشبه ولده به، أما موسى فرجل ضرب من الرجال، آدم، رجْل الشعر[3]، على جمل أحمر مخطوم بخلبة، كأني أنظر إليه إذا انحدر الوادي يلبي، كأنه من رجال شنوءة[4]".
- لم يَرْوِ التاريخ ولا أسفار العهد الجديد أن المسيح خاض حرباً أو شهر سيفاً في وجه عدو.
- المسيح لم يتزوج قطّ، ولم يكن عنده بنون ولا بنات.
- المسيح لم يتلقَّ هدية من حاكم أو ملك.

---

(1) انظر سفر الأيام الثاني الإصحاح 12 وما بعده.

(2) سيرة ابن هشام، الجزء الثاني صفحة35. الخيلان: الشامات السوداء، والديماس: الحمّام.

(3) آدم: بشرته ضاربة إلى السمرة، ورجل الشعر: ما كان بين الجعد والمرسل.

(4) شنوءة: قبيلة عربية مشهورة من ازد اليمن.

ولإثبات صحة ما ذهبنا إليه، نبدأ بدراسة النقاط العشر السابقة:

كون المبشّر به أبرع جمالاً من بني البشر

هذه الصفة تنطبق تماماً على سيدنا محمد ﷺ، فجميع كتب السيرة والحديث تتحدث عن جماله وبهائه وهيبته، حيث وصفه أبو هريرة قائلاً: "ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه[1]، وإذا ضحك يتلألأ في الجُدُر". وفي حديث ابن أبي هالة: "يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر". كما وصفته أم معبد عندما نزل عليها ضيفاً، في طريقه مهاجراً إلى المدينة، قالت: "أجمل الناس من بعيد، وأحلمهم، وأحسنهم من قريب".

أما من الناحية المعنوية والروحية والخُلقية، فإنه عليه الصلاة والسلام، بلغ حدّاً من السمو والكمال لم يبلغه ملك مقرّب ولا نبي مرسل، حتى أن الله تعالى وصفه في كتابه المبين قائلا: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ ۝ ﴾[2].

وهذه صفة وكرامة لم يتصف بها نبي من الأنبياء سوى رسول الله محمد ﷺ. كما وصف الله تعالى خلُق رسول الله محمد ﷺ فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[3].

وهذا كاف لإثبات أنه ﷺ أجمل بني البشر خَلْقاً وخُلُقاً.

انسكاب النعمة على شفتيه

هذه صفة أخرى عرف بها رسول الله محمد ﷺ، حتى بين أعدائه. وقد قال الرواة في وصف كلامه: "كان أصدق الناس لهجة وأفصحهم كلاماً". فكان من الفصاحة من المحلّ الأفضل والموضع الأكمل، حتى أن قريشاً منعت أفرادها من الاستماع إليه خوفاً من أن يفتتنوا بفصاحته". كما أن أعظم نعمة تفجّرت على شفتيه هي القرآن الكريم، الذي تلقى آياته الكريمة من الله تعالى عن طريق الوحي، ونقلها شفاهاً إلى الناس، حيث

---

(1) وصف السيد المسيح ابن مريم رسول الله ﷺ بقوله: "يحيي الله رسوله الذي يطلع أيضاً كالشمس، بيد أنه متألق كألف شمس". (انظر إنجيل برنابا، فصل 54 آية 1-18).

(2) سورة الأنبياء، آية: 107.

(3) سورة القلم، آية: 4.

تفرّد بمعجزة القرآن الكريم الخالد عن جميع الأنبياء والمرسلين، كما أنه ﷺ لُقّب قبل بعثته الشريفة بالصادق الأمين، من قبل الكفار والمشركين أنفسهم.

تقول التوراة: "أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكل ما أوصيه به"[1]. ومن سيكون هذا النبي غير محمد ﷺ الذي قال تعالى فيه على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[2].

محارب يقظ لا يعرف الكلل والملل، يقاتل من أجل إحقاق الحق والعدل

خاض رسول الله محمد ﷺ حروباً كثيرة، ضد الكفار والظالمين والمعاندين، فكان فيها خبيراً حاذقاً في وضع الخطط الحربية، ولم يعرف الفرار أبداً، على الرغم من فرار معظم أصحابه، وتخلّيهم عنه في بعض معاركه مع الأعداء (كأُحُدٍ وحُنين)، إلا فئة قليلة منهم، كان على رأسها ابن عمّه وصهره علي بن أبي طالب، الذي وصف شجاعة الرسول ﷺ بقوله: "كنا إذا احمرّ البأس، ولقي القوم القوم، اتّقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدوّ منه"[3]. وكانت جميع حروبه ﷺ من أجل إحقاق الحق وإقامة العدل، وتبليغ رسالة ربّه إلى الناس، ولم تكن لأسباب شخصية أو قَبَليّة أو عرقية، أو من أجل التسلّط على الآخرين واستغلالهم لأغراض شخصية.

قبائل وشعوب كثيرة تنضوي تحت سلطته، وتذعن لأمره ولشريعته.

كان جهاده ﷺ من أجل إلزام الناس كلمة الحق، ومنعهم من ظلم العباد، وكسر الأغلال والقيود التي وضعت على عقول الناس، ليغرس في أذهانهم حرية التفكير والاختيار، ليختاروا الحق والصواب، وينبذوا الباطل والضلال. وبمجرد مطالعتنا لتاريخ الفتوحات الإسلامية.

يتبين لنا أنه ما إن قامت الجيوش الإسلامية بتحرير شعوب البلاد التي فتحتها من

---

(1) سفر التثنية الإصحاح 18، آية: 18.

(2) سورة البقرة، آية: 129.

(3) الحافظ الأصفهاني، اخلاق النبي (ص) وآدابه، ص 58، مؤسسة الأهرام 1981.

ظلم الطواغيت واستبداد المستبدّين، حتى أقبلت تلك الشعوب تعتنق دين الإسلام، متشرّفة بالانتماء إلى أمة محمد رسول الإسلام. وهذا ما حدث بالنسبة لكثير من الشعوب الآسيوية والإفريقية، والبعض من سكان القارة الأوروبية، التي لو فُسِح لها المجال لما تأخرت عن الدخول في دين الإسلام، والانضواء تحت لواء شريعته، بصفته دين الحق والمنطق، ويتناسب مع فطرة الإنسان وطبيعته.

سيرته في الحكم نموذج يحتذى به.

لقد اعترف العدو والصديق بسيرة محمد رسول الله ﷺ في الحكم كنموذج يحتذى به، كيف لا وهو القائل في قصّة المرأة المخزومية التي سرقت: "والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها". فرسول الله محمد ﷺ كان حاكماً وقاضيا، ورجل دولة وقائد جيش.. إلخ، وفي كل هذه المواقع كان يمثل القدوة الحسنة في العدالة والرحمة، وفي محاربته للظلم واجتثاثه لأصول الشرّ عند الصديق والعدو، ومن يقرأ سيرة حياته الشريفة، يقتنع بسهولة بتحلّيه ﷺ بهذه الصفات، لأن خطّ ملكه هو خطّ الحق، ولأنه قد أحب العدل وأبغض الظلم.

يتزوج من حفيدة لداود عليه السلام، بعد إيمانها به وبالشريعة التي أرسل بها.

يوصي نبي الله داود عليه السلام في هذه البشارة قائلاً: اسمعي يا بنت، وانظري، وأميلي أذنك، وانسي شعبك وبيت أبيك، فيشتهي الملك حسنك، لأنه هو سيدك فاسجدي له[1].

في هذه النبوءة إشارة من نبي الله داود عليه السلام، إلى أن اليهود سيكفرون برسالة الإسلام، ويجحدون رسالة محمد ﷺ، كما فعلوا من قبل بعيسى ابن مريم عليه السلام، ولذا فإن رسول الله محمد سيحاربهم ويجليهم عن أرض الجزيرة العربية. وهذا ما دعا نبي الله داود إلى أن ينصح حفيدته بأن تنسى شعبها وبيت أبيها، اللذين جحدا رسالة الإسلام. ولو تزوجت هذه البنت من عبراني من بني شعبها، فكيف يوصيها داود عليه السلام أن تنسى شعبها وبيت أبيها وهي عبرانية؟

---

(1) اي اخضعي له وأطيعيه.

إن حفيدة داود عليه السلام هي: صفيّة بنت حييّ بن أخطب زعيم يهود بني النضير، الذين تحالفوا مع المشركين ضد رسول الله ﷺ، خاصة أثناء غزوة الخندق (الأحزاب)، فأجلاهم عن المدينة المنورة إلى خيبر الواقعة شمال المدينة. وكانت صفية بنت حيي بن أخطب متزوجة من كنانة بن الربيع زعيم يهود خيبر، ولما قُتِل كنانة تزوّجها رسول الله ﷺ، وأصبحت بزواجها المبارك إحدى أمهات المؤمنين امتثالا لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾[1].

ابنته جليلة القدر عالية المقام، كلها مجد ابنة الملك في خدرها.

هذه إشارة إلى بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء، وإظهار عظمتها ومكانتها العالية عند الله تعالى، فهي بضعة رسول الله محمد التي قال عنها: "فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني"[2]. كما أنها إحدى سيدات نساء الجنة الأربع. فقد نقل لنا الإمام أحمد ابن حنبل في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: "أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم (زوجة فرعون)، ومريم بنت عمران[3]".

وتقول النبوءة: "منسوجة بذهب ملابسها. بملابس مطرّزة تُحضر إلى الملك في إثرها عذارى صاحباتها". وهذا تأكيد لقوله ﷺ: "إذا كان يوم القيامة، نادى مناد من بطنان العرش: "يا أهل الجمع، نكّسوا رؤوسكم، وغضّوا أبصاركم حتى تمرّ فاطمة بنت محمد على الصراط"، فتمرّ مع سبعين ألف جارية من الحور العين كالبرق اللامع[4].

وفي رواية: "تكون أول من يُكسى"[5].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 6.
(2) صحيح البخاري، ج5، ص 21و29.
(3) مسند أحمد بن حنبل ج2، ص 293.
(4) ذخائر العقبى، صفحة 50 و57.
(5) المرجع السابق، صفحة، 57.

تلقّيه الهدايا من الملوك والحكام، حيث كان من جملة هذه الهدايا ابنة صور.

تشير هذه النبوءة إلى تلقّي رسول الله ﷺ الهدايا من الملوك والحكّام كالنجاشي ملك الحبشة، ومنذر بن ساوي ملك البحرين، والجُلَنْدي ملك عُمان، وهرقل قيصر الروم، والمقوقس حاكم مصر، وغيرهم. ويمكن أن يكون المقصود بابنة صور، هو الإشارة إلى السيدة مارية بنت شمعون بن إبراهيم القبطية، التي أرسلها المقوقس مع الهدايا إلى رسول الله ﷺ، حيث تزوجها، وأنجبت له إبراهيم الذي مات صغيراً.

عوضاً عن آبائك يكون بنوك، تقيمهم أمراء على كل الأرض.

كتب المؤرخ (أ. عالم) في كتابه باللغة الفرنسية (محمد في التوراة والإنجيل وعيسى في القرآن) ما ملخصه: "لقد حكم أبناء (أحفاد) رسول الله كخلفاء وملوك وحكام، على الكثير من بلدان العالم الإسلامي، وما زال بعضهم حتى اليوم يحكم في بعض أقطار العالم العربي والإسلامي. كما كان أجداده ﷺ خاصة، منهم: هاشم وعبد المطلب، على رأس طبقة الأشراف المتنفّذة في مكة.

وجاء في كتاب "البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل": "أتباع نبي الإسلام صاروا حكاماً على البلاد كالدولة الأموية والعباسية، وإلى هذا اليوم أتباع نبي الإسلام رؤساء في أكثر بقاع الأرض"[1]. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴿٧٣﴾ ﴾[2].

باركه الله إلى الأبد، لذا تمدحه الشعوب ويذكر اسمه إلى أبد الدهر.

لا شك أن الله سبحانه وتعالى بارك جميع أنبيائه ورسله، ولكنه سبحانه اختص رسوله محمداً بأن جعل الشعوب تمدحه، ويُصلّى عليه دون انقطاع، ويُذكر اسمه إلى أبد الدهر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾[3]. ولهذا فإن ذكر رسول الله ﷺ والثناء عليه، والشهادة له بالنبوة، وحمل الرسالة الإلهية، لا يكاد يتوقف لحظة واحدة على سطح الكرة الأرضية،

---

(1) البشارة بنبي الإسلام، مصدر سابق، ص 116.

(2) سورة الأنبياء، آية: 73.

(3) سورة الأحزاب، آية: 56.

سواء في الأذان أو الإقامة أو الصلاة أو الدعاء أو الحديث. أضف إلى ذلك ما يقوم به الملايين من المسلمين من كافة أنحاء العالم بزيارة ضريحه الشريف، خاصة في موسم الحج أو العمرة.

وهذا ما جعل عبد الله بن سلام، الذي كان من علماء بني إسرائيل يعلن إسلامه عن طريق الاقتناع، ويشهد ما في التوراة من بشارة نبوّة محمد ﷺ، فسجّل الوحي هذه الشهادة بقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (1).

الإنجيل يبشر بالرسول محمد ﷺ

في مجلس مهيب حيث يخيّم الصمت على الجميع، والكلّ آذان صاغية، والسيد المسيح يستعد لإلقاء توصياته الأخيرة على حوارييه، قبل أن يتمّ بينه وبينهم الفراق الأخير، فقد أشرفت مهمته الرسالية على الانتهاء، والأعداء يبحثون عنه في كل مكان، لإلقاء القبض عليه والتخلص منه، لأنه جاءهم بحقائق أفزعتهم، وأقضت مضاجعهم، لأنها تخالف أهواءهم ومصالحهم الدنيوية وميولهم الشيطانية. وجاءت محاولته الأخيرة لردّ بني إسرائيل إلى صراط الله المستقيم، ومنعهم من غيّهم وضلالهم، ولهذا صرح عليه السلام مراراً قائلا: "لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة"(2). كما أنه لم يأت ليرسي قواعد شريعة جديدة غير شريعة موسى عليه السلام، فقال: "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل"(3). كما شرع قبله ابن خالته يحيى عليه السلام بإبلاغ بني إسرائيل عن قرب مجيء ملكوت الله إليهم (أي شريعة الله الخاتمة الشاملة). فقال لهم يحيى عليه السلام: "توبوا لأنه اقترب ملكوت السموات... أعدّوا طريق الرب... اصنعوا سبله مستقيمة"(4). وبعد مقتل النبي يحيى عليه السلام، ابتدأ يسوع يكرز (يبشّر) ويقول: "

---

(1) سورة الأحقاف، الآية: 10.

(2) انجيل متى الإصحاح الثاني، آية: 2-3.

(3) انجيل متى الإصحاح الثاني، آية: 2-3.

(4) انجيل متى الإصحاح الثاني، آية: 2-3.

توبوا... فإنه اقترب ملكوت السموات"[1].

أمر المسيح تلاميذه[2] بتبشير الناس بقرب مجيء ملكوت الله، ووجوب الانضواء تحت رايته[3]. ثم انتقل إلى خطوة تبليغية أخرى، حيث أعلن لبني إسرائيل بأن ملكوت الله (شريعته) سوف ينزعها الله منهم، ليعطيها إلى شعب آخر أكثر إيماناً ووفاءً وإخلاصاً لله منهم قائلا: "لذا أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم، ويعطى لأمة تعمل أثماره"[4].

التفت المسيح إلى من عنده، وأخذ يشرح لهم بهدوء العارف الواثق من كلامه قائلاً: "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي.. وأنا أطلب من الرب فيعطيكم معزّيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد... روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فإنكم تعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم"[5]. ثم يتابع حديثه قائلا: "بهذا علّمتكم وأنا عندكم، وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلّمكم كل شيء، ويذكّركم بكل ما قلته لكم"[6]. ثم قال لهم: "ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب، ينبثق فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء"[7].

هكذا تدرّج المسيح عليه السلام بالبشارة برسالة الإسلام ورسوله الكريم، حتى وصل إلى المرحلة الحاسمة والنهائية في تبليغه، فأعلن لهم عن الاسم الصريح للنبي المنتظرالذي سوف يحمل راية ملكوت الله، وخاتم الأنبياء والمرسلين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

---

(1) انجيل متى الإصحاح4، آية: 17 وانجيل مرقص الإصحاح1 آية: 15

(2) هم: سمعان بن يونا(بطرس الصخرة)، ويعقوب بن زبدي، وفيلبس، ولوقا، وبرنابا، ويعقوب بن حلفى، وسمعان القانوي الغيور، واندراوس أخو سمعان، ويوحنا أخو يعقوب، وبرثلماوس(مرقص)، ومتى العشار، ولبّاوس(تدّاوس)، ويهوذا الإسخريوطي.

(3) انجيل متى 21: 44 وانجيل مرق ص 12:1-12 وانجيل لوقا2:9-18.

(4) انجيل متى 21:44.

(5) انجيل يوحنا 14: 18.

(6) انجيل يوحنا 14: 26.

(7) انجيل يوحنا 15: 26-27.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي

ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [1]

إنجيل برنابا يبشّر صراحة برسول الله محمد ﷺ

لا يعترف النصارى إلا بالأناجيل الأربعة المعروفة: إنجيل متّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، وتقرّها الفرق النصرانية وتأخذ بها. ولكن التاريخ يروي لنا أنه كانت في العصور الغابرة أناجيل أخرى، قد أخذت بها فرق قديمة وراجت عندها، ولم تعتنق كل فرقة إلا إنجيلها. فعند كل فرقة من الفرق إنجيل يخالف ما عند الأخرى. وقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة، وأجمع مؤرخو النصرانية على أن عددها يزيد على سبعين إنجيلاً ورسالة منسوبة إلى عيسى ابن مريم عليه السلام، وإلى الحواريين وتابعيهم. ثم أرادت الكنيسة في القرن الرابع الميلادي، أن تحافظ على الأناجيل التي تريدها وتقرّها [2]، فاختارت هذه الأناجيل الأربعة التي أشرنا إليها.

لا شك أن إنجيل عيسى ابن مريم عليه السلام واحد، وهو عبارة عن هَدْيه، وبشارته لمن يجيء بعده، ليتمّ دين الله الذي شرعه على لسانه، والسنة الأنبياء من قبله، فكان كل منهم يبيّن للناس منه ما يقتضيه استعدادهم. وإنما كثرت الأناجيل، لأن كل من كتب سيرته عليه السلام سماها إنجيلاً، لاشتمالها على ما بشّر وهدى به الناس.

ولكن، من هو برنابا؟ وما هو تاريخه في المسيحية؟ [3]

كان برنابا حواريا صالحا من أنصار المسيح، الذين يلقبهم رجال الكنيسة بالرسل، وكان من المشهود لهم بإخلاصهم للدعوة المسيحية.

---

(1) سورة الصف ،الاية 6 .

(2) في الواقع أنهم أنكروا كل الأناجيل والرسائل التي تتعارض مع عقيدة التثليث.

(3) راجع إنجيل برنابا، ترجمة الدكتور خليل سعادة، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 15آذار 1908م.

أما بالنسبة لإنجيله، فقد تضاربت آراء الباحثين حوله، وتشعّبت بخصوصه مذاهب المؤرخين.

إن النسخة الأصلية الوحيدة المعروفة الآن في العالم، والتي ترجم عنها هذا الإنجيل، إنما هي النسخة الإيطالية الوحيدة الموجودة في مكتبة بلاط فينّا، والتي تعدّ من أنفس الذخائر والآثار التاريخية فيها، وتقع في (225) صحيفة سميكة، مجلّدة بصفحتين رقيقتين من الورق المقوّى، يغطيهما جلدان لونهما أدكن ضارب إلى الصفرة النحاسية. وأول من عثر على هذه النسخة الإيطالية هو (كريمر) أحد مستشاري ملك بروسيا، الذي كان يقيم في أمستردام، فأخذها سنة 1709م، من مكتبة أحد مشاهير المدينة. وبعد أربع سنين انتقلت إلى البرنس (أبوجين سافوي)، الذي كان شديد الولع بالعلوم والآثار التاريخية، رغم كثرة حروبه ومعاركه. ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة 1738م، مع سائر كتب البرنس المذكور إلى مكتبة البلاط الملكي، حيث لا تزال هناك حتى الآن.

وفي أواخر القرن الثامن عشر وجدت نسخة أخرى إسبانية، تقع في(222) فصلاً، و(420) صفحة، وكان قد أقرضها الدكتور(هلم) من بلدة (هدني)، من أعمال (هامبشير)، إلى المستشرق الشهير(سايل)، حيث قام الدكتور (منكهوس)، أحد أعضاء كلية الملكة في أكسفورد، بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، ثم دفع الترجمة مع الأصل سنة 1784م، إلى الدكتور(هوايت)، أحد مشاهير الأساتذة.

ويؤخذ مما علّقه (سايل) على النسخة الإسبانية، أنه مسطور في صدرها: إنها مترجمة عن الإيطالية، ومصدّرة بمقدّمة يقصّ فيها الراهب (فرامرينو)، كيفية عثوره عليها في مكتبة أحد أمراء أوربا، في بيئة مسيحية خالصة، بعيدة عن الإسلام وبلاد المسلمين، في مكتبة بابا روما (سكتس الخامس)، في نهاية القرن السادس عشر الميلادي.

ولما شاع خبر إنجيل برنابا في فجر القرن الثامن عشر، أحدث دويّاً عظيماً في أندية الدين والعلم، ولا سيما في إنجلترا، فكثر بشأنه الجدل، واحتدمت بين العلماء مناقشات، كان بعضها أقرب إلى التخرّصات والأوهام، منها إلى المباحث العلمية.

يباين هذا الأنجيل الأناجيل الأربعة الأخرى، في عدة أمور منها:

- يباين هذا الإنجيل الأناجيل الأخرى في بعض أساليبه. حيث كثيراً ما يخوض

في المسائل الفلسفية والمباحث العلمية، التي تعتبر ضرباً من فلسفة أرسطوطاليس، التي كانت شائعة في أوائل القرون الوسطى في أوربا.

- إن الابن الذي عزم سيدنا إبراهيم على تقديمه ذبيحة لله، إنما هو إسماعيل لا إسحق، وإن الوعد (العهد) كان بإسماعيل.
- إن السيد المسيح نفسه أنكر ألوهيته وكونه ابن الله، على مرآى ومسمع جميع سكان اليهودية.
- إن مسيّا (الرسول المنتظر) ليس هو يسوع، بل هو الرسول محمد ﷺ، باللفظ الصريح المتكرّر، في فصول ضافية الذيول.
- إن يسوع المسيح لم يصلب، بل رفع إلى السماء، وإن الذي صلب إنما كان يهوذا الإسخريوطي، الذي شبّه بالسيد المسيح.
- إن إنجيل برنابا يوافق القرآن الكريم في النصّ على وحدانية الله، وعدم صلب السيد المسيح، الذي بشّر برسول الله محمد ﷺ. ولهذا فإن الكنائس المسيحية عامة لا تعترف بهذا الإنجيل، بدعوى أنه مزوّر، ومخالف لعقيدة التثليث، مع أنه مذكور في كتب القرن الثاني والثالث الميلاديين. أي أنه كان مكتوباً، وموجوداً، قبل ظهور نبي الإسلام بمئات السنين.

يقال إن إنجيل برنابا كان كتاباً قانونياً لكنيسة الإسكندرية، منذ عصور المسيحية الأولى، حين كانت عقيدة التوحيد، هي العقيدة الغالبة والسائدة في المسيحية، واستمر الحال كذلك حتى انعقاد مؤتمر (نيقيّة)، الذي دعا إلى عقده الإمبراطور الروماني (قسطنطين) سنة 325م، والذي فرضت فيه عقيدة (التثليث)، كما حرّمت الكنيسة إنجيل برنابا، ضمن ما حرّمت من كتب، رأت أنها بعيدة عن العقيدة الجديدة.

أصدر البابا (جلاسيوس الأول) الذي جلس على كرسي البابوية سنة 492م، منشوراً عدّد فيه أسماء الكتب المنهى عن قراءتها، ومن ضمنها إنجيل برنابا، الذي أشار إلى وجوده كل من الخوري نعمة الله اللبناني، في آخر الصفحة رقم (35) من كتاب ذخيرة الألباب، المطبوع في بيروت، بالمطبعة الكاثوليكية سنة 1882م، كما أشار إليه جورجي زيدان، صاحب مجلة الهلال، في أول العدد العاشر من السنة الخامسة عشرة، من

مجلته الشهرية، حيث قال: "ويظن علماء الكتاب المقدس أنه- أي إنجيل برنابا - مصطنع، ألّفه بعض هراطقة المسيحيين في القرون الأولى للميلاد، أو محرّف عن أصله، لأنه يخالف الأناجيل الأخرى في بعض القضايا المهمة".

أما الأمر الذي يستنكره الباحثون الغربيون أشد الاستنكار في هذا الإنجيل، هو تصريحه باسم النبي محمد ﷺ قائلين: "لا يعقل أن يكون ذلك كتب قبل الإسلام، إذ المعهود في البشارات أن تكون بالكنايات والإشارات". والعريقون في الدين لا يرون مثل هذا مستنكراً في خبر الوحي. وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة إنجليزي، أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل، مكتوبة بالقلم الحميري، قبل بعثة النبي ﷺ، وفيها يقول السيد المسيح: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦)﴾ {الصف: ٦} وذلك موافق لنص القرآن بالحرف، ولكن لم ينقل عن أحد من المسلمين، أنه رأى شيئاً من هذه الأناجيل، التي فيها البشارات الصريحة. ويظهر أن في مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الأناجيل والكتب، التي كانت ممنوعة في القرون الأولى، والتي لو ظهر منها شيء، لأزال كل شبهة عن إنجيل برنابا، وغيره [1].

وعلى هذا، فإنه لا يستبعد أن يكون المترجم، الذي قام بترجمة إنجيل برنابا إلى اللغة الإيطالية، قد ذكر اسم محمد ترجمة، بلفظ يفيد معناه، كلفظ: الفارقليط أو البارقليط أو المنحمنّا. ومثل هذا التساهل معهود عند المسيحيين في الترجمة.

ولا يحسبن القارئ المسلم، أن علماء أوربا، يظهرون الريب في هذا الإنجيل، الموافق في أصول تعاليمه للإسلام تعصباً للنصرانية، فإن الزمن الذي كان التعصب فيه، يحمل العلماء على طمس الحقائق التاريخية وغيرها قد ولّى. وقد بحث علماء أوربا مثل هذه المباحث في الأناجيل الأربعة، فبينوا أنه لا يُعرف متى كُتبت، ولا بأي لغة أُلّفت. وقال بعضهم: "إن مؤلفيها غير معروفين". واتّهم بعضهم بولس بوضع أكثرها، كما ترى في دائرة المعارف الفرنسية وغيرها. حتى أن بعضاً منهم من جعل أصول تعاليمها مأخوذة

(1) إنجيل برنابا، المقدمة، صفحة 29.

من الأديان الوثنية[1].

قام الدكتور خليل سعادة، بترجمة هذا الإنجيل إلى العربية، وطباعته في القاهرة في 15 مارس (آذار) سنة 1908م، بعد أن سمح له العالم المحقّق (لوسندال راغ) نائب مطران الكنيسة الإنجليزية (لي فيس)، والعالمة المدقّقة (لورا راغ)، زوجة العالم لونسدال، وقدّم له الشيخ محمد رشيد رضا، في 21 صفر 1326هـ.

إنجيل برنابا يصرّح بوحدانية الله

صرح برنابا في إنجيله بوحدانية الله، في عدة مواضع منها:

أجاب يسوع: "يا فيلبس، إن الله صلاح بدونه لا صلاح، إن الله موجــود.. إن لله حياة، بدونها لا أحياء. هو عظيم، حتى أنه يملأ الجميع، وهو في كل مكان، وهو وحده لا ندّ له، لا بداية، ولا نهاية له، ولكنه جعل لكل شيء بداية، وسيجعل لكل شيء نهاية.. لا أب، ولا أم له، لا أبناء، ولا إخوة، ولا عشراء له. ولما كان ليس لله جسم، فهو لا يأكل، ولا ينام، ولا يموت، ولا يمشي، ولا يتحرك، ولكنه يدوم إلى الأبد، بدون شبيه بشري، لأنه غير ذي جسم، وغير مركّب، وغير مادي"[2].

وهذا طبقاً لما ورد في سِفر الجامعة: "يوجد إله واحد، ولا ثاني له، وليس له ابن، ولا أخ، ولا نهاية"[3].

وجاء أيضا: "قال يسوع: "قد كتب في عهد الله الحي وميثاقه: أن ليس لإلهنا بداية، ولا يكون له نهاية". أجاب الكاهن: "لقد كتب هكذا هناك". فقال يسوع: "إنه كتب هناك: إن إلهنا قد برأ كل شيء بكلمته فقط". فأجاب الكاهن: "إنه لكذلك". فقال يسوع: "إنه مكتوب هناك: إن الله لا يُرى، وإنه محجوب عن عقل الإنسان، لأنه غير متجسّد، وغير مركّب، وغير متغير، وغير محدود"[4].

وورد أيضاً: "فتكلم الله قائلاً: "أنا الله أحد، ولا إله غيري، أمرض، وأشفي،

(1) المرجع السابق، صفحة30.

(2) إنجيل برنابا، فصل17 آية: 5- 14.

(3) سفر الجامعة، 4:8.

(4) برنابا،فصل 1:95-11.

وأميت، وأحيي "(1).

وجاء في سفر إشعيا: "أنا الأول، وأنا الآخر، ولا إله غيري"(2).

خَلْق سيدنا محمد ﷺ في إنجيل برنابا

وعن خلق سيدنا محمد ﷺ، ورد في إنجيل برنابا ما يلي: "فلما انتصب آدم على قدميه، رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصّها: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". ففتح حينئذ آدم فاه وقال: "أشكرك أيها الرب إلهي، لأنك تفضّلت فخلقتني، ولكن أضرع إليك أن تنبئني ما معنى هذه الكلمات: "محمد رسول الله". فأجاب الله: "مرحباً بك يا عبدي آدم، وإني أقول لك: إنك أول إنسان خلقت، وهذا الذي رأيته، إنما هو ابنك، الذي سيأتي إلى العالم، بعد الآن بسنين عديدة، وسيكون رسولي الذي لأجله خلقت كل الأشياء، الذي متى جاء، سيعطي نوراً للعالم، الذي كانت نفسه موضوعة في بهاء سماوي، ستين ألف سنة قبل أن أخلق شيئاً (3)". فضرع آدم إلى الله قائلاً: "يا رب، هبني هذه الكتابة على أظافر أصابع يدي". فمنح الله الإنسان الأول تلك الكلمات على إبهاميه. على ظفر إبهام اليد اليمنى: لا إله إلا الله، وعلى ظفر إبهام اليد اليسرى: محمد رسول الله. فقبل الإنسان الأول بحنوّ أبوي هذه الكلمات، ومسح عينيه وقال: "بورك ذلك اليوم الذي سيأتي فيه إلى العالم"(4).

وفي موضع آخر ورد: "ثم قال الله لآدم وحواء، اللذين كانا ينتحبان: "اخرجا من الجنة، وجاهدا أبدانكما، ولا يضعف رجاؤكما، لأني أرسل ابنكما، على كيفية يمكن بها لذريتكما، أن ترفع سلطة الشيطان عن الجنس البشري، لأني سأعطي رسولي الذي سيأتي كل شيء". فاحتجب الله، وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس (5). فلما التفت

(1) برنابا، فصل 29: 31- 35

(2) سفر إشعيا: اصحاج44 ، الآية: 6.

(3) وجاء في موضع آخر:قال يسوع: رسول الله الذي خلق الله روحه قبل كل شيء بستين ألف سنة (فصل35: الآية 8).

(4) برنابا، فصل 39 آية 14- 28.

(5) الفردوس هنا الجنة، وفي لغة الكنعانيين: يريد الله.

آدم رأى مكتوباً فوق الباب: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". فبكى عند ذلك وقال: "أيها الابن، عسى الله أن يريد أن تأتي سريعاً، وتخلّصنا من هذا الشقاء"[1].

وجاء في موضع آخر: "يقول الكتاب: إن موسى قال: أيها الرب، إله إسرائيل القدير الرحيم، اظهر لعبدك في سناء مجدك". فأراه الله من ثمّ رسوله على ذراعي إسماعيل، وإسماعيل على ذراعي إبراهيم، ووقف على مقربة من إسماعيل إسحق، وكان على ذراعيه طفل صغير، يشير بإصبعه إلى رسول الله قائلاً: "هذا هو الذي لأجله خلق الله كل شيء". فصرخ من ثمّ موسى بفرح: "يا إسماعيل[2]، إن في ذراعيك العالم كله والجنة، اذكرني أنا عبد الله، لأجد نعمة في نظر الله بسبب ابنك، الذي لأجله صنع الله كل شيء"[3].

صفة الرسول محمد ﷺ في إنجيل برنابا

ورد في إنجيل برنابا صفة رسول الله محمد ﷺ الخُلُقية، حيث قال يسوع: "إن رسول الله بهاء، يسرّ كل ما صنع الله تقريباً، لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة، روح الحكمة والقوة، روح الخوف والمحبة، روح التبصّر والاعتدال. مزدان بروح المحبة والرحمة، روح العدل والتقوى، روح اللطف والصبر، التي أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه.

وأضاف: صدقوني إني رأيته، وقدمت له الاحترام... ليجعلني أهلاً أن أحلّ سير حذائك، لأني إذا قلت صرت نبياً عظيماً وقدوس الله" نبي[4]، لأن الله يعطيهم روحه نبوّة.

---

(1) برنابا، الفصل 42 الآية: 25-31.

(2) "إن إسماعيل هو أب لمسيّا" برنابا، الفصل191، الآية: 5.

(3) برنابا، الفصل 191 الآية: 6- 9.

(4) كان ذلك عندما أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فوجد فيه إبراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فصلى بهم إماماً، ولما عرج به ﷺ إلى السماء، تعرف على الأنبياء عن طريق جبريل، ففي السماء الدنيا رأى آدم ﷺ وفي السماء الثانية رأى ابني الخالة عيسى ويحيى، وفي الثالثة رأي يوسف، وفي الرابعة رأى إدريس، وفي الخامسة رأى هارون، وفي السادسة رأى موسى، وفي السابعة رأى إبراهيم.

كما وردت صفته ﷺ في سفر إشعيا: "ويحلّ عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب. ولذّته تكون في مخافة الرب، ويقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف، ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويُميت المنافق بنغمة شفتيه، ويكون البّر مِنطقة متنه، والأمانة منطقة حقويه "(1).

وحدث أن اجتمع التلاميذ ومعهم بطرس، ويوحنا بالمسيح، فقال يوحنا: "يا معلم، علّمنا ما هو الإيمان حباً في الله". أجاب يسوع: "قد حان لنا أن نصلي صلاة الفجر". فنهضوا، واغتسلوا، وصلوا لإلهنا المبارك إلى الأبد. فلما انتهت الصلاة، اقترب تلاميذ يسوع إليه، ففتح فاه وقال: "اقترب يا يوحنا، لأني اليوم سأجيبك عن كل ما سألت. الإيمان خاتم يختم الله به مختاريه، وهو خاتم أعطاه الله لرسوله [2]، الذي أخذ كل مختار الإيمان على يديه. فالإيمان واحد، كما أن الله واحد، لذلك لما خلق الله قبل كل شيء رسوله، وهبه قبل كل شيء الإيمان، الذي هو بمثابة صورة الله، وكل ما صنع الله وما قال "(3).

وقال يسوع: "الحق أقول لكم، إن كل نبي متى جاء، فإنه يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله، ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذي أرسل إليه. ولكن رسول الله متى جاء، يعطيه الله ما هو بمثابة يده، فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض[4]، الذين يقبلون تعليمه، وسيأتي بقوة على الظالمين، ويبيد عبادة الأصنام، بحيث يخزي الشيطان. لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلاً: "انظر فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض. وكما

---

(1) سفر إشعيا، إصحاح 11، آية: 1- 5، وقد جعل إشعيا هذه الأوصاف لرجل من جذع (ذرية) يسّى.

(2) هذا تأكيد لقول الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ سورة الأحزاب، آية: 40.

(3) برنابا، فصل 89، آية: 19-21. وفصل 90، آية: 1- 4.

(4) هذا دلالة على عالمية رسالة محمدﷺ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ سورة الأنبياء، آية: 107. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٨﴾ ﴾ سورة سبأ، آية: 28.

حطّمت يا إبراهيم الأصنام تحطيماً، هكذا يفعل نسلك "[1].

وتوكيدا لما سبق، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [2]. ولهذا قال رسول الله ﷺ: " أنا دعوة أخي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي، أنه خرج منها نور، أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر"[3].

لا تزال هذه البعثة المباركة نبراسا، ومثلا أعلى، وقدوة حسنة، يجب أن تقتدي بها جميع القيادات البشرية، خاصة بالريادة النبوية الشريفة، على اعتبار أن الدين الإسلامي هو الرافد الأكبر، والمعين الأزلي، الذي لن ينضب، من أجل تجسيد المبادئ العليا والقيم الروحية، والتحلي بكل معاني الشرف والمطامح النبيلة، التي هيأ لها الرسول ﷺ نفسه، وجسّدها على واقع الحياة الإسلامية. وأصبحت جموع المسلمين قادرة في كل وقت، على تخطّي كل الحواجز والعقبات، التي تقف في سبيل تحقيق مجد الإسلام الخالد، وترسيخ كافة المعاني الإنسانية بكل قيمها.

افتراءات المستشرقين وأباطيلهم

إن الهجمة الموجهة على لإسلام أينما وجد ضارية، خصص لها كل ما تحتاجه من إمكانات، وأعداء الإسلام لا ينتهون ولا يرعوون، ولو تبددت معظم أعمالهم. ولهذا نراهم يكيدون باختراع الأكاذيب وتلفيق الدعاوى، وتزييف التاريخ، وتشويه سيرة نبي الإسلام.

لقد استطاع أعداء الله في غفلة من الزمن، أن ينفذوا بشبهاتهم وحقدهم من فوق أسوار البناء الإسلامي المكين، تحت أعين الغافلين عن حراسته في العصور الأخيرة.

هناك زمرة من المستشرقين درست الإسلام عن حسن نية، فلا تأبى أن تعترف

(1) برنابا، فصل: 44: آية 13- 19.وكان ذلك عندما فتح رسول الله ﷺ مكة، وقام بتحطيم الأصنام كلها.

(2) سورة الصف، الآية: 6.

(3) السيوطي، الجامع الصغير 1/ 2703.

بالحقيقة إذا استمعت إليها، أو اطلعت عليها، وبعضهم سيء النية لأنه مسخر لخدمة الاستعمار وما إليه من الدعايات المغرضة الهدامة، فلا يعنيه من المعرفة إلا ما يملى له في عمله، ويمهد لدعايته.

ورغم ما ينفثه هؤلاء الحاقدون من سموم، فإن الإسلام لم يضق صدره بناقد ولا بحاقد، لأنه كان على مر الدهور مثلا حيا لسعة الصدر واتساع الأفق، ورحابة بعد النظر.

وللحقيقة نقول: إن المستشرقين على أنواع ثلاثة:

- جاحدون متعصبون.
- فئة يمكن أن نطلق عليها اسم: أصحاب النية الحسنة، لكنهم لم يتبينوا حقيقة الادعاءات التي خرجت من أفواههم.
- منصفون موضوعيون، استطاعوا أن يستشفوا حقيقة الإسلام، وأن يتبينوا أبعاده، فعبروا عن آرائهم ببعض الكتابات والآراء المنصفة، ومنهم من قاده الإيمان والعقل والاقتناع إلى الإسلام فأسلم. ومن هؤلاء: (ليوبولد فايتس) الذي ألف كتبا منها: الطريق إلى مكة، وكتاب الإسلام على مفترق الطرق. والفرنسي (إيتان دينيه)، ومن أشهر كتبه: أشعة خاصة بنور الإسلام، والحج إلى بيت الله الحرام. و(اللورد هيدلي) والعالم الفيلسوف (رينيه جينو) الذي ألف عدة كتب منها: أزمة العالم الحديث، والشرق والغرب، ورمزية الصليب، الذي فند فيه أن الإسلام انتشر بالسيف. والدكتور(جرينييه).

يرى بعض الباحثين أن البداية الحقيقية للاستشراق، كانت مع الحروب الصليبية، حيث بدأ الاحتكاك السياسي والديني بين الإسلام والصليبية الغربية النازية، واستحكام العداء بين المسلمين والصليبيين الغربيين، أيام نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، والملك العادل، إثر الهزائم المتكررة التي ألحقها هؤلاء القادة العظام بالصليبيين، مما دفع الغرب إلى الانتقام بكل الوسائل[1].

ومما يؤكد هذا، ذلك الخبر الذي أورده ابن الأثير في كتابه الكامل، ومفاده: إن

(1) الاستشراق بين الموضوعية والانفعالية، قاسم السامرائي، دار الرفاعي، الرياض، 1983م، صفحة 20

بطريرك بيت المقدس خرج مع كثير من مشهوري الصليبيين وفرسانهم، حين فتح صلاح الدين بيت المقدس، ولبسوا السواد، وأظهروا الحزن على ذهاب بيت المقدس من بين أيديهم، ودخلوا بلاد الإفرنج، وصوروا المسيح، وجعلوا صورة رجل عربي أمامه، والعربي يضرب المسيح، وقد جعلوا الدماء تسيل على صورة المسيح، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله(1).

وهناك رأي يقول: إن نشأة الاستشراق يعود إلى الحروب الدموية، التي نشبت بين المسلمين في الأندلس ونصاريها، خاصة بعد استيلاء (الفونس السادس) على طليطلة سنة 488هـ / 1085م. فنشأت حركة التوبة والتكفير عن الذنوب، وكان مركزها في دير كلوني، في جنوب فرنسا، برئاسة الراهب الفرنسي (بطرس المحترم)، الذي كلف أليهودي المتنصر (بطرس أوبيدرو) سنة 1142م، بترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية. وعلى تلك الأرض نشأ أول قاموس لاتيني عربي على يد (ريموند لول)، وكان قد تعلم العربية على يد عبد عربي(2).

تأسس الاستشراق رسميا، وبدأ انطلاقته الحقيقية في القرن الرابع عشر الميلادي، بقرار من الكنيسة ليعمل على حسابها، على أساس أن الإسلام يمثل مشكلة للغرب المسيحي، وكان على هذا الغرب أن يتعامل مع هذه المشكلة (الإسلام) بوسائل فعالة. ثم تطور الحال في أوربا وتغير، وخرج الناس من سلطان الكنيسة، وتخلص معهم المستشرقون من العمل لحساب الكنيسة.

ثم تطور الحال في أوربا مرة أخرى، وجاءت مرحلة السيطرة أو الهيمنة الاستعمارية على الشرق، وتكوين الإمبراطوريات والمستعمرات في العالم الإسلامي، في القرن التاسع عشر، وانحاز كثير من المستشرقين إلى مواقف بلدانهم الاستعمارية من الشرق، وسخروا علومهم ودراساتهم وأحكامهم لخدمة الأهداف الاستعمارية لبلادهم.

---

(1) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، القاهرة، 1343هـ، ج9، صفحة 201.

(2) الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بارت، ترجمة د. مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي، 1967م.

وهنا نشأ تحالف ثالوثي جديد بين الاستعمار والاستشراق والتبشير.

لا شك أن حركة الاستشراق في بدايتها، كانت موجهة لمعرفة تفصيلات الحياة الاجتماعية، والنفسية للشعوب الواقعة في قبضة الاستعمار، بالإضافة إلى كل ما يقوم به الاستعمار من أمور سياسية، ورصد اتجاهات الفكر، والعناصر الاقتصادية. ثم عدل الاستشراق مساره، بعد أن دالت دولة الاستعمار، وحل محلها استعمار من نوع جديد، هو استعمار الفكر، وتسليط المبادئ الاجتماعية، ونمط الحياة، وصولا في النهاية إلى الخضوع السياسي والاقتصادي، وكانت العلمانية من بين الأغراض المهمة، التي أراد الاستعمار بثها، عندما وجد أن الإسلام خاصة، يرتبط باتجاهات الشعوب الإسلامية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فكانت الخطوة الأولى تحييد المسلمين بدعوى الليبرالية المطلقة، وعدم الخضوع للغيبيات. وقد أثرت هذه الحركة على بعض المفكرين، ووجدوا أن نمط الحياة الأوروبية قد يكون مثلا أعلى، يحقق للمجتمع العربي التقدم والرفاهية، ولكنهم أخذوا بالظاهر دون الجوهر.

لا ريب أن الدافع الأول للاستشراق في الغرب، هو الدافع الديني، فقد بدأ الرهبان هذه الخطوة، وكان أكبر همهم الطعن في الإسلام، وتشويه محاسنه، وتحريف حقائقه، وإنكار المقومات الثقافية والروحية للأمة الإسلامية، والتنديد والاستخفاف بها، ليبثوا للجماهير الخاضعة لزعامتهم أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج، لصوص، سفاكو دماء، يحثهم دينهم على الملذات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي.

ثم اشتدت حاجتهم إلى هذا الهجوم في الوقت الحاضر، بد أن رأوا الحضارة الحديثة، قد زعزعت أسس العقيدة المسيحية عند الغربيين، وأخذت تشككهم في كل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين عندهم، فلم يجدوا خيرا من تشديد الهجوم على الإسلام، لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدة مزيفة، وكتب مقدسة محرفة، وهم يعلمون ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى، ثم الحروب الصليبية، ثم الفتوحات العثمانية في أوروبا بعد ذلك، في نفوس الغربيين من خوف من قوة الإسلام، وكره أهله، فاستغلوا هذا الجو النفسي، وازدادوا نشاطا.

حدد المستشرق الألماني المعاصر (رودي باريت) هدف الاستشراق بوضوح وصراحة وجرأة، فقال: "كان الهدف من هذه الجهود الاستشراقية في ذلك العصر، وفي القرون التالية هو: التبشير، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي". وقال أيضا:

"كان موقف الغرب النصراني في العصور الوسطى من الإسلام، هو موقف الدفع والمشاحنة فحسب. حقيقة إن العلماء ورجال اللاهوت، كانوا يتصلون بالمصادر الأولى الأصلية، في تعرفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير، ولكن كل محاولة لتقييم الإسلام على نحو موضوعي، كانت تصطدم بحكم سابق، يتمثل في أن هذا الدين المعادي للمسيحية، لا يمكن أن يكون فيه خير، وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم، إلا تلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المقرر من قبل، وكانوا يتلقون منهم كل الأخبار، التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى الإسلام"[1].

أما (مكسيم رودنسون)، فقد صور مقدار الهلع والخوف الذي اجتاح رجال الكنيسة في الغرب من الإسلام، فقال: "كان المسلمون خطرا على الغرب قبل أن يصبحوا مشكلة، كما كانوا في نفس الوقت عامل اهتزاز شديد في بنيان الوحدة الروحية للغرب، وأنموذجا حضاريا يجتاز بتفوقه، وبحركته الإبداعية المتسارعة، وقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب. إلا أنه وفي مواجهة تقدم هذا الأنموذج، عبر مثقفو الغرب عن شعور عام بالاندهاش أمام الإسلام، وبدا ذلك لهم، وكأنه خطر حين سيطرت الخلافة العثمانية على دول البلقان، حيث بدأت مرحلة الخطر التركي على الغرب، ولا سيما حين زحفت الخلافة على أبواب فيينّا، تعرض التعايش بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي لهزات عنيفة، أخذت المواجهة بينهما صيغة الصراع المسلح، وسياسة الشماتة، والأخذ بالثأر مرة أخرى.

كان من أهم الخطوات التي اتخذها رجال الكنيسة في أوروبا، لمواجهة مشاعر الاندهاش والخوف من الإعجاب بالإسلام، أن تعمل على تشويه صورة الإسلام، وهذا

---

(1) المرجع السابق، صفحة 9-15.

ما يشير إليه (مكسيم رودنسون) حيث يقول: "إن هذه المشاعر نحو الإسلام، قد أدت إلى نتيجتين هامتين، أولاهما: السعي نحو وحدة أيديولوجية أوروبية متكاملة، في مواجهة فكر الإسلام وحضارته، وأخراها: أن الكنيسة الأوروبية قد عملت من أجل تثبيت الإيمان المسيحي، على تشويه المنتجات الحضارية للإسلام، وما يصل منها إلى مسامع الغربيين"[1].

نشط اللاهوتيون النصارى في ذلك الوقت المبكر ضد الإسلام، وراحوا ينشرون الافتراءات والأكاذيب حوله، وحول نبيه محمد ﷺ، وزعموا أن الإسلام قوة خبيثة شريرة، وأن محمدا ﷺ ليس إلا صنما، أو إله قبيلة، أو شيطانا، وأن المسلمين يعبدون ثلاثة آلهة هي: ترفاجان، ومحمد، وأبو للو[2].

ومن أجل نجاح الهجوم ضد الإسلام، طالب الدعاة المتحمسون بضرورة تعلم لغة المسلمين، لغرض تنصيرهم، وكان من أبرز هؤلاء: روجر بيكون (1214–1294م)، وريموند لول (1235–1316م)، وقد أقر مجمع فيينا الكنسي سنة 1312م، أفكار بيكون ولول، بشأن تعليم وتعلم اللغات الإسلامية، وتمت الموافقة على تعليم اللغة العربية في خمس جامعات أوروبية هي: باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وسلمنكا، وروما. وهذا مما دفع المستشرقة الأمريكية المعاصرة (مارجريت ماركوس) إلى القول: "كل هذا من أجل التمكن من العدو وتدميره، وإجهاض القضية الإسلامية، وإحباط أي محاولة لبعث حقيقي إسلامي".

وأضافت هذه المستشرقة: "إن العالم الغربي مستمر في حرب الإسلام، بأكثر الأسلحة تطورا، وعلى مستوى متقدم من الأستاذية، إذ يوجد ما لا يقل عن ثماني مجلات دورية أمريكية وأوروبية مكرسة كليا، واثنتان مخصصتان بصورة جزئية للهجوم على الإسلام".

أما المستشرق مونتجمري واط، فقال: "لقد قامت في صفوف المستشرقين في

(1) دراسات في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، صفحة 81.

(2) راجع كتاب: الإسلام في الفكر الغربي، د. محمود حمدي زقزوق، طباعة الكويت، 1981م.

السنوات الأخيرة محاولة إيجابية، تحاول النفاذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الديني للمسلمين، بدل السطحية الفاضحة التي صبغت دراساتهم السابقة[1].

لم يكتف المستشرقون بفرض النظرة الاستعلائية العنصرية الغربية، التي أضحت بمثابة الغريزة أو الجبلة الثابتة، بل راحوا يبثون السموم في الدسم، حتى راجت افتراءاتهم وآراؤهم وانتشرت، وساعد على ذلك تكامل جهودهم، وامتلاكهم أدوات التأثير، وهيمنة الحضارة الغربية على العالم اليوم.

لا شك أن المستشرقين قد بذلوا أعظم الجهد وأخطره، فيما يمكن أن يندرج تحت ما يطلق عليه: الحوار بين الحضارات. وقد درس بعض الباحثين هذا الجهد الكبير وقيموه، وذهبوا فيه مذاهب شتى، بين مادح لا يرى فيه عيبا ولا عوجا، ولا أمتا ولا نقصا، وقادح لا يرى غير السلبيات والمثالب.

خاض المستشرقون في مجال الشريعة الإسلامية واللغة العربية وآدابها، بما لا مزيد عليه، فترجموا وألفوا وشوهوا وفهرسوا، وضلوا وأضلوا غيرهم، بعد أن سلكوا مضائق التعميم والأحكام المسبقة القاطعة، دون أدنى عقلانية، أو أدنى أمانة علمية، وهذا ما تأباه طبيعة البحث العلمي ومناهجه الصحيحة.

ولهذا تواطنوا على دراسة الإسلام بمنهج معوج، متنكّب عن الصراط السوي، وقدموا الإسلام في صورة كريهة مشوهة، ألوانها الأكاذيب، والأباطيل، والافتراءات، والتحامل الممزوج بالأحقاد الدفينة، والنيات الخبيثة المبيتة، رسموها للإسلام والمسلمين، في عقل المواطن الغربي ووجدانه، فسمموا عقولهم، وأفسدوا مشاعرهم ضد الإسلام.

تعمد الفكر الغربي أن يقدم لنا ألوانا من البغضاء الدفينة، ونوعا من سوء الفهم المتعمد، فكيف استطاع أن يزيف ما رواه التاريخ عن تعاليم الإسلام ورسوله؟ حين قدم تفسيراته الباطلة والملفقة للقرآن الكريم، وسنة رسول الله محمد ﷺ، وتاريخ الإسلام، حيث قدم الإسلام على أنه مزيج من الفلسفات القديمة، وبقايا ملل مرفوضة من اليهودية والمسيحية، وحين قدم من تحت عباءته صورة الرسول الأكرم مشوهة مكذوبة

---

(1) الاستشراق، د. محمد عبدالله الشرقاوي، جامعة القاهرة، كلية العلوم.

على التاريخ، وعلى الرأي العام الغربي، وأصبحت تلك الرسالة التي تشكل حياة المسلم، تنتهي – وفق التفكير الغربي – إلى التهافت والاندثار.

أما عن تلك المسألة التي أثارها المستشرقون، وأسموها بقضية أصول أو مصادر الإسلام، وأنها تكمن في اليهودية والمسيحية والتقاليد العربية وغير ذلك، فإنها مسألة بدأها (يوحنا الدمشقي 675–749م)، ولم يزل المستشرقون يجمعون عليها في تسليم غريب بصحتها، كأنها من البدايات المسلمة أو من المتواترات المتيقنة. وقد خاض معظمهم في البحث عن أصول أو مصادر القرآن غير الوحي النبوي. كل ذلك من أجل إثارة غبار من الشك في مصدر القرآن الكريم، والقول إن محمدا ﷺ قد ألفه أو لفقه من الأسفار اليهودية، والمسيحية، ومن الجاهلية العربية وغير العربية. حتى دفع المستشرق اليهودي المعاصر (جويتين Goitein)، إلى التبجح بالقول: "الإسلام من صميم لحم وعظم اليهودية"[1].

"Islam , however , is from the very flesh bone of jodaism " .

وهو الذي راح ينادي بضرورة إحلال العاميات المحلية محل لغة القرآن، لأن اللغة العربية الفصحى غير قادرة على مواجهة حاجات المجتمع الحديث[2].

أسهمت كتابات يوحنا الدمشقي، الذي يعد اللاهوتي المسيحي الأول، الذي يسجل عن الإسلام أنه (هرطقة) أي بدعة مسيحية، وأن الإسلام ديانة زائفة، وأن الله ليس هو الرب أو السيد، كما يعتقد فيه النصارى، وأن الإسلام قد اخترعه محمد بدوافع الطموح الشخصي، وأنه قد نشره بحد السيف"[3].

أسهم هذا الافتراء والتشخيص المبكر في تشكيل صورة النبي محمد ﷺ في الغرب، وزادوا عليها أنه لم تبشر به الكتب السابقة، ولم تجر المعجزات على يديه، ولم يوح إليه بالأسرار، وأن أي إنسان يمكن أن يصنع ما صنعه محمد، الذي سلك طريق النجاح

(1) اليهود والعرب، جويتين، نيويورك، 1955م، صفحة 129.

(2) المرجع السابق، صفحة 43-45 و 133-134.

(3) كتابات يوحنا شوهاس الدمشقي عن الإسلام، طبعة ليدن، 1972م، صفحة 132-141

الشخصي، بينما عاش عيسى الرب من أجل الإنسانية.

إننا نقول لهؤلاء وأمثالهم من الحاقدين والمغرضين:

مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده، بالحجة والحكمة والموعظة الحسنة، وقد أذاقته قريش والمؤمنين معه صنوف العذاب والأذى، فظُلم وظُلم أصحابه.. وأخيرا ترك مسقط رأسه مهاجرا إلى المدينة المنورة، وصودرت أمواله وأموال المسلمين.

وفي المدينة المنورة أعلن النبي ﷺ حربا اقتصادية ضد قريش، ليرغمها بها على الاعتراف بحقوقه وحقوق أصحابه المنهوبة في مكة، وحقه في نشر الدعوة الإسلامية، فخرج يريد قافلة أبي سفيان التي تمكنت من الإفلات. ولما خرجت قريش بقضّها وقضيضها، تريد الاقتصاص من محمد وصحبه، أذن الله سبحانه وتعالى لنبيه بالقتال.

قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [1].

وقال تعالى﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [2].

هكذا نرى أن القتال في الإسلام لم يشرع إلا دفاعا عن النفس، سواء كان في معركة بدر أو أحد أو الخندق، ورغم هذا، فإن محاربة النبي ﷺ لقريش كان أمرا مشروعا إنسانيا له ما يبرره، **لأنه** ﷺ كان في موقف الدفاع أمام من ناصبوه العداء، وحاولوا القضاء على رسالته، ولم يرعوا فيه إلاّ ولا ذمة، فأخرجوه وصحبه من ديارهم، وصادروا أموالهم، وعندما أراد ﷺ فتح مكة، أمر أصحابه أن لا تزهق أرواح أو تراق دماء.

---

(1) سورة الحج، الآيتان 39-40.

(2) سورة البقرة، آية 190.

استطاع ﷺ بهذه الحروب، أن يحرر الجزيرة العربية من الشرك والوثنية، والظلم والفساد بأقل الخسائر وخلال مدة وجيزة، ولم يتعد عدد القتلى من العرب أكثر من 375 قتيلا، خلال ثلاث وعشرين سنة.

لقد سل المسلمون سيوفهم ضد ملوك فارس أنصاف الآلهة، وضد الروم المتآمرين، لا ضد الشعوب، من أجل تحريرها من الظلم والقهر والبطش، ولهذا يقول الإمام محمد الغزالي في كتابه التعصب والتسامح، صفحة 90: "إن الإسلام لو استخدم قوة عسكرية ضد حكومات تعتمد سياستها على تأمين حقوق الفرد، وإطلاق حريته الدينية، لكان قد ارتكب جريمة من أقبح الجرائم".

أما بالنسبة لقتال اليهود، فكان مشروعا له ما يبرره، فقد كان ﷺ محقا في إجلاء اليهود من بني قينقاع بعد موقعة بدر لمؤامرتهم وتطاولهم وغرورهم، وكان ﷺ محقا في جلاء بني النضير بعد موقعة أحد، لتآمرهم مع قريش ضد المسلمين، وكان محقا في إجلاء يهود بن قريظة بعد موقعة الخندق، لنكثهم عهودهم معه، وهو في أشد حالات الحرج، بعد أن ساعدوا قريشا وحرضوها ضد رسول الله ﷺ.

أما بالنسبة لحربه ﷺ في معركة مؤتة، فكانت بعد أن قتل الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الغساسنة، الصحابي شجاع بن وهب الأسدي، الذي ذهب إلى الحارث الغساني يدعوه إلى الإسلام بكل لطف ولين، وكان قتله انتهاكا للعرف الدولي، لأن الرسل والوفود لا تقتل مهما عملت ومهما تكلمت.

لم يفرض الله سبحانه وتعالى الجهاد لإكراه الناس على الإسلام، لأن الإكراه لا يؤسس عقيدة، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (1). وعلى هذا فالحرية مكفولة في أحكام ودستور الإسلام، ولو صح قول بعضهم إن الإسلام قد سل سيفا، وفرض نفسه على الناس جبرا، لما وجدنا شيئا اسمه الجزية والذميون.

قال شيخ المؤرخين المعاصرين (توينبي): "من الميسور أن نسقط الدعوى التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلوا في تجسيم أثر الإكراه في الدعوة الإسلامية. إذ لم

---

(1) سورة البقرة، آية 256.

يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف، وإنما كان تخييرا بين الإسلام والجزية، وهي الخطة التي استحقت الثناء لاستنارتها، حين اتبعت بعد ذلك في البلاد الإنجليزية، على عهد الملكة اليزابيث"[1]. فكيف يعتبر مبدأ الإسلام أو الجزية في الشرق منكرا وقسوة وعارا؟ بينما ينظر إى مبدأ المسيحية أو الجزية في الغرب – وفي إنكلترا بالذات – على ان خطة حكيمة تستحق الثناء؟

لقد عميت بصائر الذين يدعون أن الإسلام انتشر بقوة السيف عن التاريخ القديم، وكيفية انتشار الديانات السابقة، والتي لا تخفى على المطلعين المنصفين، ومن هذه الطرق:

لقد فرض (أمنحوتب) فرعون مصر على شعبه عبادة إله الشمس (آتون)، وأغلق معابد الآلهة الأخرى، ومحا صورها وطمس أسماءها، وكل مخالف تعرض للاضطهاد والعذاب[2].

أما بشأن البوذية، فكانت لا شأن لها قبل (أزوكا) الذي اعتنقها واهتم بنشرها خارج مملكته، حتى وصلت إلى بورما وسيلان في جنوب شرق آسيا[3]. وكذلك الحال بالنسبة للمزدكية، التي لم يكن لها اعتبار قبل (قباذ) الملك الفارسي، الذي تبنى هذه العقيدة، وحاول فرضها جبرا على شعبه كله، وحتى على المناذرة العرب التابعين له في العراق.

أما الزرادشتية، فلم تنتشر قبل (دارا) كسرى فارس، الذي نشرها حربا بعد قرن من وفاة زرادشت، حتى وصل بها إلى أثينا عاصمة اليونانيين القدماء.

أما بالنسبة للمسيحية، فإنها لم تكن لتنتشر لولا سلطة (قسطنطين)، الذي أراد أن يكون سيدها، فاستغل الخلافات الداخلية للكنيسة، وأصدر مرسوم ميلانو سنة 313م، الذي اعترف بموجبه بالمسيحية، وأهال عليها معطياته.

---

(1) ما يقال عن الإسلام، عباس العقاد، صفحة 27.

(2) راجع تاريخ الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز عثمان، قسم تاريخ مصر القديم.

(3) راجع كتاب تاريخ الحضارة لجورج حداد.

أما (شارلمان) فقد كان متحمسا للمسيحية، يؤمن أن من واجبه تحويل جيرانه إلى المسيحية، ولم يكن يؤمن بالحجة وضرب الأمثال كطرق للهداية، بل كان يفضل طريق القوة[1]. فقد ظل يحارب السكسونيين ثلاثا وثلاثين سنة، كلها عنف ووحشية، حتى أخضعهم وحولهم قسرا وبقوة السيف إلى الديانة المسيحية، على يد القديس (ليودجر) والقديس (ويليهاد)[2].

ويضيف توماس آرنولد: "وفي الدنمارك نشر الملك (كنوت) المسيحية في ممتلكاته بالقوة والإرهاب، ومن ثم أخضع الأمم المغلوبة على أمرها بالقانون المسيحي، بعد أن اشتبك مع الممالك المتبربرة في حروب طاحنة، مدفوعا بما يضرم في نفسه من الشوق إلى نشر العقيدة.

وأضاف كارليل: "وفي روسيا، نشرت الدعوة المسيحية على يد جماعة اسمها: إخوان السيف **Bretheren Of The Sword**.

ويقول الدكتور (غوستاف لوبون) في كتابه حضارة العرب: "ولقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط، الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي. وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر، التي كانت مسرحا للاختلافات الدينية في ذلك الزمن، وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية، وأنهكها استبداد الحكام، تحقد أشد الحقد على سادتها الروم، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين"[3].

لقد أعمى الحقد الدفين أعين هؤلاء المستشرقين عن تاريخهم الأسود، وضربوا صفحا عن الحروب الصليبية، التي حملت الصليب شعار فظائعها، وانتهاكها للمفهوم

(1) راجع العدد الثامن من موسوعة المعرفة التي تنشرها شركة ترديسكيم، جنيف، التي صدرت بالعربية في 20 أيار 1971م، صفحة 122-123.

(2) راجع كتاب الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، صفحة 30، وكتاب الأبطال للمؤلف نفسه، صفحة 76.

(3) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة أكرم زعيتر، الفصل الرابع، العرب في مصر، صفحة 236.

البشري. فعندما احتمى أهل قيسارية بجامع المدينة، لاحقهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم، دون أن يفرقوا بين الرجال والنساء والأطفال، حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين[1].

أما عن مجزرة بيت المقدس، التي وقعت سنة 1099م، حيث يقول لوبون: في مسجد عمر وحده في القدس، ذبح عشرة آلاف مسلم[2].

هذه المجزرة والفظائع الوحشية، كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى، وصفحة سوداء في تاريخ أوربا كلها، باعتراف المؤرخين الأوروبيين المنصفين، خاصة تلك الفظائع التي اقترفها لويس السابع، وزوجته إليانور، وريموند دي بواتيه، والتي وصفها المؤرخون الأوروبيون المنصفون بقولهم: بربرية همجية. إذا ما قورنت بالتسامح والمحبة، والعفو والمساواة، عندما تسلم الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب بيت المقدس سلما، وعندما فتحها صلاح الدين الأيوبي، وحررها من الصليبيين المعتدين.

ويكفي الإسلام والمسلمين فخرا، ما سجله المؤرخ (غوستاف لوبون) حين قال: "لم ينتشر القرآن بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب".

وقوله: "أية قوة عجيبة تكمن في هذا الدين؟ وأية قوة داخلية من قوى الإقناع تنصهر به؟ ومن أي غور سحيق من أغوار النفس الإنسانية ينتزع نداؤه استجابة مزلزلة؟"

وقوله: "سيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب، وأسباب انتصاراتهم، أن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن، وأن العرب تركوا المغلوبين أحرارا في أديانهم". وقوله أيضا: "ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب".

ويكفي الإسلام فخرا ما قاله (جاك.س.ريسلر) في كتابه الحضارة العربية، صفحة 27: "قامت الانتصارات المدوية للعرب على أسباب متنوعة، تتجلى أهمها في الخلق السامي، الذي كان قد تشربه العرب عن الدين الجديد".

ونقول: إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم، ولكنهم نقلوا الأمم إلى

---

(1) الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ج1، صفحة 294.

(2) حضارة العرب، صفحة 226.

الإسلام، الذي دخل النفوس عن قناعة، ولم ينجل فتحهم عن غالبين ومغلوبين.. وها هو سلطان الإسلام السياسي والعسكري الحربي ينحسر عن تلك الأصقاع، ولكنه ما زال مستقرا فيها إلى يوم القيامة.

على هذا الأساس، فإن أسس إعلان الجهاد الإسلامي تقوم على:

- إزالة عوائق الحرية العقلية، وحماية الشخصية الإنسانية من الانحدار في هوة من الإسفاف، وإتاحة المجال لإبراز خصائصها الخيرة، وتخليصها من شوائب الخرافة والوهم وعبادة المادة، واستغلال المستضعفين، لتتقرر كلمة الله في الأرض وتعلو.
- رد الظلم والبغي والعدوان عن الدين والوطن والأهل والمال والولد.
- كفاية حرية الدين والاعتقاد.
- تأمين طريق الدعوة لدين الله، بأمر من الله، باعتبارها رسالة اجتماعية إصلاحية ومنقذة شاملة، تنطوي على مبادئ الحق والخير، والعدل والمساواة والإخاء وعبادة الله وحده.
- نصرة المظلومين المضطهدين من الشعوب.

إن للحروب عند المسلمين آدابا لخصها الخليفة الأول أبو بكر الصديق في عشر خصال، جاءت في خطبته التي ودع بها جيش أسامة بن زيد، وفيها يقول: "يا أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني:

1. لا تخونوا ولا تغلّوا.
2. ولا تغدروا ولا تمثلوا.
3. ولا تقتلوا طفلا صغيرا.
4. ولا شيخا كبيرا ولا امرأة.
5. ولا تعقروا (قطع الرأس) نخلا ولا تحرقوه.
6. ولا تقطعوا شجرة مثمرة.
7. ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة.

8. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا انفسهم له.

9. وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها.

10. وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقا.. اندفعوا باسم الله "[1].

ومن آداب الإسلام في الجهاد: عدم التمثيل بالتقتيل، أو الحرق بالنار، أو تجويع الأعداء (الحصار الاقتصادي)، أو إرهاب الأسرى. ومن الآداب ضرورة إعلان الحرب قبل البدء بالقتال، للابتعاد عن المكر والخديعة، ولا تعلن الحرب إلا بعد استنفاذ جميع وسائل النصح والدعوة (الإسلام، أو الجزية، وإلا الحرب)، ثم عدم التفاخر بالنصر أو مراءاة الناس. كما حرم الإسلام استخدام أسلحة الدمار الشامل، كالقنابل الذرية، وقنابل النابالم المحرقة، والقنابل العنقودية، والقنابل الذكية، ضد الحجر، وضد المقاومة المشروعة؟؟

لقد أخذ القانون الدولي الحديث هذه الآداب الإسلامية، وتبنتها الأمم المتحدة شعارا للإنسانية، الذي ما زال حبرا على ورق، بينما كان إيمانا راسخا لدى كل المجاهدين من المسلمين الأولين.

أما بنود هذا القانون فهي:

- إخطار الدولة التي سيعلن عليها الحرب بميعاد معين.
- إن الرعايا غير المنتظمين في الجيش لا يعدون محاربين، ولا يجوز إلحاق الأذى بهم، وإن وصف المحاربين خاص بكل جندي أو محارب.
- منع القانون الدولي الإجهاز على الجرحى، ومنع تعذيب العدو والفتك به غيله.
- حسن معاملة الأسرى وعدم مسهم بأي أذى.

---

(1) الكامل، ابن الأثير، ج2، صفحة 227، وتاريخ الطبري، ج3، صفحة 226

أما المستشرق (مونتجمري واط)، فلا يزال مغرما بترديد القصص المدسوسة، ثم يقدم نصيحة بأن على الإسلام أن يقبل، ويقر بالحقائق حول أصوله، ويوضح قصده بقوله: إن على الإسلام أن يعترف بالتأثير الواقعي للموروثات الدينية اليهودية والمسيحية، والموروثات الثقافية السورية والعراقية والمصرية القديمة على بنائه، وفي هذه الحالة، يقبله الغرب ولا يرفضه[1].

ناقش مونتجمري واط فريضة الجهاد الإسلامي، والحكم عليها بأنها أضعف جوانب الإسلام، وإنها ليست إلا عادة عربية قبلية قديمة. ويقول واط: برغم أنه من المشكوك فيه اعتبار فكرة الجهاد فكرة مناسبة، أكثر من اعتبارها فكرة غير مواتية، فإنه بينما يمكن للقبيلة في الصحراء، أن تعتبر كل جيرانها بمثابة أعداء لها، فإنه لا يتيسر للدولة الكبيرة المعقدة، أن تسلك هذا الطريق. وفي صدر الإسلام كان لزاما على كل مسلم قادر أن ينخرط في معسكر الجهاد، وكان أكثر المسلمين يناضلون، ليبقوا لائقين للخدمة العسكرية طوال حياتهم، لأنهم بذلك يحققون ميزة العيشة الأرستقراطية، كجزء من الطبقة الحاكمة[2].

ويضيف هذا المستشرق قائلا: "لقد كان من التهور الكبير، ادعاء أحد مواطني مكة المعزولة، أنه قد أسس دينا منافرا للديانتين المسيحية واليهودية.. كيف يتأتى لرجل لم يتجاوز أتباعه ثلاثمائة رجل في معركة بدر سنة 624م، أن يضع نفسه في نفس مستوى عيسى، الذي يبلغ عدد أتباعه ملايين داخل الإمبراطورية الرومانية، وملايين خارجها في الشرق والغرب معا؟

ضل بعض هؤلاء المستشرقين، وأضلوا جيلا كثيرا، فقال المستشرق (تنمان): "إن القرآن معوق للفكر، مقيد لحريته، وإن المسلمين تلقوا فيه أحكاما، ولم يتلقوا فيه عقائد[3]، وإن النظر العقلي العربي كان محاولة لإصلاح القرآن، وتكميله في الجانب الذي

---

(1) الإسلام والتكافل الاجتماعي، مونتجمري واط، لندن، 1961م، صفحة 188-189.

(2) الإسلام والتكامل الاجتماعي، واط، لندن، 1961م، صفحة 160.

(3) تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور، ترجمة د. محمد أبو ريدة، طبعة القاهرة، 1970، صفحة 66.

قصر فيه". ويرى (جيوم) أن من العسير أن نقول: إن القرآن قدم إلى المؤمنين المادة اللازمة لتكوين مذهب في فهم الله[1]. وليعلم هؤلاء جميعا: أن الله موهن كيد الكافرين، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، وما كيد الكافرين إلا في ضلال.

إن الإسلام في نظرهم هو احتقار العلم، وهو إسلام خرافي، أسطوري، ضبابي، وتقديس أعمى.. وهو القنبلة الموقوتة التي ستنفجر فجأة، إنه الإرهاب، والتدمير، والقتل، والدم.. لأن العربي عندهم يمتلك نزعة التناحر والاحتراب، وأنه فرداني وأناني، وأنه ينمو ويتنفس في غير محيطه... يميل إلى الشورى، ولكنه أيضا يميل إلى الوساطة... العربي عندهم متقلب كالصحراء، يصعب أن تقيم العواطف والأفكار والتناقضات في داخله طويلا، ولهذا فهو يتعامل مع الآخرين بكل قسوة ودون إحساس بالذنب... وما دعاء الكافرين إلا في ضلال.

ولم يكتف هؤلاء الموتورون بهذا الزيف والهراء، بل راحوا يتطاولون بكل خسة وجبن ونذالة، على أعظم إنسان عرفته البشرية، منذ أن خلق الله الأرض وما عليها، يكنّ لها المسلمون كل حفاوة وتبجيل واحترام وأسوة، وهو الرسول الأكرم محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي، كيف لا، وقد مدحه الحق تبارك وتعالى من فوق سبع سموات قائلا: "وإنك لعلى خلق عظيم"، وهم يعلمون أنه ذلك النبي الذي بشر به المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام، والذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل.

ثم اشتدت حدة النقد الهجومي على الإسلام، وأخيرا مع ضعف الخلافة العثمانية، وزوال الخوف المرضي، وذلك حين قام مصطفى كمال بدعوته إلى تغريب تركيا حاضرة الخلافة الإسلامية، بتجارتها وثقافتها، وأخذ الاستشراق يتهم الإسلام كدين، بأنه سبب انحطاط الشعوب الإسلامية، وأن هذه الشعوب لا مفر منقرضة. وأن دولة الخلافة قد صار أمرها، إلى أن أصبحت الرجل المريض، وقوي نشاط المبشرين للمسيحية في العالم الإسلامي، وقوي إلى جانبه نشاط الدعاة إلى الحضارة الغربية.

وعلى إثر ذلك، بدأ المفكرون والكتاب من المسلمين نشاطهم في ناحيتين:

---

(1) راجع: الاستشراق، د. محمد عبد الله الشرقاوي، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، صفحة 169.

أولاهما: سياسية، وهي الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، والثانية: دينية تجديدية، وهي الدعوة التي قام بها الشيخ محمد عبده، والذين قاموا في أثره.

كان غرض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية: تجنيد الرأي الإسلامي ضد غزوة أوربا المسيحية، حيث أيد الباب العالي والخليفة التركي هذه الدعوة، بكل ما لديه من قوة. على أن هذه الدعوة وجدت في غزو الحضارة الأوروبية من قوة المقاومة ما أضعفها، ذلك بأن الشعوب الإسلامية شعرت شعورا عميقا، بضرورة الاستفادة مما كشفت عنه حضارة الصناعة، وما روجت له هذه الحضارة من تنظيم اسباب الحياة، في المسكن والملبس ووسائل العيش، على المسيحية"[1].

أما التجديد الديني، فقد قام على أساس شعور عميق عند الشيخ محمد عبده، وعند طائفة من أنصاره وأصحابه، بأن الجمود الذي استولى على المسلمين، إنما كان سببه إقفال باب الاجتهاد، وأخذ الناس بالتقليد الأعمى، وترويج خرافات وأوهام باطلة.

يقول المستشرق (جب): "ظل علماء الإسلام يعلمون الناس مدى عشرة قرون تباعا، لمناسبة وغير مناسبة، وجوب الإذعان للسلطة، سواء أكانت هذه السلطة شرعية أم مغتصبة، وقوى المتمسكون هذا الدرس في النفوس، بصورة لا تحتمل الريب، وتبدي الهمود السياسي وكأنه متأصل في الشعوب الإسلامية، حتى عزاه الغربيون الذين لاحظوا تحمل المسلمين للضغط وسوء الحكم، إلى العقيدة القدرية في الإسلام. لكن هذه لم تكن قط أكثر من نصف حقيقة، فالقدرية بهذا المعنى المطلق لم تكن سببا بمقدار ما كانت نتيجة. والاستكانة السياسية التي بدأ بها الشعب الإسلامي إزاء الغير، ترجع في معظمها إلى أسباب مادية.. البؤس الاقتصادي من أكثرها ظهورا".

وما أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وتحول مركز الثقل وقيادة العالم من أوربا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، يمم الاستشراق وجهه شطر أمريكا، التي اجتذبت كثيرا من المستشرقين الأوروبيين إليها، وبذا تكون الحركة الاستشراقية قد دخلت طورا جديدا ومعاصرا، وراح المستشرقون والمبشرون يعدلون خططهم في تغيير أفكار الأفراد

(1) دراسات في الفكر الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، نشر مكتبة الزهراء، 1990م.

المسلمين، إلى وجهة نظرهم وأفكارهم، وتغيير الإسلام نفسه بإعطاء تفسيرات له مختلفة تماما، وشن حركة منظمة لإعادة بنائه من الداخل، وقد تبنت معظم كتابات المستشرقين المعاصرة هذا الطريق.

أخذ الاستشراق المعاصر على عاتقه مهمة التحرش الثقافي مع القوى الأمريكية، وعلى رأس هذه القوى: الشيوعية والإسلام، أما وإن الشيوعية اليوم قد انتحرت واندثرت، فإن الإسلام بقي وحده ليمارس معه الاستشراق المعاصر.

أخذ الاستشراق في المرحلة الأمريكية الراهنة ملامح جديدة منها: الاهتمام بدراسة المجتمعات الإسلامية دراسة ميدانية، ودراسة ما أسموه بالإسلام الشعبي، والتركيز على بحوث التصوف والطرق الصوفية، والاهتمام بتتبع المعتقدات الشعبية في المجتمعات الإسلامية، بالإضافة إلى دراسة هذه المجتمعات ذاتها، دينيا، وسياسيا، واجتماعيا، وثقافيا.. إلخ. كما ركز المستشرقون على ما أسموه بالإسلام السياسي، والحركات السياسية الإسلامية، ومناقشة برامجها وطموحاتها.

لقد أكد الدكتور إدوارد سعيد، في كتابه الاستشراق، أن الصورة المشوهة للإسلام والعرب ما زالت مستمرة في الدراسات الاستشراقية، وفي وسائل الإعلام في الغرب بوجه عام، وفي أمريكا بوجه خاص(1).

صورة الإسلام في الغرب في العصور الوسطى

قام الاستشراق أساسا على أن الإسلام دين بشري، ألفه محمد ﷺ، من اليهودية والمسيحية، وحرف في نقله، إما لأنه لم يستطع فهمهما، وإما لأن محمدا نفسه لم يرتفع إلى مستوى عيسى، حتى يتصوره على حقيقته، ولذلك أنكر محمد على عيسى أنه ابن الله، وبالتالي أنكر التثليث، وتشبث بالتوحيد، وببشرية الرسول. وعلى هذا الافتراء يقول (كيمون) المستشرق الفرنسي الكاثوليكي في كتابه باثولوجيا الإسلام: "إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا، بل هي مرض مريع وشلل عام، وجنون ذهولي، يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يستيقظ منه إلا لسفك الدماء،

---

(1) راجع كتاب: الاستشراق، د. إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت، 1981م.

ويدمن على معاقرة الخمر، ويجمح في القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي، يبعث الجنون في رؤوس المسلمين، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلي، وتكرار لفظ (الله) إلى ما لا نهاية، والتعود على عادات تنقلب إلى طبائع أصيلة، ككراهة لحم الخنزير، والنبيذ، والموسيقى، وترتيب ما يستنبط منه من أفكار القسوة والفجور في اللذات"[1].

أما المستشرق (ماكدونالد)، فقد كتب في مجلة العالم الإسلامي سنة 1933م، يصنف الإسلام بأنه ليس أكثر من هرطقة آريوسية من الدرجة الثانية، ويكون الرسول بذلك ليس أكثر من شخص خارج على الديانة المسيحية.

كان مفهوم الأوروبيين في العصور الوسطى عن العالم والإنسان والرب، شديد الارتباط بمفاهيم الكتاب المقدس، بحيث لم يكن في وسعهم أن يدركوا إمكان توافر صياغات بديلة للتعبير عن هذه المفاهيم، وبالتالي فإنه كلما اختلفت تعاليم الإسلام مع تعاليم المسيحية، قيل: إن الأولى زائفة بالضرورة.

ويمكن أن نضرب مثلا للنبرة العامة في الفكر الأوروبي، بصدد هذه النقطة، فقرة واردة في كتاب القديس (توما الأكويني). فبعد أن تحدث عن الآيات والأدلة العديدة، التي تؤكد صحة العقيدة المسيحية وتدعمها، بأن الكتاب المقدس هو التعبير النقي، الذي لا تشوبه شائبة، عن الحقيقة الإلهية، وفي طياته شكل مطلق، صالح لكل زمان ومكان، وإن التعاليم المسيحية تستهوي عقول الناضجين والمتعلمين والمثقفين، نجده يصر على أن هذه الأدلة مفتقرة لدى أمثال محمد، مما أسسوا ما أسماه توما بالفرق. ويزعم أن محمدا ﷺ قد انشق عن المسيحية وأسس فرقة جديدة، وعلى هذا قال (بطرس المحترم): الإسلام هرطقة مسيحية.

أكد المستشرق (ولفريد سميث)، على أن الإسلام كان تقدميا لوقته، لكن الزمان والظروف قد تغيرت اليوم على نطاق واسع. ولكي يكون الإسلام مفهوما ومقبولا من الطبقة المثقفة، عليه أن يعيد النظر في أطروحاته تماما بطريقة حديثة.

---

(1) المرجع السابق، صفحة49.

أما القديس توما فقد وصف أتباع محمد الأول، بأنهم رجال لا علم لهم بالإلهيات، يعيشون في الصحراء حياة أقرب إلى الحيوانات. ثم يضيف: إن هؤلاء الأتباع كانوا مع ذلك من الكثرة، بحيث مكنوا محمدا من إجبار الأخرين بالقوة العسكرية على اعتناق الإسلام.

وفي حين قنع توما الأكويني والكثيرون غيره من الكتاب، بالقول بأن محمدا قد خلط الحق بالباطل، تمادى آخرون فادعوا أنه: حيثما قال قولا سليما، دس فيه السم الكفيل بإفساده.

كان العلماء من أمثال توما الأكويني يحسبون أن محمدا ﷺ، إنما نشر الإسلام بالقوة العسكرية، كما كانوا يخالون أنه من بين تعاليم دين العرب الدعوة إلى السرقة من أعداء الله، ورسوله، وأسرهم وقتلهم، واضطهادهم وهدمهم بأي صورة من الصور. حتى بلغ الأمر بأحد كبار المتحمسين المدافعين عن الحروب الصليبية، وهو (هربرت دي رومانس) إلى حد قوله: إن المسلمين شديدو الحماس لدينهم، لدرجة أنهم يقطعون دون رحمة رأس أي مخلوق يهاجم هذا الدين، في أي إقليم يسيطرون عليه.

نظر الأوروبيون في القرون الوسطى إلى الإسلام على أنه دين يتيح الفرصة لإشباع الشهوات، خاصة الشهوة الجنسية، وكثيرا ما كانوا يحسبون أنه لا حدود لعدد الزوجات، التي يمكن للرجل الزواج به، اللهم إلا قدرته على الإنفاق. وكثيرا ما ترجموا آيات قرآنية بحيث توحي بمعنى جنسي منفر، والآيات بريئة من ذلك، بل ذهبوا في أن القرآن يبيح الشذوذ الجنسي، ورأى البعض ذروة الشذوذ الجنسية في التصوير القرآني للجنة، وتحدثوا طويلا عن الحور العين، ووجدوا في ذلك فضيحة، كما انتقدوا بشدة حياة محمد الزوجية، وإن كانوا كثيرا ما بنوا انتقاداتهم على مبالغات أو مزاعم كاذبة.

موقف المستشرقين من القرآن الكريم

من المعروف أن أول ترجمة غربية للقرآن الكريم، كانت إلى اللغة اللاتينية، وقد تمت بإشراف رئيس دير كلوني في جنوب فرنسا، الراهب بطرس المحترم سنة 1143م. ومعروف أن الكنيسة قد حاربت هذه الترجمة اللاتينية، رغم ما فيها من نقص وتشويه

متعمد، لأنها خشيت أن تعرّف الأوروبيين بعض الحقائق عن الإسلام، وهذا يضعف مقاومتها له، ولهذا أخفيت هذه الترجمة في دير كلوني إلى سنة 1543م، ثم أظهرت، وتم طبعها لأول مرة على يد (تيودور بيلياندر)، ثم اعتمدت على أنها الأساس الذي يترجم عنه إلى اللغات الأوروبية.

عاودت الكنيسة تضييقها على هذه الترجمة، وأمر البابا بولس الثالث بإتلاف الترجمة التي نقل عنها (باجاتيني)، ولم تصرح الكنيسة بطبع ترجمة للقرآن، إلا في عهد البابا (الكسندر السابع 1555-1576م)[1]. ورغم ركاكة هذه الترجمات، وبعد أصحابها عن الأمانة العلمية، وتصرفهم في النصوص، وتحريف الكلم عن مواضعه، والقصور الفاضح في فقه اللغة العربية، والجهل بأسرارها، نجد هؤلاء المستشرقين يجيزون لأنفسهم إصدار أحكام على لغة القرآن، وأسلوبه، وبيانه، ومعانيه.

لم يقف المستشرقون عند هذا الحد، بل راحو يشككون في مصدر القرآن الكريم، وقدحوا في صحته، ورموه بالتناقض والاضطراب والتحريف، ثم تكلموا في تفسيره، وزادوا ونقصوا، ورجحوا وافتعلوا، ورغم ذلك، فقد حذروا الغرب من خطورة هذا القرآن على مصالحهم وديانتهم، لأنه قادر على بعث النهضة الإسلامية الشاملة، والوحدة الرائعة، والعزة والمنعة بين المسلمين.

بذل المستشرقون جهودا مضنية، في محاولة إثبات أن مصدر القرآن لم يكن الوحي، وأنه من تأليف محمد ﷺ، وأنه لفق مادته من عناصر الثقافة السائدة في البيئة العربية وقتئذ، كما أفاد من كتب اليهود والنصارى، واستعان برهبان النصارى وأحبار اليهود في تأليفه أو تلفيقه.

والغريب أن هؤلاء المستشرقين قد رددوا افتراءات مشركي مكة، التي تخرصوا بها من قبل، وقد زعموا أن القرآن الكريم:

---

(1) المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، د. صالح البنداق، طبعة دار الآفاق، بيروت.

﴿ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ [1]،﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [2]،

وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [3].أجهد المستشرقون أنفسهم في البحث عن مصدر مزعوم للقرآن الكريم، فقال (إبراهام جيجر): إن محمدا قد اطلع على كتب اليهود بالعربية والآرامية، وقال ريتشارد بيل مترجم معاني القرآن: إن النبي محمد ﷺ قد اعتمد في كتابه على الكتاب المقدس في قسم القصص.

لقد تعمد أكثر المستشرقين إنكار المصدر الإلهي للوحي، وقالوا إنه من تأليف محمد وتلفيقه، ولقد أظهروا جهلا فاضحا بحقيقة الوحي خارج الطرق الكسبية للعلم، وفوق الإلهامات النفسية الذاتية، وخلاف ما هو مقرر في علم النفس، وسير الأبطال والعظماء، وبعيدا عن الأعراض الباثولوجية التي تصاب بها أفذاذ الرجال، وعن الهوس أو الجنون، الذي يضرب بنوباته قادة الأمم العظام، كما يذكر جوستاف لوبون. أو اللاوعي الجمعي، كما يرى وليم مونتجمري واط، الذي زعم في كتابه: محمد النبي ورجل الدولة، أن القرآن ليس وحيا، وإنما هو من إنتاج الخيال المبدع، وأن القرآن يعتمد كثيرا على الأخذ من اليهودية والنصرانية.

أما المستشرق اليهودي المجري (اجنتس جولدزيهر 1850–1921م) [4]، فينسب المعرفة الدينية التي تلقاها محمد إلى عنصرين: داخلي وخارجي، يقول: "تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية، عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية، التي تأثر بها تأثرا عميقا، والتي رآها جديرة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية، كانت في وجدانه ضرورية

(1) سورة الفرقان، آية 4.

(2) سورة الفرقان، آية 5.

(3) سورة الحاقة، آية 42.

(4) من الكتب التي ألفها جولدزيهر: الظاهرية: مذهبهم وتاريخهم، ودراسات إسلامية،والوثنية والإسلام، ومحاضرات في الإسلام، واتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين.

لإقرار لون من الحياة في اتجاه يريده الله"[1].

وعن التأثير النصراني المزعوم في القرآن، يذكر المستشرق (رودي بارت): "لقد كانت معلومات الناس في مكة في عصر محمد عن النصرانية محدودة وناقصة، ولم يكن النصارى العرب سائرين في معتقداتهم في الاتجاه الصحيح، ولهذا كان هناك مجال لظهور الآراء البدعية المنحرفة، ولولا ذلك لما كان محمد على علم بأمثال تلك الآراء التي تنكر صلب المسيح، وتذهب إلى أن نظرية التثليث النصرانية لا تعني: الأب، والابن، وروح القدس، وإنما تعني: الله، وعيسى، ومريم. وعلى أية حال، فإن المعارف التي استطاع محمد أن يجمعها عن حياة المسيح وأثره، كانت قليلة ومحدودة، بيد أنه كان يعرف الشيء الكثير عن ميلاد المسيح وعن أمه".

إن ما يقصده (بارت) هو أن المعلومات التي وردت في القرآن الكريم عن النصرانية وعن المسيح وأمه، كانت هي المعلومات الشائعة آنذاك، وهي إما خاطئة أو محدودة، فمحمد إذن، هو مؤلف القرآن[2].

وهذا (جولدزيهر) و(دي بوير) و(مكدونالد) و(بندلي جوزي)، يصرّحون بتناقض القرآن الكريم[3]، ولا غرابة أن نقرأ ما كتبه المستشرق اليهودي المعاصر قائلاً: "الإسلام من صميم لحم وعظم اليهودية". وأن نقرأ ما تناوله بطرس المحترم، وأقنع بها الكثيرين، وهي فكرة لبعض علماء اللاهوت اليونانيين وهي: "الإسلام هرطقة مسيحية، وإن من الواجب اعتبار المسلمين كفرة". أو أن نقرأ ما كتبه القديس توما الأكويني: "إن

(1) العقيدة والشريعة في الإسلام، جولدزيهر، ترجمة محمد يوسف موسى وزميله، 1948م، صفحة 12

(2) الإسلام في الفكر الغربي، د. محمود حمدي زقزوق، الكويت، 1981م،85.

(3) انظر المستشرقون والإسلام للدكتور عرفان عبد الحميد ص 17، ودراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي للدكتور حسام الدين الآلوسي صفحة68 وبحوث في القرآن الكريم للدكتور عبدالجبار شرارة صفحة 52-54 الذين بيّنوا مزاعم المستشرقين واقوالهم بتناقض القرآن الكريم، وفنّدوا جميع مفترياتهم.

محمداً خلط بين الحق والباطل". وغير هذا الكثير[1].

ومن ذلك ما كتبه المسيو كيمون في كتابه (باتولوجيا الإسلام): "مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي، يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء، ويدمن على مقامرة الخمور، ويجمح في القبائح. وما قبر محمد في المدينة إلا عمود كهربي، يبث الجنون في رؤوس المسلمين، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة، والذهول العقلي، وتكرار لفظ الله إلى ما لا نهاية، والتعوّد على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة، ككراهة لحم الخنزير، والنبيذ والموسيقى، والجنون الروحاني...الخ"[2].

وإلى أبعد من هذا، ذهب المسيو لوازون (القس باسنت) إلى أن الأسلام هو الدين المسيحي محسّناً ومحوّراً"، وإن الإسلام قنطرة للأمم الإفريقية، ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية"[3].

هذا ما تعمّد الفكر الغربي أن يقدّمه لنا، ألواناً من البغضاء الدفينة، ونوعاً من سوء الفهم المتعمّد. فكيف استطاع أن يزيّف ما رواه التاريخ عن تعاليم الإسلام ورسوله؟ حين قدّم تفسيراته للقرآن الكريم وتاريخ الإسلام، وحين قدّم الإسلام على أنه مزيج من الفلسفات القديمة، وبقايا ملل مرفوضة من اليهودية والمسيحية، وحين قدّم صورة الرسول ﷺ مشوّهة مكذوبة على التاريخ؟

أمثال هذا الكاتب يعتقدون بأوهامهم، أن المسلمين وحوش ضارية، وحيوانات مفترسة، وأن الواجب إبادة خُمْسهم، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر (هذا قوله).

---

(1) انظر كتاب مونتغمري وات(أثر الأسلام على أوربا في العصور الوسطى) ترجمة حسين أحمد أمين.وكتاب صالح البندق (المستشرقون وترجمة القرآن الكريم) بيروت، دار الآفاق. وكتاب تور أندرسا(العقيدة والشريعة في الإسلام) نيويورك 1936.

(2) د. محسن جاسم الموسوي، الاستشراق في الفكر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1993،ص 85.

(3) المرجع السابق، صفحة 86.

ورغم البغض الدّفين، وسوء النيّة المتأصّل في نفوس المتطرّفين من المستشرقين، فهناك من يعترف صراحة بأثر الإسلام وقوته. يقول (أوجين يونج): "الإسلام قوة لا يسهل القضاء عليها، فلا الثقافة اللاتينية ولا غيرها تبلغان منها". ويرى يونج أن نهضة العالم العربي والإسلامي، التي سوف تكون سريعة في بلاد الشرق نذير الغرب، وباعث له على التروّي في علاقاته مع الشرق. وعوامل ذلك كثيرة منها وأهمها الإسلام"[1] ومع كل هذا، فلا غرابة أن نجد في حركات التبشير الصّليبي من يطعن بعقيدة المسلمين بظهور المهدي، هذا مع العلم أن فكرة الظهور، لم تكن حكراً على المسلمين وحدهم. ومما يجدر ذكره، أن الفكرة الغربية عن الإسلام والقرآن معا، أنهما تلفيق وتزوير للتوراة والإنجيل، وأن عملية التلفيق هذه قد تمت بمعاونة راهب آريوسي كان يعلم محمدا ﷺ سرا.. إن هذه الفكرة قد دسها القديس يوحنا الدمشقي، وسرعان ما انتشرت في الغرب.

يقول (بيدرو باسكال): لقد جاء في كتب المسلمين أن راهبا مسيحيا كما يقولون هم: بحيرى، وهو الذي حذر عم محمد من اليهود، وأن هذا الراهب المرتد هو الذي كان يتعلم منه محمد تعاليمه، وقد ذكروا في كتبهم أيضا أن محمدا كان يعتزل الناس في تلال مكة، وهذه تدل على أنه كان يعد عدته مع هذا الراهب النصراني المرتد، في السر، لتهيئة تفاصيل هذا التزوير. وأضاف بيدرو:

"وقد اختلط بحيرى هذا، عند كثير من الكتاب بجريج الراهب، أو جورجيوس، ومع هذا الاختلاط فإنه نال حظا وافرا من الإهانة والتجريح الشائن عند بعضهم، والمديح والثناء من الآخرين، وكلا الفريقين برر موقفه.. فإن شاءوا جعلوا منه قديسا وحبرا كاثوليكيا مخلصا، علم محمد الدين الصحيح، إلا أن محمدا حرف تعاليم الراهب. وإن شاءوا جعلوا منه مرتدا يبطن اليهودية والزندقة، ولذلك استعمل محمدا للحط من دين روما، حقدا وكرها للبابا.. وإن شاءوا جعلوا منه نسطوريا جاهلا وزنديقا معا"[2].

---

(1) د. محمد ابراهيم بيومي، الاستشراق رسالة استعمار، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993، 1413، ص 103-105.

(2) الاستشراق بين الموضوعية والانفعالية، د. قاسم السامرائي، دار الرفاعي، الرياض، صفحة 55.

لقد تغلغل هذا الاتجاه العجيب في العقلية الغربية إلى أبعد حد، ولهذا كتب المؤرخ اليوناني المعاصر الدكتور خريسو بابادوبولس يتساءل:

ما هي العلاقة الشخصية الدينية لمحمد بالمسيحية والمسيحيين؟

ثم يجيب: "إن الرأي الذاهب إلى أن محمدا بعد أن صار مسيحيا، انقاد إلى تأسيس مذهب خاص، من أجل وحدة عربية، لا يقوم عليه دليل، ولكن بدون شك، عندما ظهر كرسول لله ونبي، وكان متداخلا في علائق مع المسيحيين، وعارفا بالتعليم اليهودي والمسيحي، ألف الديانة الجديدة من الأفكار الدينية القديمة عند العرب، وخلطها مع عناصر التعليم اليهودي المسيحي، خاصة مع مسيحيي حمير، وعلى الأخص مع أهالي مدينة نجران، التي كانت فيها المسيحية مزدهرة"[1].

أما (فيليب حتي)، فيلخص مسألة أصل الإسلام والقرآن، بأنها يهودية مسيحية عربية حيثية، ويحاول ما وسعته المحاولة أن يستدل بحجج مفتعلة وأمور مختلقة[2].

لا ريب أن التعصب المقيت، قد أعمى هؤلاء وأصمهم، إذ لو كان صحيحا أن محمدا ﷺ قد لفق القرآن والإسلام من أشتات الثقافة، ومزج بينه وبين ما تعلمه عن اليهودية والنصرانية، لوجد اتفاق وتطابق، أو على الأقل توافق وانسجام في العقائد والتشريعات والمعاملات والعبادات والأخلاق التي قررها، وبين عقائد اليهود والنصارى ومشركي العرب، والوثنية اليونانية والرومانية والهندية والبابلية والمصرية القديمة.

وبما أن الإسلام قد جاء بعقيدة التوحيد الخالص، التي تصادم تماما العقيدة النصرانية، والتجسيم اليهودي، وكذلك الحال بالنسبة للعبادات والأخلاق والتشريعات في المعاملات، فقد جاءت مخالفة لها على الإجمال والتفصيل، فلا مجال إذن لمثل هذه الدعوى المتهافتة المتساقطة.

وبالمقابل، لم يوجه مشركو العرب لمحمد ﷺ تهمة استمداد القرآن من اليهود

---

(1) تاريخ كنيسة أنطاكية، ترجمة الأسقف اسطفانوس حداد، نشر مكتبة النور، بيروت، صفحة 526-529.

(2) الإسلام والغرب، فيليب حتي، نيوجيرسي، 1962م، صفحة 14-16.

والنصارى، ولو رأوا شيئا من ذلك ما قصروا في التشنيع والتشغيب، لأنهم زعموا أن الذي يعلمه عبد رومي كان يصنع السيوف بمكة، ولم يكن نصرانيا ولا يهوديا، ودحض القرآن زعمهم، يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (1)..

صحيح أن هناك فريقا من المستشرقين قد وقفوا إلى جانب الحق، ولم يسخروا علومهم وبحوثهم لخدمة الاستكبار والاستعلاء الغربي، المتمثل في قهر الشرق الإسلامي، واستعماره سياسيا وعسكريا واقتصاديا وإعلاميا، بل إن بعضهم ليشعر بالحرج والخجل من موقف أساتذتهم وزملائهم، المؤيد للاستعمار والاستكبار، وإنما درسوا الإسلام بموضوعية، ولحساب الحقيقة العلمية الخالصة، واستطاعوا الانعتاق من أسر التقاليد الاستشراقية المستقرة، والحاكمة منذ زمن بعيد جدا.

لهذا يقول (اسطفان وايلد): والأقبح من ذلك، أنه يوجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين، سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم، لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة(2).

وقف (يوهان فولك) مدافعا بكل ثقله عن كتاب الله فقال: "لقد فقدت دراسات المستشرقين الكبار صلتها بأفكار القرآن المتميزة والرصينة، بصرف النظرة عن كونها فكرة دينية أو تعبيرا أو مصطلحا أو حقيقة تشريعية، أو قصة أو موضوعا أو كلمة مفردة، أو أنماطا متنوعة من التراكيب، وإرجاعها إلى مصادرها في الأديان السابقة، كلما كان ذلك ممكنا، بهدف.شطر الصورة الحية المتكاملة للرسول والقرآن إلى ألف نتفة وجذاذة".

كما اعترض المستشرق السويدي (تور أندريه) على هذا الاتجاه الاستشراقي، المتشكك في أصالة القرآن، وقال في سخرية لاذعة: "كأن المهمة الكبرى للمستشرقين الدارسين لشخص الرسول هي محاولة فهم كيف أن الرسول – بتأثير روح البيئة المحيطة –

---

(1) سورة النحل، آية 103.

(2) انظر كتاب الاستشراق، للشرقاوي، صفحة 12.

قد لفق أو زور أشتاتا عديدة شديدة التنافر في وقت واحد هو القرآن "[1].

أما (ج. فوك) فقد أكد على الأثر السلبي للمستشرقين فيما يتعلق بهذا الموضوع على تصور الغرب للإسلام وكتابه ورسوله قائلا: "لقد صبغ الجدل المضاد للإسلام في الغرب صورة محمد بلون حالك السواد، ولقد طغت أحكامهم على هذا المجال كله، وأضافوا لحنا جديدا إلى عزف هذه الجوقة، وذلك بتأكيدهم على تبعية الرسول محمد، واعتماده على الأديان السابقة الموحى بها. ويؤكد فوك رأيه قائلا:

" هذه المحاولات تريد أن تمزق القرآن فيما يتعلق بأصوله ومصادره، إلى عدد لا يحصى له من أحجار الموزايكو الصغيرة، والتي لا توجد رابطة داخلية تجمعها أبدا".

التشكيك في لغة القرآن وفصاحته

بعد أن أسرف المستشرقون في التشكيك في مصدر القرآن، وكأن الأمر قد استقام لهم، راحوا يشككون في سلامته اللغوية والأسلوبية، ويحاولون النيل من بيانه وفصاحته وبلاغته ونظمه وترتيبه ومعطياته، وكل ما يتعلق بعظمته وسموه وإعجازه. يقول (توماس كارلايل) مؤلف كتاب الأبطال، بعد أن اطلع على ترجمة جورج سيل المشوهة الناقصة عن القرآن الكريم: "إنني يجب أن أقول إني لم أعان قراءة متعبة كقراءته أبدا.. إنه مجموعة مشوشة مضطربة.. فجّ.. تكرار بلا نهاية.. التواء طويل.. تشابك... فج جدا، مشوش، غباوة لا تحتمل "[2].

أما المستشرق (دوزي ت 1883م) فقال: "إنه كتاب ذو ذوق رديء للغاية، ولا جديد فيه إلا القليل، وفيه إطناب بالغ وممل، إلى حد بعيد "[3]. وإلى مثل هذا، كتب جولدزيهر، وبلاشير، ودوزي، ونيكلسون وغيرهم الكثير.

أما المستشرق (كازانوفا)، فإنه يشك في نسبة بعض الآيات إلى الوحي، ويرجح دون اعتماد على منطق أو وثائق أو وقائع ثابتة، أن أبا بكر هو الذي أضاف بعض

---

(1) محمد الإنسان وعقيدته، تور أندريه، نيويورك، 1939م.

(2) الاستشراق، د. محمد عبد الله الشرقاوي، مرجع سابق، صفحة 115.

(3) الإسلام في الفكر الغربي، د. زقزوق، مرجع سابق، صفحة 118.

الآيات للقرآن الكريم[1].

ويتحدث (آرنولد نيكلسون): "والقارئون للقرآن من الأوروبيين لا تعوزهم الدهشى من اضطراب مؤلفه وهو محمد، وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات، وهو نفسه لم يكن على علم بهذه المتعارضات، كما لم تكن حجر عثرة في سبيل صحابته، الذين نقل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله.. لكن الصدع من هنا وجد وسرعان ما أظهر نتائج بعيدة الآثار[2].

أما المستشرق (لوت)، فقد ذهب إلى أن النبي ﷺ، مدين بفكرة فواتح السور مثل: حم، وطسم، وكهيعص، وغيرها، لتأثير أجني، ويرجح أنه تأثير يهودي، ظنا منه أن السور التي بدأت بهذه الفواتح هي مدنية، خضع فيها النبي ﷺ لتأثير اليهود، ولو دقق هذا الأفاك لعلم أن سبعا وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية، وأن اثنتين فقط من هذه السور مدنية، وهما سورة البقرة وآل عمران.

المستشرقون والسنة المطهرة

ترتبط السنة المطهرة بالقرآن الكريم ارتباطا وثيقا، لا يمكن أن يتصور ان تنفك عراه البتة، وهذا يفهم من صريح القرآن الكريم: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[3].

ومن بداهة الأمور إن يقال إن السنة تمثل بالنسبة للقرآن: المفصلة لمجمله، والمبينة لمشكله، والباسطة لمختصره. ومن بداهة الأمور أن يقال كذلك إن السنة هي الأصل الثاني للإسلام، وإنها وحي الله إلى الناس، بلغه رسول الله ﷺ، وأمرنا أن نتمسك به، ونحافظ عليه، قال ﷺ: "تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي".

حاول بعض رجال المؤسسة الاستشراقية المتجافين عن أبسط قواعد البحث

---

(1) انظر: الدكتور الشرقاوي، مرجع سابق، صفحة117، عن النقرة في مناهج المستشرقين، بحث التهامي.

(2) الصوفية في الإسلام، نيكلسون، ترجمة نور الدين شريبة، القاهرة، صفحة 7-8.

(3) سورة النحل، آية 44.

العلمي المرعية، وأصوله المقررة، حاولوا في هجمة منكرة فاضحة، التشكيك في السنة، ولم يألو جهدا ما وسعهم ذلك، بغية هدمها ونقضها وطمسها، وهي محاولات مأجورة، من قبل رجال التبشير والاستعمار معا.

يرى (مكسيم رودنسون) أن علماء المسلمين الثقات، قد ردوا عددا كبيرا من الأحاديث، ومع ذلك فإن المنهج الذي استخدموه في ذلك، لا يرضى عنه المستشرقون اليوم. وتبدو الأحاديث التي قبلها العلماء المسلمون ليست أكثر وثاقة – في نظر المستشرقين – من تلك الأحاديث التي ضعفوها[1].

كان أول وأكبر مستشرق قام بمحاولة واسعة شاملة، للتشكيك في الحديث النبوي، هو اليهودي (جولدزيهر)، الذي يعده تلاميذه أعمق العارفين بالحديث النبوي، والذي كان يعتبر القسم الأعظم من الحديث بمثابة نتيجة لتطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في القرنين الأول والثاني. فالحديث في رأيه: لا يعد وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأول، وإنما هو أثر من آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي، في عصور المراحل الناضجة لتطور الإسلام. كيف لا، فقد كانت الطبيعة اليهودية ومستقبل اليهود، كانتا الشغل الشاغل لجولدزيهر، وهو نفسه الذي يقول: "إن اليهودية نبض حياتي".

يقول (يوهان فك) عن جولدزيهر: "إن العلم مدين دينا كبيرا لما كتبه جولدزيهر في موضوع الحديث، وقد كان تأثيره على مسار الدراسات الإسلامية الاستشراقية، أعظم مما كان لأي من معاصريه من المستشرقين، فقد حدد تحديدا حاسما تجاه البحث في هذه الدراسات وتطوره.

ويلخص المستشرق (فانمولر) عمل جولدزيهر الخارق قائلا: " لقد كان جولدزيهر أعظم العارفين بعلم الحديث النبوي، وقد تناول في القسم الثاني من كتابه "دراسات محمدية" موضوع تطور الحديث تناولا عميقا، وراح – بما له من علم عميق واطلاع يفوق كل وصف – يبحث التطور الداخلي والخارجي للحديث من كل النواحي، ولم يعد يشق فيه، مثلما كان دوزي، ولا يزال يفعل ذلك في كتابه "مقال في تاريخ الإسلام"..

---

(1) الاستشراق، د. الشرقاوي، مرجع سابق، صفحة 123.

وبالأحرى: كان جولدزيهر يعتبر القسم الأعظم من الحديث، بمثابة نتيجة لتطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في القرنين الأول والثاني. فالحديث في رأيه، لا يعد وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأول، وإنما هو أثر من آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في عصور المراحل الناضجة لتطور الإسلام "[1].

يؤكد جولدزيهر أنه أمكن اختراع أو وضع الأحاديث الكثيرة، وعلى سبيل المثال يقول جولدزيهر: عندما اشتدت الخصومة بين البيت الأموي والعلماء الصالحين، راح العلماء يخترعون الأحاديث لمحاربة الطغيان والظلم، وراح علماء السلطة يخترعون الأحاديث التي تخدم مصالحهم. ولم يقف الحد عند وضع الأحاديث في الأغراض السياسية، بل تعداه إلى الوضع في النواحي الدينية... في أمور العبادات التي لا تتفق مع ما يراه أهل المدينة، وقد استمر هذا الحال في وضع الأحاديث في القرن الثاني أيضا [2].

ويأتي في المرتبة الثانية المستشرق (جوزيف شاخت)، الذي سار على خط مواز لجولدزيهر تماما، وهو الذي أصدر كتابا بعنوان: المدخل إلى الفقه الإسلامي، وكتاب: أصول الشريعة المحمدية. كما أن (شاخت) يزعم أن أكبر قدر من أسانيد الأحاديث اعتباطي وبدائي. ولم يقف شاخت عند هذا الحد، بل راح يتجنى على الإمام الشافعي، ويتهمه بالتحريف والبعد عن الأمانة العلمية، ويختلق أمثلة كثيرة.

يقول (كولسون) أستاذ الفقه الإسلامي في جامعة لندن: " إن (شاخت) صانع نظرية عن أصول الشريعة الإسلامية، غير قابلة للدحض في إطارها الواسع". أما (جب) فيرى أن كتاب المدخل إلى الفقه الإسلامي لجولدزيهر، الذي نشره عام 1981م، أنه سيصبح أساسا للمستقبل لكل دراسة عن حضارة الإسلام وشريعته، على الأقل في العالم الغربي".

أما خلاصة آراء (شاخت)ومحصلتها النهائية، فتتمثل في: " من الصعوبة اعتبار

---

(1) الاستشراق والخلفية الحضارية، د. محمود حمدي زقزوق، كتاب الأمة، الدوحة، قطر، صفحة 102.

(2) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، الدكتور مصطفى السباعي، نشرة 1978م، صفحة 19-20، وكتاب الوضع في الحديث النبوي، د. عمر حسن فلاتة، جامعة الأزهر، مكتبة الغزالي، بيروت، 1981م.

حديث من الأحاديث الفقهية صحيح النسبة إلى النبي، ذلك أنه في الجزء الأكبر من القرن الأول لم يكن للفقه الإسلامي – في معناه الاصطلاحي – وجود كما كان في عهد النبي، والقانون– أي الشريعة – من حيث هي هكذا، كانت تقع خارجة عن نطاق الدين، وما لم يكن هناك اعتراض ديني أو معنوي أو روحي، على تعامل خاص مع السلوك، فقد كانت مسألة القانون (الشريعة) تمثل عملية لا مبالاة بالنسبة للمسلمين»[1].

أما المستشرق اليسوعي البلجيكي (هنري لامانس)، فقد تبنى البحث، والأفكار التي طرحها جولدزيهر، وتطرف في التحليل النقدي للحديث النبوي عند المسلمين غاية التطرف.

إن أهداف هؤلاء الأفاكون الضالون والمغضوب عليهم، تتمثل في:

- إن مطالبة الشعوب الإسلامية، ورغبة بعض الحكام في العودة إلى الشريعة الإسلامية، لا أساس لها، لأن الشريعة في حقيقتها خارجة عن نطاق الدين.
- ما يسمى بالفقه الإسلامي ليس مبنيا على كتاب الله وسنة رسوله، لأنه لا يوجد ما يمكن تسميته سنة النبي، بل إن جزءا غير قليل من الفقه الإسلامي مأخوذ من شرائع اليهود، والكنيسة وديانات أخرى، عدا اجتهاد المجتهدين.

المستشرقون وسيرة الرسول ﷺ

هذا باب واسع خاض فيه كثير من المستشرقين، وكتبوا فيه بحوثا ودراسات عديدة، يصعب حصرها. لم ينصف معظمهم الرسول ﷺ، فرموه بالكذب والدجل والجنون، إلى غير ذلك من التهم والمفتريات، كما أن أكثرهم نظر إلى السيرة المطهرة والسنة المشرفة بعين الارتياب والتشكك. ونسوق بعض الأمثلة التي تعطي صورة مجملة عن الموقف العام، لكثير من رجالات المؤسسة الاستشراقية، من الرسول الكريم ﷺ:

يزعم المستشرق (جوستاف فيل) في كتابه: محمد النبي، الذي صدر سنة 1843م: أن ما كان ينتاب الرسول الكريم ﷺ مما يشبه الحمى، وما كان يسمعه من صوت

---

(1) بحث الدكتور مصطفى الأعظمي في مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، صفحة 68–108، انظر كتاب الاستشراق، للشرقاوي، مرجع سابق، صفحة128.

كصلصلة الجرس، ليس وحيا، وإنما هو نوبات صرع واضطرابات عصبية.

أما المستشرق (اليوس سبرنجر) فقد زعم في كتابه عن حياة محمد وتعاليمه سنة 1861م، أن الرسول ﷺ كان مصابا بالصرع والهستيريا معا.

أما المستشرق (تيودور نولدكه)، فقد زعم في كتابه عن تاريخ القرآن سنة 1909م، أن محمدا ﷺ كانت تنتابه نوبات عنيفة من الانفعال، جعلته يظن أنه تحت تأثير إلهي، ويظن أنه يتلقى وحيا.

أما المستشرق (فيليب حتي)، فيرى أن سيرة الرسول محمد ﷺ، قد كتبت من الذاكرة بعد وفاته ﷺ بزمن طويل، وأن كتاب السيرة كتبوها كما كانوا يرغبون أن تكون عليه سيرة الرسول لا كما وقعت بالفعل، وأنهم قد اختلقوا وخلعوا على مؤسس ديانتهم، وباني مجدهم، كثيرا من التبجيل والتعظيم، ووضعوا لذلك أحاديث، ونحلوه أفعالا ليست له.

كما أسهم المستشرقون في تشويه صورة الشرق والعرب خاصة، وأظهروهم في صورة بشعة، يتصفون بها بالخيانة، والسادية، والمتاجرة في الرقيق، وأن العربي وغد لئيم شهواني خبيث، عدواني وإرهابي[1].

أما المستشرق (هنري لامنس) فقد كتب ممتلئا بالاحتقار الرهيب للإسلام، ولمجده الزائف، ولرسوله الفاسق الداعر، ولنفاقه، ولعرب الصحراء الذين كانوا في تقديره جبناء متبجحين بهمة مخربين. ثم عرج صوب الخليفة علي ابن أبي طالب، فوصفه بالبدانة، والقباحة، والجبن، وسوء الخلق، والاستسلام المهين لغطرسة زوجته الغبية المتذمرة، فاطمة[2].

(1) المستشرقون، ادوارد سعيد، مرجع سابق، صفحة 286-288.

(2) الاستشراق، الشرقاوي، مرجع سابق، صفحة 147.

وخلاصة القول، إن كثيرا من هؤلاء المستشرقين قد تواطأوا على دراسة الإسلام بمنهج معوج، حيث قدموه في صورة كريهة مشوهة لمواطنيهم، فسمموا عقولهم، وأفسدوا مشاعرهم لحو الإسلام، كما عملوا على سلخ العالم الإسلامي من هويته وأصالته، وذاتيته وخصائصه، ومن ثم ضاع الطريق من تحت أقدامه، لأنه لم يصبح غربيا، ولم يبق شرقيا كما كان.

هذا غيض من فيض، ومن أحب التوسعة، فليراجع ما كتب في مراجع البحوث ومصادرها عن أهداف الاستشراق، وفساد نية المستشرقين.

الفصل الثاني

مولد المصطفى "صلوات الله وسلامه عليه"

عندما ادلهمّت ظلمات الأنفس، واضطربت سكينة الأفئدة، وضاقت فُجاج الأرض على أهل الجزيرة بما رحبت، وتاهت الألباب في خرافات الأصنام والأوثان، بعد أن شبعت سفكا وظلما وجورا، تطلعت القلوب الحائرة إلى رحمة الله سبحانه، وترقرقت في العيون دموع الرجاء، واختلجت في الصدور زفرات الندم، ونظرت الدنيا ترقب الأمل الوضاء في سمائها.. وإذا بشعاع النجاة يشرق بطلعته، فتهادت أضواؤه تهادي الرجاء في القلوب الحائرة، وشعّ لألاؤه فارتسمت على صفحة الكون صورة الجلال، وسُطّر في أفق الحياة والكون اسم محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي.

ولد المصطفى رسول الله محمد ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل[1] في مكة المكرمة[2]، فاستبشرت بمولده بطحاء أم القرى وشعابها، واشرأبّت أعناق البشرية جمعاء، ترنو إلى سنا طلعته، وتنتظر فيض نوره وبركته.

---

(1) قيل كان مولده ﷺ في رمضان سنة 570 م، وهذا القول موافق لقول من قال: إن أمه حملت به في أيام التشريق والله أعلم. وذكروا أن الفيل جاء مكة في المحرم، وأنه ﷺ ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يوماً، وأهل الحساب يقولون: وافق مولده من الشهور الشمسية نيسان، وكانت لعشرين مضت منه، وولد بالغفْرِ من المنازل، وهو مولد النبيين، ولذلك قيل: خير منزلتين في الأبد: بين الزنابا والأسد، لأن الغفْر يليه من العقرب زناباها، ولا ضرر في الزنابا، إنما تضر العقرب بذنبها، ويليه من الأسد ألْيَتهُ، وهو السماك، والأسد لا يضر بأليته، إنما بمخلبه ونابه. وقد حقّق محمود باشا الفلكي أن مولده ﷺ كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من نيسان سنة 571 م، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل، (انظر كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري بك، دار الثقافة، عمان، ط1، 1410هـ/ 1990م، ص11).

(2) قيل: وُلد بالشعب، وقيل في الدار التي عند الصفا، وكانت بعد لمحمد بن يوسف أخي الحجاج، ثم بنتها زبيدة مسجداً حين حجّت، وكانت قابلته الشّفاء أم عبد الرحمن بن عوف.

التمس عبد المطلب لحفيده محمد ﷺ المراضع[1]، وكان سبب دفع قريش وغيرهم من أشراف العرب أولادهم إلى المراضع، لينشأ الطفل في الأعراب والبوادي، فيكون أفصح للسانه، وأجلد لجسمه.

استرضع عبد المطلب لحفيده امرأة من بني سعد[2]، اسمها حليمة السعدية بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شجنة بن عامر بن رزام بن ناصرة بن قُصَيّة بن نصْر بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس بن عيلان.

واسم زوج حليمة السعدية: الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملان ابن ناصرة ابن قُصَيّة بن نصْر بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خَصَفَة بن قيس ابن عيلان.

كان لحليمة السعدية من الأولاد: عبد الله، وأنيسة، وخذامة ولقبها الشيماء أخت الرسول ﷺ من الرضاعة. ولهذا قال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه حين قال: " ما رأيت أفصح منك يا رسول الله". فقال ﷺ: " وما يمنعني، وأنا من قريش، واسترضعت في بني سعد بن بكر"[3].

قدمت السيدة آمنة بنت وهب ومعها ابنها محمد ﷺ، على أخواله من بني عدي بن النجار في المدينة، تُزيره إياهم، وفي طريق عودتها، مرضت وتوفيت بالأبواء ودفنت

---

(1) أرضعته ﷺ ثويبة الأسلمية التي توفيت في مكة سنة 7هـ. وكانت جارية لأبي لهب، قبل أن ترضعه حليمة السعدية، أرضعته وعمه حمزة، وعبد الله بن جحش، وابو سلمة بن عبد الأسد. وكان رسول الله ﷺ يعرف ذلك لثويبة، ويصلها من المدينة. فلما افتتح مكة سأل عنها وعن ابنها مسروح، فأخبر أنهما ماتا، وسأل عن قرابتها فلم يجد أحداً منهم حياً.

(2) التماس الأجر على الرضعاء لم يكن محموداً عند أكثر نساء العرب، حيث جرى المثل: "تموت الحرّة ولا تأكل بثدييها"، ويحتمل أن تكون حليمة ونساء قومها طلبن الرضعاء اضطراراً للأزمة التي أصابتهم، والسنة الشهباء التي اقتحمتهم.

(3) ردته حليمة السعدية إلى أمه وهو ابن خمس سنين وشهر. ولم تره بعد ذلك إلا مرتين: إحداهما بعد تزويجه خديجة رضي الله عنها، جاءته تشكو إليه السنة، وأن قومها قد أسنتوا، فأعطتها خديجة عشرين رأساً من الغنم وبكرات، والمرّة الثانية: يوم حُنين.

فيها[1]، وله ﷺ من العمر ست سنين. وعاد يتيم الأب والأم مع حاضنته أم أيمن، وهي بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصين بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان، مولاة رسول الله ﷺ، ورثها من أبيه، وقيل من أمه. ولما شبّ رسول الله ﷺ أعتقها وزوّجها رجلا اسمه عُبيد، فولدت منه ابنها أيمن فعرفت به. ولما مات عُبيد، تزوجها حبّ رسول الله زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فولدت له أسامة بن زيد.

كانت أم أيمن من الصالحات، هاجرت الهجرتين: إلى الحبشة، وإلى المدينة. وكان ﷺ يزورها في بيتها، ويقول: "أمّي بعد أمّي". وكذلك كان أبو بكر وعمر يزورانها في بيتها. وقد توفيت بعد رسول الله ﷺ بخمسة أشهر، وقيل بستة اشهر[2].

تزوج رسول الله ﷺ خديجة[3] بنت خويلد، التي ولدت بمكة سنة 68 قبل الهجرة الموافق 556 م، وتوفيت سنة 3 قبل الهجرة الموافق 620 م. وهي:

أم المؤمنين خديجة الكبرى بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي ابن كلاب ابن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

وأمها: فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر.

وأم فاطمة: هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن عمرو بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر.

وأم هالة: قلابة بنت سُعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

كان عُمْرُ رسول الله ﷺ عندما اقترن بخديجة الكبرى، خمساً وعشرين سنة، وكان عمرها إذ ذاك خمسًا وثلاثين[4]، وقيل: أربعون سنة، وقيل غير ذلك والله أعلم.

---

(1) تبعد عن المدينة حوالي 200كم وهي شرق قرية مستورة. بينها وبين الجحفة 23ميلاً.

(2) البداية والنهاية، ص6/ 334، وأنساب الأشراف للبلاذري، ج1، صفحة 98.

(3) خديجة: اسم عربي يعني الطفلة المولودة قبل الأوان (خداج).

(4) البداية والنهاية، 2/ 295.

كانت السيدة خديجة أوسط نساء قريش نسباً[1]، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، وكانت حازمة، لبيبة، شريفة. أصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة[2]. وكانت أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت. فولدت له ﷺ ولدَهُ كلهم إلا إبراهيم.

قال ابن إسحق أول ما حملت السيدة خديجة الكبرى: القاسم، وهو أكبر ولد رسول الله ﷺ، وبه يكنى، ثم عبدالله الملقب (الطيب والطاهر)، ثم زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة الزهراء.

أما عبد الله، فمات قبل البعثة، أما القاسم، فمات بعد البعثة، ومات رضيعا، وقبره ظاهر قرب قبر أمه خديجة الكبرى في الحجون بمكة.

أما إبراهيم، فأمه مارية[3] بنت شمعون بن إبراهيم القبطية، مات صغيرا في المدينة المنورة، وقبره بالبقيع.

أما زينب بنت محمد، فكانت أكبر بناته، تزوجها أبو العاص واسمه القاسم بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف، وكانت خديجة أم المؤمنين خالة أبي العاص. وولدت زينب لأبي العاص علياً، الذي مات مراهقاً، وأمامة، وهي التي تزوجها الإمام علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة الزهراء، ولم تلد أمامة لعلي ومات عنها، فتزوجها المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فماتت عنده ولم تلد له.

ماتت زينب بنت محمد عند أبي العاص سنة 8 هـ، ودفنت بالبقيع. ومات أبو العاص في خلافة عمر.

---

(1) تزوجت خديجة قبل الرسول ﷺ: هند بن زرارة، وكانت قبله عند عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم.

(2) البكرة: الناقة الفتية الشابة.

(3) هي مارية بنت شمعون القبطية، من قرية حفن من كروة أنصنا في صعيد مصر. أهداها المقوقس القبطي واسمه جريج بن ميناء إلى الرسول ﷺ مع اختها سيرين وأرسل معها بغلة سماها الرسول ﷺ (دَلْدَل) وغلاما اسمه مابوز وأرسل معه عسلاً وقدحا من قوارير كان يشرب فيها. توفيت مارية سنة 16هـ ودفنت بالبقيع. ومارية: معناها البقرة الفتية اذا كان اللفظ مخففاً، والملساء اذا كان اللفظ مشدداً.

أما رقيّة بنت محمد، فقد تزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهاجرت معه إلى الحبشة، وولدت له ابناً اسمه عبد الله، مات عن أربع سنين. وماتت رقية يوم الاثنين 15 رمضان سنة 2هـ، بعد ثلاثة أيام من يوم بدر، ودفنت بالبقيع.

أما أم كلثوم بنت محمد، فقد تزوجها عثمان بن عفان، لذا سمي بـ "ذي النورين"، ولم تزل عنده حتى توفيت سنة تسع، ولم تعقب، ودفنت بالبقيع.

أما فاطمة الزهراء بنت محمد ﷺ، فكانت أول زوجات الإمام علي، ولم يتزوج غيرها إلا بعد أن توفيت، وقد رزق منها: الحسن، والحسين، والمحسن، وزينب الكبرى، ورقية المسماة أم كلثوم.

أسلمت الزهراء روحها إلى بارئها، بعد صلاة عصر يوم الإثنين، لثلاثٍ خَلَوْنَ من جمادى الأولى سنة 11 هـ، ودفنت في قبر لا يزال مجهولاً.

صفة رسول الله ﷺ

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر حسناً، أزهر اللون، ليس أبيض أمهق[1] ولا آدم. واسع الجبين، أزجّ الحواجب[2] أبلج ما بينهما، سوابغ من غير قُرْن بينها، كأن ما بينهما الفضة المخلصة. كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة. أهدب الأشفار[3]، عظيم الفم ضليعه، مفلّج الأسنان، طويل شقّ العين أكحلهما، أدعجهما، لا يضحك إلا تبسّماً، وإذا تبسّم تلألأ، أقنى العرنين[4]، ويحسبه من لم يتأمله أشمّ[5]، رَجْلُ الشعر[6]، ليس بالجعد القطط ولا السبط، إذا انفرقت عقيقته انفرق وإلا فلا، يجاور شعره شحمة أذنه إذا هو وفّره، كثّ اللحية.

(1) أمهق: شديد البياض.

(2) أزج الحواجب: تقوّس مع طول في طرفه وامتداد.

(3) الأشفار: أهداب العين.

(4) أقنى العرنين: رقّة أرنبة الأنف.

(5) اشم: أي مرتفع قصبة الأنف.

(6) رَجْلُ الشعر: مسرّح بين الجعودة والسبوطة.

كان رسول الله ﷺ أطول من المربوع، وأقصر من المشذّب[1]، ربعة من القوم، ليس بالطويل الممغط، ولا بالقصير المتردد، عظيم الهامة فخماً مفخّماً، ضخم الكراديس[2]، بعيد ما بين المنكبين، واسع الظهر، بين كتفيه خاتم النبوّة. ليّن الكفين، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، سبط القصب[3]. عريض الصدر، دقيق المسربة [4]، موصول ما بين السرّة واللبّة يجري كالخط، عادي الثديين والبطن مما سوى ذلك، مسيح القدمين [5] ينبو عنهما الماء. طيب الطيب والعرق، لا يُشم منه إلا العنبر، والمسك الطيب ريحه. معتدل الخلق في السُّمْن بدناً في آخر عمره، متماسك سواء البطن والصدر. إذا مشى يمشي تكفؤاً[6]، وإذا زال زال تقلُّصاً، وإذا التفت التفت جميعاً، يمشي هوناً، وإذا مشى كأنه ينحطّ من صبب. خافض الطرف، جلّ نظره الملاحظة، يبدر من لقيه بالسلام، ولا يدع أحداً يمشي خلفه، ويقول: "ظهري للملائكة". توفاه الله وليس في رأسه ولحيته إلا عشرون شعرة بيضاء [7].

كان ﷺ يلبس ما وجد: كتّانا، أو صوفاً، أو قُطْناً، والغالب القطن قميصاً، أو رداء، أو إزاراً، ويحب الثياب الخضر، ويلبس البُردة، والحبرة، والجبّة، والحُلّة الحمراء، والقُباء والثوب السارج والأسود، والفرو المعلّم على أطرافه بسندس. وكان له ثوبان للجمعة، وبردة خضراء للعيد، يلبس العمامة البيضاء، والسوداء أيضاً، والأكثر البيضاء بغير قلنسوة، وقلنسوة بغير عمامة، ولم تكن عمامته كبيرة تؤذي الرأس، وليست بالصغيرة تقصر عن وقاية الحرّ والبرد. قال الطبري: "إن طولها سبعة أذرع، وأنها في عرض ذراع، وثيابه فوق الكعبين، يلبس ثيابه ميامنةً، وينزعها بالعكس، وقد قال عند لبسها: "الحمد لله

(1) المشذب: الطويل البائن الطول.

(2) الكراديس: عظام المفاصل.

(3) سبط القصب: يميلان إلى الغلظ والقصر.

(4) المسربة: الشعر الممتد من الصدر إلى السرّة.

(5) مسيح القدمين: أملسهما.

(6) تكفؤ: تمايل إلى الإمام.

(7) انظر: شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة العربية للطباعة، القاهرة ج18، ص273. ومحمد حسين هيكل، حياة محمد، القاهرة، 1965، ص123.

الذي كساني ما أستر به عورتي وأتجمّل به".

وكان له ﷺ خاتم من فضة وفصّه منه، ونقشه: "محمد رسول الله"، يتختّم في خنصر يمينه ويساره، ولكن اليمين أكثر، ويلبس النعال السبتية، والناسومة، والخف.

كان فرشه من أدم (الجلد)، حشوه ليف، طوله ذراعان وشيء، وعرضه ذراع ونحو شبر، وله عباءة تُفرش له، يثني طاقة تحتها، وربما نام على حصير، وعلى الأرض الجرداء. يحب الطيب، ويتطيّب بغاليه، ويتبخّر بالكافور، والعود، ويكتحل بالأثمد، وهو خاتم النبيين، وأجود الناس صدراً، وأشجعهم قلباً، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عِشْرةً. من رآه بديهة هابه، ومن خالطه فعَرفه، أحبّه.

ومن أسمائه ﷺ، وكلها نعوت ليست أعلاماً محضة لمجرد التعريف، بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به، توجب له المدح والكمال، فمنها: محمد وهو أشهرها، ومنها: أحمد وهو الاسم الذي ورد في القرآن الكريم على لسان السيد المسيح عليه السلام، ومنها: المتوكل، والماحي، والحاشر، والعاقب، والمقفّى، ونبي التوبة، ونبي الرحمة، ونبي الملحمة، والفاتح، والأمين، والشاهد، والمبشّر، والبشير، والنذير، والقاسم، والضحوك، والقتّال، وعبد الله، والسّراج المنير، وسيد ولد آدم، وصاحب لواء الحمد، وصاحب المقام المحمود، وغير ذلك من الاسماء، لأن أسماءه إذا كانت أوصاف المدح، فله من كل وصف اسم، لكن ينبغي أن يُفرق بين الوصف المختص به، أو الغالب عليه ويشتق منه اسمه، وبين الوصف المشترك، فلا يكون له اسم يخصّه. وقال جبير بن مطعم: سمّى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء فقال: "أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، والعاقب الذي ليس بعده نبي".

وأسماؤه ﷺ نوعان: أحدهما خاص، لا يشركه فيه غيره من الرسل، كمحمد، وأحمد، والعاقب، والحاشر، والمقفى، ونبي الملحمة. والثاني ما يشاركه في معناه غيره من الرسل، ولكن له منه كماله، فهو مختص بكماله دون أصله، كرسول الله، ونبيه، وعبده،

والشاهد، والمبشر، والنذير، ونبي الرحمة، ونبي التوبة [1].

وما أحسن ما أورد البخاري الذي قال: حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري قال: أخبرنا محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، والماحي الذي يمحو الله بي الكفر، والحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، والعاقب، الذي ليس بعدي نبي"[2]. وعن أبي موسى قال: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال: أنا محمد، وأنا أحمد، والحاشر، والمقفى، ونبي الرحمة والتوبة". رواه أبو داود ومسلم.

ولله درّ حسان بن ثابت إذ يقول:

أغرّ عليه للنبوة خاتم ... من الله من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشقّ له من اسمه كي يجلّه ... فذو العرش محمود وأنت محمد

بعثته ﷺ

لما بلغ ﷺ أربعين سنة، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، فكان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من النبوة، حين أراد الله كرامته، ورحمة العباد به، أنه كان يسمع نداء يأمره بستر عورته، حين كان يحمل الحجارة من أجياد لتجديد بناء الكعبة، وكان عمره ﷺ يومئذ خمسا وثلاثين، بالإضافة إلى الرؤيا الصادقة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح". وقالت: "وحبّب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده. وكان يتحنّث بغار حراء". وكان إذا خرج لحاجته أبعد، حتى تحسّرَ عنه البيوت، ويفي إلى شعاب مكة، وهضابها، وبطون أوديتها، فلا يمر ﷺ بحجر ولا شجر،

(1) الإمام الحافظ ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدى خير العباد، دار الكتاب العربي، بيروت، ج1، ص20-21.

(2) كما رواه الإمام مسلم من حديث الزهري.

إلا قال: "السلام عليك يا رسول الله". فيلتفت رسول الله ﷺ حوله، وعن يمينه وشماله، وخلفه، فلا يرى إلا الشجر والحجارة"[1].

وثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ، لما عمل له المنبر، وكان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع، وجاء النبي ﷺ ليخطب، فجاوز الجذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حنّ الجذع، وجعل يئنّ كما يحنّ الصبي الذي يسكّت، لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده.

وقد ثبت بالطرق الصحاح عن عامر الشعبي أن رسول الله ﷺ وكل به إسرافيل عليه السلام، فكان يتراءى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة من الوحي والشيء، ثم وكل به جبريل عليه السلام، فجاءه بالقرآن والوحي [2].

كان رسول الله ﷺ يجاور غار حراء في شهر رمضان من كل سنة، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، ويطعم من جاء من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به الطواف حول الكعبة سبعا، أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته.

حتى إذا كان شهر رمضان المبارك، الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله فيها، خرج رسول الله ﷺ إلى غار حراء، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى فيها برسالته، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى، وكان ذلك يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان المبارك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾[3]. ويخبرنا تبارك وتعالى أنه أنزل القرآن الكريم في ليلة مباركة. وقيل: ليلة مباركة كثيرة الخير، بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة، والجمهور على انها ليلة القدر.

---

(1) وفي مصنف الترمذي ومسلم أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: "إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن ينزّل عليّ".

(2) السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام المعافري، مكتبة الرياض الحديثة، جز 1، صفحة 220.

(3) سورة الدخان، آيه: ١ – ٣.

وقال الله عزّ وجل: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾[1] قال الماوردي: كان اسم شهر رمضان في الجاهلية: ناتق، وإنما أسموه بذلك، لأنه كان ينتقهم لشدته عليهم، كما يقال له شهر الصبر.

ويقال إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة، سموها بالأزمنة التي وقعت فيها. فوافق هذا الشهر أول أيام رمض الحر، فسمي بذلك.

أخرج ابن مردويه والأصبهاني في الترغيب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما سمي رمضان، لأن رمضان يرمض الذنوب، أي يحرقها بالأعمال الصالحة. وقيل هو مأخوذ من: رمض الصائم يرمض: إذا احترق جوفه من شدة العطش، والرمضاء: شدة الحر. ويجمع رمضان على رمضانات وأرمضاء، وقد ورد ذكره مرة واحدة في القرآن الكريم.

وقد ورد في فضل رمضان أحاديث كثيرة. أخرج أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي عن واثلة بن الأسقع، أن رسول الله ﷺ قال: "أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزل الزبور لثماني عشرة خلت منه، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان".

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن جابر مثله، لكنه قال: "وأنزل الزبور لاثني عشر خلون". وزاد: وأنزل التوراة لست خلون من رمضان، وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان". والله تعالى أعلم.

---

(1) البقرة،آيه: ـ ١٨٥

وقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝ ﴾ (1). قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إنه ابتدئ إنزاله في رمضان، وفي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة.

إن سورة القدر مكية، وقيل مدنية، وعدد آياتها خمس، ومعنى ليلة القدر: تقدير الأمور وقضائها، والقدر بمعنى التقدير. وقيل سميت بذلك لشرفها على سائر الليالي.

لعل الداعي إلى إخفاء ليلة القدر، هو أن يحيي من يريدها الليالي الرمضانية طلبا لموافقتها. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "يا رسول الله، إن وافقتُ ليلة القدر، فما أقول؟" قال: "قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني".

ومن فضائل ليلة القدر:

- إن الله أنزل فيها القرآن، الذي به هداية البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة.
- ما يدل عليه الاستفهام من التفخيم والتعظيم.
- إنها خير من ألف شهر.
- إن الملائكة تنزل فيها، وهم لا ينزلون إلا بالخير والبركة والرحمة.
- أنها سلام، لكثرة السلامة فيها من العقاب والعذاب، بما يقوم به العبد من طاعة الله سبحانه.
- إن الله أنزل في فضلها سورة كاملة تتلى إلى يوم القيامة.
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ. "ليلة القدر: ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين". وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: "ليلة القدر في العشر البواقي، من قامهن ابتغاء، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه ما تأخر، وهي ليلة وتر: تسع، أو سبع، أو خامس، أو ثالث، أو آخر ليلة".

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ. "التمسوها في العشر الأواخر من رمضان "وقيل: ليلة ثلاث وعشرين، لحديث عبد الله بن أنيس في صحيح مسلم. وقيل ليلة أربع وعشرين، لحديث أبي سعيد الخدري.

---

(1) سورة القدر، آية 1.

وروي عن ابن مسعود وابن عباس وابن جابر والحسن وقتادة، أنها ليلة أربع وعشرين، لحديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا: "إن القرآن أنزل ليلة أربع وعشرين". وأخرج محمد بن نصر والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس قال: "نزل القرآن جملة لأربع وعشرين من رمضان، من اللوح المحفوظ، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزله على رسول الله ﷺ ترتيلاً".

وعن أمارة ليلة القدر، قال رسول الله ﷺ. "إن أمارة ليلة القدر: أنها صافية بلجة، كأن فيها قمرا ساطعا، ساكنة ساجية، لا برد فيها ولا حر، ولا يحل لكوكب يرمى به حتى يصبح. وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية ن ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ".

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: ليلة سمحة طلقة، لا حارة ولا باردة، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء".

الوحي.. وبدء نزول القرآن

بينما كان رسول الله ﷺ يتعبد في غار حراء، فاجأه جبريل وهو يقظ يلتمس الحقيقة، ويبحث عن الله سبحانه. قال رسول الله ﷺ: فجاءني جبريل، بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ. قلت:: ما أقرأ؟ "(وفي رواية ما أنا بقارئ). قال: فغتّني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: "ما أقرأ؟" قال: فغتّني به حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت ماذا أقرأ؟ فقال:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ ﴾ (1). قال: فقرأتها، فكأنما كتبت في قلبي كتابا، ثم انتهى، وانصرف عني.

قال ﷺ: فخرجت، حتى إذا كنت وسط الجبل، سمعت صوتا من السماء يقول: "يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل". قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، يقول: "يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل

---

(1) سورة العلق، آية 1.

". قال: فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك. فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي ولا أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة، ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني.

منذ أن نزل القرآن الكريم، كان مقرونا ببسم الله تعالى، ولذلك حينما نتلوه، فإننا نبدأ البداية نفسها، التي أرادها تبارك وتعالى، وأول الكلمات التي نطق بها الوحي لمحمد ﷺ، كانت: اقرأ باسم ربك الذي خلق.

إن كلمة اقرأ، تتطلب أن يكون الإنسان إما حافظا لشيء يحفظه، أو يكون أمامه شيء مكتوب ليقرأه. ولكن رسول الله ﷺ، ما كان حافظا لشيء يقرؤه، وما كان أمامه كتاب ليقرأ منه، وحتى لو كان أمامه كتاب، فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب.

أخذ خصوم الإسلام قوله ﷺ: ما أقرأ، أو ما أنا بقارئ، وقالوا: كيف يقول الله لرسوله: اقرأ، ويردّ الرسول: ما أنا بقارئ؟ فالجواب: إن الله تعالى كان يتحدث بقدراته، التي تقول للشيء: كن فيكون". بينما كان رسول الله ﷺ يتحدث ببشريته، التي تقول إنه لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة، ولكن قدرة الله تعالى، هي التي ستأخذ هذا النبي الذي لا يقرأ ولا يكتب، لتجعله معلما للبشرية إلى قيام الساعة، لأن كل البشر يعلمهم بشر، لكن محمدا ﷺ سيعلمه الله تبارك وتعالى، ليكون معلما لأكبر علماء البشر، يأخذون عنهم العلم والمعرفة، لذلك جاء الجواب من الله : اقرأ باسم ربك الذي خلق. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده.

إن رجفة فؤاده ﷺ تشير إلى الرعب الذي اعتراه، لأن الوحي نزل عليه فجأة، ولم يكن يتوقعه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (1). وليس في رجفة فؤاده أي إيماءة إلى تبرد أطرافه، الذي يتبعه عادة شحوب في الوجه، واصطكاك في الأسنان، فقد كان ﷺ على العكس:

---

(1) سورة القصص، آية 86.

ترتفع درجة حرارته، فيحمر وجهه، وتأخذه البرحاء، حتى يتفصد جبينه عرقاً، ويثقل جسمه، فيكاد يرض فخذه فخذ الجالس إلى جانبه، فيلتمس الدثار.

وبعد أن نزلت سورة العلق، نزلت ثلاث آيات من سورة القلم، ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة، فحزن الرسول ﷺ حزنا شديدا، حتى كان يأتي رؤوس الجبال مرارا، فكلما أوفى على ذروة جبل، بدا له جبريل عليه السلام فيقول: "إنك نبي". فيسكن لذلك جأشه، وترجع إليه نفسه. فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك، قال: فبينا أنا أمشي يوما، إذ رأيت الملك الذي كان يأتي بحراء، بين السماء والأرض، فجشئت منه رعبا، فرجعت إلى خديجة، فقلت: دثروني، قالت خديجة: فدثرناه. فأنزل الله: "يا أيها المدثر قم فأنذر". ثم أنزل الله تعالى: "يا أيها المزمل.

وبعد نزول سورتي المدثر والمزمل، فتر الوحي، حتى شق عليه ﷺ ذلك فأحزنه، بعد أن قالت له أم جميل امرأة أبي لهب: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث. فجاءه جبريل عليه السلام بسورة الضحى، وهذا قسم من الله تعالى بالضحى، أنه ما ودعك ولا هجرك، ولا قلاك ولا أبغضك، وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار الفانية، وأنه سبحانه وتعالى سوف يعطيك فترضى، فأعطاه في الجنة القصور، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم، وأعطاه الله الكوثر. وعن ابن عباس قال: من رضاء محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. وقال الحسن: يعني بذلك الشفاعة.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1]. وقول عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [2]. فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى. فقال الله عز وجل: يا

(1) سورة إبراهيم،آيه : 36.

(2) سورة المائدة، آية 118.

جبريل، اذهب إلى محمد – وربك أعلم – فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال – وهو أعلم – فقال الله تعالى: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك". رواه مسلم.

ثم تتامّ الوحي إلى رسول الله ﷺ، وهو مؤمن بالله مصدّق بما جاء به، وتحمل منه ما حمّله على رضا العباد وسخطهم[1]، لأن النبوة أثقال وأعباء وأمانة، لا يحملها ولا يستطيع حملها، إلا أهل القوة والعزم من الرسل، لما يلقون من الناس، وما يُرَدُّ عليهم مما جاءوا به من عند الله سبحانه وتعالى، قال عزّ من قائل: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

جاء في الكشاف: ذهب ابن عباس ومجاهد، إلى أن أول سورة نزلت

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾[3] وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت هي فاتحة الكتاب. وقطع الإمام محمد عبده بأنها أول سورة نزلت من القرآن، بناء على ما ورد عن الإمام علي كرم الله وجهه، واستدل من ذلك بوضعها في أول القرآن بالإجماع، وبموضوعها الشامل لمقاصد القرآن الكلية بالإجمال.

قال ابن حُجْر: والذي ذهب إليه الجمهور هو الأول، ويمكن أن يقال: إن نزول

---

(1) من أشهر الكفار المعارضين لدعوة النبي ﷺ في العهد المكي: أبو لهب (عبد العزى بن عبد المطلب)، وامرأته أم جميل، وابو جهل (عمرو بن هشام)، وأمية بن خلف الجمحي، والعاص بن وائل السهمي، وأُبيّ بن خلف الجمحي، وعتبة بن أبي معيط، وزمعة بن الأسود، ومالك بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي، والوليد بن المغيرة المخزومي، والأخنس بن شريك الثقفي، وعبد الله ابن أبي أمية المخزومي، والنضر بن الحارث العبدري، وأبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وشيبة وعتبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والحارث بن قيس السهمي، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية، وأبو قيس بن الفاكه ابن المغيرة، وزهير بن أبي أمية، وعبدالله بن أبي أمية، وأبو البختري العاص بن هاشم وغيرهم.

(2) سورة الأحقاف، آية 35.

(3) سورة العلق، آية 1.

أول سورة العلق قبل الفاتحة، لا ينافي تلك الحكم التي بينها، لأنه تمهيد للوحي المجمل والمفصّل، خاص بحال النبي ﷺ عند بدء نزوله. وإعلام له بأن يكون به وهو أميّ، قارئا باسم الله تعالى، ومخرجا للأميين من أمّيتهم، إلى العلم بالقلم، أي الكتابة. وفي ذلك استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾[1].

أما الذي نسبه إلى الأخر، لم يقل فيه إلا أقل من القليل. والنسبة إلى من قال بالأول، فحجته ما أخرجه البيهقي والواحدي والثعلبي من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل، أن رسول الله ﷺ قال لخديجة رضي الله عنها: "إني إذا خلوت وحدي، سمعت نداء[2].. فقد والله خشيت أن يكون هذا امرا". فقالت: "ابشر يا بن عم واثبت، فو الذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة... يا ابن عم، معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر". ثم انطلقت[3] به خديجة، حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة، وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل. وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت خديجة: "أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك".

فقال ﷺ: "إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد، يا محمد.. فانطلق هاربا في الأرض". فقال ورقة بن نوفل: "لا تفعل.. إذا أتاك فاثبت، حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني". فلما خلا ناداه: "يا محمد، قل: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب

---

(1) سورة البقرة، آية 129.

(2) يحتمل أن يكون صاحب ذلك النداء هو إسرافيل عليه السلام، الذي وكل برسول الله ﷺ مدة ثلاث سنين، حسب ما أورده ابن هشام، والله أعلم.

(3) يقال إن الذي انطلق برسول الله ﷺ إلى ورقة بن نوفل، هو أبو بكر الصديق بناء على طلب من خديجة.

العالمين... حتى بلغ ولا الضالين". حديث مرسل رواته ثقاة.

وذكر الواحدي عن أبي ميسرة، أنه ﷺ كان إذا برز سمع مناديا ينادي: يا محمد يا محمد، فإذا سمع الصوت انطلق هاربا. فقال له ورقة بن نوفل: "إذا سمعت النداء فاثبت، حتى تسمع ما يقول لك". قال: فلما برز سمع النداء: "يا محمد". قال: "لبيك". قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله". فأتى ورقة فذكر ذلك له، فقال له ورقة: "ابشر ثم ابشر، فإني أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل"[1].

وفي رواية: قال ورقة: "هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ولتكذبنّ، ولتؤذينّ، ولتخرجن، ولتقاتلنّ، ليتني فيها جذعا.. ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك". فقال النبي ﷺ: "أو مخرجيّ هم؟" فقال ورقة: "نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن أدركني يومك، أنصرك نصرا مؤزرا".

وروى الثعلبي بإسناده عن عمرو بن شرحبيل رضي الله عنه، أنه قال: "أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾[2]، وذلك أن رسول الله ﷺ أسرّ إلى خديجة فقال: "لقد خشيت أن يكون خالطني شيء". فقالت: "وما ذاك؟" قال: "إذا خلوت سمعت النداء". ثم ذهب إلى ورقة بن نوفل وسأله عن تلك الواقعة، فقال له ورقة: إذا أتاك النداء فاثبت له". فأتاه جبريل ﷺ، فقال: قل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾.

ظاهرة الوحي

لم يكن الرسول محمد ﷺ بدعا من المرسلين، ولا كان أول نبي خاطب الناس باسم الوحي، وحدثهم بحديث السماء، فمن لدن نوح ﷺ تتابع أنبياء مصطفون أخيار، ينطقون عن الله، ولا ينطقون عن الهوى. ولم يكن الوحي الذي أيدهم الله به مخالفا

(1) الدر المنثور في التفسير المأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، صفحة 10-11.

(2) سورة الفاتحة.

الوحي الذي أيد بـه محمـدا ﷺ، بـل كانـت ظـاهرة الـوحي متماثلـة عنـد الجميـع، لأن مصدرها واحد، وغايتها واحدة.

حرص القرآن الكريم على تسمية ما نزل على قلب محمد وحيـا، ليـشابه مـدلول الوحي بين جميع النبيين، تشابه اللفظ الدال عليـه، قـال تعـالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [1]. وقولـه تعـالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ ﴾ [2].

ولكن، ما حقيقة هذا الوحي في نظر الدين؟ وما مدى التـشابه بـين ظاهرتـه عنـد محمد ﷺ، وعند سائر النبيين؟

حين سمى الدين هذا الضرب من الإعـلان الخفـي الـسريع وحيـا، لم يبتعـد عـن المعنى اللغوي الأصلي لمادة الوحي والإيحاء:

فمنه الإلهام الفطري للإنسان، كقولـه تعـالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ ۝٧ ﴾ [3]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي ۝١١١ ﴾ [4].

ومنه الإلهام الغريزي للحيوان، كالذي في قوله تعالى﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ﴾ [5].

ومنه الإشارة السريعة، على سبيل الرمز والإيماء، كما في قوله تعالى عن زكريا: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١ ﴾ [6].

حيث أشار إليهم إشارة وحيّة سريعة ولم يتكلم، ومنه الإيماء بالجوارح.

---

(1) سورة النجم، آية 3–4.

(2) سورة الأعراف، 'ية 7.

(3) سورة القصص، آية 7.

(4) سورة المائدة، آية 111.

(5) سورة النحل، آية 68.

(6) سورة مريم، آية 11.

كما عبر القرآن الكريم بالوحي عن وسواس الشيطان، وتزيينه خواطر الشر للإنسان، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾[3].

كما عبر الوحي أيضا عما يلقيه الله إلى الملائكة من أمره ليفعلون من فورهم:

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[4].

أما تعبيره بالوحي، عما يكلف الله الملك حمله إلى النبي من آيات كتبه المنزلة، فهو شديد الصلة بتعبيره للوحي إلى النبي نفسه، وما بين مدلولي التعبير من اختلاف لا يعدو الوظيفة، التي يتحملها ملك الوحي بالنقل الأمين، ويتحملها النبي بالوعي والحفظ والتبليغ. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[5]. إذ المراد أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى عبده جبريل ملك الوحي الأمين، ما أوحاه جبريل إلى محمد ﷺ خاتم النبيين.

إن مدلول الوحي في هذه الآية، كمدلول التنزيل الصريح في الآية التالية في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[6].

---

(1) سورة الأنعام، آية 112.

(2) سورة الأنعام، آية 121.

(3) سورة الزلزلة، آية 1-5.

(4) سورة الأنفال، آية 12.

(5) سورة النجم، آية 10

(6) سورة الشعراء، آية 192-195.

بيد أن القرآن الكريم لم يقصر ظاهرة هذا الاتصال الغيبي الخفي، بين الله وأصفيائه، على تنزيل الكتب السماوية بواسطة الملك الوحي، بل أشار في آية واحدة إلى صور ثلاث من صور الوحي:

أولها: إلقاء المعنى في قلب النبي أو نفثه في روعه.

والثانية: تكليم النبي من وراء حجاب، كما نادى الله موسى من وراء شجرة، وسمع نداءه.

والثالثة: هي التي متى أطلقت، انصرفت إلى ما يفهمه المتدين عادة، من لفظ الإيحاء، حين يلقي ملك الوحي المرسل من الله إلى نبي من الأنبياء، ما كلف إلقاءه إليه، سواء أنزل إليه في صورة رجل، أو في صورته الملكية.

إن الله سبحانه وتعالى يعطي منهجه بالوحي، ويكون عطاؤه غيبا، يقول تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١ ﴾[1].

ذلك لأن التكوين البشري لا يمكن أن يستقبل من الله سبحانه مباشرة، والوحي إعلام بخفاء، لا يعلمه أحد إلا الموحي والموحى إليه. وهو نوعان:

- الوحي الشرعي، وهو وحي من الله سبحانه. حيث أوحى تبارك وتعالى إلى الرسل، وأوحى إلى الملائكة، وإلى أم موسى، وإلى الحواريين، وإلى النحل، وإلى الأرض.
- أما الوحي الثاني: فهو وحي من الشيطان لأوليائه، وهو الوحي اللغوي.

روى ابن أبي حاتم بسنده عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر، تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة – او كما قال رعدة – شديدة، خوفا من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرّوا سجدا، فيكون أول

---

(1) سورة الشورى، آية 51.

من يرفع رأسه جبريل عليه السلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، وكلما مر بسماء، سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل. فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل".

كان وحي الله تعالى إلى موسى عليه السلام، أن كلمه سبحانه من وراء حجاب. وكان وحيه تبارك وتعالى إلى محمد ﷺ في أحوال مختلفة منها:

- أن ينفث في رُوعه الكلام نفثاً. كما قال عليه السلام: "إن روح القدس نفث في رُوعي أن نَفْساً لن تموت، حتى تستكمل أجلها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب".
- أن يأتيه الوحي كصلصلة الجرس وهو أشدّ عليه. وقيل إن ذلك ليستجمع قلبه عند تلك الصلصلة، فيكون أوعى لما يسمع، وألقن لما يُلقى. حتى أنه حينما جاءه الوحي، لامست ركبته ﷺ ركبة صحابي كان يجلس بجواره، فأحس الصحابي كأنها جبل. وإذا كان رسول الله ﷺ راكبا الناقة، فإنها تنام وتبرك على الأرض، وتضرب بجرانها، ولا تستطيع السير.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: "يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال. وأحيانا يأتيني الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول". قالت عائشة: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقا اخرجه الشيخان ولفظه للبخاري.

وعن ابن عباس قال: "كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي، يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه، عرف في تحريك شفتيه، يتلقى أوله، فيحرك به شفتيه، خشية أن ينسى أوله، قبل أن يفرغ من آخره".

وعن عبد الله بن عمرو قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل

تحس بالوحي؟ فقال ﷺ: "أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي"، إلا ظننت أن نفسي تقبض". تفرد به أحمد.

- أن يتمثل له الملك رجلا، فقد كان يأتيه في صورة دحية بن خليفة الكلبي ابن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزرج.
- أن يتراءى له جبريل في صورته التي خلقه الله فيها، له ستمائة جناح ينتشر منها اللؤلؤ والياقوت.
- أن يكلّمه الله من وراء حجاب: إما في اليقظة كما علمه في ليلة الإسراء، وإما في النوم، كما قال في حديث معاذ، الذي رواه الترمذي، قال ﷺ: "أتاني ربي في أحسن صورة ...". أو كما في حديث ابن إسحق.
- وعن أنس رضي الله عنه قال: "إن الله عز وجل تابع الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته، حتى توفي أكثر ما كان الوحي عليه". متفق عليه.

كان الوحي ينزل على قلب رسول الله ﷺ في كل لحظة، إنه ليأوي إلى فراشه، فما يكد يغفو إغفاءة، حتى ينهض ويرفع رأسه مبتسما، فقد أوحت إليه سورة الكوثر الخير الكثير. وإنه ليكون وادعا في بيته، وقد بقي من الليل ثلثه، فتنزل عليه آية التوبة، في الثلاثة الذين خلّفوا.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾[1].

كان الوحي ينزل على قلب النبي ﷺ في الليل الدامس والنهار الأضحيان، وفي البرد القارس أو لظى الهجير، وفي استجمام الحضر أو أثناء السفر، وفي هدأة السوق أو وطيس الحرب، وحتى في الإسراء إلى المسجد الأقصى، والعروج إلى السموات العلى.

كان الوحي ينقطع عن رسول الله ﷺ، وهو أشد ما يكون إليه شوقا وله طلبا، فبعد أن نزل عليه جبريل بأوائل سورة العلق، فتر الوحي ثلاث سنين، فحزن النبي حزنا، غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدى له جبريل فقال: يا محمد، أنت رسول الله حقا". فيسكن لذلك جأشه،

(1) سورة التوبة، آية 118.

وتقر نفسه[1].

حمي الوحي وتتابع، واستبشر النبي ﷺ، وتبدل انتظاره الحزين فرحة غامرة، وأيقن أن هذا الوحي الذي استعصى عليه، ولم يوافه طوع إرادته، مستقل عن ذاته، خارج عن فكره، فاستقر في ضميره الواعي، أن مصدر هذا الوحي هو الله علام الغيوب.

ويبطئ الوحي شهرا كاملا بعد حديث الإفك، الذي رمى به المنافقون بنت الصديق بالفاحشة، وأثاروا به حولها الفضيحة، حتى عصفت بقلب الرسول ﷺ الريبة، فقال لزوجته أم المؤمنين: " يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ".. وظل رسول الله ﷺ شهرا كاملا، فريسة للشك والقلق، صامتا ينتظر، واجما يتربص، حتى نزلت آيات النور تبرئ أم المؤمنين.

إن من يتل الآيات القرآنية التي تصور رسول الله ﷺ إنسانا ضعيفا بين يدي الله، يستمد منه العون ويستهديه، ويستغفره ويصدع بما يأمره به، وأحيانا يتلقى العتاب الشديد، يجد في أعماق قلبه من الفيض الوجداني، ما يحمله على الاقتناع بالفرق الذي لا يتناهى بين صفة الخالق وصفة المخلوق، وبين ذات الخالق وذات المخلوق، وبين أسلوب الخالق وأسلوب المخلوق.

إن صورة محمد ﷺ في القرآن، هي صورة العبد المطيع، الذي يخاف عذاب ربه إن عصاه، فيلتزم حدوده ويرجو رحمته، ويعترف بعجزه المطلق عن تبديل حرف من كتاب الله. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[2].

ولتصدير هذه الآية السابقة، بعبارة قل: مغزى لطيف يفهمه العربي بالسليقة، وهو

(1) البرهان، 1/ 198.

(2) سورة يونس، آية 15-16.

توجيه الخطاب للرسول ﷺ، وتعليمه ما ينبغي أن يقول، فهو لا ينطق عن هواه، بل يتبع ما يوحى إليه، ولذلك تكررت عبارة قل (270) مرة في القرآن الكريم، ليكون القارئ على ذكر من أن محمدا ﷺ لا دخل له في الوحي، فلا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه. وإنما يلقى إليه الخطاب إلقاء، فهو مخاطب لا متكلم، حاك ما يسمعه، لا معبر عن شيء يجول في نفسه.

ويزداد الفرق وضوحا بين صفة الله المتكلم منزل الوحي وبين صفة رسوله المخاطب متلقي الوحي، في الآيات التي يعتب الله فيها على نبيه عتابا خفيفا أو شديدا، أو يعلمه فيها بعفوه عنه، وغفرانه ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فمن العتاب الخفيف، الذي يشوبه عفو الله عن رسوله، خطابه له في شأن من أذن لهم بالقعود عن القتال في غزوة تبوك: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (1).

وأما العتاب الشديد، فقد نطقت به آيات الفداء في سورة الأنفال ووجهته عنيفا صادعا، منذرا متوعدا، إلى الرسول ﷺ وإلى صحابته الذين أشاروا عليه بأخذ الفداء من أسرى بدر، مؤثرين عرض الحياة الفاني على نصرة الدين، في أول معركة في الإسلام، لم يثخنوا قبلها في الأرض، ولم يعظم بعد شأنهم فيها. ولذلك صيغ العتاب صيغة عامة، تشعر بتقرير مبدأ في صفات الأنبياء والرسل، فلم يوجه الله خطابه لرسوله ﷺ مباشرة، بل استهل الآية بكون منفي، تلته عبارة تستعظم هذا الفداء، يصدر عن نبي من الأنبياء ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (2).

ويقرب من هذا العتاب الذي لم يوجهه الله – على شدته – رأسا إلى نبيه، وإنما افتتحه بضمير الغيبة، يحكي به المشهد، ويصور به الواقع، ما أدب الله به محمدا في قصة

(1) سورة التوبة، آية 42.

(2) سورة الأنفال، آية 68.

الأعمى عبد الله بن أم مكتوم، عندما جاءه وهو يدعو أكابر رجال قريش إلى الإسلام، وقد لاح له بارقة رجاء في إيمانهم يتحدثون معه، فتولى عنه وتلهى بهذه الفكرة، ولم يكن يعلم قبل إعلام الله تعالى أن سنته في البشر، أن يكون أول من يتبع الأنبياء والمصلحين فقراء الأمة وأوساطها، دون أكابر مجرميها المترفين ورؤسائها. ففي هذا أنزل الله تعالى:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ ﴾ (1).

وأشد من هذا كله ما يوجه إلى الرسول ﷺ من إنذار الشديد والتهديد، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥ ﴾ (2).

وهذا الإنذار يبلغ القمة، فيستصغر بعده كل تهديد وكل وعيد، حين يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ ﴾ (3).

وفي تفسير هذه الآيات يقول الزمخشري: لو ادعى علينا شيئا لم نقله لقتلناه صبرا، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم، معالجة بالسخط والانتقام. فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول، وهو أن يؤخذ بيده وتضرب عنقه.

من خلال هذه الآيات المتوعدة المنذرة، وتلك العاتبة المؤدبة، يبدو لنا رسول الله ﷺ مخلوقا ضعيفا، بين يدي ربه، ذي القدرة الظاهرة، والقوة الكبرى، والإرادة التي لا معقب لها. ويبدو لنا أيضا كامل الوعي، للفرق بين ذاته المأمورة ، وذات الله الآمرة، وبوعيه الكامل هذا، كان رسول الله ﷺ، يفرق بوضوح بين الوحي الذي ينزل عليه، وبين أحاديثه الخاصة، التي كان يعبر عنها بإلهام من الله، فما يجول في نفسه من خواطر وأفكار، كان ذا صفة إنسانية محضة، لا يمكن أن تختلط بالكلام الرباني. لذا نهى ﷺ أول العهد

(1) سورة عبس، آية 1-3.

(2) سورة الإسراء، آية 74-75.

(3) سورة الحاقة، آية 44-47.

بنزول الوحي عن تدوين شيء سوى القرآن، لكي يحفظ للقرآن صفته الربانية، ويحول دون اختلاطه بشيء له هذه الصفة القدسية، بينما كان عند نزول الوحي – ولو آية أو بعض آية – يدعو أحد الكتبة فورا، ليدون ما نزل من القرآن.

ومع أن في أقوال النبي ﷺ أحاديث توقيفية، تلقى من الوحي مضمونها، جرد الكتبة بأمره كتاب الله منها، مهما تبد شديدة الصلة بالآيات التي تفسرها. لأن النبي صاغها بأسلوبه، وبينها بلفظه، وما كان لأسلوبه ولا لأسلوب أحد أن يختلط بأسلوب القرآن المعجز المبين.

حتى الأحاديث القدسية، رغم اعتراف العلماء بأن معناها لله، وأنها منزلة من عند الله، فقد نُحّيت، وفصلت عن القرآن، لما لوحظ من حرص النبي ﷺ على عدم خلطها بكتاب الله، بما كان يستهل به مطالعها من عبارات نبوية، يشعر بها سامعيه، أنه يصوغها بأسلوبه البشري، معنى أنزله الله تعالى، وشتان بين أسلوب محمد، ولو كان أفصح البشر، وبين أسلوب منزل القرآن، صاحب القوى والقدر.

ولعل هذا كله لا يبدو في نظر بعض الباحثين شيئا مذكورا، تلقاء ما عرفناه من النهي الصريح عن محاولة النبي ﷺ تدريب ذاكرته، وأمام ذلك التجاهل القاهر لاختياره وإرادته. إذ لا يسعنا أمام هذه الحقائق، إلا أن نعترف باستقلال ظاهرة الوحي عن ذات النبي استقلالا مطلقا، وتفردها عن العوامل النفسية تفردا كاملا، فالنبي لا يملك حتى حق استخدام ذاكرته في حفظ القرآن، بل كان الله سبحانه يتكفل بتحفيظه إياه، وقانون التذكر نفسه، بطل الآن سحره، وعفا أثره، تجاه إرادة الله، فكيف لا يعي النبي – بعد هذا كله – الفرق العظيم بين ذاته المأمورة، وذات الله الآمرة، وهو يرى نفسه أنه لا يملك من أمر نفسه شيئا؟

ولعل من أعجب العجب، أن يضمن الله لنبيه حماية شخصه وعصمته من أذى الناس، مع أن الراغبين في قتله كانوا يحيطون به من أمامه وخلفه،وعن يمينه وشمله، ولكنها إرادة السماء جعلت الرسول على يقين بأن الله حاميه. لقد نزل قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ

مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[1].

ها هو ذا ﷺ يوم أحد، أقرب ما يكون من العدو، بينما كان الموت أقرب إليه من شراك نعله، حتى قال علي بن أبي طالب: "كنا إذا حمي الوطيس، احتمينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه".

وها هو ﷺ في غزوة حنين، يركض بغلته إلى جهة العدو، فلما أقبل المشركون وغشوه، لم يفرّ، بل نزل عن بغلته، كأنما يعرض نفسه لنبالهم، وهو يقول: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب". رواه الشيخان.

وها هو في ذات الرقاع ينزل تحت شجرة، ويعلق سيفه عليها، فيجيئه رجل من المشركين، فيأخذ السيف فيخترطه، ويقول للنبي: أتخافني؟ فقال النبي: لا. فيقول الرجل: وما يمنعك مني؟ فيجيب: الله يمنعني منك.. ضع السيف". فلا يملك الرجل إلا أن يضع سيفه[2]. وتزيد بعض الروايات أن الرجل أعلن من فوره إسلامه.

الإسراء والمعراج

قال تعالى:

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[3].

في الخامس والعشرين من رجب قبل الهجرة النبوية بسنة، أكرم الله سبحانه نبيه الكريم بالإسراء والمعراج. أما الإسراء: فهو توجهه ﷺ ليلاً إلى بيت المقدس، ورجوعه من ليلته. أما المعراج: فهو صعوده ﷺ إلى العالم العلوي، وقد قال جمهور أهل السنّة: "إن ذلك كان بجسمه الشريف".

وقد ورد ذكر المعراج في صحيح السنّة، قال ابن اسحق: وحدّثت عن الحسن أنه

(1) سورة المائدة، آية 67.

(2) صحيح مسلم عن جابر، 15/ 44.

(3) سورة الإسراء، الآية: 1.

قال: قال رسول الله ﷺ: "بينا أنا نائم في الحِجْر، إذ جاء جبريل، فهمزني بقدمه، فجلست فلم أرَ شيئاً، فعدت إلى مضجعي. فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست، فلم أر شيئاً، فعدت إلى مضجعي. فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست، فأخذ بعضدي، فقمت معه فخرج بي إلى باب المسجد، فإذا دابة ابيض، بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يحفز[1] بهما رجليه، يضع يده في منتهى طَرفه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته".

قال ابن اسحق: "وحُدثت عن قتادة أنه قال: "حُدثت أن رسول الله ﷺ قال: "لما دنوتُ لأركبه شَمَسَ[2]، فوضع جبريل يده على معرفته، ثم قال: "ألا تستحي يا براق[3] مّا تصنع؟ فوالله ما ركبك عبدٌ لله قبل محمد أكرم عليه منه". قال: "فاستحى حتى ارفَضّ[4] عرقاً، ثم قوّى حتى ركبته"[5].

وروى الشيخان ونقله القاضي عياض في شفائه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي تُرْبِط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: "اخترتِ الفطرة. وفي رواية: "هُديتَ للفطرة، وهُديت أمتك يا محمد".

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لما فرغت مما كان في بيت المقدس، أُتِيَ بالمعراج، ولم ارَ شيئاً قط أحسن منه، وهو الذي يمدّ إليه مَيِّتُكُمْ عينيه إذا حَضِر، فأصعدني صاحبي فيه، حتى أتى بي إلى باب من أبواب السماء، يقال له باب الحفظة، عليه مَلَك من الملائكة، يقال له إسماعيل، تحت يديه اثنا عشر ألف مَلَك، تحت يَدَيْ كل ملك منهم اثنا عشر ألف مَلَك. قال رسول الله ﷺ حين حدّث بهذا الحديث

---

(1) يحفز: يدفع.

(2) شَمَسَ: حَرَنَ وتحرّك ونفَر.

(3) وإنما نفر لبعد عهد البراق بركوب الأنبياء.

(4) ارفض: تصبب عرقاً.

(5) سيرة ابن هشام، 1/ 32-33.

[وما يعلم جنود ربّك إلا هو] " فلما دُخل بي قال: من هذا يا جبريل؟ قال: محمد. قال: أو قد بُعث؟ قال: نعم. قال: فدعا لي بخير".

قال ابن اسحق: وحدثني بعض أهل العلم، عمّن حدثه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "تلقتني الملائكة حين دخلتُ السماء الدنيا، فلم يلقني مَلَكٌ إلا ضاحكاً مستبشراً، يقول خيراً ويدعو به، حتى لقيني مَلَكٌ من الملائكة، فقال مثل ما قالوا، ودعا بمثل ما دعوا به، إلا أنه لم يضحك، ولم أرَ منه البِشْرَ مثل ما رأيت من غيره، فقلت لجبريل: يا جبريل، من هذا المَلَكُ الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك؟ ولم أرَ منه من البشر مثل الذي رأيت من غيره؟ قال: فقال لي جبريل: أما إنه لو ضحك إلى أحد كان قبلك، أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك، لضحك إليك، ولكنه لا يضحك، هذا مالك صاحب النار". فقال رسول الله ﷺ: فقلت لجبريل: وهو من الله تعالى بالمكان الذي وصف لكم: مُطاع ثمّ أمين". ألا تأمره أن يُريني النار؟ فقال: بلى، يا مالك، أرِ محمداً النار". قال: فكشف عنها غطاءها، فقال: ففارت وارتفعت، حتى ظننت لتأخذنّ ما أرى". قال: فقلت لجبريل: يا جبريل، مُرْهُ فليردّها إلى مكانها". قال: فأمره، فقال لها: "اخْبَيْ". فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه، فما شبّهت رجوعها إلا وقوع الظل، حتى إذا دخلت من حيث خرجت، ردّ عليها غطاءها".

وقال أبو سعيد الخدري في حديثه: "إن رسول الله ﷺ قال: "لما دخلت السماء الدنيا، رأيت بها رجلاً جالساً تُعرض عليه أرواح بني آدم، فيقول لبعضها إذا عُرضت عليه خيراً ويسّر به، ويقول: روح طيِّبة خرجت من جسد طيّب. ويقول لبعضها إذا عُرضت عليه: أف، ويعبس بوجهه ويقول: روحٌ خبيثة خرجت من جسد خبيث. قال: قلتُ من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم، تعرض عليه أرواح ذريته، فإذا مرّت به روحُ المؤمن منهم سُرَّ بها، وقال: روح طيب خرجت من جسد طيب. وإذا مرّت به روح الكافر منهم، أنِفَ منها وكرهها، وساءه ذلك، وقال: روح خبيثة، خرجت من جسدٍ خبيث. قال: ثم رأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل، في يديهم قطع من نار كالأنهار، يقذفونها في أفواههم، فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أَكَلَة

أموال اليتامى ظلماً. قال: ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قطّ بسبيل آل فرعون [1]، يمرون عليهم كالإبل المهيومة [2] حين يُعرضون على النار، يطأونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك. قال: قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: "هؤلاء أكَلَة الربا".

قال: ثم رأيت رجالاً بين ايديهم لحم ثمين طيب، إلى جنبه لحم غثّ مُنتِن، يأكلون من الغثّ المنتن، ويتركون السمين الطيب. قال: قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحلّ الله لهم من النساء، ويذهبون إلى ما حرّم الله عليهم منهن.

قال: ثم رأيت نساء معلّقات بثديهن، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم. قال ابن اسحق: وحدثني جعفر بن عمرو، عن القاسم بن محمد أن رسول الله ﷺ قال: "اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فأكل حرائبهم [3]، واطّلع على عوراتهم". ثم رجع إلى حديث أبي سعيد الخدري، قال: ثم أصعدني إلى السماء الثانية، فإذا بها ابنا الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا. قال: "فرحّبا بي ودعوا لي بالخير". قال: ثم أصعدني إلى السماء الثالثة، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر، وفي رواية: "أُعطي شطر الحسن" قال: قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف بن يعقوب، فرحّب بي ودعا لي بخير.

قال: ثم اصعدني إلى السماء الرابعة، فإذا فيها رجل فسألته: من هو؟ قال: هذا إدريس. قال: يقول الله تعالى: "ورفعناه مكاناً عليّا". فرحب بي ودعا لي بخير. قال: ثم اصعدني إلى السماء الخامسة، فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية، عظيم العثنون [4] لم أر كهلاً أجمل منه. قال: قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا المحبّب في قومه هارون بن عمران، فرحّب بي ودعا لي بخير.

---

(1) وذلك أن آل فرعون اشد الناس عذاباً يوم القيامة، يقول تعالى: "ادخلوا آل فرعون اشد العذاب".

(2) المهيومة: العطاش الظّماء.

(3) الحرائب: الأموال.

(4) العثنون: اللحية.

قال: ثم أصعدني إلى السماء السادسة، فإذا فيها رجل آدم[1]، طويل أقنى[2]، كأنه من رجال شنوءه، فقلت له: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران. فرحب بي ودعا لي بخير. ثم أصعدني إلى السماء السابعة، فإذا فيها كهل جالس على كرسي إلى باب البيت المعمور (وفي رواية: مسنداً ظهره إلى البيت المعمور)، يدخله كل يوم سبعون الف مَلَكْ، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة. (وفي رواية: لا يعودون إليه)، لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم (يعني محمد)، ولا صاحبكم أشبه به منه. قال: قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم. قال: "ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا أوراقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، غشيها من أمر ربي ما غشيها، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حُسْنها"[3].

قال: ثم دخل بي الجنّة، فرأيت فيها جارية لعساء[4]، فسألتها: لمن أنتِ؟ قالت: لزيد بن حارثة. فبشّر بها رسول الله ﷺ زيد بن حارثة.

قال ابن اسحق: ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما بلغني، أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات، إلا قالوا له حين يستأذن في دخولها: من هذا يا جبريل؟ فيقول: محمد. فيقولون: أو قد بُعث؟ فيقول: نعم. فيقولون: حيّاه الله من أخٍ وصاحب. حتى انتهى إلى السماء السابعة، ثم انتهى به إلى ربه، ففرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

قال رسول الله ﷺ: فأقبلت راجعاً، فلما مررت بموسى بن عمران، ونِعْم الصاحب كان لكم، سألني: كَمْ فُرِضَ عليكَ من الصلاة؟ فقلت: خمسين صلاة كل يوم وليلة. فقال: إن الصلاة ثقيلة، وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك، فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك. فرجعت، فسألت ربي أن يخفف عني وعن أمتي، فوضع عني عشراً، ثم انصرفت، فمررت على موسى، فقال لي مثل ذلك. فرجعت، فسألت ربي أن يخفف عني وعن

---

(1) الآدم: الأسود.

(2) الأقنى: المرتفع قصبة الأنف.

(3) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري، مصدر سابق، ص62.

(4) اللعساء: من لها حمرة في شفتيها تضرب إلى السواد.

امتي، فوضع عني عشراً. ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك، كلما رجعت إليه. قال: فارجع، فاسأل ربك. حتى انتهيت إلى أن وُضِعَ ذلك عني، إلا خمس صلوات في كل يوم وليلة، ثم رجعت إلى موسى فقال لي مثل ذلك. فقلت: قد زاجعت ربي وسألته، حتى استحييت منه، فما أنا بفاعل". فمن أدّاهن منكم إيماناً بهن، واحتساباً لهن، كان له أجر خمسين صلاة "[1].

ثم رجع ﷺ من ليلته. فلما أصبح غدا إلى قريش، فأخبرهم الخبر، فقال أكثر الناس: هذا والله الإمْر[2] البيّن، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة؟ ويرجع إلى مكة؟ قال: فارتدّ كثير ممن كان أسلم. وذهب الناس إلى أبي بكر، فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلّى فيه، ورجع إلى مكة؟ فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدّث به الناس، فقال أبو بكر: " والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض، في ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه". ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: "يا نبي الله، أحدّثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: "نعم:. قال: يا نبي الله، فصِفْهُ لي، فإني قد جئته". فقال رسول الله ﷺ: "فَرُفع لي حتى نظرتُ إليه". فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: "صدقت، أشهد أنك رسول الله". كلما وصف له منه شيئاً، قال: صدقت، أشهد أنك رسول الله" حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: "وأنت يا أبا بكر الصدّيق". فيومئذ سمّاه الصدّيق.

قالوا: أما النعت فقد أصاب، ولكن ما آية ذلك يا محمد؟". قال: "آية ذلك أني مررت بعير بني فلان، بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حسّ الدابّة، فندَّ لهم بعير، فدللتهم عليه، وأنا متوجّه إلى الشام. ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان[3]، مررت بعير بني فلان،

---

(1) سيرة ابن هشام، 1/ 37-39.

(2) الإمْر: العجيب.

(3) ضَجنان: جبل يبعد عن مكة حوالي 40 كيلو متراً.

فوجدت القوم نيام، ولهم إناء فيه ماء، قد غطوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان. وآية ذلك أن عيرهم الآن يَصوب من البيضاء [1] يقدمها جمل أورق[2] عليه غرارتان، إحداهما سوداء والأخرى برقاء.

قالت أم هانئ: فابتدر القوم الثنية، فلم يلقهم أول من الجمل[3] كما وصف لهم. وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماءً، ثم غطّوه، وأنهم هبّوا فوجدوه مغطىّ كما غطّوه، ولم يجدوا فيه ماء. وسألوا الآخرين وهم بمكة فقالوا: صدق والله، لقد أنفرنا في الوادي الذي ذكر، وندّ لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه ". ثم لم يزدهم ذلك إلا كبراً وعناداً، حتى قالوا: " هذا سحر مبين ".

وفي صبيحة ليلة الإسراء، جاء جبريل وعلّم رسول الله ﷺ كيفية الصلاة وأوقاتها، فيصلي ركعتين إذا ظهر الفجر، وأربع ركعات إذا زالت الشمس، ومثلها إذا ضوعف ظل الشيء، وثلاثاً إذا غربت، وأربعاً إذا غاب الشفق الأحمر. وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة، يصلي ركعتين صباحاً، ومثليهما مساءً، كما يفعل إبراهيم عليه السلام.

زوجاته ﷺ

ظن بعض المستشرقين أمثال: موير، وأميل درمنجهام، وواشنطن آرمنج، والأب اليسوعي لامانس، والراهب فيدنزيو وأضرابهم، ممن يجهلون حقيقة ما يرمي إليه الإسلام، فعابوا على رسول الله ﷺ زواجه بعد وفاة أم المؤمنين خديجة الكبرى بغير امرأة.. عابوا ذلك وما دروا أن هذا الزواج كان لأغراض دينية وسياسية وتشريعية.

اتهم هؤلاء المستشرقون رسول الله ﷺ بالميل إلى النساء بشهوة جامحة، واتخذوا من تعدد زوجاته دليلا حسبوه يكسبهم القضية، وهو دليل واه في ميزان الحكم السليم والرأي القويم. وقالوا: إنه أباح لنفسه من التعدد والزيادة على أربع في عصمة يده، ما حرمه على المسلمين، وهذا فيه من المغالطة وإغفال التاريخ ما يسقط معه القول، فإن

---

(1) يصوب من البيضاء: ينزل ويقترب من الثنية قرب مكة.

(2) أورق: لونه بين الغبرة والسواد.

(3) السيرة النبوية، ج1/ 36.

الآيات الخاصة بالزواج من أربع، والتي تؤثر الواحدة خوف عدم العدل، قد نزلت في أواخر السنة الثامنة من الهجرة، بعد أن كان النبي ﷺ قد بنى بنسائه جميعا.

كان من أثر تلك الأغراض الدينية أو السياسية: الانتفاع بالمصاهرة واتخاذها وسيلة لاجتذاب عطف القبائل، كما كان لتأليف القلوب إلى الإسلام، أضف إلى ذلك ما كان لرأفته وعطفه على من ذل بعد عز.

تزوج رسول الله ﷺ عددا من النساء، هن:

- خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، تزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة وأصدقها عشرين بكرة [1]، وكانت قبل رسول الله ﷺ عند هند بن زرارة، فولدت له ابنا اسمه هند أيضا، والطاهر وهالة. وكانت قبله عند عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وولدت له عبد مناف. وماتت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين، ولم يتزوج غيرها إلا بعد أن توفيت.
- سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، زوّجه إياها سليط بن عمرو، ويقال أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وأصدَقَها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم، وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو بن عبد شمس، فمات عنها، وكان رسول الله ﷺ قد تزوجها بعد خديجة رضي الله عنها.
- عائشة بنت أبي بكر الصديق، وهو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب، ولم يتزوج غيرها بكراً، تزوجها بمكة، وهي بنت سبع، وقيل ست سنين، وبنى بها في المدينة، بعد الهجرة بسبعة أشهر في شوال، وهي بنت تسع أو عشر سنين، زوجه إياها أبوها أبو بكر، وأصدَقَها رسول الله ﷺ أربعمائة

---

(1) البكرة: هي الناقة الفتية.

درهم، وبقيت معه تسع سنين وخمسة أشهر، وماتت سنة 58هـ.

- حفصة بنت عمر بن الخطاب، زوّجه إياها أبوها عمر بن الخطاب، بعد غزوة أُحُد، وأصدَقَها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم، وكانت قبله عند خُنيس بن حُذافة السهمي، فمات عنها، وتوفيت سنة 45هـ. وصلّى عليها مروان بن الحكم وهو أمير المدينة.
- زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال ابن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، وكانت تسمّى أم المساكين، لطيبها وإحسانها.. زوّجه اياها قبيعة بن عمرو الهلالي، وأصدَقَها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم، وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف الذي قتل ببدر، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث وهو ابن عمها. وقال الزهري: بل كانت عند عبد الله بن جَحَش الأسدي، الذي استشهد يوم أُحُد. وتوفيت زينب في حياته ﷺ بعد ضمّه لها بثلاثة أشهر.
- أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤي، زوّجه لها ابنها مسلمة ابن ابي سلمة، وأصدقها رسول الله ﷺ فراشاً حشوه ليف وقدحاً وصحفة ومجشة[1]، وكانت قبله عند أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد، فولدت له سلمة وعمر وزينب ورقية، وهي آخر نسائه موتاً، توفيت سنة 59هـ.
- زينب بنت جَحَش بن رئاب بن يعمر بن حبرة بن مرّة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، زوجه إياها أخوها أبو أحمد بن جحش، وأصدَقَها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم، وكانت قبله عند زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ.
- كان زواجه ﷺ من زينب لأغراض تشريعية بحتة، فقد كان العرب يحرمون في

---

(1) المجشة: الرحى.

جاهليتهم الزواج بزوجة المتبنى، لاعتقادهم أن زوجة المتبنى كزوجة الابن من الصلب، فتزوجها رسول الله ﷺ إبطالا لهذا الزعم. وخشي الرسول من أن يتقول عليه اليهود والمنافقون، ويرموه بأنه خرج على هذه التقاليد، ولكن الخبير البصير أنزل: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾[1]. وهي أول نسائه ﷺ موتاً بعده، ماتت في أول خلافة عمر بن الخطاب.

- جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار حبيب بن الحارث بن عائذ بن مالك بن جذيمة، كانت من سبايا بني المصطلق من خزاعة، فوقعت في السهم لثابت ابن قيس بن شماس الأنصاري. فكاتبها على نفسها، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، فقال لها: "هل لك في خير من ذلك؟" قالت: وما هو؟ قال: أقضي عنك كتابتك وأتزوجك؟ فقالت: نعم، فتزوجها. وأصدقها أربعمائة درهم، وكانت قبل رسول الله ﷺ عند ابن عمّ لها يقال له: عبد الله، ويقال: مسافع بن صفوان. وتوفيت في ربيع الأول سنة 56هـ.
- أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، زوّجه إياها خالد بن سعيد بن العاص وهما بأرض الحبشة، وأصدقها النجاشي عن رسول الله ﷺ أربعمائة دينار، وهو الذي كان خطبها على رسول الله ﷺ، فتزوجها رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية، وكانت قبله تحت عبيد الله بن جَحَش الأسدي، فارتد إلى النصرانية، وتوفيت في حكم أخيها مغاوية سنة 44هـ.

(1) سورة الأحزاب، آية:37.

- صفية بنت حيي بن أخطب من بني النضير، وهي من سبايا خيبر، اصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، وأولم وليمةً، ما فيها شحم ولا لحم، كان سويقاً وتمراً، وكانت قبله تحت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وتوفيت سنة 50هـ.
- ميمونة بنت الحارث بن حزنْ بن بجير بن هُزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال ابن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور، وهي خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن العباس، زوجه إياها العباس بن عبد المطلب. وأصدقها العباس عن رسول الله ﷺ أربعمائة درهم، وكانت قبله عند أبي رحم بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك ابن حسل بن عامر بن لؤي. ويقال إنها هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وذلك أن خطبة النبي انتهت إليها وهي على بعيرها، فقالت: "البعير وما عليه لله ورسوله". فأنزل الله تبارك وتعالى: "وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي". ويقال ان التي وهبت نفسها للنبي ﷺ هي زينب بنت جحش، ويقال: أم شريك غزية بنت جابر بن وهب من بني منقذ بن عمرو بن هصيص بن عامر بن لؤي، ويقال: بل هي امرأة من بني سامة بن لؤي، فأرجأها رسول الله ﷺ. وكانت ميمونة آخر من تزوجت الرسول بمكة في عمرة القضاء بعد إحلاله، وبنى بها بسرف، وبها ماتت، وقبرها هناك معروف على طرف جبّ على يسار الذاهب إلى مكة.
- مارية القبطية: وهي سريّة النبي ﷺ، أهداها إليه المقوقس حاكم مصر، مع حاطب بن أبي بلتعة، ومعها أختها سيرين التي تزوجها حسان بن ثابت، وألف مثقال ذهبا، وعشرين ثوبا لينا من نسيج مصر، فتزوج رسول الله ﷺ مارية، وأعقبت له إبراهيم، الذي توفي صغيراً يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الأول سنة 10هـ وعمره 18 شهراً، ودفن بالبقيع.

هؤلاء اللاتي بنى بهن رسول الله ﷺ، فمات منهن قبله اثنتان: خديجة

بنت خويلد، وزينب بنت خزيمة. واثنتان لم يدخل بهما، هما:
أسماء بنت النعمان الكندية، خطبها، فوجد بها بياضاً فمتّعها[1]، وردّها إلى أهلها.

الهجرة إلى المدينة المنورة

لما أذن الله تعالى لرسوله الكريم في الحرب، وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام، أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالخروج إلى المدينة، والهجرة اليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال لهم: "إن الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً، وداراً تأمنون بها" فخرجوا أرسالاً، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة.

كان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ: أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، حيث هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، بعد أن قدم من الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجراً. ثم تبعه عامر ابن ربيعة حليف بني عدي بن كعب، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة بن غانم ابن عبد الله بن عوف، ثم عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة، حليف بني أمية بن عبد شمس. ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي. ثم تتابع المهاجرون.

أقام رسول الله محمد ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد، عدا من حُبس أو فُتن، إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق رضي الله عنهما. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: "لا تعجل، لعلّ الله يجعل لك صاحباً. فيطمع أبو بكر أن يكونه.

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير

(1) متعها: أعطاها ما تتمتع به.

بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم نزلوا داراً. وأصابوا منهم قنَعَةً، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنهم قد جمعوا لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة – دار قصي بن كلاب – يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه. وكان ذلك اليوم يسمى يوم الرحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل عليه بتلة[1] فوقف على باب الدار، ولما رأوه واقفاً قالوا: من الشيخ؟ قال: "شيخ من أهل نجد[2] سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً". قالوا: "أجل، فادخل" فدخل معهم.

وبعد مشاورات محتدمة، قال قائل منهم: "نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا". فقال الشيخ النجدي: "لا والله، ما هذا لكم برأي". فقال أبو جهل: "والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد". قالوا: "وما هو يا أبا الحكم؟" قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جلداً، نسيباً وسيطاً بيننا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا عليه، فيضربوه ضربة رجل واحد. فيقتلوه ونستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك يتفرق دمه في القبائل جميعاً". فقال النجدي: "القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا أرى غيره". فتفرق القوم على ذلك، وهم مجمعون له.

أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال: "لا تبِتْ هذه الليلة في فراشك، الذي كنت تبيت فيه". فلما كانت عتمة من الليل، اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام، فيثبون عليه. فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلي ابن أبي طالب: "نَمْ في فراشي، وتَسجَّ ببُرْدي هذا الحضرميّ الأخضر، فنمْ فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم". وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم نثرها عليهم، وهو يتلو قول الله تعالى:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ

---

(1) البتلة: الكساء الغليظ.

(2) ويقال: قال لهم: إني من أهل نجد. لأنهم قالوا: لا يدخل معكم في المشورة أحد من أهل تهامة لأن هواهم مع محمد ﷺ.

ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [1]

وقف رسول الله ﷺ على الحزورة في مكة وقال: "إني لأعلم أنك أحبّ البلاد إليّ، وأنك أحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أن المشركين أخرجوني منك ما خرجت". ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتى أبا بكر، فخرجا من خوخةٍ له في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور – جبل بأسفل مكة – فدخلاه ليلاً، وبقيا فيه ثلاثاً، حيث نسج العنكبوت، ورقدت الحمامة، فأخذ الله تعالى على أبصار الطلب. جاء عامر بن فهيرة ببعيرين[2] استأجرهما، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما، فركبا وانطلقا، وأردف أبو بكر الصديق عامر بن فهيرة مولاه خلفه، ليخدمهما في الطريق.

سلك الركب[1] أسفل مكة، ثم مضى بهما عبد الله بن أريقط على الساحل، حتى عارض الطريق أسفل من عُسفان، ثم مضى بهما على أسفل أمج، ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق، بعد أن اجتاز قديداً، ثم سلك بهما الخرّار، ثم ثنية المرّة، ثم لقفا (ويقال لفتا)، ثم مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة محاج، ثم مرجح محاج، ثم تبطّن بهما مرجح من ذي الغضوين (ويقال العضوين)، ثم بطن ذي كَشَرْ، ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سَلَمْ من بطن أعدا مدلجه يَعْهِن[2]، ثم على العبابيد (ويقال العبابيب أو العثيانة)، ثم أجاز بهما الفاجّة (ويقال القاحّة)، ثم هبط بهما العَرْجْ، ثم سلك بهما ثنية العائر (ويقال الغائر)، حتى هبط بهما بطن رئم، ثم قدم بهما قُباء علي بني عمرو بن عوف، لثمان ليال خلت من شهر ربيع الأول، يوم الإثنين[3]، الموافق 20 أيلول سنة 622م، حين اشتد الضحى، وكادت الشمس تعتدل.

---

(1) سورة يسن،الآيات 1-9.

(2) الناقة التي ابتاعها رسول الله ﷺ من أبي بكر كانت تسمى (الجدعاء) وهي العقباء التي جاء فيها الحديث.

أقام رسول الله ﷺ بقباء يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، ويوم الخميس، ثم أخرجه الله من بين أظهر بني عمرو بن عوف، بعد أن صلّى الجمعة في المسجد الذي أسسه في بطن وادي رانوناء، فكانت أول جمعة صلاّها ﷺ بالمدينة.

اعترضت القبائل للقصواء، ناقة رسول الله ﷺ لينزل عندها، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: "خلوا سبيلها، فإنها مأمورة". انطلقت الناقة حتى أتت دار بني مالك بن النجار، فبركت في مربدٍ[4] لغلامين يتيمين من بني النجار، فنزل عنها رسول الله ﷺ، فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري رحله فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله ﷺ، وسأل عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: "هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو[5]، وهما يتيمان لي. وسأرضيهما منه، فاتخذه مسجداً.

أمر رسول الله ﷺ أن يبنى مسجداً، وظل عند أبي ايوب، حتى بنى مسجده ومساكنه، وكان يشارك المسلمين في البناء، ليرغبهم في العمل فيه.

وما أن حلّ ﷺ في رحاب طيبة، حتى أصبحت العاصمة الإسلامية، وفيها ترسخت أسس وأركان هذا الدين السماوي، ومنها انتشر النور والعدل، ومنها كانت غزواته ﷺ، ومنها خرجت جيوش المسلمين لنشر الإسلام.

غزوات رسول الله محمد ﷺ

---

(1) ركب رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر وعبد الله بن أرقط الدليل.

(2) اسم عين.

(3) وقيل: قدم الرسول ﷺ المدينة لثمان خلون من ربيع الأول، في شهر أيلول من شهور العجم. وقال ابن الكلبي: خرج من الغار يوم الأثنين اول يوم من ربيع الأول. ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتي عشرة منه.

(4) المكان الذي يجفف فيه التمر.

(5) سهل وسهيل: هما ابنا رافع بن عمرو بن ابي عمرو بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار. وقد شهد سهيل بدراً والمشاهد كلها، ومات في خلافة عمر، أما سهل فلم يشهد إلا ما بعد بدر ومات قبل أخيه سهيل.

بعد أن استقر رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، تهيأ لحربه وجهاد عدوه، وقتال من أمره الله به ممن يليه من المشركين، فكانت غزواته:

- غزوة ودّان: وهي أول غزواته، وكانت على رأس الحول من الهجرة، وتسمّى غزوة الأبواء، يريد عيرا لقريش، فبلغ هذين الموضعين، وبينهما ستة أميال، ولم يلق كيداً. وفي هذه الغزوة، وادع بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة، على أن لا يغزوهم، ولا يغزونه، وألا يعينوا عليه أحداً.
- سريّة عبيد الله بن الحارث: وهي أول راية عقدها عليه الصلاة والسلام، لعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي، في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين، فسار حتى وصل ماءً بالحجاز، بأسفل ثنية المرّة، فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش، فلم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص، قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمي به في الإسلام.
- سرية حمزة إلى سيف البحر: بعثها رسول الله ﷺ تحت إمرة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم، في ثلاثين راكباً من المهاجرين، وقيل كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين.
- غزوة بواط: خرج رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول سنة اثنتين من الهجرة، في طلب عير لقريش، وسار حتى بلغ بواط [1]، وهو جبل من جبال جهينة، من ناحية بواط، وبها قبر السيدة آمنة بنت وهب، والدة رسول الله ﷺ، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيداً.
- غزوة سفوان[2]، وهي غزوة بدر[3] الأولى، وكانت في شهر ربيع الأول سنة اثنتين من الهجرة، حيث خرج رسول الله ﷺ في طلب كرز بن جابر الفهري، الذي أغارعلى سرح المدينة، حتى بلغ ﷺ وادياً يقال له: سفوان

---

(1) بواط، جبلان أحدهما يدعى جلسي والآخر غوري.

(2) سفوان: وادي ناحية بدر.

(3) بدر: اسم بئر حفرها رجل من غفار، وقيل هو بدر بن قريش بن يخلد. وقيل غير ذلك.

من ناحية بدر، فلم يدرك كرز بن جابر، ثم رجع ﷺ إلى المدينة

- غزوة ذي العشيرة[1]، ويقال ذات العشيرة، وكانت في جمادى الآخرة سنة اثنتين من الهجرة، حيث غزا ﷺ يريد عيراً لقريش، التي كان القتال يوم بدر بسببها، وسلك على نقب بني دينار، ثم على فيفاء الخبار، ثم نزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر يقال لها: ذات الساق، فصلّى عندها، فثم مسجده. ثم ارتحل ﷺ فنزل الخلائق بيسار، وسلك شعبة يقال لها: شعبة عبد الله، ثم سلك الفرش (فرش ملل)، حتى نزل ذا العشيرة من بطن ينبع، وهناك مرّ ببني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة، فضيّفوه، وأحسنوا ضيافته، ففاتته العير، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيداً.
- سرية سعد بن أبي وقاص: بعثه رسول الله ﷺ في ثمانية رهط من المهاجرين، فخرج حتى بلغ الخرّار من أرض الحجاز، ثم رجع ولم يلق كيداً.
- سرية عبد الله بن جحش: بعث ﷺ معه ثمانية رهط من المهاجرين، وأمره رسول الله ﷺ في كتاب أن يمضي حتى ينزل نخلة بين مكة والطائف، حتى يرصد قريشاً، ويعلم من أخبارهم، ولما نزل نخلة، مرّت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي، فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وبعد مناورات رمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان. وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة.
- غزوة بدر الكبرى :وفيها خرج رسول الله ﷺ يوم الأحد، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، في السنة الثانية للهجرة، للتصدي لقافلة تجار قريش، والمكونة من ألف بعير، والتي نجت بقيادة أبي سفيان بن حرب، حيث ساحل بها وترك بدراً. نزل المسلمون ببدر، وهو ماء كان ليخلد بن

---

(1) ذات العشيرة: من ناحية ينبع، بين مكة والمدينة، من أرض بني مدلج.

النضر، ويقال لرجل من جهينة، في وادي يقال له يَلْيَل، بينه وبين المدينة ثمانية برد. وكان عدد رجال رسول الله ﷺ 314 رجلاً: من المهاجرين 83 رجلاً، ومن الأوس 61 رجلاً، ومن الخزرج 170 رجلاً.

- ولما وصل أبو سفيان إلى مكة، استصرخ قريشا، فنفروا على الصعب والذلول، وبلغ عدد مقاتلي قريش 950 رجلا، أخرجوا معهم القيان بالدفوف، يتعاذفون بالحرام، ورثاء الناس، حتى نزلوا بالعدوة.

ثم تزاحف الناس، فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان، وكان أول شهيد يسقط من المسلمين هو مهجع مولى عمر بن الخطاب، الذي رُمِيَ بسهم فقتل، رماه عامر الحضرمي. وقتل من المشركين سبعون رجلا، وأسر أربعة وسبعون آخرون. واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا. وبعد أن انتهت المعركة، وانهزمت قريش تجر ثياب عار الهزيمة، وأقبل رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة، ومعه الأسارى من المشركين، وفيهم عقبة ابن أبي معيط، والنضر بن الحارث.

- غزوة بني سُليم بالكُدر: قاد رسول الله ﷺ الغزوة بنفسه يريد بني سُليم، فبلغ ماءً يقال له الكُدُر، فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيداً.
- غزوة بني قينقاع: وكانت في شوال سنة اثنتين، وكان سببها أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة، وادعته يهود كلها، فلما أصاب رسول الله ﷺ أصحاب بدر، وقدم المدينة سالماً، غانما، موفورا، بغت يهود وقطعت العهد. فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1]. فسار إليهم، وقد تحصنوا في حصونهم، فحصرهم خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه، فأجلاهم إلى الشام، فنزلوا أذرعات، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى هلكوا، وقبض رسول الله ﷺ أموالهم.

---

(1) سورة الأنفال، آية 58

- غزوة السويق[1]: خرج أبو سفيان بن حرب إلى غزوة السويق، في ذي الحجة سنة 2هـ، حتى يثأر من رسول الله ﷺ وأصحابه، بمن أصيب من المشركين يوم بدر، فخرج في مائتي راكب، حتى وصل المدينة، حيث أتى بني النضير تحت جنح الليل، ورفض حيي بن أخطب أن يفتح له بابه وخافه، ثم أتى سلام بن مِشكم، وكان سيد بني النضير، فقراه، وسقاه خمرا، وأعلمه بخبر المسلمين. ثم خرج أبو سفيان في عقب ليلته، فبعث جماعة حرقوا في أصوار[2] من نخل في المدينة، وقتلوا رجلاً من الأنصار، وحليفاً في حرث لهما، ثم انصرفوا راجعين، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم، حتى بلغ قرقرة الكُدر، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، ثم قفل ﷺ راجعاً.
- غزوة قرقرة الكدر، وكانت في المحرم سنة ثلاث، وكان سببها أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بها جمعاً من غطفان، وبني سليم، فسار إليهم، فتفرقوا، ولم يلق كيدا. ووجد لهم نعما مع رعاتها، وكانت النعم خمسمائة بعير، فأخذها وقسمها بين المسلمين.
- غزوة ذي أَمَر: فيها غزا رسول الله ﷺ نجداً، يريد غطفان، وكانت في صفر سنة 3 هـ، وكان سببها أن جمعا من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، وبني محارب بن خصفة، تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ، فخرج إليهم في أربعمائة وخمسين رجلا، فما أن وصلهم، حتى تفرقوا، وهربوا إلى رؤوس الجبال، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيداً.
- غزوة بني سُليم، وهي ناحية الفرع من بحران: وكانت في شهر ربيع الآخر سنة 3هـ، وكان سببها أن جمعا من بني سليم تجمعوا ببحران، فخرج إليهم في ثلاثمائة رجل، حتى بلغ بحران من ناحية الفرع، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق

(1) سميت بغزوة السويق، لأن اكثر ما طرح القوم من أزوادهم السويق، والسويق عبارة عن حنطة أو شعير محمص مطحون ممزوج بعسل وسمن. وهي من أعمال المدينة المنورة.
(2) اصوار: جمع صور وهو جماعة النخل.

كيداً.

- سرية زيد بن حارثة إلى القردة: بعثه ﷺ إلى قافلة في القـردة (مـاء مـن ميـاه نجد)، فأصاب زيد بن حارثة تلك العير وما فيها، وأعجزه الرجال، فقدم بها على رسول الله ﷺ.
- غزوة أحد: وكانت يوم السبت لسبع ليال خلون من شوال من سنة ثـلاث للهجرة، حيث خرجت قريش للثأر لما حلّ بها في بدر، في ثلاثة آلاف رجل، ومعهم مائتا فارس، وكان فيهم سـبعمائة دارع، ومعهـم ثلاثـة آلاف بعـير، وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمـة بـن أبـي جهل. وعدد رجال المسـلمين ألف مقاتل، فيهم مائة دارع. وحلّـت الهزيمـة بالمسلمين، لأنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ عنـدما نـزل الرمـاة عـن الجبـل. وفيها قتل حمزة بن عبد المطلب بحربة وحشي غلام جبير بن مطعم، ومثّلـت هند بنت عتبة بجثته، واتخذت من آذان الرجـال وأنـوفهم خـدَما[1] وقلائـد، واستشهد من المسلمين أكثـر مـن سـبعين رجـلاً، وقتـل مـن الكفـار اثنـان وعشرون رجلاً.
- غزوة حمراء الأسد: لما كان الغد من يوم الأحد، لثمان أو تسع ليـال مـضت من شـوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، فأذن مؤذنـه: "أن لا يخرجَنْ معنا أحد، إلا من حضر يومنا أمس". وإنمـا خـرج رسـول الله ﷺ مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا بـه قـوة، وأن الـذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم، حتى وصل ﷺ إلى حمراء الأسد، وهـي مـن المدينة على ثمانية أميال، فأقام بها الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة.
- يوم الرجيع [2]: في السنة الثالثة من الهجرة، وكان قد قـدم علـى رسـول الله

---

(1) الخدم: الخلاخيل.

(2) الرجيع: ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدور الهدأة، والهدأة موضع بين عسفان ومكة.

ﷺ بعد أُحُدْ رهط من (عضل والقارة) مـن الهـون بـن خزيمـة بـن مدركـة، فقالوا: "يا رسول الله، إن فينـا اسـلاماً، فابعـث معنـا نفـراً مـن أصـحابك، يفقهوننا في الديّن، ويقرؤوننا القرآن، ويعلموننـا شـرائع الاسـلام". فبعـث رسول الله ﷺ نفراً ستة[1] من أصحابه، وهـم: مرثد بن أبي مرثـد الغنـوي، حليف حمزة بن عبد المطلب، وخالد بن البكير الليثي، حليف بني عـدي بـن كعب، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، أخو بني عمرو بن عوف بن مالـك بن أوس، وخبيب بن عدي، أخو بني جحجبي بن كلفة بن عمرو بن عوف، وزيد بن الدَّثِنَّة بن معاوية أخو بني بياضة بن عمرو ابن زريق بن عبد حارثة بن مالك الخزرجي، وعبد الله بن طارق، حليف بني ظفـر بـن الخـزرج بـن عمرو بن مالك بن الأوس.

أمّر رسول الله ﷺ على القـوم مرثد بن أبي مرثـد الغنـوي، فخـرج مـع القـوم، حتى إذا كانوا على الرجيـع، غدر بهم رجال هذيل، فقتل عاصم بن ثابت، وتم أسر زيد بن الدَّثِنَّة، وخبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق، ثم خرجوا بهم إلى مكة، ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران[2]، انتزع عبد الله بن طارق يده مـن القـران[3] ثـم أخـذ سـيفه، واستأخر عنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلـوه.

وفي مكة، ابتاع حُجير بن أبي إهاب التميمي خُبيباً، لعقبة بن الحـارث بن عـامر بن نوفل، ليقتله بأبيه، وابتاع صفوان بن أمية بن خلف زيد بن الدّثنّة، ليقتله بأبيه. وبعث صفوان بن أمية زيد بن الدّثنّة مع مولى له يقال له نسطاس، إلى التنعيم[4] فقتله هناك. أما خُبيب بن عدي، حتى اذا جاءوا به إلى التنعيم ليقتلوه، قال لهـم: "إن رأيـتم أن تـدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا". قالوا: "دونك فـاركع". فركـع ركعـتين أتمهمـا، وأحـسنهما.

(1) ذكر البخاري أنهم كانوا عشرة.. ستة من المهاجرين وأربعة من الأنصار.
(2) الظهران، واد قريب من مكة.
(3) القران: الحبل الذي يربط به الأسير.
(4) التنعيم: موضع خارج مكة في الحل.

فكان أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين[1] ثم رفعوه على خشبة موثقاً فقتلوه.

- غزوة بني النضير، وكانت في ربيع الأول، ويقال في جمادى الأولى سنة أربع، وكان سببها أن رسول الله ﷺ أتاها ومعه أبو بكر وعمر، وأسيد بن حضير، فاستعانهم في دية رجلين من بني كلاب بن ربيعة موادعين له. وكان عمرو بن أمية الضمري قتلهما خطأ، فهمّوا بأن يلقوا على رسول الله ﷺ رحى، فانصرف عنهم، وبعث إليهم يأمرهم بالجلاء عن بلده، إذ كان منهم ما كان من النكث والغدر، فأبوا ذلك، وأذنوا بالمحاربة. فزحف إليهم رسول الله ﷺ، وحصرهم خمس عشرة ليلة، ثم صالحوه على أن يخرجوا من بلده، ولهم ما حملت الإبل، ولرسول الله ﷺ نخلهم وأرضهم. فكانت أموال بني النضير لرسول الله ﷺ خالصة.
- غزوة بدر الآخرة، أو بدر الموعد: وكانت في شعبان، وقيل في ذي القعدة سنة أربع هجرية، حيث خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لميعاد أبي سفيان حتى نزله، فأقام عليه ثماني ليال ينتظر أبا سفيان، الذي نادى يوم أحد: "موعدكم بدر الصفراء، على رأس الحول، نلتقي، فنقتتل". وكان أبو سفيان قد خرج في أهل مكة، حتى نزل مجنّة من ناحية الظهران، ويقال: إنه بلغ عسفان، ولكنه تراجع، فرجع الناس، فسمّاهم أهل مكة جيش السويق، يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.
- غزوة ذات الرقاع[2]، وكانت لعشر خلون من المحرم سنة خمس، وإنما سميت ذات الرقاع، لأنها كانت عند جبل فيه بقع حمر، وبيض، وسود، كأنها رقاع. وسببها أن بني أنمار بن بغيض، وبني سعد بن ثعلبة، جمعا لرسول الله ﷺ جمعا

---

(1) صار فعل خبيب سُنّة، وإن كانت السُنّة إنما هي أقوال أو أفعال من النبيﷺ وهي أيضاً اقرار وقد حدثت في حياته، فلم ينكر، فالصلاة هي خير ما يختم بها العبد حياته.

(2) ذات الرقاع: بئر قديمة على بعد ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق.

عظيما، فلما دنا منهم، وعاينوا عسكره، كرهوا لقاءهم، فتسنموا الجبل، وتعلقوا في قلّته، فانصرف رسول الله ﷺ، ولم يلقَ كيدا، واستاق لهم نعماً وشاء.

- غزوة دومة الجندل[1]: في شهر ربيع الأول سنة خمس هجرية، وكان سببها أن جمعا من قضاعة، ومن غسان، تجمعوا، وهمّوا بغزو الحجاز، فسار رسول الله ﷺ نحوهم في ألف، فلمّا انتهى إلى موضعهم، ألفاهم وقد تفرقوا وهربوا، فلم يلق كيداً، وأمر باستياق نعماً وشاء وجدت لهم.
- غزوة بني المصطلق: كانت في شعبان سنة خمس، وكان سببها أن الحارث بن أبي ضرار، سيد خزاعة، جمع جموعا، واستعد للمسير إلى رسول الله ﷺ، وبلغهﷺ ذلك، فسار في المسلمين، فلما نزل على المريسيع، أمر عمر بن الخطاب، أن يعرض عليهم التوحيد، فأبوا ذلك. فحمل عليهم المسلمون.

وكان شعار المسلمين يوم بني المصطلق: "يا منصور، أمِت أمِت"، فقتلوا منهم جمعا،وأسروا أسرى كثيرة. وكان رسول الله ﷺ قد أصاب منهم سبياً كثيراً، وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا: جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، زوج رسول الله ﷺ، حيث اعتق رسول الله ﷺ بزواجه منها (مائةً) من بني المصطلق، فكانت أعظم امرأة لها بركة على قومها.

- غزوة الخندق [2]: وهي غزوة الأحزاب، وكانت في شوال، وقيل في ذي القعدة، سنة خمس هجرية، حيث راح بنو يهود يحزبون الأحزاب على رسول الله ﷺ، ويدعونهم إلى حربه ﷺ، فخرجت قريش بقيادة أبي سفيان ابن حرب. وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر، ضرب الخندق على

---

(1) دومة الجندل: بينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة، وسميت بدومى بن اسماعيل عليه السلام لأنه نزلها..

(2) حفر الخندق لم يكن من عادة العرب، ولكنه كان من مكائد الفرس وحروبها، ولذلك أشار به سلمان الفارسي..

المدينة، عمل فيه رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة، بين الجرف وزغابة [1] في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب جبل أحد. وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع[2] في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، بعد أن جعل ﷺ الذراري والنساء في الآطام[3].

أقام رسول الله ﷺ والمسلمون، وعدوهم محاصرهم، ولم يكن بينهم قتال، إلا فوارس من قريش منهم: عمرو بن عبد ود بن أبي قيس أخو بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان، وضرار بن الخطاب[4] بن مرداس الذين تلبّوا للقتال، فتيمّموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيلهم، فاقتحمت منه، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم النفرة، فَقَتل علي بن أبي طالب عمرو بن عبد ود في مبارزة، فخرجت خيلهم منهزمة هاربة.

ولما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صنع الله لرسوله ﷺ، أن بعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة، فجعلت تكفأ قدورهم، وتطرح أبنيتهم. فنادى أبو سفيان: "يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف[5]، وأخلفتنا بنو قريظة، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل". ولم يستشهد من المسلمين يوم

---

(1) زغابة: اسم موضع.

(2) سلع: جبل بالمدينة.

(3) الآطام: الحصون.

(4) الخطّاب: كثير الخِطبة للنساء أو الخُطبة على المنابر، وهو وصف للمبالغة.

(5) الكراع: الخيل، والخفّ: الإبل.

الخندق إلا ستة نفر. وقتل من المشركين ثلاثة نفر.

- غزوة بني قريظة: وكانت في ليال من ذي القعدة، وليال من ذي الحجة، سنة خمس من الهجرة، قدّم سول الله ﷺ علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة، ومرّ رسول الله بنفر من أصحابه بالصَّوْرَيْن قبل أن يصل إلى بني قريظة. فقال: "هل مرّ بكم أحد؟" قالوا: يا رسول الله، قد مَرّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء، عليها قطيفة ديباج". فقال رسول الله ﷺ: ذلك جبريل، بُعث إلى بني قريظة، يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم". ولما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة، نزل على بئر من آبارها من ناحية أموالهم، يقال لها: بئر "أنا" وقيل: "أنّى". وانتهت الغزوة بتقسيم أموال بني قريظة، ونسائهم، وأبنائهم على المسلمين، فكان للفارس ثلاثة أسهم: للفرس سهمان، ولفارسه سهم، وللراجل سهم، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستة وثلاثين فرساً، وكانت أول فيء وقعت فيه السهمان، وأخرج منها الخمس، فعلى سنّتها، وما مضى من رسول الله ﷺ فيها وقعت المقاسم، ومضت السنّة في المغازي. واستشهد يوم بني قريظة مسلمان اثنان.
- غزوة بني لحيان بن هذيل بن مدركة: خرج رسول الله ﷺ في جمادى الأولى، على رأس ستة أشهر من فتح قريظة (5هـ)، إلى بني لحيان بناحية عسفان، يطلب بأصحاب الرجيع: خبيب بن عدي وأصحابه. وأظهر أنه يريد الشام، ليصيب من القوم غرّة، فسلك على غراب (جبل بناحية المدينة)، ثم على محيص فالبتراء، ثم عدل ذات اليسار على صخيرات اليمام، حتى نزل على غران، وهي منازل بني لحيان، فوجدهم قد حذروا، وتمنّعوا في رؤوس الجبال، فرجع رسول الله ﷺ قائلاً: "آيبون تائبون إن شاء الله لربّنا حامدون، أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال".
- غزوة ذي قرد: كانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول، ويقال في ربيع الآخر، سنة ست، حيث أغار عيينة بن حصن بن حذيفة الفزاري، في خيل من

غطفان، على لقاح [1] لرسول الله ﷺ وهي ترعى بالغابة، وفيها رجل من بني غفار وامرأة له، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة.

كان سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي أول من علم بالأمر، فأشرف في ناحية سلع، ثم صرخ: "واصباحاه". ثم انطلق يشتد في آثار القوم، ولما بلغ رسول الله ﷺ صياح بن الأكوع بالمدينة: "الفزع.. الفزع"، فترامت الخيل إلى رسول الله. وخرج الفرسان في طلب القوم، وعلى رأسهم المقداد بن عمرو حتى تلاحقوا، وقتل في تلك الوقعة محرز بن نضلة أخو بني أسد بن خزيمة، ولم يقتل غيره من المسلمين.

أمر الحديبية وبيعة الرضوان[2]

خرج رسول الله ﷺ في ذي القعدة، سنة ست من الهجرة إلى مكة معتمراً، لا يريد حرباً. خرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن لحق به من العرب [3]، وساق معه الهدي [4] وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وليعلموا أنه خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.

حتى إذا كان ﷺ بعسفان، لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: "يا رسول الله، هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل[5] قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى[6]، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قدموها إلى كراع الغميم [7]. وجاءه ﷺ بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة، فكلموه وسألوه: ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء

---

(1) اللقاح: الإبل الحوامل.

(2) يقال الحديبية بالتخفيف وهو المشهور عند أهل العربية، وأهل الحديث يقولون الحديبيّة بالتشديد، وهو قول أهل العراق، وأهل الحجاز يخففون.

(3) كان عدد المسلمين سبعمائة رجل.

(4) كان عدد الهدي سبعين بدنة.

(5) العوذ المطافيل: النساء مع اولادهن. والعوذ هي الابل حديثة النتاج، والمطافيل أولادها.

(6) ذو طوى: موقع قرب مكة.

(7) كراع الغميم: موقع بين مكة والمدينة.

للبيت زائراً ومعظماً لحرمته. فرجعوا إلى قريش، وأخبروهم بما سمعوا، فاتهمتهم قريش وجبّنتهم[1]. وقالوا: "وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدّث بذلك عنا العرب". فبعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأضيف أخا بني عامر بن لؤي، فقال له نحواً مما قاله لبديل، ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، ثم بعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي، فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلّم به أصحابه. ثم بعث رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش بمكة، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا بجمله الثعلب، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ. أرسلت قريش أربعين أو خمسين رجلاً منهم، وأمروهم ان يطيفوا بعسكر رسول الله، ليصيبوا لهم من أصحابه أمداً، فأخذوا أخذاً، فأتي بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلّى سبيلهم.

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعزّ بها مني: عثمان بن عفان". دعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته.

خرج عثمان بن عفان إلى مكة، فلقيه أبّان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ. فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله: "إن شئت أن تطوف بالبيت فطف". فقال: "ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل.

بيعة الرضوان

قال رسول الله ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قتل: "لا نبرح حتى نناجز القوم". فدعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة. وكان أبو سنان الأسدي أول

---

(1) جبنتهم: واجهتهم بما يكرهون ووصفهم بالجبن.

من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل.

بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله ﷺ وقالوا لـه: " إئتِ محمداً فصالِحْهُ، ولا يكن في صلحه، إلا أن يرجع عنا عامه هـذا، فـوالله لا تحـدّث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوةً أبداً". ولما رأى رسـول الله ﷺ سهيل بن عمـرو مقـبلاً قال: " قد أراد القوم الصلح".

وبعد مباحثات ومشـاورات، اتفق الطرفان على الصلح، ثم دعـا رسـول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: " اكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال سهيل بـن عمـرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللـهمّ. فقـال رسـول الله ﷺ. اكتـب باسمـك اللـهم. فكتبها. ثم قال: اكتب: هذا ما صـالح عليه محمد رسـول الله، سـهيل بـن عمـرو. فقـال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك، فقـال رسـول الله ﷺ: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سـهيل بـن عمـرو..[1]. فتواثبـت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحـن في عقـد قـريش وعهدهم.

- يوم خيبر: رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مـن خيـبر، وأقـام بهـا ذا الحجـة وبعض المحرم، سنة سـبع من الهجرة، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر، فسلك على عصر (اسم مكان)، فبنى له فيها مسجداً، ثم على الصهباء، حتى أقبل بجيشه على وادٍ يقال له: الرجيع، فنزل بينهم وبـين غطفـان، ليحـول بيـنهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهـم مظـاهرين علـى رسـول الله ﷺ. ولمـا سمعت غطفان بمنزلة رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا سـاروا مرحلـة، سمعـوا خلفهـم في أمـوالهم وأهلـيهم حسّاً، فظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم.

(1)ارجع إلى كتب السيرة للتفصيل.

تدنىّ[1] رسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالاً مالاً ويفتحها حصناً حصناً، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم، ثم حصن قموص، ثم حصن بني أبي الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا، منهن: صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وبنتي عمّ لها، فاصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه.

حاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنيهم: الوطيح، والسلالم، حتى إذا أيقنوا بالهلكة، سألوه أن يسيّرهم، وأن يحقن لهم دماءهم، ففعل. وكان رسول الله ﷺ قد حاز الأموال كلها: الشقّ، ونطاة، والكتيبة وجميع حصونهم، إلا ما كان من ذينك الحصنين، فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيّرهم وأن يحقن دماءهم، ويخلّوا له الأموال ففعل. وفي هذه الأثناء، قدم جعفر بن أبي طالب قافلاً من الحبشة، يوم فتح خيبر، فقال رسول الله ﷺ: "ما أدري بأيهما أسَرّ: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟"

- غزوة وادي القرى: انصرف رسول الله ﷺ من خيبر، ثم سار إلى وادي القرى، في جمادى الآخرة، سنة سبع، فحاصر أهله ليالي، ففتحها عنوة، وغنم أموال أهلها، ثم قفل راجعاً إلى المدينة.

عمرة القضاء

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر، أقام بها شهري ربيع حتى شوالاً، يبعث غزوه وسراياه، ثم خرج في ذي القعدة (سنة7هـ) معتمراً عمرة القضاء [2]، ويقال

(1) تدنيّ: بدأ من الأدنى أي الأبعد.

(2) ويقال لها عمرة القصاص، لأنهم صدوا رسول الله في ذي القعدة في الشهر الحرام سنة ست، فاقتص رسول الله ﷺ منهم، فدخل مكة في ذي القعدة في الشهر الحرام الذي صدوه فيه من سنة سبع. وسميت عمرة القضاء، لا لأنه قضى العمرة التي صدّ عن البيت فيها، بل كانت عمرة تامة متقبّلة، فهي معدودة في عمر النبي ﷺ وهي أربع: عمرة الحديبية وعمرة القضاء وعمرة الجعرانة والعمرة التي قرنها مع حجّه في حجة الوداع.

عمرة القضية. وساق معه ستين بدنة، وخرج معه المسلمون، ممن كان صُدَّ معه في عمرته تلك، فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه، ولما دخل ﷺ مكة صفّوا له عند دار الندوة، لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل ﷺ المسجد، اضطبع [1] بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: " رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة". ثم استلم الركن، وخرج يهرول [2]، ويهرول أصحابه معه، حتى إذا داراه البيت منهم. وإذا استلم الركن اليماني مشى، حتى يستلم الركن الأسود.

أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً، فأتاه حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل في نفر من قريش، فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك، فاخرج عنا". وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة في ذي الحجة.

غزوة مؤتة [3]

بعث رسول الله ﷺ بعثة إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة 8هـ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة. فتجهز الناس، ثم تهيأوا للخروج وهم ثلاثة آلاف. ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ أن هرقل قد نزل مؤاب من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى مائة ألف منهم، عليهم مالك بن زافلة. فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين، يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له.

وأخيراً وقع الرأي على مناجزة القوم، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء، لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب، بقرية يقال لها: مشارف. ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة. فالتقى الناس عندها، فتعبأ لها المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم: قطبة بن قتادة العذري، وعلى ميسرتهم: عباية بن مالك الأنصاري (ويقال عبادة بن مالك).

---

(1) اضطبع: ادخل الرداء تحت إبطه الأيمن وغطّى به الأيسر.

(2) يهرول: من الهرولة، وهي فوق المشي ودون الجري.

(3) مؤتة: مهموزة الواو: قرية في جنوب الأردن. وأما الموتة بدون همزة فضرب من الجنون.

ثم التحم الناس واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط[1] في رماح القوم، ثم أخذ جعفر بن أبي طالب الراية فقاتل بها، حتى إذا ألحمه[2] القتال، إقتحَمَ عن فرس شقراء فعقرها[3]، فكان جعفر بن أبي طالب أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام.

أخذ جعفر بن أبي طالب اللواء بيده اليمنى، فقطعت، فأخذه بشماله، فقطعت، فاحتضنه بعضديه، حتى قتل(رضي الله عنه)، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء.

ثم أخذ عبد الله بن رواحة اللواء، ثم تقدم به وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل. فتلقف الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان، فقال: "يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل". فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم، وخاشى بهم[4] ثم انحاز فانحيز عنه، حتى انصرف بالناس[5].

ذكر فتح مكة

عدا بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة، يقال له الوتير. وكان الذي هاج بينهما مالك بن عباد من بني الحضرمي، الذي أثار قتل الأسود بن رزن، الذي قتل على يد خزاعة، وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بني الأسود بن رزن الديلي – وهم منخر بني كنانة وأشرافهم – فقتلوهم بعرفة، عند أنصاب الحرم[6].

---

(1) شاط: توزع جسمه.

(2) ألحمه: وقع فيه فلم يجد له مخرجاً.

(3) عقرها: ضرب قوائمها بسيفه.

(4) المخاشاة: المعاجزة من الخشية، لأنه خشي على المسلمين لقلة عددهم. وقيل حاشى بهم: انحاز بهم.

(5) للمزيد: راجع موضوع جعفر الطيار في مؤلفنا هذا.

(6) انصاب الحرم: حجارة توضع بين الحل والحرم للفصل بينهما.

فلما كانت الهدنة، اغتنمها بنو الديل من بني بكر من خزاعة، وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأراً، بأولئك النفر الذين أصابوا منهم ببني الأسود بن رزن، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في بني الديل، حتى بيّت خزاعة وهم على الوتير فأصابوا منهم رجلاً، وتحاوزوا واقتتلوا.

هكذا تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق، بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده وعهده، خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس، وأخبره بما حصل. فقال رسول الله ﷺ: "نُصرت يا عمرو بن سالم". ثم جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وأخبروه ﷺ بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم.

عرف أبو سفيان أن بديل بن ورقاء، قد جاء النبي ﷺ، فخرج على الفور حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ، ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلّمه أن يكلّم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب، فقال بمثل ما قال أبو بكر، ثم دخل على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعنده فاطمة بنت رسول الله، وعندها الحسن بن علي غلام يدبّ بين يديها، فقال: "يا علي، إنك أمسّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله". فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر، ما نستطيع أن نكلمه فيه، ولكن: قم فاجر بين الناس، ثم الحق بأرضك".

أمر رسول الله ﷺ بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وامرهم بالجد والتهيؤ، وقال: "اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها". خرج رسول الله ﷺ لعشر مضين من رمضان (8 هـ)، وصام رسول الله، وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد (بين عسفان وأمج) أفطر، ثم مضى حتى نزل مرّ الظهران في عشرة آلاف من المسلمين.

ولما اقترب ﷺ فرّق جيشه من (ذي طوى)، فأمر الزبير بن العوام أن يدخل في

بعض الناس من كُدي، (أسفل مكة)، وأمر سعد بن عبادة ان يدخل في بعض الناس من (كُداء) (أعلى مكة). وأمر خالد بن الوليد أن يدخل في بعض الناس من طريق، ودخل رسول الله ﷺ من (أذاخر)، وعليه عمامة سوداء، حتى نزل بأعلى مكة، وضُربت له هناك قبته. ولما أطمأن الناس، نزل رسول الله مكة حتى جاء البيت، فطاف به سبعاً على راحلته القصواء، يقودها عبد الله بن رواحة الأنصاري، يستلم الحجر الأسود بمحجن في يده. فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها فوجد فيه حمامة من عيدان، فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكفّ [1] الناس له بالمسجد [2]، ينظرون وأصنامهم تتهاوى أمام أعينهم، وقال ﷺ: "يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم". فقال ﷺ: "اذهبوا، فأنتم الطلقاء".

هكذا إنهار تيار المقاومة، وتم تدمير أعظم حصون الشرك في الجاهلية، بعد صراع عنيف استمر زهاء واحداً وعشرين عاماً تقريباً، وبذا ثبّتت الدولة والدعوة أركانها في أرض الجزيرة العربية، وتحقق الفتح المبين.

يوم حنين

بعد أن فتح رسول الله ﷺ مكة، ومكث فيها خمس عشرة ليلة، سار إلى حنين، وهو واد من أودية تهامة، في شوال، ولقي رسول الله ﷺ جمع هوازن في النصف من شوال، فانهزم المسلمون، وكان من الذين ثبتوا معُ رسول الله: علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس بن عبد المطلب، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه، وابن أم أيمن: أيمن بن عبد الله، وأبو بكر، وعمر، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، ثم رجع المسلمون من وقتهم، وانهزم المشركون، وكانت الكرة عليهم لله ورسوله.

وبعد حنين، سار رسول الله ﷺ إلى الطائف، فحاصرها شهرا، ولم يفتحها، ثم سار

---

(1) استكلف: تجمّع.

(2) راجع امهات كتب التاريخ للمزيد من التفصيل.

إلى تبوك، في رجب سنة تسع، بنى بها مسجدا لا يزال إلى اليوم، وفتح الله على يديه في سفره ذاك: دومة الجندل، على يدي خالد بن الوليد.

حجة الوداع

أقام الرسول ﷺ بالمدينة بقية ذي الحجة، والمحرم، وصفر. وبعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء، والداروم من أرض فلسطين، كما بعث إلى الملوك رسلاً من أصحابه، وكتب اليهم يدعوهم إلى الإسلام.

وما أن دخل ذو القعدة سنة 10هـ، حتى تجهز الرسول ﷺ للحج ، وأمر الناس بالجهاز له، وخرج ﷺ إلى الحج لخمس ليال بقين من ذي القعدة، وهي الحجة التي تسمى حجة البلاغ، وحجة الإسلام. وإنما سميت حجة الوداع، بعد وفاة رسول الله ﷺ. وإنما سميت بذلك، بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكان عبد الله ابن عباس، أنكر قولهم: حجة الوداع، فقالوا: حجة البلاغ ، وحجة الإسلام.

انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى

أقام رسول الله ﷺ بمكة المكرمة بقية ذي الحجة، والمحرم، وشطرا من صفر. ولما رجع إلى المدينة المنورة، ابتُدئ بشكواه الذي قبضه الله فيه، إلى ما أراد به من كرامته ورحمته، صباح يوم الاثنين 28 صفر سنة 11هـ، في بيت ميمونة، وكان أول ما ابتدئ به من ذلك، أنه ﷺ خرج إلى البقيع من جوف الليل، فاستغفر لأهله، ثم رجع. فلما أصبح، ابتدئ بوجعه من يومه.

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: "رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه". فقال ﷺ: "بل أنا يا عائشة، وا رأساه". وتتامّ به وجعه، وهو يدور على نسائه، حتى استعزّ[1] به وهو في بيت ميمونة بنت الحارث، بعد أن أقام في بيتها سبعة أيام. ثم دعا نساءه، فاستأذنهنّ في أن يُمرض في بيت عائشة، فَأذِنّ له.

(1) استعزّ به: غلبه.

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: "خرج رسول الله ﷺ يمشي بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن العباس، والثاني علي بن أبي طالب، عاصباً رأسه، تخطّ قدماه حتى دخل بيتي، وكنت قد كنسته، وفرشت له فراشا، ووسدته وسادة كان حشوها إذخر"[1].

غُمر رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، فقال: "هريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتّى[2]، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم". قالت عائشة: "فأقعدناه في مخضب[3] لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق، وقال: "حَسْبُكم حسبكم".

خرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه، حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أُحُد، واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: "إن عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله". ففهمها أبو بكر، وعرف أن نفسه يريد، فبكى وقال: "بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا".

نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته، وتتامّ به وجعه حتى غُمر. فَعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما أسمعه يقول: "إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيّره". قالت: "فلما حضر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتها، وهو يقول: "بل الرفيق الأعلى من الجنة".

ولما كان يوم الاثنين الذي قبض فيه رسول الله ﷺ، خرج إلى الناس، وهم يصلّون الصبح خلف أبي بكر بوصية من رسول الله، فرفع الستر وفتح الباب، وقام على باب عائشة، فكاد المسلمون يفتتنون في صلاتهم برسول الله ﷺ، حين رأوه فرحاً به، وتفرّجوا، فأشار إليهم أن اثبتوا في صلاتكم. وتبسّم رسول الله ﷺ سروراً، لما رأى من هيئتهم في صلاتهم.

---

(1) نوع من النبات.

(2) من الآبار التي جلب منها الماء: بئر أنس، وكانت لمالك بن النضر، وبئر اليسيرة وكانت لبني أمية، وبئر رُؤمة بالعقيق، وبئر غرس، وبئر بُضاعة.

(3) مخضب: إناء يغتسل فيه.

ولما سمع أبو بكر حسّ رسول الله، ذهب يتأخر، فيقدم رسول الله ﷺ، وأومأ إلى أبي بكر أن كما أنت. وجلس ﷺ عن يسار أبي بكر يصلي جالساً، وأبو بكر يصلي بصلاة رسول الله ﷺ، والناس يقتدون بصلاة أبي بكر. وانصرف الناس، وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أفرق من وجعه، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسُّنح[1].

قالت عائشة: "رجع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم، حين دخل المسجد، فاضطجع في حجري، فدخل عليّ رجل من آل أبي بكر، وفي يده سواك أخضر، فنظر رسول الله ﷺ إليه في يده نظراً عرفتُ أنه يريده، فقلت: يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: نعم. قالت: فأخذته فمضغته له حتى ليّنته، ثم أعطيته إياه، فاستنّ به كأشدّ ما رأيته يستنّ بسواك قطّ، ثم وضعه".

وقالت عائشة: "ووجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري، فذهبت أنظر إلى وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: "بل الرفيق الأعلى مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين". وقالت رضي الله عنها: "مات رسول الله ﷺ بين سحري، ونحري، وفي دولتي[2]، لم أظلم فيه أحداً... فمن سفهي، وحداثة سنيّ أن رسول الله ﷺ قبض، وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألتدم[3] مع النساء، وأضرب وجهي".

كانت وفاته ﷺ ضحوة يوم الاثنين 13 ربيع الأول سنة 11هـ، الموافق 8 حزيران سنة 632 م، وعمره (63) سنة قمرية، و (61) سنة شمسية.

(1) مكان بأعلى المدينة المنورة.

(2) أي مستندا إلى صدري.

(3) التدم: اضرب صدري.

جهاز رسول الله محمد ﷺ ودفنه

اختلف المسلمون في مكان دفنه ﷺ، فمن قائل: ندفنه في مسجده. وقال آخر: ندفنه مع أصحابه في البقيع. وقال آخر: يدفن عند الجذع الذي كان يصلي إليه. فقال أبو بكر: " عندي مما تختلفون فيه علم، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما قُبض نبي، إلا دُفن حيث قُبض". فخطّ حول فراشه، ثم حوّل رسول الله ﷺ بالفراش الذي توفي عليه ناحية. ولما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ، وكان أبو عبيدة عامر بن الجراح يضرح[1] كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهيل، يلحد لأهل المدينة. دعا العباس بن عبد المطلب رجلين، وقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح، وقال للآخر: اذهب إلى أبي طلحة... اللهم خِرْ لرسول الله ﷺ". فوجد الرجل أبا طلحة زيد بن سهيل أولا، فجاء به. ثم بدا يحفر لرسول الله ويلحد له.

أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء، وتولّى غسله كل من: علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وقُثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وشقران (صالح) مولى رسول الله ﷺ. وحضر غسله أوس بن خولي أحد بني عوف بن الخزرج، فأسنده ﷺ علي بن أبي طالب إلى صدره. وكان العباس، والفضل، وقُثم، يقلّبونه معه، وكان أسامة بن زيد، وشقران مولاه يصبّان الماء عليه، وعليّ يغسله، وعليه قميصه يدلكه به من ورائه، لا يفضي بيده إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: "بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حيّا وميتاً".

غسل رسول الله ﷺ ثلاث غسلات، بسدر وماء من بئر غرس. ولما فُرغ من غسله، كفّن في ثلاثة أثواب: ثوبين صحاريين أبيضين[2]، وبُردٌ حَبرة، أُدرج فيها إدراجاً. ولما فُرغ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء، وُضع على سريره في بيته، بناء على وصية منه. قال محمد بن سعد، عن الواقدي عن محمد بن عبدالله بن جعفر، عن عبد الواحد بن أبي عون، عن أبي عون، أن النبي ﷺ قال: "إذا غسلتموني، فضعوني على سريري هذا على

---

(1) يضرح: يشق الأرض ليجعلها ضريحاً.

(2) صحاريين: نسبة إلى صحار باليمن.

شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، وإن أول من يصلي عليّ خليليَ جبْريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ادخلوا علي فوجا فوجا، فصلّوا وسلموا تسليما، ولا تؤذوني بتزكية. وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم، واقرأوا السلام على من غاب من أصحابي"[1]. ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ يومئذ أحد.

وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ: علي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ. ونصب المغيرة بن شعبة اللبن نصبا. وكان مولاه شقران حين وضع رسول الله ﷺ في حفرته، قد أخذ قطيفة حمراء، كان أصابها يوم خيبر، وكان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها، فدفنها في القبر وقال: "والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً". فدفنت مع رسول الله ﷺ. وكان دفنه ﷺ في جوف ليلة الأربعاء 15 ربيع الأول سنة 11هـ، الموافق 10 حزيران سنة 632 م.

وبعد دفن رسول الله ﷺ، رشّ بلال بن رباح الماء على قبره، من قبل رأسه من شقه الأيمن، وجعل مسطوحا، وجعلت عليه بعد حصباء.

فبوركت مولودا وبوركت ناشئا
وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب
وبورك قبر أنت فيه وبوركت
به وله أهل لذلك يثرب

(1) أنساب الأشراف، البلاذري، الجزء الأول، صفحة 564.

الباب الثاني

الفصل الأول

القرآن العظيم

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [2]. **وقال تعالى:**

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [3].

هذا هو كتاب الله المبين، تنزيل من رحمن رحيم. وهو المعجزة الخالدة على مدى الدهر، في بيانه ونظمه، وفي كمال رسالته ومضمونه، وفي مجموع العقائد التي يدعو الناس إلى الالتزام بها، وفي مجموع العبادات التي يدعو الناس إلى ممارستها، وفي دستوره الأخلاقي الفريد، وفي كل تشريع من تشريعاته المبهرة بدقتها، وعدلها، وشموليتها، وتفاصيلها.

إن القرآن الكريم معجز كذلك في استعراضه التاريخي لعدد من الأمم السابقة، ولكيفية تعاملها مع رسل ربها، ولأسلوب مكافآتها أو عقابها، وهو معجزة في أسلوبه التربوي، وخطابه النفسي، وفي إنبائه بالغيب، وفي إشاراته العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره، وبالتالي، فهو الرسالة الخاتمة، ولسان الإسلام الحق، **قال تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [4].

---

(1) سورة الحجر، آية 9.

(2) سورة الواقعة، آية 75-80.

(3) سورة البروج، الآيتان 21-22.

(4) سورة البقرة، آية 2.

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1]. تكفّل الله – جلت قدرته – بحفظه من التحريف والتبديل والزيادة والنقص.

هذه الآيات الكريمة تحمل معنى التفوق الشامل، على كل ما سبقه من كتب، وإنه سيظل كذلك حتى قيام الساعة، ولذلك وصفه تعالى بالكتاب، ليظل دليلا على الكمال. لأنه كما قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[2].

اختار الله لوحيه أسماء جديدة مخالفة لما سمّى العرب به كلامهم جملة وتفصيلا، وروعيت في تلك الألقاب أسرار التسمية وموارد الاشتقاق، واشتهر منها اسمان هما: الكتاب والقرآن.

إن في تسميه بالكتاب إشارة إلى جمعه في السطور، لأن الكتابة جمع للحروف ورسم للألفاظ، كما أن تسميه بالقرآن إيماءة إلى حفظه في الصدور، لأن القرآن مصدر للقراءة، وفي القراءة استذكار. فهذا الوحي العربي المبين قد كتب له من العناية به، ما كفل صيانته في حرز حريز، وما جعله بنجوة من خوض العابثين وتلاعب المحرفين. إذ لم ينقل كجميع الكتب بالكتابة وحدها، ولا بالحفظ وحده، بل وافقت كتابته تواتر إسناده، ووافق إسناده المتواتر نقله الأمين الدقيق.

إن كلتا التسميتين ترتد إلى أصل آرامي، إذ وردت الكتابة في الآرامية بمعنى رسم الحروف، وجاءت القراءة فيها بمعنى التلاوة. ومن هنا بدت تسمية هذا الوحي بالكتاب والقرآن طبيعية جدا، لامتياز الوحي المحمدي في مراحله كلها، بهذه العناية المزدوجة في صيانة نصوصه، وحفظ تعاليمه منقوشة في السطور، مجموعة من الصدور.

عرف العرب لفظ قرأ في الجاهلية، فاستخدموه بمعنى غير معنى التلاوة، فكانوا يقولون: " هذه الناقة لم تقرأ سلى قط ". يقصدون أنها لم تحمل ملقوحا، ولم تلد ولدا.

أما قرأ بمعنى تلا، فقد أخذها العرب من أصل آرامي وتداولوها، فمن المعروف أن اللغات الآرامية والحبشية والفارسية، تركت في اللغة العربية آثارا لا تنكر، لأنها كانت

(1) سورة فصلت، آية 42.

(2) سورة هود، آية 1.

لغات الأقوام المتمدينة، المجاورة للعرب في القرون السابقة للهجرة.

ومهما يكن من شيء، فإن تداول العرب قبل الإسلام للفظ قرأ الآرامي الأصل، بمعنى تلا، كان كافيا لتعريبه، واستعمال الإسلام له في تسمية كتاب الله الكريم.

على أن الذي غلب استعماله من بين هاتين التسميتين، هو لفظ القرآن بالمفهوم المصدري، حتى بات علما شخصيا لهذا الكتاب الكريم، فكان جديرا بنا أن نبادر إلى معرفة الأصل الاشتقاقي للفظ القرآن، الذي يحكي ألفاظا أخرى تماثله في اللغات السامية، وإلى الوقوف على المدلولات اللغوية لأهم الأسماء الأخرى، التي اختيرت للقرآن وأطلقت عليه، سواء أتشابهت أم لم تتشابه بين الساميات والعربية.

أصبح لفظ القرآن الكريم اسما لكلام موحى به من الله سبحانه، لرسول الله ﷺ بقصد التحدي، إذن، فهو قرآن إذا أخذنا أنه يقرأ. ويسميه تبارك وتعالى كتابا، إذن، فهو كتاب إذا أخذنا أنه يكتب، والقراءة تستلزم حافظا، والكتابة لا تستلزم حافظا، فالإنسان حين يقرأ من كتاب ليس محتاجا إلى الحفظ. فلذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل التلاوة: يحفظ في الصدور، ويسجل في الصدور، بحيث تستطيع في أي وقت أن تقرأ في الكتاب.

ومن أسماء القرآن الكريم: الفرقان، لقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾[1]. ولفظ الفرقان في الأصل الآرامي تفيد مادته معنى التفرقة، كأن في التسمية إشعارا بتفرقة هذا الكتاب بين الحق والباطل. ومنها: الذكر، **لقوله تعالى:** ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۝ ﴾[2]. وهو لفظ عربي خالص ومعناه الشرف، ومنه **قوله تعالى:** ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾[3].

ومنها: التنزيل، وهو من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾[4].

(1) سورة الفرقان، آية 1.

(2) سورة الأنبياء، آية 50.

(3) سورة الأنبياء، آية 10.

(4) سورة الشعراء، آية 192.

وهو لفظ عربي خالص، يشعر بأنه وحي يوحى، وينزل على قلب الرسول الكريم.

ومنها العليّ، لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [1].

ومنها المجيد، لقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ ﴾ [2]. ومنها العربي، لقوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ۝ ﴾ [3].

كما وصف الله تعالى القرآن الكريم بصفات منها: إنه نور، وهدى، وبشير، ومبارك، ومبين، وحكيم، وعزيز، وموعظة، وبشرى، وغير ذلك من الصفات.

والقرآن شرعاً:

هو كلام الله المعجز والمنزل على محمد ﷺ، فصار له كالعلم الشخصي، المتعبّد بتلاوته، المعجز بالآية والسورة، والمكتوب في المصاحف، والمنقول عنه بالتواتر، والمتعبد بتلاوته، والمبدوء بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس. وهو معجزة الإسلام الخالدة، والدستور القويم، نزل ليبين للناس منهج الله سبحانه، وحقا يقود من تمسّك به إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ﴾ [4]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ﴾ [5].

فإذا قال قائل: كيف يصف الله سبحانه القرآن الكريم بأنه قول الرسول البشري، والرسول الملكي؟ فالجواب: نعم، الرسول الملكي بلّغه إلى الرسول البشري، والرسول البشري بلغه إلى الأمة، فصار قول جبريل بالنيابة، وقول محمد بالنيابة، والقائل هو الله عز وجل.. فالقرآن هو قول الله حقيقة، وقول جبريل باعتبار أنه بلغه لمحمد، وقول محمد باعتبار

(1) سورة الزخرف، آية 4.

(2) سورة البروج، آية 21.

(3) سورة الزمر، آية 28.

(4) سورة الحاقة، آية 40.

(5) سورة التكوير، آية 18-19.

أنه بلغه للأمة، في مدة ثلاث وعشرين سنة.

والقرآن لغة:

القرآن لفظ مرادف للقراءة، فهو من مصدر قرأ قراءة، وهي التلاوة، والمقروء هو المتلوّ، فهو على مصدر فُعلان بالضمّ، كالغفران والشكران. تقول، قرأته قرءاً، وقراءة، وقرآنا. بمعنى واحد، سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر. وقرأ الكتاب: قراءةً وقُرْءانا بالضم، وقرأ الشيء: قُرْءانا بالضم أيضاً، أي جَمَعَه وضَمَّه، ومنه سُمّي القرآنُ لأنه يَجْمع السُّور ويَضُمُّها.

ذهب العلماء في لفظ القرآن مذاهب، فهو عند بعضهم مهموز، وعند بعضهم الآخر غير مهموز، فمن الذين رأوا أنه بغير همز: الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت 204هـ)، والفرّاء يحيى بن زياد الديلمي (ت 207هـ)، والإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت 324هـ).

يقول الإمام الشافعي: "إن لفظ القرآن المعروف، بأنه ليس مشتقا ولا مهموزا، بل ارتجل ووضع علما على الكلام المنزل على النبي ﷺ". ولهذا فإن القرآن عند الشافعي: "لم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت، لكان كل ما قرئ قرآنا، ولكنه اسم للقرآن، مثل التوراة والإنجيل"[1].

أما الفرّاء فيقول: "إنه مشتق من القرائن، جمع قرينة، لأن آياته تشبه بعضها بعضا، فكأن بعضها قرينة على بعض، وواضح أن النون في القرائن أصلية"[2].

أما الإمام أبو الحسن الأشعري، فيقول وأقوام يتابعونه على رأيه: "إنه مشتق من قرن الشيء بالشيء، إذا ضمه إليه، لأن السور والآيات تقرن فيه، ويضم بعضها إلى بعض"[3].

أما الذين يرون أن لفظ القرآن مهموز، فمنهم: إبراهيم بن السري الزجاج (ت

(1) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 2/ 62.

(2) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 1/ 87.

(3) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 1/ 278.

311هـ)، وأبو الحسن على بن الحازم اللحياني (ت 311هـ)، وجماعة غيرهما.

يقول الزجاج: "إن لفظ القرآن مهموز على وزن فُعلان، مشتق من القرء بمعنى الجمع، ومنه: قرأ الماء في الحوض إذا جمعه، لأنه جمع ثمرات الكتب السابقة"(1).

أما أبو الحسن على اللحياني فيقول: "إنه مصدر مهموز بوزن الغفران، مشتق من قرأ بمعنى تلا، وسمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر"(2).

إن الرأي الذي يقول: إن لفظ القرآن مهموز أقوى الآراء وأرجحها، لأن القرآن في اللغة: مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾(3)

إن ما نزل القرآن الكريم لأجله، خمسة أمور كلية:

- التوحيد: لأن الناس كانوا وثنيين، وإن كان بعضهم يدّعي التوحيد، فوعد الله سبحانه من أخذ به: بشره بحسن المثوبة. وتوعد من لم يأخذ به، وأنذره بسوء العقوبة. والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد، فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما. والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما. فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف في الأرض، والعزة والسلطان والسيادة في الدنيا، كما وعدهم بالجنة والنعيم في الآخرة. وأوعد المخالفين بالخزي والشقاء في الدنيا، وأوعدهم بنار الجحيم في الآخرة.
- العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب، وتثبته في النفوس.
- بيان سبيل السعادة، وكيفية السير فيها، وهي السبيل الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة.
- بيان سبيل الشقاء الموصل إلى شقاء الدنيا والآخرة.
- قصص من وقفوا عند حدود الله تعالى، وأخذوا بأحكام دينه، وأخبار الذين تعدّوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهريا، لأجل الاعتبار واختيار طريق

---

(1) البرهان، الزركشي، 1/ 278.

(2) الإتقان، 1/ 87.

(3) سورة القيامة، آية 18.

المحسنين، ومعرفة سنن الله سبحانه وتعالى في البشر.

هذه الأمور التي احتوى عليها القرآن، فيها حياة الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وعقوبة من تعدّى حدود الله في الدنيا والآخرة.

اشتمل القرآن الكريم على كل ما تضمنته الشرائع السماوية السابقة، ويتفق مع المناهج التي سبقته، لأنه موحى به من الله. فالتوراة والإنجيل والزبور من الله، ولكنها تحمل المنهج فقط. أما القرآن العظيم، فهو المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله (ﷺ).

نزل القرآن ليصحح الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل، التي ائتمن الله عليها البشر، فحرفوها وبدلوها، خاصة فيما يتعلق برسول الله محمد، ووصفه وأنه خاتم الأنبياء. أما التي لا تتعلق بالرسول، فبقيت على حالها. وهذا التحريف أبطل النهج الإلهي بالنسبة لهذه الكتب. فجاء القرآن الذي لم يصل إليه التحريف والتبديل ليبقى منهج الله إلى أن تقوم الساعة، وليفرق بين الحق الذي جاءت به الكتب السابقة، وبين الباطل الذي أضافه أولئك الذين ائتمنوا عليها.

أما بالنسبة لما ورد في القرآن الكريم من قصص، فهي من أصدق القصص لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾[1]، وذلك لتمام مطابقتها للواقع، ولأنها من أحسن القصص، وليست للتسلية أو الترفيه، أو لقتل الوقت. قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم ﴿١٣﴾ ﴾[2]. ولكن الهدف الأسمى لها هو تثبيت ونفع حركة الحياة الإيمانية، لأنها هي القصص الحق، يأتي الله تبارك وتعالى بالقصة على حقيقتها من أجل الموعظة والعبرة، ولتكون تلك العبر حاضرة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان، ولتكون خبرة إيمانية، تدفعنا إلى الاعتصام بحبل الله المتين.

إن كلمة قصة مأخوذة من قص الأثر، بمعنى تتبعه حتى يصل إلى مبتغاه ومراده،

---

(1) سورة النساء، آية 87.

(2) سورة الكهف، آية 13.

لأن الذي يقص الحديث يتتبع ما حفظ شيئا فشيئا. وإن كلمة حق جاءت لتدلنا على أن هناك قصصا ولكن بغير حق، والله تعالى أراد أن يخرج قصصه عن دائرة القصص التي يتداولها الناس، أو عن قصص التاريخ لإمكان مخالفتها الواقع، وتأتي بغير حق، وهناك قصص تروى في الدنيا ولا واقع لها، بل هي من قبيل الخيال.

وما دمنا نعرف أن الله يقص الحق، نعرف أن قصص القرآن كلها أحداث وقعت فعلا، ولكل قصة في القرآن عبرة وموعظة، أو شيء مهم يريد الله أن يلفت نظرنا إليه.

وعلى هذا الأساس، فإن القصص في القرآن الكريم، ثلاثة أقسام:

- قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين والكافرين، ذلك أن القصص القرآني يتكرر في كل زمان ومكان، ففرعون هو كل حاكم طغى في الأرض، ونصب نفسه إلها، وقارون مثل كل من أنعم الله عليه، فنسب النعمة إلى نفسه، وتكبر وعصى. وقصة يوسف هي قصة كل إخوة حقدوا على أخ لهم وتآمروا عليه. وأهل الكهف هم كل فتية آمنوا بربهم، فنشر الله لهم من رحمته في الدنيا والآخرة. وقصة ذي القرنين هي قصة كل حاكم مصلح، أعطاه الله الأسباب في الدنيا، ومكّنه في الأرض، فعمل بمنهج الله بما يرضي الله. وقصة صالح هي قصة قوم طلبوا معجزة من الله، فحققها لهم فكفروا بها. وقصة هود هي قصة قوم سرقوا في المكيال والميزان. أما قصة مريم وعيسى عليهما السلام، فهي القصة الوحيدة والمعجزة التي لن تتكرر.
- قسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله تعالى عنهم، كقصة لقمان، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، والقبائل البائدة، وقوم نوح، وصالح، وهود، ولوط، وآل فرعون، وغيرها.
- قسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ، كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وأبي لهب وغيرهم.

إن لهذه القصص التي وردت في كتاب الله حكم كثيرة وعظيمة منها:

- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم

﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝﴾ (1).

- **بيان عدله سبحانه بعقوبة المكذبين، لقوله تعالى:** ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝﴾ (2).
- **بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين، لقوله تعالى:** ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝﴾ (3).

- تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين، لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝﴾ (4). أو لتثبيته ﷺ. **قال سبحانه وتعالى:** ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ (5).

ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه، والازدياد منه، إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أمروا بالجهاد، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الأنبياء:88] **وقوله تبارك وتعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن

---

(1) سورة القمر، آية 4-5.

(2) سورة هود، آية 101.

(3) سورة القمر، آية 34-35.

(4) سورة فاطر، آية 25-26.

(5) سورة هود، آية 120.

قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم:47]

تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم، لقوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ إثبات رسالة محمد ﷺ، فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله، لقوله تعالى:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود:49].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم:9].

إعجاز القرآن الكريم

ارتفع القرآن الكريم فوق كل الكتب، وسما فوق مدارك البشر، يوضح آيات الكون، وآيات المنهج، وله في كل عصر معجزات.

لم ينزل القرآن معجزة لفترة محدودة، بل هو معجزة إلى قيام الساعة، ولذلك جاء القرآن ليعطي إعجازا لكل جيل فيما نبغوا فيه. ونخص بالذكر: الإعجاز في الأسلوب، وفي الحقائق، وفي الآيات، وفي قصص الأنبياء وغيرهم من الأمم البائدة، وفيما صح في التوراة والإنجيل، وفيما أتى الله سبحانه من علم لم تكن تعلمه البشرية، ولا زالت حتى الآن لا تعلمه، كل ذلك يجعل القرآن لا ريب فيه، لأنه لو اجتمعت الإنس والجن، ما استطاعوا أن يأتوا بآية واحدة مثله.

تحدى القرآن الكريم فصحاء العرب عامة بمعارضته، وطاولهم في المعارضة، ولكنهم انهزموا أمام تحديه، وأعلنوا عجزهم عن تقليده، لأنه يعلو ولا يعلى، وما هو بقول بشر.

كان الإعجاز القرآني خليقا أن يثير في الحياة الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية، يتصدى بها العلماء للكشف عن وجوه البلاغة القرآنية، وعن أسلوب القرآن الفذ في التصوير والتعبير. وبذل أولئك العلماء جهودا مشكورة، وقاموا بمحاولات مضنية، لإبراز البلاغة القرآنية في صورة موحية ذات ظلال.

ولعل الجاحظ (255 هـ) أول من تكلم على بعض المباحث المتعلقة بالإعجاز في كتابه "نظم القرآن"، الذي لم يصلنا، ولكنه أشار إلى هذا المصنف في كتاب الحيوان، الذي جمع فيه آيات من القرآن، وبين ما فيها من الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات. ولا يبعد أن يكون محمد بن زيد الواسطي (ت 603هـ) قد استفاد من كتاب الجاحظ، وبنى عليه حين صنف كتابه إعجاز القرآن، الذي لم يصل إلينا كذلك. وإنما وصل إلينا كتاب دلائل الإعجاز لعبد القادر الجرجاني، وبعد ذلك توالت الدراسات، وظهرت المؤلفات.

أما افتراءات المختلق وتخرصات الكذوب، فتردها شهادة العرب أنفسهم لمحمد بالصدق والأمانة، والكذب المفترى لا يلبث أن ينكشف، ففي أي شيء كذب النبي؟ في أخبار الغيب أم أخبار الماضي؟ أم أخبار المستقبل المحجوب؟ وهل كانت ثقافة العرب المحدودة، تسمح لهم بأن يكونوا في هذا الصعيد حكما على الصادقين والكاذبين؟

لقد وصف القرآن الكريم نشأة الخلق الأولى، ومصيرها المحتوم، وفصل نعيم الآخرة وعذابها الأليم، وأحصى عدد أبواب جهنم، وعدد الملائكة الموكلين بكل باب، وعرض هذا كله على العرب، تحت سمع أهل الذكر وبصرهم، ممن أوتوا الكتاب، وقال:

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾[1]

---

(1) سورة المدثر، آية31.

فمن أين لمحمد تلك المعارف الغيبية الواسعة، في مثل بيئة قومه الأميين الوثنيين؟ هل هبط بها عليهم من كوكب في السماء، أم جاءهم بها من الشعرى والمريخ؟ ألم يصاحبهم قبل البعثة أربعين عاما، فهل ضل الآن وغوى؟ ألم يسموه الصادق الأمين قبل أن يبعث رسولا؟

كم من خبر كشف القرآن حجابه، فتحقق في حياة المشركين ورأوه بأم أعينهم، ألم يستعص أهل مكة على النبي، حين دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم القحط، وأكلوا العظام، وجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد؟ [1] مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [2].

ألم تلحق المشركين الهزيمة في بدر الكبرى، في السنة الثانية للهجرة، تصديقا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [3]. مع أن فكرة التقاء الجمعين لم تكن بمكة أصلا؟ وهل أخلف الله المؤمنين ما وعدهم عام الحديبية من دخول المسجد الحرام، وتبديلهم بعد خوفهم أمنا، وتحليق رؤوسهم وتقصيرها قضاء للشعيرة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [4].

ولما كان دين الناس جميعا، فلا بد أن يتحدى غير العرب فيما نبغوا فيه. فقد حرب حدثت

---

(1) صحيح البخاري، عن ابن مسعود، 6/114.

(2) سورة الدخان، آية 10-11.

(3) سورة القمر، آية 48.

(4) سورة الفتح، آية 27.

حرب بين الروم والفرس وقت نزول القرآن، وكانتا

أ عظم قوتين في العالم في ذلك العصر، وانهزم الروم فإذا بالقران الكريم ينزل:

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ ﴾[1]

ولو أن هذا القرآن من عند رسول الله ﷺ، فما الذي يجعله يدخل في قضية كهذه؟ لم يطلب منه أحد أن يدخل فيها، وكيف يغامر ﷺ في كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة، لا يتغير ولا يتبدل؟ بإعلان نتيجة معركة ستحدث بعد سنين؟ وماذا كان يمكن أن يحدث لقضية الدين كله لو أن الحرب حدثت، وانتصر الفرس مرة أخرى؟ أو انتصر الروم؟ أو أن الحرب لم تحدث، وتوصل الطرفان إلى الصلح؟ إنها كانت ستضيع قضية الدين كله. ولكن لأن الله سبحانه هو القائل وهو الفاعل، جاءت هذه الآية معجزة لغير العرب وقت نزول القرآن، وحدثت المعركة فعلا، وانتصر فيها الروم في المعركة التالية، كما أخبر القرآن الكريم.

الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

إن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم أسلوب في الدعوة إلى دين الله، بلغة مناسبة لعصر تفخر فيه اللغة العلمية، بتطور الوسائل التقنية الذي نعيشها، هو من مواقف التحدي للناس كافة وبدون استثناء، وإثبات أن هذا الكتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي، وفي أمة غالبيتها الساحقة من الأميين.

نزل هذا القرآن العظيم يحوي من حقائق العلم الكوني، ما لم يتوصل إليه الإنسان، إلا بعد مجاهدات طويلة، جمعت الآلاف من العلماء عبر تاريخ البشرية الطويل، وتركز في العقود الأخيرة من هذا القرن بصفة خاصة.

إن المتحدي يجب أن يكون واقفا على أرضية صلبة، وعلى ذلك، فلا يجوز توظيف

(1): سورة الروم، آية 1-4

شيء في هذا المجال غير الحقائق القطعية الثابتة، حتى يبلغ التحدي مداه، في مجال إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، خاصة آيات الخلق الثلاث: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان.

إن عملية الخلق عملية غيبية، لم يشهدها أحد من الجن أو الإنس، وعلى ذلك فإنها لا تخضع للإدراك المباشر من الإنسان، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

إن الجمع بين هذه الآيات الكريمة وأمثالها الكثير في كتاب الله، يؤكد على أن خلق كل من السموات والأرض، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، قد تم في غيبة كاملة عن الوعي الإنساني، ولكن الله سبحانه قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية، ما يمكن أن يعين الإنسان على الوصول إلى تصور ما لعملية الخلق.

إن هذا التصور يبقى في مجال الفروض والنظريات، ولا يمكن أن يرقى إلى عالم الحقيقة أبدا، لأن الحقيقة العلمية لا بد وأن تكون واقعة تحت حس الإنسان وإدراكه، ولذلك تتعدد النظريات في قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها.

أما الآيات الباقية، التي تعرض لها القرآن الكريم، فلا يجوز أن يوظف في الاستشهاد على سبقها العلمي، إلا بالحقائق القطعية الثابتة، وبالضوابط المنهجية التالية:

- حسن فهم النص القرآني وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعد تلك اللغة وأساليب التعبير فيها.
- فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ إن وجدا، وفهم الفرق بين العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفصّل من آيات كتاب الله.

---

(1) سورة الكهف، آية 51.

(2)من سورة آل عمران، آية190.

- فهم المأثور من تفسير المصطفى ﷺ، والرجوع إلى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى الزمن الحاضر.
- جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالآيات القرآنية.
- جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، ورد بعضها إلى بعض، وفهم دلالة كل منها في ضوء الآخر،لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا، وتوظيف الصحيح من الأحاديث النبوية المتعلقة بموضوع الآية المتعامل معها.
- مراعاة السياق القرآني للآية المتعلقة بإحدى القضايا الكونية، دون اجتزاء للنص القرآني عما قبله وعما بعده.
- مراعاة قاعدة أن العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.
- عدم التكلف أو محاولة ليّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية.
- عدم الخوض في القضايا الغيبية كالروح والملائكة والجن وحياة البرزخ وحساب القبر.. إلخ. والتسليم بالنصوص الواردة فيها تسليما إيمانيا كاملا.
- التفريق بين قضيتي الإعجاز العلمي والتفسير العلمي للقرآن.
- يجب تحري الدقة المتناهية في التعامل مع كتاب الله، وإخلاص النية في ذلك، والتجرد له من كل غاية، امتثالا لقول رسول الله ﷺ: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"[1].

فإذا أخذنا العلوم الحديثة التي حدثت في القرن العشرين، والتي أصبحت حقائق علمية، نجد أن القرآن قد أشار إليها بإعجاز مذهل، بحيث أن اللفظ لا يتصادم مع العقول وقت نزول القرآن، ولا يتصادم معها بعد تقدم العلم، واكتشاف آيات الله في الأرض، ولا يقدر هذه الإعجاز المذهل إلا الله سبحانه. اقرأ مثلا: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾ [ق: ٧][2]. إن المدّ هنا معناه البسط، وعندما نزلت هذه

(1) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، الحديث رقم 2950.

(2) سورة ق، آية 2.

الآية لم يكن هذا يمثل مشكلة، فالناس ترى أن الأرض ممدودة، والقرآن يقول والأرض مددناها، وتقدم العلم وعرف الناس أن الأرض كروية، وانطلق الإنسان إلى الفضاء، ورأى الأرض على هيئة كرة، هنا أحست بعض العقول بأن هناك تصادمات بين القرآن الكريم وبين العلم، ونقول: أقال الله تعالى أي أرض تلك المبسوطة أو الممدودة؟ لم يقل، ولكنه قال: الأرض على إطلاقها، أي كل مكان على الأرض، ترى فيه الأرض أمامك مبسوطة.

فمثلا، إذا نزلنا في القطب الشمالي، نرى الأرض مبسوطة، وإذا نزلنا في القطب الجنوبي نراها مبسوطة، وإذا وقفنا عند خط الاستواء نراها مبسوطة أيضا. ولا يمكن أن يحدث هذا أبدا إلا إذا كانت الأرض كروية. فلو أن الأرض كانت مثلثة أو مربعة أو مسدسة، أو غير ذلك من الأشكال الهندسية، لوصلت فيه إلى حافة ليس بعدها شيء، ولكي تكون الأرض ممدودة أو مبسوطة في أي مكان نسير فيه، فلا بد أن تكون كروية.

لو تعرض رسول الله ﷺ لهذه الأشياء تعرضا لا يتناسب مع استعدادات العقول وقت نزول القرآن، فإنه ربما صرف العقول عن أساسيات الدين، إلى جدل في أسرار الكون، لا يستطيع العقل أن يستوعبها أو يفهمها. ولكن الله سبحانه ترك في الكون أشياء لوثبات العقول في العلم، بحيث كلما تقدم العلم، وجد خيطا يربط بين آيات الله في الكون، وبين آيات القرآن. ولو أن رسول الله ﷺ فسر كونيات القرآن وقت نزوله، لجمد القرآن، لأنه لا أحد يستطيع أن يفسر بعد تفسير رسول الله ﷺ، لكن تركه ﷺ للتفسير، أتاح الفرصة لعطاءات متجددة للقرآن إلى قيام الساعة، وهكذا كان المنع هو عين العطاء. وهذه معجزة أخرى من معجزات القرآن الكريم.

إن نظرة واحدة فيما قاله الله سبحانه في كونيات الحياة، التي أتيحت للعقل البشري في القرن العشرين، نجد أن القرآن يشير إليها، لأن العمر في الرسالة القرآنية إلى أن تقوم الساعة، وسيظل القرآن معجزة إلى قيام الساعة. ولهذا يقول تبارك وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ

شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾[1].

في هذه الآية نرى أن القرآن لـه عطاءان في الإعجاز: العطاء الأول: آيات في الأفاق، وهذه هي الآيات الكونية، والعطاء الثاني: آيات في أنفسهم، وهذه هي الآيات بأسرار الجسد البشري. ولهذا يمكن القول أن آيات الكون ستأتي موافقة لآيات القرآن، أي أن الله وضع في القرآن من آيات الكون وأسراره، وعن الجسد وتكوينه آيات يمكن أن يعطيها المؤمنين وغير المؤمنين.

لقد أعطى الله المؤمنين من آيات الكون المعجزة، خاصة عن كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس، وما ينتج عن ذلك الدوران، وما يحدث في أعماق البحار، وغير ذلك مما لا يكشف إلا في القرن العشرين.

لقد برع المسلمون الأوائل في العلوم مثل جابر بن حيان، الذي برع في الكيمياء، وابن سينا الذي وضع أساس علم الطب والفلك والرياضيات، وابن النفيس الذي اكتشف الدورة الدموية، ووصفها وصفا علميا دقيقا، وابن الهيثم الذي برع في الرياضيات والطبيعيات والطب، وكان أول من شرح تركيب العين، وكيف تعمل، وأبو القاسم البيروني الذي نبغ في العمليات الجراحية وغيرها.

ثم أعطى الله سبحانه من أسرار الكون غير المؤمنين، مما نشهده الآن من نهضة علمية في دول الغرب، مما يجعل أن آيات الكون ستجعل المنكرين للقرآن يعترفون أنه الحق، مما حدا بالكثيرين من العلماء الغربيين، أن يعلنوا إسلامهم في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

قد يسأل سائل: ما المبررات التي تثير الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؟

إن الإجابة على مثل هذا السؤال، تندرج تحت عدة مبررات، أهمها:

- إن القرآن الكريم أنزل إلينا لنفهمه، لأن الآيات الكونية فيه لا يمكن فهمها فهما صحيحا في إطار اللغة وحدها، وذلك لشمول الدلالة القرآنية، ولكلية

---

(1) سورة فصلت، آية 53.

فهما صحيحا في إطار اللغة وحدها، وذلك لشمول الدلالة القرآنية، ولكلية المعرفة التي لا تتجزأ.

- إن الدعوة بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي السنة المطهرة، هي الوسيلة المناسبة لأهل عصرنا - عصر العلم والتقنية - الذي فتن الناس فيه بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، ونبذوا الدين وراء ظهورهم ونسوه، وأنكروا الخلق والخالق، كما أنكروا البعث والحساب والجنة والنار، وغير ذلك من الغيوب، لأن هذه الأصول قد شوهت في معتقداتهم تشويها كبيرا، ولم تعد مقنعة لهم، ولهذا لم يبق أمام أهل عصرنا من وسيلة مقنعة بالدين، قدر الإعجاز العلمي في كتاب الله وسنة رسوله.
- الأصل في الحضارات أنها تتكامل فيما بينها، ولا تتصارع، ولكن في زمن العولمة الذي نعيشه، تحاول الحضارة المادية الغالبة، بما فيها من كفر وشرك، أن تعد العولمة من قيمها الهابطة، وأخلاقياتها الساقطة، وماديتها الجارفة، على غيرها من الحضارات، وتوظف في ذلك كل وسائل الغلبة المادية وأسبابها.
- إن كلا من الإسلام والمسلمين يتعرض اليوم لهجوم شرس، في كافة وسائل الإعلام بغير حق، وهم في هجومهم هذا ينكرون سماوية الإسلام، وربانية القرآن، ونبوة خاتم المرسلين، في وقاحة سافرة. ومن أهم الوسائل وأنجعها للرد على هذا الهجوم، هو إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، ولسنة الرسول محمد ﷺ، بالكلمة الطيبة، والحجة الدامغة، والمنطق السوي.
- إن في إثارة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي سنة المصطفى ﷺ، استنهاض لعقول المسلمين، واستثارة للتفكير الإبداعي فيها، وتشجيع على استعادة الاهتمام بقضية العلوم والتقنية التي تخلفت فيها الأمة، في الوقت الذي تقدمت فيها دول الشرك والكفر تقدما مذهلا.

الإعجاز الطبي في القرآن الكريم

لا شك أن الإعجاز الطبي في القرآن، لا يقل أهمية ولا خطرا عن الإعجاز البياني العلمي، لأن الإعجاز الطبي إعجاز نظري سمعي حسي.

أما عن أسرار الجسد البشري، فلننظر إلى مراحل تكوين الجنين، ومراكز الأعصاب التي تكون تحت الجلد مباشرة، وتكوين الإذن والعين، وغير ذلك من إعجاز لا يمكن أن يتحدث عنه بهذه الدقة إلا خالقه. وهذه ما شهد به علماء نبغوا في علومهم، بينما هم منكرون للإسلام وللقرآن، وهذه الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم، لا يستطيع أحد أن ينكرها الآن، لأنها أصبحت ثابتة الوجود.

يظهر الإعجاز الطبي جليا فيما احتواه القرآن من حكم طيبة، بلغت شأوا بعيدا من العظمة، وأثبتها الطب بعد قرون عديدة. وقد ورد ذكر المرض معرفا ونكرة في القرآن الكريم خمس عشرة مرة، وورد ذكر المريض خمس مرات، والمرضى خمس مرات كذلك. قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[1].

ومن بعض الإعجاز الطبي:

القلب وإعجازه

جعل القرآن الكريم القلب في مواطن عديدة محورا لكثير من الأشياء، ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[2].

لقد جعل الله القلب مستودعا لعمى البصيرة، وجعل فيه الغواية والضلال، وجعل فيه مرض الرذائل الخلقية كالجهل والجبن والنفاق والبخل. سبحانك يا رب، ما السر في إلقاء المسؤولية الكاملة على القلب؟ أليس العقل أو المخ هو الأولى بالمسؤولية؟

لا شك أن ثمة سرا في ذلك، وهو أن الدين الإسلامي قد وضع كل ما على مريض العقل والمخ، فالدين لا يحاسبه، والشرع لا يقاضيه، والقانون لا يسأله.. فالمخبول والمعتوه والمجنون لا يسأل عن جناية أو إثم ارتكبه، لهذا نزل القرآن الكريم ليخاطب

---

(1) سورة الذاريات، آية 21.

(2) سورة الحج، آية 46.

العقل، ولا يخاطب القرآن من لا عقل له.

إن القلب هو دعامة الجسم وقوام الحياة، وعضلاته متصلة ببعضها البعض في مدمج خلوي، لا تنفصل بين خلاياه جدر خلوية، كما هو معروف بين خلايا الحيوان والنبات، ولعل هذا التكوين الخلقي للعضلة القلبية قد جعلها مؤهلة تماما للعمل كوحدة واحدة، يتواتر إيقاعها بقوة وانسجام، لا إراديا. وهذه الحركة القلبية شديدة الإعجاز في طبيعتها.

إن العضلة القلبية شديدة النشاط موفورة القوة، دائمة العمل دائبة الحركة لا تكسل ولا تمل، لا تسأم ولا تهرم، لا يتأثر انقباضها تأثرا بينا بائنا بالتخدير الكلي أو النصفي، كما أنها لا تصاب بالسرطان[1].

يضخ القلب في اليوم الواحد ما يقرب من ثمانية آلاف لتر من الدم، يدفعها مسافة تقدر بنحو عشرة آلاف ميل، وتصل ضربات القلب السليم في اليوم الواحد إلى 115200 ضربة أو خفقة، وتصل في الشهر الواحد إلى 3456000 خفقة.

معجزة لسان المزمار

هناك حارس في اللهاة عند مدخل المريء اسمه لسان المزمار، يعمل لتنظيم المرور عند قاع الفم، وكما نعرف أن الله جلت قدرته قد جعل القصبة الهوائية مفتوحة على الدوام، بأن خلقها على هيئة حلقات غضروفية لتظل مفتوحة على الدوام. وعند ازدراد الطعام أو احتساء الشراب لو لم ينغلق الممر التنفسي، لتسرب فيه بعض أجزاء الطعام أو الشراب، ثم يصاب المرء باختناق، وفي أقل من ربع ثانية تحدث في أسرع ما يمكن، وفي تنسيق دقيق ثلاث عمليات هي: ينغلق المدخل التنفسي للقصبة الهوائية، بواسطة لسان المزمار. ينفتح مدخل المريء. يتوقف الجهاز التنفسي لفترة قصيرة جدا. وهذه الحركات الثلاث تتم في اليوم الواحد آلاف المرات، ولا يكاد الإنسان يشعر بها لأنها خاطفة ولتعوده عليها. وهي حركات لا إرادية لا شعورية، يقف الطب أمامها مشدوها.

---

(1) مقال للدكتورالسيد الجميلي، مجلة الهلال، عدد ابريل، 1976، عن الذبحة الصدرية.

وإذا تأملنا قول الله تعالى: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ﴾ [1]

نجد أن التقدير جاء بعد الخلق مباشرة، وهنا إعجاز طبي قرآني رائع، إذ أن خلايا جسم الإنسان تنقسم تباعا أثناء النمو، فالنطفة والبويضة (الأمشاج أو الجاميطات) [2] ينقسم كل منهما اختزاليا، ليتكون من كل منا نصف عدد الكروموسومات أو الصبغيات في الخلية الجسدية العادية، ومعنى ذلك أن النطفة تحمل 50٪ من صفات الأب، و50٪ من صفات الأم، وبالتحام الحيوان المنوي بالبويضة، تتكون اللاقحة، جامعة بين صفات الأب وصفات الأم، ولذلك يكون تقدير الله سبحانه لهذه اللاقحة إما ذكرا أو أنثى بتركيب وراثي صبغي محدد.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ {القيامة: ٣٩ }إعجاز طبي آخر، أن الذكر وهو مني الرجل هو المسؤول عن عنصر الذكورة في اللاقحة، وليست الأنثى، وهذه النقطة أوضحها قوله تعالى: فجعل منه، ولم يقل فجعل منها.

لا شك أن الرجل يسهم في تكوين الأنثى مثل المرأة تماما، إنما لا يمكن أن تكون مسؤولة عن ذكورة اللاقحة، رغم أنها تسهم فيها بأمشاجها، ذلك لأن كروموسوم الذكر هو (س ص) وكروموسوم الأنثى هو (س س) فإن الصبغي[3](ص) يوجد في الذكر ولا يوجد في الأنثى.

أما بالنسبة للأمراض الخلقية التي تنجم من شذوذ الأصباغ في الأمشاج، فتقف حجر عثرة أمام الطب. فلا حيلة له فيها.

إعجاز الرقم 19 في القرآن الكريم

إن تقديس الأرقام والأعداد غير وارد في دين الإسلام، وللمسلمين موقفهم الواضح من هذه القضية، فلا نقدس رقما، ولا نعادي رقما، لأن البعض قدسه أو عاده .

(1) سورة عبسى ، آية 19-20.

(2) الأمشاج: هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة في الرحم، وقال الراغب: أمشاج: أخلاط من الدم.

(3) الصبغي مكون من البروتينات والأحماض النووية، وهناك نوعان من الأحماض: (د. ن. أ) و(ر. ن. أ) لكن الأول هو المادة الرئيسة في تركيب الصبغي،

يعلم المسلمون أن الله واحد، وأنه خلق سبع سموات، ومن الأرض مثلهن، وهم يطوفون حول الكعبة سبعة أشواط، ويعلمون أن الأسبوع سبعة أيام، وأن المسلم يسجد على سبعة أعضاء.. إلخ.

فهل حمل هذا المسلمين على تقديس العدد (واحد)، أو العدد (سبعة)؟ وهل سيحملهم الإعجاز المبني على العدد (19) على تقديس هذا الرقم؟ أي حكم نقلي، وأي منطق عقلي، يحملنا على ذلك؟ فليطمئن أولئك الذين يخشون أن يقدس الناس العدد (19)، وليعلموا إن هذا الإعجاز سيساعدهم على نقض أباطيل الفرق الباطنية المنحرفة، التي ظهرت في بلاد الشام، وقدست العدد (19) قبل أن تقدسه البابيّة والبهائية، التي أخذت عن الباطنية القديمة، بحجة أن (بسم الله الرحمن الرحيم) تسعة عشر حرفا، وفق الرسم العثماني للقرآن الكريم، ولهذا قامت هذا الفرق بتقسيم السنة إلى تسعة عشر شهرا، وقسموا الشهر إلى تسعة عشر يوما، وإلى غير ذلك من المجالات الأخرى، بعد أن انطلقوا من تفسير فاسد للقرآن الكريم، وانحراف في النيات، وأسبغوا عليه هالة من القداسة، وهو تقسيم يحتاج إلى منهج سليم في التفكير.

إن هذه الإساءة في الاستخدام، لا يدفعنا إلى رفض ما أساءوا استعماله، أو أوّلوه أو فسروه على غير حقيقته، ما دمنا نجد في هذا الاستخدام أمورا تلفت النظر، أو تكون مثيرة للاهتمام. فكيف نرفض فكرة تعزز أن القرآن الكريم كتاب منزل، وأنه محفوظ من التبديل والتحريف على مر القرون.

لم يخبرنا رسول الله ﷺ بوجود هذا الوجه الإعجازي، بل إن العلماء لم يذكروا شيئا من هذا، وأبناء هذا العصر هم الذين اكتشفوا هذا الوجه. ولو افترضنا جدلا أن رسول الله ﷺ هو الذي افتعل هذا الأمر، وبذل فيه الجهود المضنية، فلماذا لم يخبر أحدا بوجود هذا البناء الرياضي المبدع؟ لماذا سكت؟ وإذا كان قد تحدث، فلماذا لم يصلنا ذلك؟

من الجدير بالذكر أن القرآن الكريم وهو كتاب الله المنزل، له دلالة رياضية، لأن الفكر الكوني يعتمد على الحساب والأرقام وعلم الرياضيات.

في العصر الحديث، عندما أدخل القرآن الكريم إلى جهاز (الكمبيوتر)، تبين أن

القرآن خاطب العقل الإنساني بمنطق الحياة والخلق والوجود، كما تبين أنه يحمل سرا في نظامه القائم على الرقم (19). وهكذا يلتقي الفكر الإنساني مع الفكر الكوني على منطق الرياضيات في القرآن الكريم، وهو كتاب الكون والحياة.

لقد قدم لنا العقل الإلكتروني (الكومبيوتر) الحقائق والمعلومات لكل باحث يؤمن بالعقل والعلم:

- عدد سور القرآن 114 سورة، أي 19 ضرب 6
- في سورة المدثر، تستمر الآيات قصيرة حتى الآية (30)، التي تقول (عليها تسعة عشر)، ثم تطول الآية (31) بشكل لافت للنظر، ثم تعود الآيات قصيرة.

إن الآية (31) في سورة المدثر، تتحدث عن الحكمة من تخصيص العدد (19) في الآية السابقة، وهذه الحكمة تقول﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾[1] الآية. وقد يسأل سائل: كيف يكون العدد (19) فتنة وبلاء ووسيلة إلى اليقين، وزيادة في الإيمان؟ وحفظا من الشك والارتياب، وداعيا إلى تقوّل أهل النفاق والكفار؟

لا شك أن المفسرين حاولوا أن يبينوا ذلك، ولكن هل جزموا بوجه يمنع من احتمال غيره؟ وهل جاءوا بوجه يطمئن القلب والعقل إليه؟ يقول سيد قطب في تفسيره الظلال: " ويقوم عليه حراس عدّتهم تسعة عشر، لا ندري أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الشداد، أم صفوف، أم أنواع من الملائكة ؟ إنما هو خبر من الله. ثم يقول: أما لماذا كانوا تسعة عشر – أيا كان مدلول هذا العدد – فهو أمر يعلمه الله، الذي ينسق الوجود كله، ويخلق كل شيء بقدر"[2].

---

(1): سورة المدثر ،آيه 31.

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث، بيروت، ط 7، 1971، صفحة 366-367

وقال النسفي في تفسيره: تسعة عشر، أي يلي أمرها تسعة عشر ملكا عند الجمهور، وقيل صنفا من الملائكة، وقيل صفا، وقيل نقيبا. وما جعلنا عدتهم تسعة عشر إلا فتنة، أي ابتلاء واختيارا للذين كفروا. حتى قال أبو جهل لما نزلت – وكان شديد البطش –: أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين. فنزلت وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، أي: وما جعلناهم رجالا من جنسكم يطاقون. وقالوا في تخصيص الخزنة بهذا العدد، مع أنه لا يطلب في الأعداد العلل: إن ستة منهم يقودون الكفرة إلى النار، وستة يسوقونهم، وستة يضربونهم بمقامع الحديد، والآخر: خازن جهنم وهومالك وهو الأكبر. وقيل: في سقر تسعة عشر دركا. وقد سلط على كل درك ملك. وقيل يعذب فيها بتسعة عشر لونا من العذاب، وعلى كل لون ملك موكل. وقيل إن جهنم تحفظ بما تحفظ به الأرض من الجبال، وهي تسعة عشر، وكان أصلها مائة وتسعين، إلا أن غيرها يشعب عنها، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب، لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين، فإذا سمعوا بمثلها في القرآن، أيقنوا أنه منزل من الله".

إن جنود الله متعددة الصور، والكيفيات، والهيئات، ولا يعلمها حق العلم إلا الله، وهو عز وجل يطلعنا على ما شاء منها، وذكر الجنود في هذا السياق، قد يقصد منه الإشعار أن نصر الله يأتي من حيث لا يعلم الناس، ومن حيث لا يحتسبون. وجنود الله كثيرة لا يعلمها إلا هو، ولكن ما الذي يمنع أن يكون الإعجاز العددي، من الجنود المجندة لنصرة الدين وإقامة الحجة؟

- أول (19) آية من سورة المدثر تتكون من (57) كلمة، أي 3 X19
- الآية (31) من سورة المدثر تتكون من (57) كلمة، أي 3 X 19
- جملة (وما يعلم جنود ربك الا هو) تتكون من (19) حرفا.
- عدد حروف البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) 19 حرفا.
- سورة العلق، هي أول ما نزل من القرآن، وتحتل الرقم 19 في تعداد السور.
- عدد كلمات أول ما نزل من القرآن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾ {العلق: ١ - ٢ } 19 كلمة على اعتبار أن (ما لم) كلمة واحدة،

وعدد حروف هذه الكلمات 76 = X19 4، وفق الرسم العثماني للقرآن الكريم، وعدد آيات هذه السورة 19، وعدد حروف سورة العلق بأكملها 285= 19 X 15. ثم إن ترتيبها في المصحف هو 19، قبل السورة الأخيرة (الناس).

- سورة النصر، تتكون من 19 كلمة، وأول آية فيها: إذا جاء نصر الله والفتح وتتكون من 19 حرفا.
- في سورة الفاتحة، التي تتألف من سبع آيات، إذا كتبنا أرقام الآيات المتسلسلة من اليمين إلى اليسار، يتكون لدينا رقم 7654321، وهو 19 X 402859
- إذا كتبنا عدد أحرف كل آية من سورة الفاتحة، متسلسلة من اليمين إلى اليسار، يتكون لدينا رقم، هو من مضاعفات العدد 19:
- الآيـــات: 12 345 67
- عـــدد الأحـــرف: 19 17 12 11 19 18 43، وهـــذا العـــدد = 19 X 2272732164301
- عدد البسملات في القرآن الكريم 114 بسملة، ويساوي 19 X 6. ولكي نصل إلى سورة النمل التي تحوي البسملة مرتين، نعد السور مبتدئين من سورة التوبة، ومنتهين إلى سورة النمل، نجد أن عدد السور بينهما هو 19 سورة.
- عدد الكلمات من أول سورة النمل، حتى بداية الآية 30 (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) هو: 342، أي 19 X 18
- ترتيب سورة التوبة في المصحف هو (9) ترتيب سورة النمل هو (27) وإذا جمعنا أرقام السور من التوبة إلى النمل، نجد أن المجموع (342)، أي 19 X 18، أي:
- 9+10+11+12+13+14+15+16+17+18+19+20+21+22+23+24+ 25+26+27 =342 أي 19 X 18
- الآية 10 من سورة النمل، تتكون من 19 كلمة، وهي التي تتحدث عن

معجزة سيدنا موسى (العصا).

- الآية 12 من سورة النمل، تتكون من 19 كلمة، وهي التي تتحدث عن معجزة أخرى لسيدنا موسى.
- الآية 40 من سورة النمل، تتكون من 38 كلمة، أي 19 ضرب 2، وهي تتحدث عن معجزة سليمان عليه السلام.
- الآية 64 من سورة النمل، مجموع كلماتها 19، وتتحدث عن عظمة الخالق، وإبداعه للكون، وعن الإعجاز في خلق الكون.
- مجموع كلمات الآيات 10+12+ 18+40+64 = 114 وهو عدد سور القرآن الكريم.
- آخر سورة في المصحف هي: الناس، وإذا قسمنا رقم السورة في المصحف على عدد آياتها يكون الناتج 19، أي 114 تقسيم 6 = 19.
- لفظ الجلالة(الله) تكرر 2698 مرة ويساوي 19 X 142، ولفظ الرحمن تكرر 57 مرة ويساوي 19 X 3، ولفظ رحيم تكرر 114 مرة، أي 19 X 6
- عدد حروف القرآن 329156 ويساوي 19 X 17324
- عدد الحروف المتقطعة في فواتح السور 19 حرفا بعد حذف الحروف المشتركة.
- الحرف ق يتكرر في سورة ق 57 مرة ويساوي 19 X 3.
- الحرف ق يتكرر في سورة الشورى 57 مرة، ويساوي 19 X 3.
- يتكرر حرف النون في سورة القلم 133 مرة = 19 X 7
- عدد الحرف ص في سور الأعراف ومريم وص هو 152 ويساوي 19 X 8.
- عدد الكلمات بين البسملتين في سورة النمل 342 ويساوي 19 X 18
- في سورة طه، عدد الحرف ط + هـ 342 = 19 X 18
- في سورة يس، عدد الحرف ي + س 285 = 19 X 15
- في سور الحواميم التي تبدأ بلفظ حم، (غافر وفصلت والشورى والزخرف

والدخان والجاثية والأحقاف) عدد الحرف ح + الحرف م = 8987 = 19 X 473

- في السور التي تبدأ بـ ألف، لام، ميم . (البقرة ،وآل عمران، والأعراف، والرعد، والعنكبوت، والروم، ولقمان ،والسجدة) عدد الحرف أ + عدد الحرف ل + عدد الحرف م 26676 = 19 X 1404
- في السور التي تبدأ بـ (الف لام راء (يونس ،وهود ،ويوسف، وإبراهيم،والحجر ،والرعد التي تبدأ بـ ألف لام راء : 9709 = 19 X 511
- عدد الحرف ط في السور (طه والشعراء والنمل والقصص) وحرف السين في السور (الشعراء والنمل والقصص وياسين والشورى) 494 = 19 X 26
- مجموع الحروف ألف لام ميم راء في سورة الرعد التي تفتتح بها 1501= 19 X 79.
- مجموع الحروف كهيعص في سورة مريم 798 =19 X 42.
- مجموع الحروف حم عسق في سورة الشورى 570 = 19 X 30.
- مجموع الحرف أ + ل في السور التي تبدأ به (البقرة، وآل عمران ،والأعراف ويونس ،وهود ،ويوسف، والرعد ،وإبراهيم، والحجر ،والعنكبوت ،والروم ،ولقمان ،والسجدة) 11780 = 19 X 620.
- مجموع الحرف م في السور التي تفتتح به (البقرة ،وآل عمران ،والأعراف، والرعد ،والشعراء ،والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، وغافر ،وفضلت، والشورى ،والزخرف، والدخان، والجاثية ، والأحقاف) 7683 = 19 X 457.
- وهناك مظهر إعجازي جديد من مظاهر إعجاز القرآن الكريم العددية، بل هذه عجيبة من عجائب القرآن الكريم التي لا تنقضي، وهي تنكشف واحدة بعد الأخرى، وجيلا بعد جيل، وكلها تصب في قناة واحدة، وتؤدي إلى هدف واحد فقط، هو إثبات إعجاز القرآن الكريم، وبالتالي التأكيد على أنه كتاب من عند الله سبحانه، وإنه محفوظ بحفظه ورعايته تعالى.

وقد ثبت من الدراسات:

- عدد الأعداد التي وردت في القرآن الكريم، صحيحة أو كسورا بدون تكرار هو: 38 عددا، وهذا الرقم من مضاعفات العدد 19.
- عدد المرات التي وردت فيها الأعداد الصحيحة مكررة في القرآن الكريم، من واحد إلى مائة ألف هو: 285 مرة، وهذا العدد من مضاعفات العدد 19.
- وردت كلمة سنين في القرآن الكريم 12 مرة، ووردت كلمة سنة مفردة 7 مرات، وعليه يكون المجموع 19.
- كلمات وردت في جزء عمّ، وحيدة المادة والصيغة في القرآن كله، والكلمات هي: أبّا، الأبتر، جمّا، جيدها، حصّل، دحاها، دساها، دافق، دمدم، دهاقا، رحيق، ران، الزبانية، زرابي، سطحت، مسغبة، لنسفعا، سمكها، تسنيم، الساهرة، سوط، سينين، شفتين، الصاخة، الصمد، الصيف، ضبحا، ضنين، طحاها، المطففين، الطامة، عسعس، أغطش، الفيل، قدحا، قريش، قضبا، كبد، انكدرت، كشطت، كفوا، كنود، الكنّس، ألهمها، مسد، مسك، النجدين، انحر، نخرة، النفاثات، نقعا، نمارق، الهزل، الموءودة، الوحوش، وقب، وهاجا[1].

هذه الكلمات 57 كلمة أي 19 X 3، وعدد أحرف هذه الكلمات وفق الرسم العثماني للقرآن الكريم هو 285 أي 19 X 15.

يقول تعالى في حق نوحعليه السلام: (فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما). وهذا يعني أن مدة ما لبثه نوح هي: 950 سنة، أي 19 X 50، واللافت للنظر أن سورة نوح تتألف من 953 حرفا، تكررت 2014 (19 X 106)، فهل هذا مجرد صدفة، أم أن هناك سرا؟

من المعلوم أن الحرف الذي تردد (3) مرات فقط في سورة نوح هو الحرف (ح)،

---

(1) لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، محمد أحمد نحلة، دار النهضة العربية، بيروت 1981م، صفحة 312.

واللافت للنظر أن السورة كلها لا يوجد فيها حرف (ح) إلا في المواقع التالية: إنا أرسلنا نوحا إلى قومه، وقال نوح، وقال نوح، ولكن ما الذي يمنع أن يكون العدد (3) هو ما يسميه أهل الرياضيات بـ (الدالة)؟

إن لفظ عام يوحي باختلاف عن مفهوم السنة في الآية، عن مفهوم العام، وعلى ضوء ذلك افترضت السنة هي الشمسية، وأن العام هو القمري.

قسم علماء الفلك السنة الشمسية والسنة القمرية إلى: مدارية ونجمية، وإذا قمنا بحساب الـ (1000) سنة الشمسية مداريا ونجميا، ثم أخذنا المعدل، وكذلك قمنا بحساب الـ (50) سنة قمرية مداريا ونجميا، ثم أخذنا المعدل، فسنجد الفرق بين المعدلين هو (953) وهو عدد أحرف سورة نوح.

في سورة الكهف، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾[1] بالغيب"، وإذا جمعنا الأعداد 3+4+5+6= 18، وهذا الرقم هو سورة الكهف في المصحف الشريف. ثم يقول تعالى: "ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم"، وإذا جمعنا هذه الأعداد نجدها: 7+8=15، وهذا رقم الجزء الذي تقع فيه سورة الكهف.

وإذا جمعنا جميع الأعداد التي وردت في قصة الكهف.

3+4+5+6+7+8+309=342، أي 19 X 18.

وإذا أحصينا عدد الكلمات من بداية قصة أهل الكهف: أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم، إلى نهاية: ولبثوا في كهفهم، لوجدنا أن الكلمة التي تأتي بعد هذه العبارة مباشرة هي الكلمة: ثلاثمائه سنين وازدادوا تسعا، أي رقم 309، وهو عدد السنوات التي نص عليها القرآن الكريم.

(1): سورة الكهف :آية22.

الفصل الثاني

جمع القرآن الكريم وكتابته

لجمع القرآن معنيان وردت النصوص بكليهما، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [1]، ورد الجمع بمعنى الحفظ، ومنه جُماع القرآن أي حفاظه. والمعنى الثاني لجمع القرآن هو كتابته كله مفرق الآيات والسور. أو مرتب الآيات فقط، وكل سورة في صحيفة واحدة، أو مرتب الآيات والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعا، وقد رتبت إحداهما بعد الأخرى.

أما جمع القرآن بمعنى حفظه واستظهاره في لوح القلب، فقد أوتيه رسول الله ﷺ قبل الجميع، فكان سيد الحفاظ وأول الجمّاع، وتيسر ذلك لنخبة من صحابته على عهده. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبيّ بن كعب".

وعن قتادة قال: "سألت أنس بن مالك من جمع القران على عهد رسول الله، فقال: "أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. فقلت: ومن أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي".

ومن طريق ثابت عن أنس قال: "مات النبي ﷺ، ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد".

يفهم من هذه الأحاديث، أن عدد الحفاظ للقرآن في عهد الرسول ﷺ سبعة وهم: عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذ يفة، ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء.

أما السيوطي، فقد عدّ القرّاء من المهاجرين: الخلفاء الأربعة، وطلحة، وسعدا، وابن مسعود، وحذيفة، وسالما، وأبا هريرة، وعبد الله بن السائب، والعبادلة المشهورون

---

(1) سورة القيامة، آية 17.

بالإفتاء وهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة. ومن الأنصار: عبادة بن الصامت، ومعاذ بن جبل الذي يكنى أبا حليمة، ومجمع بن جارية، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد.

أما الذين عدهم القاسم بن سلام من المهاجرين والأنصار، وأمهات المؤمنين، ليسوا إلا طائفة من الأصحاب، الذين جمعوا كتاب الله في صدورهم، وتيسر لهم أن يعرضوه على النبي ﷺ، وهم الذين اتصلت بنا أسانيدهم. وأما من جمعه منهم، ولم يتصل بنا سندهم فهم كثير[1].

ولشغف الصحابة بالقرآن، فقد كانوا يتدارسونه ويستظهرونه، ليتمكنوا من قراءته في الصلوات المكتوبة وفي النوافل، وكان الرسول ﷺ يساعدهم على التدارس، ويرغبهم فيه ويشجعهم عليه، بل كان ﷺ يختار أعلمهم بكتاب الله، ليفقه إخوانه.

اشتهر بإقراء القرآن الكريم من الصحابة سبعة: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري.

يؤكد أبو الخير شمس الدين محمد الشهير بابن الجزري، على أن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف والكتب، هو أشرف خصيصة من الله لهذه الأمة [2]. اي أن القرآن يقرأ عن ظهر قلب، فلا يحتاج جامعه إلى النظر في صحيفة كتبت بالمداد الذي ينطمس ويزول.

أما جمع القران بمعنى كتابته، فقد اتخذ ثلاثة أشكال، في ثلاثة عهود في الصدر الأول، أولها: عهد النبي ﷺ، وثانيها عهد أبي بكر الصديق، وثالثها عهد عثمان بن عفان.

---

(1) تذكرة الحفاظ، 2/ 5، وتهذيب التهذيب، 7/ 315.

(2) الأعلام، 3/ 978.

جمع القرآن كتابة في عهد الرسول ﷺ

مع أن في أقوال رسول الله ﷺ أحاديث توقيفية، تلقى من الوحي مضمونها، جرد الكتبة بأمره ﷺ كتاب الله منها، مهما تبدو شديدة الصلة بالآيات التي تفسرها، لأن النبي صاغها بأسلوبه وبينها بلفظه، وما كان لأسلوبه ولا لأسلوب أحد أن يختلط بأسلوب القرآن المعجز المبين.

حتى الأحاديث القدسية، رغم اعتراف العلماء بأن معناها لله، ومنزلة من عند الله، فقد نحيت وفصلت عن القرآن، لما لوحظ من حرص النبي على عدم خلطها بكتاب الله، بما كان يستهل به مطالعها من عبارات نبوية، يشعر بها سامعيه أنه يصوغ بأسلوبه البشري معنى أنزله الله تعالى، وشتان بين أسلوب محمد ﷺ، ولو كان أفصح البشر، وأسلوب منزل القرآن صاحب القوى والقدر.

اتخذ النبي ﷺ كتّابا للوحي، وكان يأمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن، حتى تظاهر الكتابة جمع القران في الصدور. وقد أخرج الحاكم في المستدرك بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت أنه قال: "كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع".

إن كلمة الرقاع هي جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد، أو أي نوع من أدوات الكتابة المتيسرة لكتاب الوحي في عهد رسول الله ﷺ، فكانوا يكتبون الآيات في اللخاف (جمع لخفة وهي الحجارة الرقاق أو صفائح الحجارة) والعسب (جمع عسيب وهو جريد النخل، والأكتاف (جمع كتف وهو عظم البعير أو الشاة بعد أن يجف)، والأقتاب جمع قتب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه)، وقطع الأديم (الجلد). وكان كل ما يكتب من القرآن، يوضع في بيت رسول الله ﷺ.

أما معنى جمع القرآن من الرقاع فهو: ترتيب السور والآيات وفق إشارة النبي ﷺ وتوقيفه من الله سبحانه. فأما الآيات في كل سورة، ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه. ولهذا لا يجوز تعكيسها(1). وهذا يعني أن ترتيب الآيات توقيفي، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبا سمعوا النبي ﷺ يقرأ على خلافه، فبلغ

---

(1) البرهان، 1/ 256، والإتقان 1/ 4.

ذلك مبلغ التواتر.

أما ترتيب السور فتوقيفي أيضا، وقد علم في حياته ﷺ، وهو يشمل السور القرآنية جميعا، ولا نملك دليلا على العكس، فلا مسوغ للرأي القائل إن ترتيب السور اجتهادي من الصحابة، ولا للرأي الآخر الذي يفصل: فمن السور ما كان ترتيبه اجتهاديا، ومنه ما كان توقيفيا، ولا مجال فيه للاجتهاد.

لم يجد رسول الله ﷺ رغم هذا التوقيف، ما يحمله على جمع آيات كل سورة في صحائف عدة، ولا جمع القرآن كله بين دفتي مصحف واحد، لأن القراء ومستظهري القرآن كانوا كثيرين، وكان ﷺ يترقب نزول توالي الوحي عليه، وإمكان نزول ناسخ لبعض أحكامه. فالقرآن كتب في عهد رسول الله ﷺ غير مجموع في مصحف واحد، لئلا يفضي إلى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزوله بانتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

جمع القران في عهد أبي بكر الصديق

كان القران قد كتب في عهد رسول الله ﷺ، مفرق الآيات والسور، وكان أبو بكر هو أول من جمع الآيات والسور مرتبة في صحف، كما رويت محفوظة عن الرسول ﷺ. قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي: "إن كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأقتاب والعسب، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعة، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ، فيها القرآن منتشرا، فجمعها جامع وربطها بخيط، حتى لا يضيع منها شيء"[1].

كان جمع أبي بكر الصديق للقرآن بعد موقعة اليمامة، التي وقعت بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب، سنة اثنتي عشرة للهجرة، حيث استشهد من المسلمين سبعون من حفاظ القرآن من الصحابة، فهال ذلك عمر بن الخطاب، فجاء يقترح على أبي بكر جمع القران. وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه: أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده.

(1) الأعلام، الزركلي، 3/ 153.

قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر (اشتد) يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإنني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى أبو بكر وعمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قال زيد: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة، مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره.

إن رسم القرآن الكريم سنة متبعة باتفاق الأئمة الأربعة، بل بإجماع سائر المجتهدين، فقد ثبت بما تقدم الإشارة إليه من نصوص الأئمة أنه توقيفي، كتابا، وسنة، وإجماعا. وما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن، ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبي ﷺ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة، لأسرار خص الله بها كتابه العزيز، دون سائر الكتب السماوية. ولهذا يأتي الإعجاز العددي اليوم، ليرجح أقوال من قال: إن رسم القرآن توقيفي بأمر الرسول ﷺ وإقراره.

حين بدأ تدوين القرآن

كتابة :كان لا يكتب منه آية، إلا إذا كانت مكتوبة على جذع النخل أو الجلود، أو أي وسيلة أخرى من وسائل الكتابة في عصر نزول القرآن. وزيادة على أن الآية تكون مكتوبة، كان لا بد أن يكون هناك اثنان على الأقل من الصحابة الحافظين لها، إلا آية واحدة لم توجد مكتوبة بين يدي رسول الله ﷺ، إلا عند حافظ واحد فقط، وكان القياس يقتضي ألا تكتب وهي قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [1].

(1) سورة الأحزاب، آية 23.

ولكن انظر إلى الخواطر الإيمانية، يقذفها الله سبحانه في قلوب المؤمنين ليكمل منهجه. هذه الآية لم يوجد من يحفظها إلا الصحابي خزيمة بن ثابت رضي الله عنه، وعندما ثار الجدل حول تدوينها، ذكروا قول رسول الله ﷺ : " من شهد له خزيمة فحسبه"[1].

عن زيد بن ثابت قال: لما نسخنا المصحف، فقدنا آية من سورة الأحزاب، كنت أسمع من رسول الله ﷺ يقرأها، لم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ كان رسول الله ﷺ قد ابتاع فرسا من أعرابي، فاستتبعه ﷺ ليعطيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي ليساوموه ثمن الفرس، دون أن يعرفوا أنه ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابي رسول الله ﷺ فقال: "إن كنت مبتاعا هذا الفرس، وإلا بعته". فقال النبي ﷺ: "أو ليس ابتعته منك؟" فقال الأعرابي: ما بعتكه. فقال النبي ﷺ : "بل قد ابتعته منك". فقال الأعرابي: "هلم شهيدا". فقال خزيمة: "أشهد أنك بعته".

وبعد أن انصرف الناس، أقبل النبي ﷺ على خزيمة، فقال: "بم شهدت ولم تكن موجودا وقت المبايعة بيني وبين الأعرابي؟" قال خزيمة: "بتصديقك يا رسول الله". فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين، فأخذت شهادته بشهادة رجلين، وتم تدوين الآية". ولهذا لقب خزيمة بن ثابت بذي الشهادتين، لأن رسول الله ﷺ أجاز شهادته بشهادتين [2].

تم لأبي بكر جمع القران كله خلال سنة واحدة تقريبا، ولهذا قال علي بن أبي طالب: "رحم الله أبا بكر، هو أول من جمع كتاب الله بين اللوحين". أما عمر بن الخطاب، فقد سجل له التاريخ أنه صاحب الفكرة، كما سجل لزيد بن ثابت، أنه وضعها موضع التنفيذ.

---

(1) رواه البخاري وأحمد والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح.

(2) سير أعلام النبلاء، ج2، صفحة 486، وإسناده صحيح.

كانت الصحف عند أبي بكر الصديق حتى توفاه الله، ثم كانت عند عمر ابن الخطاب في حياته، ثم كانت عند حفصة بنت عمر[1].

وإن سأل سائل: لماذا أودعت الصحف عند حفصة، ألم يكن عثمان أجدر أن تودع هذه الصحف عنده؟ فالجواب: إن عمر أوصى أن تكون الصحف عند حفصة مودعة لديها، لأنها زوجة الرسول ﷺ، فضلا على حفظها القرآن كله في صدرها، وتمكنها من القراءة والكتابة، وكان عمر قد جعل أمر الخلافة شورى من بعده، فكيف يسلم إلى عثمان قبل أن يفكر أحد في اختياره للخلافة؟

يبدو أن تسمية القرآن بالمصحف نشأت على عهد أبي بكر، فقد أخرج أبو بكر محمد بن عبد الله بن أشتة في كتابه المحبّر، من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: لما جمعوا القرآن، فكتبوه على الورق، قال أبو بكر: التمسوا له اسما. فقال بعضهم: السفر. قال: ذلك اسم تسميه اليهود. فكرهوا ذلك. وقال بعضهم المصحف، فإن الحبشة يسمون مثله المصحف، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف [2].

ظفر مصحف أبي بكر بإجماع الأمة عليه، وتواتر ما فيه، وأكثر العلماء على أن طريقة كتابته اشتملت على الأحرف السبعة التي أنزل بها القرآن فشابه في هذه المناحي الأخيرة جمع القرآن الأول على عهد الرسول الآمين.

جمع القرآن في عهد عثمان

روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن شهاب، أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى". فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك. فأرسلت به حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت الأنصاري، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص،

---

(1) صحيح البخاري كتاب فضائل القران باب 3 و4، ومسند احمد 1/ 13.

(2) الإتقان، 1/ 89.

وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهم مكيون قرشيون. فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم. ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف بكل حرص ودقة، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

من هذا النص نتبين خمسة أمور على جانب عظيم من الأهمية:

- إن اختلاف المسلمين في قراءة القران كان الباعث الأساسي على أمر عثمان باستنساخ صحف حفصة، وجمعها في مصاحف.
- إن اللجنة التي كلفت بهذا العمل كانت رباعية.
- اتخذت اللجنة صحف حفصة أساسا لنسخ المصاحف، استنادا إلى أصل أبي بكر الصديق.
- إن القرآن نزل بلغة قريش، فهي اللغة المفضلة لكتابة النص القرآني عند حدوث الخلاف بين القرشيين الثلاثة وزيد.
- إن عثمان أرسل إلى الآفاق الإسلامية بمصحف مما نسخه هؤلاء الأربعة، ورأى – حسما للنزاع – أن يحرق ما عدا ذلك من الصحف والمصاحف الخاصة.

وقع عمل عثمان من قلوب الناس موقع القبول والاستحسان، إلا عبد الله بن مسعود الذي كان له مصحف خاص به، وأبى أن يحرق مصحفه، ثم ألهمه الله أن يرجع إلى رأي عثمان، الذي كان في الحقيقة رأي الأمة كلها.

شرعت اللجنة الرباعية في تنفيذ قرار عثمان، سنة خمس وعشرين للهجرة، وإنما أمرهم عثمان أن ينسخوا من صحف حفصة، مع أنهم كانوا جمّاعا لكتاب الله في صدورهم، لتكون مصاحفه مستندة إلى أصل أبي بكر، المستند بدوره إلى أصل النبي ﷺ المكتوب بين يديه بأمره، وتوقيف من الله، فسدت بذلك كل ذريعة للتقوّل والتشكيك.

أما الصحف التي ردت إلى حفصة، فظلت عندها حتى توفيت، وقد حاول مروان بن الحكم أن يأخذها منها ليحرقها فأبت، حتى إذا توفيت أخذ مروان الصحف فأحرقها،

وقال مدافعا عن وجهة نظره: "إنما فعلت هذا، لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف الإمام، فخشيت إن طال بالناس زمان، أن يرتاب في شأن هذه المصاحف مرتاب"[1].

اختلف في عدة المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الآفاق، فقال أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني في كتابه المقنع: "أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف، جعلها على أربع نسخ، وبعث إلى كل ناحية واحدا: الكوفة والبصرة والشام، وترك واحدا عنده"[2]. وقيل: إنه جعله سبع نسخ، وزاد إلى مكة وإلى اليمن وإلى البحرين.

أما السيوطي، فيرى أن المشهور أنها خمسة. وإذا أضفنا إليها المصحف الإمام الذي حبسه لنفسه بالمدينة أصبحت ستة. ويقول الدكتور صبحي الصالح: إننا نميل إلى الرأي القائل: إن اللجنة استنسخت سبع مصاحف، فأرسل عثمان بستة منها إلى الآفاق، واحتفظ لنفسه بواحد منها.

وأيا ما تكون عدة تلك المصاحف على وجه اليقين، فإنها جميعا تماثلت في اشتمالها على القرآن كله. مائة وأربعة عشرة سورة خالية من النقط والشكل، ومن أسماء السور والفواصل، اقتداء بأبي بكر. كما جردت المصاحف العثمانية مما ليس بقرآن من الشروح والتفاسير، كما جردت كل الزيادات التي لم تتوافر قرآنيتها، وإنما كانت من قبيل التفسير، أو تفصيل المجمل، أو إثبات المحذوف، وأهملت منه جميع الروايات الآحادية، وأصبحت سورها وآياتها مرتبة على النحو الذي نجده في مصاحفنا اليوم.

السور المكية والسور المدنية

إن العلم المكي والمدني لا غنى عنه عن تناول القرآن كله سورا وآيات، فكل سورة فيه إما مكية أو مدنية، وقد تستثنى من المكية آيات مدنية، ومن السورة المدنية آيات مكية، كما أن كل آية في القرآن معروفة الهوية، واضحة السيرة، فإذا اختلطت بغير زمرتها، أخضعها العلماء الثقات لمقاييسهم النقدية الدقيقة، حتى قطعوا أو كادوا يقطعون بأنها تنتمي إلى النوازل المكية أو المدينة.

---

(1) البرهان، 1/ 239.

(2) إنباه الرواة 2/ 341-342.

إن العلم بالمكي والمدني خليق بالعناية الفائقة، وجدير بأن يعد بحق منطلَق العلماء لاستيفاء البحث في مراحل الدعوة الإسلامية، والتعرف على خطواتها الحكيمة المتدرجة مع الأحداث والظروف، والتطلع إلى مدى تجاوبها مع البيئة العربية في مكة والمدينة، وفي البادية والحاضرة، والوقوف على أساليبها المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين وأهل الكتاب.

إن العلم بالمكي والمدني – جعله في آن واحد – ترتيب زمني، وتحديد مكاني، وتبويب موضوعي، وتعيين شخصي. ويخيل لنا أن هذه الألوان المتباينة جميعا قد طافت بأذهان العلماء حين ترددوا في تقسيم المكي والمدني، على أساس من الزمان أو المكان أو الأشخاص، فمن قال: المكي ما نزل بمكة، ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة، حيث لاحظ المكان، ومن قال: المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة، حيث راعى أشخاص المخاطبين، ومن آثر الأخذ بالاصطلاح المشهور: المكي ما نزل قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، وإن كان نزوله بمكة، عني بالترتيب الزمني.

ونحن إذ نأخذ بهذا التعريف الأخير، لا نكتم القارئ ما نلمحه من تحقق عناصر الزمان والمكان والأشخاص، في الاصطلاحات الثلاثة على السواء، بل نلمح فيها أيضا عنصرا رابعا لا يخفى على ذي بصر، وهو عنصر الموضوع.

أما بالنسبة إلى تقسيم سور القرآن الكريم إلى سور مكية وسور مدنية، فقد نظر بعض العلماء إلى هذا التقسيم باعتبار الزمان.

فالمكي من القرآن الكريم: هو ما كان نزوله قبل الهجرة، وإن كان نزوله خارج مكة. وكانت السور المكية تمثل عمق النبوة وعنفها، وتمتاز آياتها بالتركيز الشديد والعمق، كما تمتاز بقوة الإيمان بهذه العقيدة الجديدة.

فمن خصائص السور المكية القطعية، تبعا لهذا الضابط:

- إن كل سورة فيها سجدة فهي مكية.
- إن كل سورة فيها لفظ كلا، فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن.

- كل سورة فيها: ﴿ يا أيها النـاس.. ﴾، فهـي مكيـة، إلا سـورة الحـج ففـي أواخرها يا أيها الذين آمنوا، مع أن كثيرا من العلماء يرون أنها مكية.
- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة، فهي مكية سوى البقرة.
- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس، فهي مكية، سوى البقرة.
- كـل سـورة تفتـتح بحـروف التهجـي، مثـل: ألم، وألـر، فهـي مكيـة سـوى الزهراوين، وهمـا البقـرة وآل عمـران، فهمـا مـدنيتان. وفي سـورة الرعـد خلاف، فبعضهم يرى أنها مدنية لا مكية.

ومن الأمارات الغالبة على السور المكية:

1. قصر السور والآيات، وإيجازها وحرارة تعبيرها وتجانسها الصوتي.
2. الدعوة إلى أصول الأيمان بالله، واليوم الآخر، وتصوير الجنة والنار.
3. الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة والاستقامة على الخير.
4. مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.
5. كثرة القسم جريا على أساليب العرب.

وبلغ عدد السـور المكية (86) سورة، وعدد آياتها (4547) آية.

أما السور المدنية فمن خصائصها القطعية:

- إن كل سورة فيها إذن بالجهاد، أو ذكر له وبيان لأحكامه فهي مدنية.
- إن كل سورة فيها تفاصيل لأحكام الحدود والفـرائض والحقـوق والقـوانين المدنية والاجتماعية والدولية فهي مدنية.
- إن كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية، ما عدا العنكبوت فإنها مكية، إلا أن الآيات الإحدى عشرة الأولى منها مدنية وذكر فيها المنافقون.
- مجادلة أهل الكتاب، ودعوتهم إلى عدم الغلو في دينهم.
- ومن الأمارات الغالبة التي يرجح امتياز القسم المدني منها:
- طول أكثر سوره وبعض آياته وإطنابها وأسلوبها التشريعي الهادئ.
- تفصيل البراهين والأدلة على الحقائق الدينية.

أما المدني من القرآن الكريم: فهو ما كان نزوله بعد الهجرة، وإن كان نزوله داخل

مكة. وكانت السور المدنية وآياتها في مجملها طـوالاً، جاء توجيه الخطاب فيهـا إلى: ﴿يـا أيها الذين آمنـوا.. ﴾، وتـشتمل علـى التـشريع التفـصيلي في العبـادات، والمعـاملات، والأحوال الشـخصية، والحثّ على الآداب الاجتماعية، والفضائل الإنسانية الـتي ترقـى بالمجتمع. كما تشتمل على قصص حوادث الغزوات، كمـا تتحـدث عـن صـلة الإنـسان بأخيه الإنسان، ووجوب معاملته بالحسنى. كما تتحدث عن تحقيق التنبؤات... وبلغ عدد السور المدنية (28) سورة، وعدد آياتها (1689) آية.

وعلى هـذا يكـون عدد سـور القرآن الكريم (114) سـورة، وعدد آياتها(6236) آية، وعدد حروفه: (329156) حرفا.

تنجيم القرآن الكريم

لقد شاءت الحكمة الإلهية أن يظل الوحي متجاوبا مع الرسول ﷺ، يعلمه كل يوم شيئا جديدا، ويرشده ويهديه، ويثبته ويزيـده اطمئنانـا، ومتجاوبـا مـع الـصحابة يـربيهم ويصلح عاداتهم، ويجيب عن وقائعهم ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته، فكان مظهر هذا التجاوب، نزول القرآن منجما بحسب الحاجة: خمس آيات، وعـشر آيـات وأكثـر وأقـل، لتيسير حفظه على المؤمنين. أخرج البيهقي عن خالد بن دينار قال: قال لنا أبـو العاليـة: " تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن النبي ﷺ كان يأخذه من جبريل خمسا خمسا ".

وقد صح نزول عشر آيات في قصة الإفك جملة، وصح نزول عشر آيات مـن أول سورة المؤمنين جملة، وصح نزول آية واحدة هي: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [1].

وعلى هذا المنوال ظل القران يتنزل نجوما ليقرأه النبي على مكث ويقرأه الـصحابة شيئا بعد شيء، يتدرج مع الأحداث والوقائع، والمناسـبات الفرديـة والاجتماعيـة، الـتي تعاقبت في حياة الرسول خلال ثلاثة وعشرين عاما.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: " ليلة القدر هي الليلة المباركـة وهـي في

---

(1) سورة النساء، آية 95.

رمضان، أنزله الله تعالى جملة واحدة من اللوح المحفوظ، إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلا حسب الوقائع، في مدة ثلاث وعشرين سنة.

يقول الدكتور صبحي الصالح في كتابه مباحث في علوم القرآن: " ولسنا نميل إلى الرأي القائل: إن للقرآن تنزلات ثلاثة، الأول إلى اللوح المحفوظ، والثاني إلى بيت العزة في السماء الدنيا، والثالثة منجما بحسب الحوادث، وإن كانت أسانيد هذه الرأي كلها صحيحة، لأن هذه التنزلات المذكورة من عالم الغيب الذي لا يؤخذ فيه إلا بما تواتر يقينا في الكتاب والسنة، فصحة الأسانيد في هذا القول لا تكفي وحدها لوجوب اعتقاده، فكيف وقد نطق القرآن بخلافه؟ إن كتاب الله لم يصرح إلا بتفريق الوحي وتنجيمه، ومنه يفهم بوضوح أن هذا التدرج كان مثار اعتراض المشركين الذين ألفوا أن تلقى القصيدة جملة واحدة، وسمع بعضهم من اليهود أن التوراة نزلت جملة واحدة، فأخذوا يتساءلون عن نزول القرآن نجوما، وودوا لو ينزل كله جملة واحدة[1].

إن القائلين بتزيلات القرآن الثلاثة لا يفوتهم – بعد بيان حكمة هذا التعدد في أماكن النزول – أن يشيروا إلى أسرار تنزله الثالث الأخير منجما بحسب الوقائع، وهذه الأسرار قد بلغت من الوضوح حدا لا تخفى معه على أحد. ولولا أن الحكمة الإلهية – كما يقولون – اقتضت وصوله إليهم منجما بحسب الوقائع، لأهبطه إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها فجعل له الأمرين: لإنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقا، تشريفا للمنزل عليه "[2].

إن لتجاوب الوحي مع رسول الله ﷺ صورتين: إحدهما تثبيت فؤاده، بما يتجدد نزوله من القرآن بعد كل حادثة، والثانية تيسير حفظ القرآن عليه.

لقد راع القرآن خيال العرب وأخذ أسماعهم بما فيه من أنباء الرسل مع أقوامهم، تتكرر بصور مختلفة، وأساليب متنوعة، فتزداد حلاوة كلما تكررت، ولا غرض لها في أكثر المواطن إلا تثبيت قلب الرسول ﷺ وقلوب المؤمنين. ونطق القران الكريم بذلك

---

(1) مباحث في علوم القرآن، صفحة 51.

(2) الإتقان 1/ 69-70.

فقال: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [1].

هكذا ما انفك القران يتجدد نزوله مهونا على الرسول الشدائد، مسليا له مرة بعد مرة، محببا إليه التأسي بمن قبله من الرسل، يأمره تارة بالصبر أمرا صريحا، فيقول:

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [2]. ويقول فاصبر

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [3]. وينهاه تارة أخرى عن الحزن نهيا صريحا: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [4]. ويقول: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ [5].

إن تكرار نزول هذه الآيات المسلية والمعزية والمرشدة على الصبر الجميل والأسوة الحسنة هو الحكمة المقصودة من إيراد أنباء الرسل وقص قصصهم.

أما الصورة الثانية لتجاوب الوحي مع الرسول ﷺ هي تيسير حفظ القرآن عليه، لأنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وقد أراد محمد بن الحسن بن فورك أن يزيد هذا الأمر تفصيلا وبيانا فقال: قيل: أنزلت التوراة جملة، لأنها نزلت على نبي يقرأ ويكتب، وأنزل القرآن مفرقا، لأنه أنزل غير مكتوب على نبي أمي[6].

الحزب من القرآن الكريم

وعن اسم الحزب في القرآن الكريم، عن أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ، في وفد ثقيف، فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له. قال مسدد وكان في الوفد الذي قدموا على رسول الله

(1) سورة هود، آية 120.
(2) سورة المزمل، آية 10.
(3) سورة الأحقاف، آية 35.
(4) سورة يس، آية 75.
(5) سورة الأنعام، آية 33.
(6) الإتقان 1/ 71.

ﷺ من ثقيف، وكان رسول الله ﷺ يأتينا بعد العشاء، يحدثنا قائما على رجليه، حتى يتراوح بين رجليه من طول القيام. فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ، عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة. قال رسول الله ﷺ: "إنه طرأ على حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه".

قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن، فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصّل وحده. رواه أحمد وابن ماجه. وبيان ذلك:

الحزب الأول: وهو ثلاث سور: البقرة، وآل عمران، والنساء.

الحزب الثاني: وهو خمس سور: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة.

الحزب الثالث: وهو سبع سور: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل.

الحزب الرابع: وهو تسع سور: الإسراء، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان.

الحزب الخامس: وهو إحدى عشرة سورة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس.

الحزب السادس: وهو ثلاث عشرة سورة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، ومحمد، والفتح والحجرات.

الحزب السابع: وهو حزب المفصّل: ويبدأ من أول سورة ق إلى نهاية القرآن الكريم، وعدد سوره ست وستون سورة.

الأحرف السبعة

صرح رسول الله ﷺ بنزول القرآن على سبعة أحرف، حسب ما جاء في الأحاديث الصحيحة المروية من طرق مختلفة. ومن أوضح هذه الأحاديث ما رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري، أن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان

في حياة الرسول ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلم، ثم لببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. قلت له: كذبت، فو الله إن رسول الله أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها. فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان، على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان. فقال رسول الله ﷺ: أرسله يا عمر. اقرأ يا هشام. فقرأ.

قال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت". ثم قال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه".

وكان عبد الله بن أبي ليلى قد أنكر على عبد الله بن مسعود قراءة شيء من القرآن، على خلاف ما أقرّه رسول الله ﷺ، فرفعه إلى النبي ﷺ، فاستقرأهما وقال لكل منهما: أصبت. قال أبي بن كعب: فأخذني من الشك، ولا إذ كنت في الجاهلية، فضرب رسول الله ﷺ على صدري. قال أبي: ففضت عرقا، وكأني أنظر إلى الله فرقا. ثم أخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك على سبعة أحرف".

إن حديث نزول القرآن على سبعة أحرف مروي عن جمع كبير من الصحابة يتعذر إحصاؤه، حتى حمل بعض الأئمة على تواتر الحديث، وفي طليعة هؤلاء: أبو عبيد القاسم بن سلام.

يميل الجمهور إلى أن المصاحف العثمانية، اشتملت على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة، ولهذا اختار القاضي أبو بكر الباقلاني هذا الرأي وقال: " الصحيح، إن هذه الأحرف السبعة ظهرت واستفاضت عن رسول الله ﷺ، وضبطها عنه الأئمة، وأثبتها عثمان والصحابة في المصحف، وأخبروا بصحتها، وإنما حذفوا ما لم يثبت متواترا "[1].

إن عبارة الأحرف، وهي جمع حرف، الواردة في الحديث، تقع على معان مختلفة، فقد تكون بمعنى القراءة كقول ابن الجزري: "كانت الشام تقرأ بحرف ابن عامر"[2]. وقد

---

(1) البرهان، 1/ 224.

(2) ابن الجزري، طبقات القراء، 1/ 292.

تفيد المعنى والجهة، كما يقول أبو جعفر محمد بن سعدان النحوي (ت 231هـ) [1].
ولكن القول بأن المراد بها القراءات – كما حكي عن الخليل بن أحمد – هو أضعف الأقوال بلا ريب [2]. ولا سيما إذا توهم القائل: أنها ما يسمى بالقراءات السبع.

إن اختلاف العلماء في تحديد المراد من الأحرف المذكورة في الحديث، قد أثار عددا من الأقوال المتضاربة في حقيقة الذي أنزل، فرأى فيه بعضهم خمسة وثلاثين وجها، وبلغ بها آخرون أربعين وجها، وأكثرها لا يؤيده نقل صحيح ولا منطق سليم. ومنشأ الخطأ فيها: إرادة التعيين على سبيل القطع والجزم، مع أنه لم يأت في معناها نص ولا أثر.

إن لفظ السبعة لا يراد به الكثرة بل الحصر، كما فهمه أكثر العلماء، أما في قول من جنح إلى أن الأحرف السبعة هي القراءات، فيكاد يقارب هذا القول في الضعف رأي الذين حصروا هذه الأحرف في بعض اللهجات أو اللغات، مع ما بين المفهومين من تغاير دقيق.

أما اللهجات، فليست عند بعض العلماء من الاختلاف الذي يتنوع في اللفظ والمعنى، لأن الإظهار والإدغام، والروم والإشمام، والتخفيف والتسهيل، والنقل والإبدال صفات متنوعة في أداء اللفظ الواحد. وتنوعها لا يخرجه عن أن يكون لفظا واحدا. ولكننا لا نضعف هذا القول بهذا السبب، فإن تنوع صفات الأداء في اللفظ الواحد، يوشك أن يجعله أكثر من لفظ، وإنما نضعفه بسبب الاقتصار عليه، إذ حفظت لنا أوجه أخرى من الاختلاف، ليست من اللهجات في شيء.

روى الترمذي عن أبيّ بن كعب، أن رسول الله ﷺ لقي جبريل فقال: "يا جبريل، إني بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابا قط". فقال: "يا محمد، إن القرآن نزل على سبعة أحرف". حديث حسن صحيح.

لقد صح عن النبي ﷺ أنه وسع على المسلمين في أول الأمر، وراعى التخفيف

---

(1) بغية الوعاة، صفحة 45.

(2) الإتقان، 1/ 78.

على العجوز والشيخ الكبير، وأذن لكل منهم أن يقرأ على حرفه، أي على طريقته في اللغة، لما يجده من المشقة في النطق بغير لغته.

قال ابن الجزري: وأما سبب وروده على سبعة أحرف، فللتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها شرفا لها، وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق".

وعلى هذا، فإن المراد بالأحرف السبعة – والله أعلم – الأوجه السبعة التي وسع بها على الأمة، فبأي وجه قرأ القارئ منها أصاب. ولقد كان رسول الله ﷺ يصرح بهذا كل التصريح، حين قال: "أقرأني جبريل على حرف، فراجعته فلم أزل أستعيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[1].

إن اللفظ القرآني الواحد، مهما يتعدد أداؤه، وتتنوع قراءته، لا يخرج التغاير فيه عن الوجوه السبعة التالية:

- الاختلاف في وجوه الإعراب، سواء أتغير المعنى أم لم يتغير.
- الاختلاف في الحروف، إما بتغير المعنى دون الصورة، وهو ما يعبر عنه أحيانا بالاختلاف في النقط، مثل: يعلمون وتعلمون. وإما بتغير الصورة دون المعنى، مثل: الصراط والسراط، والمصيطرون والمسيطرون.
- اختلاف الأسماء في إفرادها وتثنيتها وجمعها، وتذكيرها وتأنيثها. مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾[2]، فقد قرئ لأماناتهم بالإفراد. ومن الواضح أنها رسمت في المصاحف العثمانية لأمنتهم، لخلوها من الألف الساكنة. ومؤدى الوجهين واحد، لأن في الإفراد قصدا للجنس وفي الجنس معنى للكثرة، ولأن في الجمع استغراقا للإفراد، وفي الاستغراق معنى الجنسية. فمراعاة الأمانة، كرعاية الأمانات تشمل الكل والجزئيات.
- الاختلاف بإبدال كلمة بكلمة، يغلب أن تكون إحداهما مرادفة للأخرى،

---

(1) صحيح البخاري، 6/ 185.

(2) سورة المؤمنون، آية 8.

وإنما تتفاوتان بجريان اللسان بإحداهما لدى قبيلة دون أخرى. كقوله تعالى: "كالعهن المنفوش"، فقد قرئ: كالصوف المنفوش. أو يكون بين الكلمتين المبدلتين تقارب في المخارج، يسمح بالتناوب بينهما، ويكاد يُشعر بتصاقبهما معنى لتصاقبهما لفظا، كقوله: "طلح منضود"، فقد قرئ: طلع. ويلاحظ أن مخرج العين والحاء واحد هو الحلق، فهما أختان تتعاقبان.

- الاختلاف في التقديم والتأخير، فيما يعرف وجه تقديمه، أو تأخيره في لسان العرب العام، أو في نسق التعبير الخاص، كقوله تعالى في شأن المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون. قرئ: فيُقتلون ويَقتلون.
- الاختلاف بشيء يسير من الزيادة والنقصان، جريا على عادة العرب في حذف أدوات الجر والعطف تارة، وإثباتها تارة أخرى. فمن الزيادة قوله تعالى في سورة التوبة: "وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار"، قرئ: من تحتها الأنهار، وهما قراءتان متواترتان، وقد وافق كل منهما رسم مصحف الإمام. ومن النقصان قوله تعالى: "قالوا اتخذ الله ولدا" من سورة البقرة، بغير واو، وقد وافقت رسم المصحف الشامي.
- اختلاف اللهجات في الفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والهمز والتسهيل، وكسر حروف المضارعة، وقلب بعض الحروف وإشباع ميم الذكور، وإشمام بعض الحركات. من ذلك قوله تعالى: وهل أتاك حديث موسى، وقوله تعالى: بلى قادرين على أن نسوي بنانه". قرئ بإمالة أتى، وموسى، وبلى بالإمالة، وقوله تعالى: "خبيرا بصيرا" بترقيق الراءين، والصلاة والطلاق بتفخيم اللامين. وقوله تعالى: "قد افلح المؤمنون" بترك الهمزة، ونقل حركتها من أول الكلمة الثانية إلى آخر الكلمة الأولى وهو ما يسمى تسهيل الهمزة.

وقوله تعالى: لقوم يعلمون، نحن نِعلم، وتِسود وجوه، ألم إعهد، بكسر حرف المضارعة في جميع هذه الأفعال. وقوله تعالى: حتى حين، فالهذليون يقرأون: "عتى عين" بقلب الحاء عينا. وقوله تعالى: "عليهمو دائرة السوء"، وقوله تعالى: "ومنهمو من يلمزك

في الصدقات "، بإشباع ميم جمع الذكور في كلتا الآيتين. وقوله تعالى: " وَغيضَ الماء "، بإشمام ضمة الغين مع الكسر.

إن هذا الوجه الأخير هو أهم الأوجه السبعة، لأنه يبرز الحكمة الكبرى من إنزال القرآن على سبعة أحرف، ففيه تخفيف وتيسير على هذه الأمة، التي تعددت قبائلها، فاختلفت بذلك لهجاتها، وتباين أداؤها لبعض الألفاظ، فكان لا بد أن تراعى لهجاتها وطريقة نطقها. أما لغاتها فلا موجب لمراعاتها، لأن القرآن نزل بلغة قريش، التي تمثلت فيها لغات العرب قاطبة.

تفسير القرآن الكريم

التفسير في اللغة: التبيين والإيضاح. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[1]. أي تفسيرا أحسن معنى ومؤدّى.

والتفسير في الاصطلاح: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية. وهو مفتاح الكنوز والذخائر التي احتواها القرآن المجيد، النازل لإصلاح البشر، وإنقاذ الناس، وإعزاز العالم. وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر، مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن، وتوافروا كل يوم على قراءته بجميع وجوهه التي نزل فيها.

ولهذا فبالتفسير تصفو الأرواح، وتطهر النفوس، وتعظم الآثار، لأن الروح الإنساني هو أقوى شيء في هذا الوجود. وبالتفسير كل التذكرة والاعتبار، ومعرفة هداية الله في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق.

أما التأويل، فهو مرادف للتفسير في أكثر معانيه اللغوية. وكل ما يدور من معاني التأويل يعود إلى البيان والكشف والإيضاح.

أما التأويل في اصطلاح المفسرين فيختلف معناه. فبعضهم يرى أنه مرادف للتفسير. وبعضهم يرى أن التفسير يخالف للتأويل، ويجعل التفسير أعم مطلقا. وبعضهم

---

(1) سورة الفرقان، آية 33.

يرى أن التفسير مباين للتأويل، فالتفسير هو القطع من أن مراد الله كذا، والتأويل ترجيح احد المحتملات بدون قطع.

قال إياس بن معاوية: "مثل الذين يقرأون القرآن، وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكم ليلا، وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة، ولا يدرون ما في الكتاب".

وذكر ابن أبي الحواري أن فضيل بن عياض، قال لقوم قصدوه، ليأخذوا عنه العلم: "لو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون". فقالوا:: "قد تعلمنا القرآن". فقال: "إن في تعلّمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم". فقالوا: "كيف يا أبا علي؟" قال: "لن تعلّموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه، ومحكمه، ومتشابهه، وناسخه من منسوخه، فإذا عرفتم ذلك استغنيم عن كلام فضيل وابن عيينة".

اكتفى رسول الله ﷺ أن يبين للناس قدر حاجتهم من العبادة، التي تبين لهم أحكام التكليف في القرآن الكريم، وهي افعل ولا تفعل. تلك الأحكام التي يثاب عليها الإنسان إن فعلها، ويعاقب إن تركها. هذه هي أسس العبادة لله سبحانه وتعالى، التي أنزلها في القران الكريم، كمنهج لحياة البشر على الأرض.

أما الأسرار المكتنزة في القرآن حول الوجود، فقد اكتفى رسول الله ﷺ بما علم منها، لأنها بمقياس العقل في هذا الوقت، لم تكن العقول تستطيع أن تتقبلها وكان طرح هذه الموضوعات سيثير جدلا يفسد قضية الدين ويجعل الناس ينصرفون عن فهم منهج الله في العبادة إلى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها إلى شيء.

لم يأت القرآن الكريم ليعلمنا أسرار الكون، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة، وأسرار الوجود مكتنزة، حتى تتقدم الحضارات، ويتسع فهم العقل البشري، فيكشف الله سبحانه وتعالى من أسرار الكون، ما يجعلنا أكثر فهما لعطاءات القرآن الكريم، لأن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى هذه الآيات الكونية في كتابه العزيز، وهي التي تعطينا إعجازا لا يستطيع العلم أن يصل إلى دقته.

فسر رسول الله ﷺ – وهو الذي نزل عليه القرآن – فسر وبين ما يتعلق بالتكليف

الإيماني، وترك ما يتعلق بغير التكليف للأجيال القادمة، فيمر الزمن ويتيح الله لعباده من أسرار آياته في الأرض ما يشاء، فيكون عطاء القرآن متساويا مع قدرة العقول ، لأن الرسالات التي سبقت الإسلام كانت محدودة الزمان والمكان، أما القرآن فزمنه حتى قيام الساعة، فلذلك فلا بد أن يقدم إعجازا لكل جيل، ليظل القرآن معجزة في كل عصر.

حمل القرآن الكريم منذ نزوله معجزات، تدل على صدق البلاغ من الله سبحانه، وعن صدق رسالة محمد ﷺ، وكانت أول معجزة أن القرآن كلام الله، فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية وتستميلها.

جاء القرآن الكريم ليخاطب ملكات خفية في النفس لا نعرفها نحن، ولكن الله سبحانه يعرفها، وهو الذي خلق الإنسان وهو أعلم به. هذه الملكات تنفعل حين تسمع القرآن، فتلين القلوب ويدخل الإيمان إليها. ولقد تنبه الكفار إلى تأثير القرآن في النفس البشرية تأثيرا لا يستطيع أن يفسره أحد، ولكنه يجذب النفس إلى طريق الإيمان، ويدخل الرحمة في القلوب. لذلك كان أئمة الكفر يخافون أكثر ما يخافون من سماع القرآن، ويحاولون منع ذلك بأي وسيلة، ويعتدون على من يتلو القرآن، ولو أن هذا القرآن لم يكن كلام الله، الذي وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية في النفس البشرية، ما اهتم أئمة الكفر أن يستمع أحد للقرآن أو لا يستمع. ولكن شعورهم بما يفعله كلام الله جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط، بل كانوا كما يروي القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (1).

لا يمكن أن يكون هذا مسلكهم، وتلك هي طريقتهم، إلا خوفا مما يفعله القرآن في كسب النفس البشرية إلى الإيمان، لأن مجرد تلاوته تجذب النفس الكافرة إلى منهج الله. ولو نأخذ قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نجد أنه علم أن أخته فاطمة وزوجه ابن عمه سعيد بن زيد، قد أسلما. فأسرع إليهما ليبطش بهما، وحاول أن يبطش بسعيد بن زيد، فلما تدخلت زوجته فاطمة لحماية زوجها، ضربها حتى سال منها الدم. وعندما رأى عمر الدم يسيل من وجه أخته رق قلبه، وحدث فيه انفعال بالرحمة، بدلا من

(1) سورة فصلت، آية 26.

انفعال الإيذاء، فخرج العناد من قلبه، وملأه الصفاء.

طلب عمر صحيفة القرآن التي كانا يقرآن منها، وقرأ من أول سورة طه ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ﴾ (1)، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، ثم أسرع إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه.

هكذا نرى أن للقرآن تأثيرا خاصا في النفس البشرية حتى أن الكفار كانوا يسترقون سماع القرآن الكريم من وراء بعضهم البعض، وكانوا يقولون: "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه". وكان هذا أول إعجاز، لأن القرآن كلام الله تبارك وتعالى.

وقف الصحابة والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله عند عطاء القرآن وقت نزوله، بما استطاعت عقولهم أن تطيقه من أسرار الكون، ومن أسرار القرآن، فلم نجد صحابيا سأل رسول الله ﷺ عن معنى آيات الكون في القرآن، أو عن عطاءات القرآن في اللغة. فمثلا لم يسأل أحد عن معنى ألم، أو عسق، أو حم، مع أن رسول الله ﷺ كان يستقبل الكثير من الذين يؤمنون بكتاب الله، والكثير ممن يكفرون بما أنزل الله، وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله ﷺ وضد القرآن، ولم نسمع أن أحدا منهم، وهم قوم بلغاء فصحاء، عندهم اللغة ملكة وموهبة وليست صناعة، لم نسمع أحدا من الكفار قال: ماذا تعني ألم، أو حم، أو كهيعص؟

لا شك أن عدم استخدام الكفار لفواتح السور هذه، دليل على أنهم انفعلوا بها، وإن لم يؤمنوا بها، ولم يجدوا فيها ما يمكن أن يستخدموه لهدم القران أو التشكيك فيه. ولو كانت هذه الحروف في فواتح السور، كانت تخدم هدفهم، لقالوا للناس وجاهروا بذلك، واتخذوها سلاحا يتقوون به لهدم القرآن، أو التشكيك فيه وفي نبوة محمد ﷺ.

(1) سورة طه، آية 1-4.

الحروف المقطعة في فواتح السور

قال العلماء: إن فواتح السور هي معلومات أو دلالات على أشياء ثابتة في الكون، وحسبوها بطريقة الأعداد الأبجدية، وقالوا إنها تدل على عدد أجرام السموات والأرض، وأعداد الكواكب المختلفة، وهي ما زالت إلى الآن من أسرار الذكر.

كان القدماء يعرفون هذه الفواتح، لأنهم لم يسألوا فيها، ولم يستفسروا عنها، أما نحن فلا نعرف لها تفسيرا معقولا. فالقدماء لم يسألوا عنها لمعرفتهم بها، والمحدثون يسألون عنها لجهلهم بها. وهذه الفواتح سواء بإبهامها وغموضها، أو بجلائها ومعرفتها، فهي قائمة بإعجازها.

من خصائص السور المكية حروف التهجي، يفتتح الله بها مواضع من كتابه، وأهمية هذه الفواتح تحملنا على دراستها بشيء من التفصيل، نحاول أن نصل فيه إلى الحكمة من وجودها.

إن الحروف المقطعة في فواتح السور، تعني أن كل حرف ينطق بمفرده، لأن الحروف لها أسماء ولها مسميات، فالناس حين يتكلمون ينطقون بمسمى الحرف وليس باسمه، فعندما تقول كتب، تنطقه بمسميات الحروف، فإذا أردت أن تنطقها بأسمائها، تقول: كاف، وتاء، وباء.

في فواتح السور، التي تبدأ بأسماء الحروف، تنطق الحروف بأسمائها، ونجد الكلمة نفسها في آية أخرى تنطق بمسمياتها. فألم في بداية سورة البقرة تنطق باسم الحرف: ألف، لام، ميم، ساكنة الحرف الأخير، وكل حرف منفرد بوقف. بينما تنطقها بمسميات الحروف في قوله: ألم نشرح لك صدرك، وألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. وذلك طبقا لما نطق به جبريل ﷺ إلى رسول الله ﷺ.

قال النسفي: "هذه الفواتح لها محل من الإعراب، فيمن جعلها أسماء للسور، لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام، وهو الرفع على الابتداء، أو النصب أو الجر لصحة القسم بها. ومن لم يجعلها أسماء للسور، لم يتصور أن يكون لها محل من الإعراب في مذهبه، كما لا محل للجملة المبتدأة".

وإذا كانت الحروف في أوائل السور قد خرجت عن قاعدة الوصل، لأنها مبنية على السكون، فلا بد أن يكون لذلك حكمة، نتعرف عليه من قول رسول الله ﷺ: من قرأ حرفا من كتاب الله، فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف". رواه الترمذي في أبواب فضائل القرآن.

ولذلك ذكرت هذه الحروف في القرآن كحروف استقلالية، لنعرف ونحن نتعبد بتلاوة القرآن أننا نأخذ حسنة على كل حرف.

فإذا أراد الإنسان أن يعرف معنى هذه الحروف فلا يأخذها على قدر بشريته، ولكن يأخذها على قدر مراد الله فيها، لأن قدراتنا تتفاوت، وأفهامنا قاصرة، وكل منا يملك مفتاحا من مفاتيح الفهم على قدر علمه، ولكن من عنده العلم يملك كل المفاتيح، أو يملك المفتاح الذي يفتح كل الأبواب. ونحن لا يصح أن نجهد أذهاننا لفهم هذه الحروف، فحياتنا تقتضي منا أن نضع كلمات لا معنى لها بالنسبة لغيرنا، وإن كانت تمثل أشياء ضرورية بالنسبة لنا، تماما ككلمة السر التي تستخدمها الجيوش لا معنى لها إذا سمعتها، ولكن بالنسبة لمن وضعها يكون ثمنها الحياة أو الموت. فخذ كلمات الله التي تفهمها بمعانيها، وخذ الحروف التي لا تفهمها بمرادات الله فيها، فالله سبحانه شاء أن يبقي معناها في الغيب عنده، لحكمة عنده سبحانه، فهمناها أم لم نفهمها. ومع ذلك لم نسمع أحدا يطعن في الأحرف التي بدأت بها السور، وهذا دليل على أنهم فهموها بملكاتهم العربية، ولو أنهم لم يفهموها لطعنوا فيها.

وإذا كنا لا نفهم معنى هذه الحروف، فوسائل الفهم والإعجاز في القرآن لا تنتهي، لأن القرآن كلام الله، والكلام صفة من صفات المتكلم، ولذلك لا يستطيع فهم بشري أن يصل إلى منتهى معاني القرآن، إنما يتقرب منها، لأن كلام الله صفة من صفاته، وصفة فيها كمال بلا نهاية.

وقال النسفي في تفسيره: "إنها أسماء، والدليل على أنها أسماء، أن لكل منها معنى في نفسه، ويتصرف فيها بالإمالة، والتفخيم والتعريف والتنكير والجمع والتصغير، وهي معربة، وإنما سكنت سكون زيد وغيره من الأسماء، حيث لا يمسها إعراب لفقد

مقتضيه. وقيل إنهـا مبنيـة كالأصـوات، نحـو غـاق، في حكايـة صـوت الغـراب. وقـال الجمهور: إنها أسماء سور".

وقال النسفي أيضا: "إن ورود هذه الأسماء على نمط التعديد، كالإيقاظ لمن تحـدى القرآن، كالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم وقـد عجـزوا عنـه عـن آخـرهم، كـلام منظوم من عين ما ينظمـون بـه كلامهـم، ليـؤديهم النظـر إلى أن يـستيقنوا أن لم تتـساقط قدرتهم دونه، ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتداولـة، وهـم أمـراء الكلام، إلا لأنه ليس من كلام البشر. وإنه كلام خالق القوى والقدر".

وقال أيضا: إنما وردت السور مصدرة بذلك ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلا بوجه من الإعراب، وتقدمه من دلائل الإعجاز، وذلك أن النطق بالحروف نفسها كانـت العرب فيه مستوية الأقدام، الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسماء الحروف، فإنه مختص بمن خطّ وقرأ، وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم، وكان مـستبعدا مـن الأمـي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، فكان حكم النطق بذلك مع اشـتهار أنـه لم يكـن ممـن اقتبس شيئا من أهله، حكم الأقاصيص المذكورة في القرآن".

اعلم يا أخي المسلم، بأن الحروف التي يلفظ بها في أوائل السور ثمانيـة وعـشرون حرفا، تشتمل على أنصاف أجناس الحـروف، وتجمـع في هـذه الجملـة: "**نــصّ حكيــم قاطـع له سرّ**"، بعد حذف الحروف المشتركة.

قد يسأل سائل: ما معنى هذه الحروف؟ فالسؤال في أصـله خطـأ، لأن الحـرف لا يسأل عن معناه في اللغـة، إلا إذا كـان حـرف معنـى. والحـروف نوعـان: حـرف مـبني، وحرف معنى.

أما الحرف المبني فلا معنى له، إلا للدلالة على الصوت فقط. أما حروف المعـاني، فهي مثل: في، من، إلى، على. أما في، فتدل على الظرفية، ومن تـدل علـى الابتـداء، وإلى تدل على الانتهاء، وعلى تدل على الاستعلاء.

إن الاعتقاد بأزلية هذه الأحـــرف، قـد أحاطهـا بجـو مـن التـورع عـن تفـسيرها، والتخوف من إبداء رأي مريح فيها، فهي من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وهـي كما قال الشعبي: "سر هذا القرآن". وفي هذا المعنى قول علـي بـن أبـي طالـب: "إن لكـل

كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي". وقول أبي بكر الصديق: "في كل كتاب سر، وسره في القرآن أوائل السور".

ونقل أهل الأثر عن ابن مسعود والخلفاء الراشدين: "أن هذه الحروف علم مستور، وسر محجوب، استأثر الله به".

قال القرطبي في تفسيره: اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور، فقال الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: "هي سرّ الله في القرآن، ولله في كل كتاب من كتبه سرّ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا نحب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها". وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر.

وروي عن ابن عباس وعلي: "أن الحروف المقطعة في القرآن قسم أقسم به تبارك وتعالى". وقال ابن مسعود: "إنها اسم الله الأعظم، إلا أنّا لا نعرف تأليفه منها". وقال قطرب والفراء وغيرهما: هي إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن، أنه مؤتلف من حروف، وهي التي بناء كلامهم عليها، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج عن كلامهم.

وقيل: إنها من المتشابه، الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وما سميت معجمة إلا لإعجامها وإبهامها.

أما بالنسبة لما قاله ابن مسعود عن اسم الله الأعظم، فقيل: إنه كان عند آصف بن برخيا كاتب النبي سليمان، وقيل كان عند بلعم بن باعوراء، وهو أحد علماء بني إسرائيل، واسم الله الأعظم عندهما هو: "يا حيّ يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام". أو: "يا إلهنا وإله كل شيء، إلها واحدا لا إله إلا أنت".

ومن المؤكد أن كل التخرصات في تفسير أوائل السور، لا تتناهى ولا تقف عند حد، وما هي إلا تأويلات شخصية مردها هوى كل مفسر وميله.

ومن أدق ما أبرزه المتكلمون في معاني هذه الحروف، ما ذكره الزمخشري في الكشاف، فإنه قال: "وجدتها نصف أسامي حروف المعجم، أربعة عشر سواء. وهي: (الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والعين والطاء والسين والحاء والقاف

والنون والياء)، على عدد حـروف المعجم، في تسع وعشرين سورة، مرتبة كالتالي:

الم: وهي آية في بداية سور: البقرة، وآل عمران، والعنكبـوت، والـروم، ولقمـان، والسجدة.

المص: وهي آية مستقلة في بداية سورة الأعراف.

الر: ليست آية مستقلة، بل هي جزء من آية، في بدايـة سـور: يـونس، ويوسـف، والحجر، وهود، وإبراهيم.

المر: وهي ليست آية مستقلة في بداية سورة الرعد.

كهيعص: وهي آية مستقلة في بداية سورة مريم.

طه: وهي آية مستقلة في بداية سورة طه.

طسم: وهي آية مستقلة في بداية سورتي الشعراء، والقصص.

طس: وهي ليست آية مستقلة في بداية سورة النمل.

يس: وهي آية مستقلة في بداية سورة يس.

ص: وهو ليس آية مستقلة في بداية سورة ص.

ق: وهو ليس آية مستقلة في بداية سورة ق.

نون: وهو ليس آية مستقلة في بداية سورة القلم.

حم: وهي آية مـستقلة في بدايـة سـور: غـافر، وفـصلت، والزخـرف، والـدخان، والجاثية، والأحقاف.

حم عسق: وهما آيتان مستقلتان في بداية سورة الشورى.

وهذا يعني أن الحروف المقطعة في فواتح السور، لا تسير على قاعدة محددة.

صعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه المنبر فقال: أيها الناس، هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر حم عسق؟ فوثب ابن عباس فقال: أنا. قال حم: اسم من أسماء الله تعالى، قال: فعين؟ قال: عاين المولون عذاب يوم بدر. قال: فسين؟ قـال: سـيعلم الـذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. قال: فقاف؟ قال: فسكت. فقام أبو ذر ففـسر كمـا قـال ابـن عباس، وقال: قاف: قارعة من السماء تغشى الناس.

ثم إذا نظرت في هذه الحـروف الأربعـة عـشر، وجـدتها مـشتملة علـى أجنـاس

الحروف. بيان ذلك أن فيها من:

- الحروف المهموسة نصفها: (الصاد والكاف والهاء والسين والحاء).
- ومن الحروف المجهورة نصفها: (الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون).
- ومن الحروف الشديدة نصفها: (الألف والكاف والطاء والقاف).
- ومن الحروف الرخوة نصفها: (اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون).
- ومن الحروف المطبقة نصفها: (الصاد والطاء).
- ومن الحروف الشفهية: (الميم).
- ومن الحروف المنفتحة نصفها: (الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون).
- ومن الحروف المستعلية نصفها: (القاف والصاد والطاء).
- ومن الحروف المنخفضة نصفها: (الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون).
- ومن الحروف الحلقية نصفها: (الحاء والعين والهاء).
- ومن حروف القلقلة نصفها نصفها: (القاف والطاء).

ثم إذا استقربت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكنوزة بالمذكورة منها. فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته".

وقسم بعضهم هذه الحروف إلى: حروف النور، وحروف الظلمة.

أما حروف النور، فهي سبعة أحرف: (النون والياء والميم والألف واللام والهاء والراء).

أما حروف الظلمة، فهي سبعة أحرف: (الصاد والحاء والكاف والقاف والطاء والعين والسين).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي، في كتاب الأسماء، عن ابن عباس قوله: "ألم، وألمص، وألر، وألمر، وكهيعص، وطه، وطسم،

وطس، ويس، وص، وحم، و(ق)، و(ن)، قال: قسم أقسمه الله، وهو من أسماء الله". وكل من قرأ حرفا منها فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول: ألم حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف". رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[3].

الحديث والسنة

بعث الله سبحانه وتعالى محمدا ﷺ بجوامع الكلم، وخصه ببدائع الحكم، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "بعثت بجوامع الكلم".

قال النووي رحمه الله: جوامع الكلم فيما بلغنا، أن الله يجمع له الأمور الكثيرة، التي كانت تكتب في الكتب قبله، في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك.

وخرج الإمام أحمد من حديث عمرو بن العاص قال: "خرج علينا رسول الله ﷺ يوما كالمودّع، فقال: "أنا محمد النبي الأمي – قال ذلك ثلاث مرات – ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه". فقلنا: يا رسول الله، علمنا مما علمك الله عز وجل. قال: فعلمنا التشهد".

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: كنا نقول خلف رسول الله ﷺ: السلام على الله، السلام على جبريل وميكائيل، السلام على فلان وفلان، فقال لنا رسول الله ﷺ

(1) سورة الحشر، آية 21.

(2) سورة الإسراء، آية 9.

(3) سورة محمد، آية 24.

ذات يوم: "إن الله هو السلام، فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإذا قالها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ثم ليتخير من المسألة ما يشاء".

وعن عائشة (رضي الله عنها)أن النبي ﷺ قال لها: يا عائشة، عليك بجوامع الدعاء: اللهم إني أسالك من الخير كله، عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه محمد عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شر ما عاذ منه عبدك ونبيك، اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل، وأسألك ما قضيت لي من قضاء أن تجعل عاقبته رشدا". خرجه أحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

قالت: وروى هشام بن عمار في كتاب البعث، بإسناده عن أبي سالم الحبشي قال: حدثت أن النبي ﷺ كان يقول: "فضّلت على من كان قبلي بست ولا فخر.. أعطيت جوامع الكلم، وكان أهل الكتاب يجعلونها جزءا بالليل إلى الصباح، فجمعها لي ربي في آية واحدة: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ (1).

إن جوامع الكلم التي خص الله سبحانه بها النبي ﷺ نوعان:

أحدهما: ما هو في القرآن كقوله تعالى: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي". قال الحسن: "لم تترك هذه الآية خيرا إلا أمرت به، ولا شرا إلا نهت عنه".

الثاني: ما هو في كلامه ﷺ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. وهو منتشر موجود في السنن المأثورة عنه ﷺ. وقد جمع العلماء جموعا من كلماته ﷺ الجامعة. فصنف الحافظ أبو بكر بن السني كتابا سماه: الإيجاز وجوامع

(1) سورة الحديد، آية 1.

الكلم في السنن المأثورة. وجمع القاضي أبو عبد الله القضاعيُ مِنْ جوامع الكلم المجيزة، كتابا سماه: الشهاب في الحكم والآداب. ثم إن الفقيه الزاهد القدوة أبا زكريا يحيى النووي، أخذ الأحاديث التي أملاها الإمام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح، وزاد عليها تمام اثنين وأربعين حديثا. وصنف على منواله قوم آخرون.

لو أخذنا بالرأي السائد بين المحدثين، ولا سيما المتأخرين منهم، لرأينا الحديث والسنة مترادفين متساويين، يوضع أحدهما مكان الآخر. ففي كل منهما إضافة قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة إلى النبي ﷺ ، بيد أن رد هذين اللفظين إلى أصولهما التاريخية، يؤكد وجود بعض الفروق الدقيقة بين الاستعمالين، لغة واصطلاحا.

فالحديث: هو اسم من التحديث، وهو الإخبار، ثم سمي به قول أو فعل أو تقرير نسب إلى النبي ﷺ. ومعنى الإخبار في وصف الحديث، كان معروفا للعرب في الجاهلية، منذ كانوا يطلقون على أيامهم المشهورة اسم الأحاديث[1].

ولعل الفراء يحيى بن زياد الديلمي أحد نحاة الكوفة، وأئمتها المشهورين، والمتوفي سنة 207هـ، قد تنبه إلى هذا المعنى، حين رأى أن مفرد الأحاديث هو: أحدوثة، ثم جعلوه جمعا للحديث. وكيفما تقلب مادة الحديث، تجد معنى الأخبار واضحا فيها، حتى في قوله تعالى:﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾[2]. وقوله سبحانه:﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾[3].

استشعر بعض العلماء في مادة الحديث معنى: الجدة، فأطلقوه على ما يقابل القديم، وهم يريدون بالقديم كتاب الله، وبالجديد ما أضيف إلى رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: المراد بالحديث في عرف الشرع، ما أضيف إلى النبي ﷺ، وكأنه أريد به مقابلة القرآن لأنه قديم. فإذا وجدنا في جل كتب السنن: "إن أحسن

(1) فتوح البلدان، البلاذري، صفحة 39.

(2) سورة الطور، آية 34.

(3) سورة الزمر، آية 23.

الحديث كتاب الله"، فإننا نجد ابن ماجه قد تفرد في سننه بهذه الرواية: عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "إنما هما اثنتان: الكلام والهدي. فأحسن الكلام كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ.

أما السنّة في الأصل، فليست مساوية للحديث، فإنها تبعا لمعناها اللغوي كانت تطلق على الطريقة الدينية، التي سلكها الرسول ﷺ، في سيرته المطهرة. لأن معنى السنّة لغة: الطريقة. فإذا كان الحديث عاما يشمل قول النبي ﷺ، وفعله، فالسنة خاصة بأعمال النبي ﷺ، حتى سميت المدينة المنورة بدار السنة، حيث بدأ مفهوم السنة فيها يأخذ شكلا سياسيا واجتماعيا، إلى جانب الشكل الديني الأساسي.

وحين بدأ العهد بالوحي وبرسول الله ﷺ، أضحى التشبه بالسلف الصالح ضربا من التأسي بالسنة النبوية. فصار هؤلاء المتشبهون بالسلف ينسبون إليه، فيسمون السلفيين. وباتت حياتهم وقفا على إحياء السنة وإماتة البدعة.

أما عن الحديث القدسي، فكان رسول الله ﷺ يلقي أحيانا على أصحابه مواعظ يحكيها عن ربه عز وجل، وهي ليست وحيا منزلا فيسمونها قرآنا، ولا قولا صريحا يسنده ﷺ إلى نفسه إسنادا مباشرا، فيسمونها حديثا عاديا، وإنما هي أحاديث يحرص النبي على تصديرها بعبارة تدل على نسبتها إلى الله، لكي يشير إلى أن عمله الأوحد فيها حكايته عن الله بأسلوب يختلف اختلافا ظاهرا عن أسلوب القرآن الكريم، ولكن فيه مع ذلك، نفحة من عالم القدس، ونورا من عالم الغيب، وهيبة من ذي الجلال والإكرام. تلك هي الأحاديث القدسية، التي تسمى أيضا: أحاديث إلهية وربانية.

كان الرواة يصدرون الأحاديث القدسية بقولهم: عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله عز وجل، أو فيما يرويه عن ربه. وهذا الضرب من التصدير اتخذه العلماء حجة قائلين: إن اللفظ في الحديث القدسي من الله عز وجل". غير أن كثيرا منهم يرون أن الصياغة في الحديث القدسي للنبي ﷺ، وأن المعنى لله سبحانه وتعالى. وإلى هذا جنح أبو البقاء أيوب الحسيني، حين قال بصراحة ووضوح: "إن القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحي جليّ. وأما الحديث القدسي، فهو ما كان لفظه من عند الرسول، ومعناه من عند الله

بالإلهام أو المنام[1].

انصرف الصحابة إلى القرآن جمعا له في الصدور والسطور، واشتغالهم به عن كل شيء سواه، كان جزءا من التوجيه النبوي الحكيم لهؤلاء التلامذة الخالدين من الأميين والكاتبين، وهو توجيه متدرج مع الحياة والأحياء، متطور مع الأحداث التي تعاقبت على المجتمع الإسلامي، فما كان لهذا التوجيه أن يجمد على صورة واحدة، بل روعي فيه الزمان، وروعيت الأشخاص، فنهى الرسول عن كتابة الأحاديث أول نزول الوحي، مخافة التباس أقواله وشروحه وسيرته بالقرآن، ولا سيما إذا كتب هذا في صحيفة واحدة مع القرآن. وقال: لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار[2].

أذن رسول الله ﷺ بعد ذلك إذنا عاما، حين نزل أكثر القرآن وحفظه الكثيرون، وأمن اختلاطه بسواه، فقال ﷺ: "قيدوا العلم بالكتاب"[3].

من المؤكد أن بعض الصحابة كتبوا طائفة من الأحاديث في حياته ﷺ، ومنهم من كتبها بإذن خاص من الرسول مستثنى من النهي العام بادئ الأمر، بيد أن أكثرهم قيدوا ما جمعوه في السنوات الأخيرة من حياته ﷺ، بعد أن أذن بالكتابة لكل من رغب فيها وقدر عليها.

ومن الصحف التي كتبت:

- صحيفة سعد بن عبادة الأنصاري، التي جمع فيها طائفة من أحاديث الرسول ﷺ وسننه، ويروي البخاري أن هذه الصحيفة كانت نسخة من صحيفة عبد الله بن أبي أوفى، الذي كان يكتب الأحاديث بيده.
- صحيفة سمرة بن جندب المتوفي سنة 60 هـ، الذي جمع فيها أحاديث كثيرة في نسخة كبيرة.

---

(1) كليات أبي البقاء أيوب الحسيني، طبعة الأميرية، القاهرة، 1281هـ، صفحة 288.

(2) صحيح مسلم، 8/ 229.

(3) جامع بيان العلم، ابن عبد البر، 1/ 72، وتقييد العلم، صفحة 69.

- صحيفة جابر بن عبد الله المتوفي سنة 78هـ، وهي في مناسك الحج.
- الصحيفة الصادقة، التي كتبها عبد الله بن عمرو بن العاص، المتوفي سنة 65 هـ، وقد اشتملت على ألف حديث، وهي محفوظة في مسند الإمام أحمد.
- صحف عبد الله بن عباس المتوفي سنة 69هـ، حيث عني بكتابة الكثير من سنة الرسول وسيرته، وكانت في ألواح يحملها معه في مجالس العلم. وقد تواتر أنه ترك حين وفاته حمل بعير من كتبه.
- صحف أبي هريرة الصحابي الجليل المتوفي سنة 58 هـ، التي تلفت إلا صحيفة واحدة رواها عنه تلميذه التابعي همام بن منبه المتوفي سنة101هـ.

أما الصحابة السبعة المكثرون من رواية الحديث، فهم:

- أبو هريرة عبد الله بن صخر الدوسي، الذي روى عن الرسول ﷺ 5374 حديثا.
- عبد الله بن عمر بن الخطاب، روى 2630 حديثا.
- أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، روى 2286 حديثا.
- أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر، روت 2210 أحاديث.
- عبد الله بن عباس، روى 1660 حديثا.
- جابر بن عبد الله، روى 1540 حديثا.
- أبو سعيد سعد بن مالك الخدري، روى 1170 حديثا.

ومن بعض مشاهير الصحابة الرواة:

- عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، روى 848 حديثا.
- عبد الله بن عمرو بن العاص، روى 700 حديث.
- أبو ذر جندب بن جنادة، روى 281 حديثا.
- سعد بن أبي وقاص، روى 270 حديثا.
- أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الخزرجي، روى 179 حديثا.

الفصل الثالث

التوحيد

اعلم يا أخي المسلم أن مراتب دين الإسلام ثلاث، هي: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

أما **الإسلام لغة**: فهو من: سلم يسلم أسلم، ومنه: سالم ومسلم وسليم.

يقال: أسلم العبد: أي ترك المعصية والتزم بمنهج الله تعالى، وجعل طاعته خالصة لوجهه سبحانه، سالمة من كل ما يشوبها من أدران. وأسلم وجهه لله: أي عبده حق عبادته، وأطاعه حق طاعته، وسلّمه وجهه، على أمل يكون من عباده المسلمين، ويسلم من عذاب القبر، وفتنة الدجال، ولظى النار.

قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [1].

والإسلام شرعا: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله، وهو فعل ما فرض على الإنسان أن يفعله، وتطبيق ما شرعه الله سبحانه بالقول والعمل الخالص. وهو الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة، وهو الهدى كله، وليس وراءه هدى، وهو صفوة الأديان. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [3].

فسر النبي ﷺ الإسلام بأنه أعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، واتباع أركانه الخمسة: وهي في قوله ﷺ: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن

---

(1) سورة آل عمران، آية 20.

(2) سورة آل عمران، آية 19.

(3) سورة آل عمران، آية 85.

محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا، وصوم رمضان". رواه البخاري ومسلم.

وجاء في مسند أحمد عن عمرو بن عنبسة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: "أن تسلم قلبك لله، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك".

وصح من حديث أبي إسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة رضي الله عنه موقوفا قال: الإسلام ثمانية أسهم: الإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، والجهاد سهم، وصوم رمضان سهم، وحج بيت الله الحرام سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، وخاب من لا سهم له".

وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى. فقال: إن رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وإن قوام هذا الأمر إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإن ذروة السنام منه الجهاد في سبيل الله". رواه أحمد.

أما **الإيمان**، فهو من: آمن يؤمن، فهو مؤمن ذو أمن، وآمن: صدق بقلبه. والإيمان: هو ما واطأ فيه القلب اللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

أما من ناحية الشرع، فالإسلام والإيمان واحد، لا فرق بينهما.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان". متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فبلسانه، وذلك أضعف الإيمان". رواه مسلم.

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين". وفي مسند أحمد، عن أبي رزين العقيلي قال: قلت:

يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، وأن تحترق في النار أحب إليك من أن تشرك بالله شيئا. وأن تحب غير ذي نسب، لا تحبه إلا لله. فإذا كنت كذلك، فقد دخل حب الإيمان في قلبك، كما دخل حب الماء للظمآن في اليوم القائظ. قلت: يا رسول الله، كيف لي بأن أعلم أني مؤمن؟ قال: ما من أمتي. أو قال: هذه الأمة عبد يعمل حسنة، فيعلم أنها حسنة، وأن الله مجازيه بها خيرا، ولا يعمل سيئة فيعلم أنها سيئة، ويستغفر الله منها، ويعلم أنه لا يغفرها إلا الله، إلا وهو مؤمن".

وفي رواية عن عمرو بن عنبسة قال: قلت يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: الصبر والسماحة".

أما أركان الإيمان فستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

إن الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وبملائكته وكتبه المنزلة، والإيمان برسله هو من أولويات الإيمان. وإن الإيمان باليوم الآخر والبعث هو أساس الدين، لأن أساس العبادة هو: أن الحياة الحقيقية في الآخرة، وأن الدنيا هي دار اختبار، ودار أغيار، إما أن تفارق النعمة بالموت، وإما أن تفارقك بالزوال. أما الحياة الآخرة، فهي دار نعيم مقيم، حيث لا تفارقك النعمة، لأنك حيّ، تعيش في نعيم دائم غير مجذوذ.

وإن سأل سائل: ما معنى الإيمان بالقدر؟ فالجواب: هو التصديق الجازم بأن كل خير أو شر، إنما هو بقضاء الله وقدره، وأنه الفعال لما يريد. وروي عنه ﷺ أنه قال لسائل: "لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أُحُد ذهبا في سبيل الله، ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متّ على غير هذا لدخلت النار". رواه أحمد وأبو داود.

فسر العلامة النسفي الكنز في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ

فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴿٨٢﴾ ﴾[1]. قيل: الكنز مال مدفون من ذهب وفضة، أو صحف فيها علم. وقال العلامة: الكنز: "هو لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها".

يتضمن القدر أمورا ثلاثة وهي:

- الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى علم ويعلم كل شيء جملة وتفصيلا.
- الإيمان بأن الله قد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قال ﷺ: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة". رواه مسلم.
- الإيمان بمشيئة الله النافذة التي لا يردها شيء، وقدرته التي لا يعجزها شيء، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.
- الإيمان بأن الله هو الموجد للأشياء كلها، وأن كل ما سواه فهو مخلوق.

قال الإمام علي كرم الله وجهه: سألت النبي ﷺ، قلت: "يا رسول الله، ما الوفاء: قال: التوحيد ولا إله إلا الله. قلت: وما الفساد؟ قال: الكفر والشرك بالله. قلت: وما الحق؟ قال: الإسلام والقرآن الكريم والولاية إذا انتهت إليك. قلت: وما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة. قلت: وما عليّ؟ قال: طاعة الله وطاعة رسوله. قلت: وكيف أدعو الله تعالى؟ قال: بالصدق واليقين. قلت: وماذا أسال الله؟ قال: العافية. قلت: وما أصنع لنجاة نفسي؟ قال: كلْ حلالا وقلْ صدقا. قلت: وما السرور؟ قال: الجنة".

أما الإحسان، فهو: "**أن تعبد الله كأنك تراه، وإن لم تكن تراه، فإنه يراك**". متفق عليه واللفظ لمسلم. وفي رواية: "أن تخشى الله كأنك تراه".

جاء ذكر الإحسان في القرآن في مواضع:

تارة يكون مقرونا بالإيمان، كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

(1) سورة الكهف، آية 82.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

وتارة يكون مقرونا بالإسلام، كقوله تعالى: **﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾**[2].

وتارة يكون مقرونا بالتقوى أو بالعمل الصالح، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴿٢٦﴾ ﴾[3].

والحسنى: تأنيث الأحسن، وهي ملّة الإسلام، والخصلة المفضلة. وقيل: هي الجنة، مع تفاوت الدرجات. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "بينما نحن (جلوس) عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل، شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ فقال ﷺ: الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: ان تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. ثم انطلق، فلبث مليا، ثم قال: يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم". رواه مسلم.

---

(1) سورة المائدة، آية 93.

(2) سورة البقرة، آية 112.

(3) سورة يونس، آية 26.

شاهد رسول الله ﷺ ذات يوم أحد صحابته، وكان اسمه الحارث، فقال: "كيف أصبحت يا حارث؟" قال: أصبحت مؤمنا. فقال ﷺ. فانظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟" قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون(يصيحون) أو يتعاورون فيها. فقال ﷺ: "يا حارث، عرفت فالزم، عبد نوّر الله الإيمان في قلبه". رواه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم، ورواه بنحوه البيهقي، وأبو هلال العسكري في الأمثال، وللحديث شواهد ترقى إلى درجة الحسن.

حقيقة التوحيد

إن الانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم، نشأت أول ما نشأت من انطماس صورة التوحيد الخالص، ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات.

كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورة: قل هو الله أحد في القلوب، لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود ومنهج للحياة، وليس كلمة تقال باللسان، أو حتى صورة تستقر في الضمير.

إن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية، هو تعمقها للحياة كلها، وقيام الحياة على أساسها، واتخاذها قاعدة للمنهج العلمي الواقعي في الحياة الدنيا. وتبدو آثاره في التشريع، كما تبدو في الاعتقاد سواء بسواء. وأول هذه الأثار أن تكون شريعة الله تعالى وحدها، وهي التي تحكم الحياة. فإذا تخلفت هذه الآثار، فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة، ولن تقوم إلا ومعها آثارها في كل ركن من أركان الحياة.

التوحيد:

من وحّد يوحّد: قال واحدا أحدا، ومنه موحّد، ومنه التوحيد وهو الإسلام، وهو كل عبادة في القرآن الكريم، وهو رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمة، وإن بذّ فيها الحكماء.

إن التوحيد هو أساس العبادة، وهو قول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن تؤمن أنه

موجود، وهو الذي خلق السموات والأرض، وأنه المحيي والمميت، والمتصرف بالكون، وهو الرزاق، ومالك يوم الدين.

والتوحيد: هو الدين القويم، وهو قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [1].

وحينما يتكلم الله سبحانه عن التوحيد يقول: إنني أنا الله، ولا يقول إننا نحن الله. لأنه جل جلاله يريد توحيدا، حيث يأتي بضمير الإفراد: واحد وأحد. كقوله تعالى:

﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [2]. وقوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [3]. وقوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴿١٢﴾ ﴾ [4].

أما في رصد الأحداث، فيأتي بضمير الكبرياء والعظمة، نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [5]. وقوله تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [6].

قال ابن القيّم: التوحيد أصلان:

- التوحيد القولي العلمي الخبري، وأساسه إثبات الكمال للرب سبحانه، ومباينته لخلقه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل، والدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ

(1) سورة الزخرف، آية 26-27.

(2) سورة طه، آية 46.

(3) سورة الحجر، آية 49.

(4) سورة طه، آية 12.

(5) سورة الذاريات، آية47.

(6) سورة البقرة، آية 35.

يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾[1].

- التوحيد القصدي الإرادي العملي، وهو تجريد القصد بالحب والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة والاستعانة، والاستغاثة، والعبودية بالقلب واللسان والجوارح لله تعالى وحده، ومدار ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، والدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ۝٦٤ ﴾[2].

كان أقرب الخلق إلى الله تعالى: أقومهم بهذين الأصلين علما، ولهذا كان الرسل أقرب الخلق إلى الله تعالى، وأقربهم إليه وسيلة هم أولو العزم، وخاتمهم سيد ولد آدم محمد ﷺ، أكرمهم على الله لكمال عبوديته وتوحيده وأمانته وأخلاقه العظيمة.

هذان الأصلان هما قطبا رحى الدين، وعليهما مداره، وبيانهما من أهم الأمور، والله سبحانه وتعالى بيّنهما غاية البيان، بالطرق العقلية والنقلية، والفطرية والنظرية والأمثال المضروبة، ونوّع سبحانه الطرق بإثباتهما أكمل تنويع، بحيث صارت معرفة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة لهما بمنزلة العين المبصرة.

أما العبادة: فهي من: عبد يعبد، ومنه: عابد، ومعبود، وعبد، ومتعبد، وعبادة، وعبودية، وهي أقصى غاية الخضوع، واللين والانقياد، والتذلل لله تعالى، وأصلها الإسلام والتوحيد. وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، وتجريد الإخلاص لله تعالى وحده بالتوحيد، وتجريد المتابعة المؤمنة الصادقة والمصدقة بالرسول ﷺ. ولذلك عندما نذهب إلى الحج، فإننا نقبل الحجر الأسود، ونرجم الحجر الذي يمثل إبليس في منى، نقبل حجرا، ونرجم حجرا، وهذا هو معنى: طاعة أوامر الله، واجتناب نواهيه.

شرعت العبادة للابتلاء بالنفس، كالصلاة والصيام، وبالمال كالزكاة والصدقة والجهاد في سبيل الله بالمال، وقد اشتمل الحج على الابتلاء بالنفس والمال، لما فيه من

---

(1) سورة الاخلاص.

(2) سورة آل عمران، آية 64.

تحمل المشقة الجسدية والأعباء المادية.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [2].

وقال تعالى في الحديث القدسي: "يا بن آدم، تفرغ لعبادتي، أملأ صدرك غنى، وأسدّ فقرك، وإلا تفعل، ملأت يدك شغلا، ولم أسدّ فقرك" [3].

معنى لا إله إلا الله

تضمنت هذه الجملة الطيبة التقرير بالوحدانية، لأنها تنفي وجود أي إله على الأرض غيره سبحانه، بقولك: "لا إله"، وأثبتت الإلهية لله وحده، بقولك: "إلا الله". قال سبحانه وتعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [4].

كما اشتملت هذه الجملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلوهية وأثبت الإيجاب لله، كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل". أخرجه الشيخان.**

قال ابن القيم: "الإله هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالا، وإنابة وإكراما، وتعظيما وذلا وخضوعا، وخوفا ورجاء وتوكلا".

(1) سورة الذاريات، آية 56.

(2) سورة البينة، آية 5.

(3) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة.

(4) سورة آل عمران، آية 18.

وقال ابن رجب: "الإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالا، ومحبة، وخوفا ورجاء، وتوكلا عليه، وسؤالا منه، ودعاء له، ولا يصلح ذلك إلا لله عز وجل. فمن أشرك في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية، كان قدحا في إخلاصه في قول: لا إله إلا الله. وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك".

لا ريب أن الشهادة لا تكون شهادة، إلا إذا كانت عن علم ويقين وصدق، وأما مع الجهل والشك، فلا تعتبر ولا تنفع، فيكون الشاهد كاذبا، لجهله بمعنى الذي شهد به.

قال الوزير أبو المظفر في الإفصاح: "قوله: شهادة أن لا إله إلا الله، يقتضي أن يكون الشاهد عالما بأن لا إله إلا الله كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[1]. قال: واسم الله مرتفع (مرفوع) بعد إلا، من حيث أن واجب الإلهية له وحده، ولا يستحقها غيره سبحانه.

أما بالنسبة لشهادة لا إله إلا الله، فقد روي في الأثر أن مفتاح الجنة: لا إله إلا الله، ولكن، هل كل من قال لا إله إلا الله، استحق أن تفتح له أبواب الجنة؟ قيل لوهب بن منبه[2]: "أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك".

ورد عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، حيث علقت هذه الأحاديث دخول الجنة على العلم بمعنى: لا إله إلا الله. ولهذا استنبط العلماء شروطا لا بد من توافرها، مع انتفاء الموانع، حتى تكون كلمة لا إله إلا الله مفتاحا للجنة، وهذه الشروط هي:

- العلم: حيث إن لكل كلمة معنى، فيجب أن تعلم أن كلمة التوحيد لا إله إلا الله، علما منافيا للجهل، فهي تنفي الألوهية عن غير الله، وتثبتها له سبحانه، فلا معبود بحق إلا الله، ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ

---

(1) سورة محمد، آية 19.

(2) وهب بن منبه: من يهود اليمن، وكان من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن، ثم أسلم، وكان كثير الرواية والنقل عن الكتب الإسرائيلية، وتوفي في عهد الدولة الأموية.

بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿٨٦﴾ ﴾ [1]. وقال ﷺ: من مات وهو يعلم أنه لا إلـه إلا الله دخل الجنة". رواه مسلم.

- قالت رابعة العدوية: "اللهم إن كنت تعلـم أنـي عبـدك طمعـا في جنتـك، فاحرمني منها، وإن كنت تعلم أني عبد خوفا من نارك، فأرسلني إليهـا.. أنـا عبدك لأنك تستحق العبادة".
- اليقين المنافي للشك: وهو أن تستيقن يقينـا جازمـا بمـدلول كلمـة التوحيـد، لأنها لا تقبل شكا ولا ظنا ولا ترددا ولا ارتيابـا، بـل يجـب أن تقـوم علـى اليقين القاطع الجازم، فقد قـال ﷺ في وصـف المـؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴿١٥﴾ ﴾ [2]. فلا يكفي مجرد التلفظ، بل لا بد من استيقان القلب، فإن لم يحصل هذا اليقين فهو النفاق. قال ﷺ: "أشـهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة". رواه مسلم.
- القبول: فإذا علمت وتيقنـت، فينبغـي أن يكـون لهـذا العلـم اليقـيني أثـره، فيتحقق القبول لما اقتضته هـذه الكلمـة بالقلـب واللـسان. فمـن رد دعـوة التوحيد ولم يقبلها كان كافرا، سواء كان ذلك الرد بسبب الكبر أو العنـاد أو الحسد، وقد قال الله تعالى عن الكفار الذين ردوها اسـتكبارا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴿٣٥﴾ ﴾ [3].
- الانقياد للتوحيد انقيادا تاما: وهذا الانقياد هو المحك الحقيقي والمظهر العملي للإيمان، ويتحقق هذا ويحصل بالعمل بما شرعه الله سبحانه، وبترك ما نهى

(1) سورة الزخرف، آية 86.

(2) سورة الحجرات، آية 15.

(3) سورة الصافات، آية 35.

عنه، كما قال عز وجل: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (1). وقوله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به". وهذا هو تمام الانقياد.

- الصدق في قول كلمة التوحيد صدقا منافيا للكذب والنفاق، والدليل قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ (2).
- المحبة: يجب على المؤمن أن يحب هذه الجملة، ويحب العمل بمقتضاها، ويحب أهلها العاملين بها. وعلامة حب العبد ربه هو: تقديم محاب الله، وإن خالفت هواه، وموالاة من والى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، واتباع رسول ﷺ واقتفاء أثره، وقبول هداه.

وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: "يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس. فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس، يحبك الناس". رواه ابن ماجه وغيرة بأسانيد حسان.

وعن الضحاك بن مزاحم قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، من أزهد الناس؟ قال: من لم ينس القبر والبلى، وترك زينة الدنيا، وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولم يعدّ غدا من أيامه، وعدّ نفسه من الموتى". حديث مرسل.

قسم كثير من السلف الزهد أقساما: فمنهم من قال: أفضل الزهد:

- الزهد في الشرك، وفي عبادة من دون الله.
- الزهد في الحرام كله من المعاصي.
- الزهد في الحلال، وهو أقل أقسام الزهد.

أما القسمان الأولان من الزهد، فهما واجبان، أما الثالث فليس بواجب.

وإن سأل سائل: هل هناك أسباب لمحبة الله؟ فالجواب: نعم، هناك عشرة أسباب تجلب محبة الله وهي:

---

(1) سورة لقمان، آية 22.

(2) سورة الفتح، آية 11.

1. قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.
2. التقرب على الله بالنوافل بعد الفرائض.
3. دوام ذكر الله على كل حال باللسان والقلب والعمل.
4. إيثار ما يحبه الله على ما يحبه العبد عند تزاحم المحبتين.
5. التأمل في أسماء الله وصفاته وما تدل عليه من الكمال والجلال، وما لها من الآثار الحميدة.
6. التأمل في نعم الله الظاهرة والباطنة، ومشاهدة برّه وإحسانه وإنعامه على عبده.
7. انكسار القلب بين يدي الله سبحانه وافتقاره إليه.
8. الخلوة بالله وقت النزول الإلهي، حين يبقى ثلث الليل الآخر، وتلاوة القرآن في هذا الوقت، وتم ذلك بالاستغفار والتوبة.
9. مجالسة أهل الخير والصلاح المحبين لله سبحانه والاستفادة من كلامهم.
10. الابتعاد عن كل سبب يحول بين القلب وبين الله من الشواغل.

قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾ [1]. لما كان يوم أحُد، وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: "استووا، حتى أثني على ربي عز وجل". فصاروا خلفه صفوفا، فقال رسول الله ﷺ: "اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا

(1) سورة الحجرات، آية 7.

مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك". رواه النسائي.

الإخلاص في قول لا إله إلا الله: حيث قال عز وجل: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ۝ ﴾ [1]. وقال ﷺ: "فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله". متفق عليه.

والإخلاص من: خلص يخلص، أي وصل بيمن الله ورعايته، سالما غانما، إلى الهدف السامي المنشود، وهو الفوز بالجنة والنجاة من النار، بعد دفع الوساوس الشيطانية، والهواجس النفسانية، ومراعاة الآداب والخشوع، واستحضار العلم باليقين المتجرد لله سبحانه، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه.

لا جدال في أن الإخلاص هو التعامل بكل صدق وطيب نية، ونقاء ضمير، مع إخلاص المقال، وإعظام المقام، واليقين التام، وإخلاص العمل والطاعات من شائبة كل فساد، خالصة لوجه الله تعالى.

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: "من قال لا إله إلا الله والله أكبر، صدّقه ربه[2]. فقال: لا إله إلا أنا وأنا أكبر. وإذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. يقول: لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي. وإذا قال: لا إله إلا الله، له الملك وله الحمد. قال: لا إله إلا أنا وحدي لي الملك ولي الحمد. وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال: لا إله إلا أنا، ولا حول ولا قوة إلا بي". وكان ﷺ يقول: من قالها في مرضه ثم مات لم تطعمه النار". رواه الترمذي وقال حديث حسن.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على

(1) سورة البينة، آية 5.

(2) معنى صدقه ربه: أن يأتي بمثل ما يقوله العبد لفظا ومعنى، رضى عن كلامه، وتأكيدا لمضمونه.

الله". رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن، قال له: "إنك لتأتي قوما من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، وفي رواية – إلى أن يوحّدوا الله – فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات، في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد إلى فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم". أخرجه الشيخان.

كان أهل الكتاب في اليمن من اليهود والنصارى يقولون بمثل ذلك، لكنهم جهلوا معناها الذي دلت عليه، من إخلاص العبادة لله وحده، وترك عبادة ما سواه، فكان قولهم: لا إله إلا الله، لا ينفعهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة، فإنهم كانوا يقولونها، ويأتون بما ينافيها، فيثبتون ما نفته من الشرك، باعتقادهم وقولهم وفعلهم، وينفون ما أثبتته من الإخلاص كذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًۭا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [1].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرّم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل".

وروى أحمد بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: "جددوا إيمانكم. قيل: يا رسول الله، وكيف نجدد إيماننا؟ قال: "أكثروا من قول لا إله إلا الله".

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: "قال موسى عليه السلام: يا رب، علمني شيئا أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا رب، كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهن – غيري –

258

(1) سورة آل عمران، آية 64.

والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله". رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

وحده لا شريك له: هذه الجملة تأكيد لمعنى لا إله إلا الله، لأنها دلت بجملتها على التوحيد، ودلت على تأكيد الإثبات، وتأكيد النفي.

عن سعد بن أبي وقاص قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: علمني كلاما أقوله. قال: "قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم". قال: هؤلاء لربي. قال: "قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني وارزقني". رواه مسلم.

أما عن فضل من قال لا إله إلا الله مخلصا، فقد روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "ما قال عبد: لا إله إلا الله مخلصا، إلا فتحت له أبواب السماء، حتى يفضي إلى العرش[1]، ما اجتنبت الكبائر". رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

أما بالنسبة للكبائر، فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات: قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: "الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات".

وثبت في الصحيحين وغيرهما، من حديث أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد مما جاء به، إلا أحد جاء بأكثر من ذلك

---

(1) يفضي إلى العرش: يصل هذا القول إليه، وهذا كقوله تعالى: إليه يصعد الكلم الطيب

". رواه البخاري ومسلم، والترمذي والنسائي وابن ماجه.

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: "أفضل الذكر لا إله ألا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله". رواه النسائي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد.

معنى شهادة أن محمدا عبده ورسوله

أي وشهد أن محمدا عبده ورسوله بصدق اليقين، وأنه قد حمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وهذا يقتضي اتباعه ﷺ، ولزوم سنته، وتعظيم أمره ونهيه.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [1] وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴿٧﴾ ﴾ [2]. وقال ﷺ: "ومن رغب عن سنتي فليس مني".

إن الناس يبتلون في قبورهم، ويسألون عن أسئلة ثلاثة، فمن أجاب عليها نجا، ومن لم يجب هلك. وهذه الأسئلة: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما الملة التي متّ عليها؟ ولا يجيب إلا من ثبته الله. عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن ودفنه، فقال: "ثم تعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول "ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينادي مناد من السماء: "أن صدق عبدي". فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [3]. ثم يقول الملكان: عشت سعيدا، ومت حميدا، نم نومة العروس".

أما الكفار والمشركون والمغضوب عليهم والضالون، فسيقولون: لا درينا ولا تلونا، فيتناولهم الملكان بالمقامع، ولات حين مناص.

هناك شروط أربعة، لشهادة أن محمدا رسول الله، لكي تنفع قائلها يوم لا ينفع مال

---

(1) سورة النور، آية 63.

(2) سورة الحشر، آية 7.

(3) سورة إبراهيم، آية 27.

ولا بنون، ويثبت ليقولها في قبره، وهي:

طاعة النبي ﷺ فيما أمر، حيث أمرنا الله تعالى بطاعته، فقال عز من قائل: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ (1). ومطلق دخول الجنة متعلق بمطلق طاعته، فقد قال ﷺ: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى". قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: "من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار". ومن كان محبا للنبي ﷺ، فلا بد أن يطيعه، لأن الطاعة ثمرة المحبة، ومن زعم حبه للنبي ﷺ بدون اقتداء وطاعة، فهو كاذب.

تصديقه ﷺ فيما أخبر: فمن كذب شيئا قد صح عن النبي ﷺ، لشهوة أو هوى، فقد كذب الله ورسوله، لأن النبي ﷺ معصوم عن الخطأ، وما ينطق عن الهوى. قال ﷺ: من كذب عليّ عامدا متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار". وقال ﷺ: "ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم، فيكذب، ويل له ويل له". وقال ﷺ: "فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار".

اجتناب ما نهى عنه ﷺ وزجر: بدءا بأعظم الذنوب وهو الشرك، ومرورا بالكبائر والموبقات، وانتهاء بالصغائر والمكروهات، وعلى قدر محبة المسلم لنبيه ﷺ يزيد إيمانه، وإذا زاد إيمانه، زهّده الله في المحرمات.

ألا يُعبد الله إلا بما شرع.أما قوله: **وأن عيسى عبد الله ورسوله، ففيه بيان الحق الذي يجب اعتقاده، كما في الآيات المحكمات، وما فيها من الرد على كفار النصارى، وهم طوائف ثلاث: طائفة قالوا: إن عيسى هو الله، وطائفة قالوا: هو ابن الله، وطائفة قالوا: هو ثالث ثلاثة. فبين الله تعالى في كتابه الحق، وأبطل الباطل، فقال سبحانه وتعالى:** ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي

(1) سورة النساء، آية 80.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ [1]. وقال وتعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ ﴿١٧﴾ ﴾ [2] وقال تعالى:﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴿٧٣﴾ ﴾ [3].

وأخيرا جاء القول الفصل من الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [4].

إن الجنة حق، أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة، وما فيها من القصور والثمار والفواكه والنعيم، والنظر إلى وجهه الكريم، كما قال تعالى:

﴿ ۞ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [5]. وقال تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [6].

إن النار حق، أعدها الله تعالى لمن كفر به، وأشرك في إلهيته وربوبيته، وألحد في أسمائه وصفاته. ومن لم يؤمن بالجنة والنار، فقد كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

أقسام التوحيد

يقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الذات والأسماء والصفات.

توحيد الربوبية

توحيد الربوبية، هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، وهو العلم والإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، وهو المدبر لأمور خلقه جميعهم. وإفراده سبحان بأفعاله

(1) سورة النساء، آية 171.
(2) سورة المائدة، آية 17.
(3) سورة المائدة، آية 73.
(4) سورة آل عمران، آية 59.
(5) سورة هود، آية 108.
(6) سورة القيامة، آية 23.

كالخلق والرزق.. إلخ. والدين: هو دين الرسل الذين أرسلهم الله تبارك وتعالى إلى عباده. فأولهم نوح ﷺ، أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين، ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ ﴾[1]. ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، ولما لم يفلح معهم النصح والإرشاد طيلة هذه السنين الطويلة، دعا الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ ﴾[2] فاستجاب الله لدعوته، فأخذهم الطوفان، وأدخلوا نارا، نكالا من الله سبحانه.

أما آخر الرسل فهو المصطفى محمد ﷺ، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين. وحطم أصنام المشركين.. أرسله الله تعالى بدين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.. أرسله سبحانه وتعالى إلى البشر كافة، وإلى أناس يتعبدون ويحجون، ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا، ولكنهم كانوا يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله سبحانه وتعالى. وكانوا يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله، ونريد شفاعتهم عنده. قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾ ﴾[3] وقال تعالى على لسانهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ﴿١٨﴾ ﴾[4]. فبعث الله إليهم رسوله محمدا ﷺ، ليجدد لهم دين أبيهم إبراهيم ﷺ، وليخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق لله عز وجل، لا يصلح منه شيء، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل ولا لغيرهما، إلا للواحد الأحد، الفرد الصمد.

كان هؤلاء المشركون مقرّين ومعترفين، يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده

---

(1) سورة نوح، آية 23.

(2) سورة نوح، آية 26-27.

(3) سورة الزمر، آية 3.

(4) سورة يونس، آية 18.

لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ويميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن، والأرضين ومن فيهن، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا، فاقرأ قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[2]

إن هذا الذي جحدوه هو توحيد العبادة، التي هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من أقوال العباد وأفعالهم، مما أمرهم به تعالى في كتابه الكريم، على لسان رسوله محمد ﷺ. ولهذا دعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، وقاتل من طغى وتجبّر، وأبى واستكبر، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. فإن فعلوا ذلك عصم الله دماءهم وأموالهم. وإن أبوا: فعليهم أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإن أبوا: قاتلهم رسول الله ﷺ حتى تكون كلمة الله هي العليا.

توحيد الألوهية

توحيد الألوهية، هو الذي وقع فيه النزاع في قديم الدهر وحديثه، وهو توحيد الله تعالى بأفعال العباد، والتي لا تصلح إلا لله سبحانه، ومن اجل إفراد الله بالعبادة بعثت الرسل وأنزلت الكتب. ومن هذه الأفعال:

- الدعاء، والدليل قوله سبحانه وتعالى:

---

(1) سورة سبأ، آية 24.

(2) سورة المؤمنون، آية 86-89.

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [2]

- **الاستعانة، والدليل قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾** [3]
- **الاستغاثة: والدليل قوله تعالى:**

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [4] **إن الاستغاثة بالمخلوق، على ما يقدر عليه لا أحد ينكرها، كما قال تعالى:** ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [5]**. وكما يستغيث الناس بأصحابهم في الحرب وغيره، في أشياء يقدر عليه المخلوق. أما الاستغاثة بقبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله، فهذا منكر وكفر.**

- **الذبح: والدليل قوله تعالى:** ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [6] **وقوله تعالى:** ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [7]
- **النذر، والدليل قوله تعالى:** ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [8].
- **الخوف، والدليل قوله تعالى:** ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا

---

(1) سورة الجن، آية 18.
(2) سورة غافر، آية 60.
(3)سورة الفاتحة ،آيه 5.
(4) سورة الأنفال، آية 9.
(5) سورة القصص، آية 15.
(6) سورة الأنعام، آية 162.
(7) سورة الكوثر، آية 2.
(8) سورة الإنسان، آية 7.

تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾(1)

الرجاء، والدليل قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (2)

- . وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴿٢١﴾ ﴾ [الفرقان:21]. فالرجاء هنا بمعنى الخوف في لغة تهامة، والخوف: غمّ يلحق بالإنسان لأمر سيقع، أو لما يتوقع. والحزن: غم يلحق بالإنسان لأمر واقع. أما العبد المؤمن، فيرجو رحمة ربة ربه أي الجنة، ولهذا فيجب عليه أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله. ويكون الرجاء إذا جاوز حده أمنا. أما الخوف فيكون إذا جاوز حده أياما. قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:99]. ورغم الحزن والغم الذي يصيب الإنسان، فقد قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:53].

- **التوكل، هو تفويض الأمر إلى من يملك الأمر، والاعتصام بحبله تعالى، وقطع العلائق وترك التملق للخلائق. قال الجنيد رحمه الله: " التوكل أن تقبل بالكلية على ربك، وتعرض بالكلية عما دونه، فإن حاجتك إليه في الدارين ".** والدليل قوله تعالى:﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة:23] **وقال ﷺ: " لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا، وتروح بطانا ". رواه الترمذي وقال حديث حسن.**

---

(1)سورة آل عمران ،آية 175.
(2)سورة الكهف ،آيه 110.

وللتوكل أنواع منها:

1. التوكل على الله في جميع الأمور، من جلب المنافع ودفع المضار، وهو واجب.
2. والتوكل على المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالتوكل على الأموات، وهو شرك أكبر.
3. وتوكيل الإنسان غيره في فعل ما يقدر عليه، كالبيع والشراء ونحوه، وهو جائز.

- الإنابة، وهي التوبة إلى علام الغيوب، والإخلاص له بالقلب، للوصول إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت. والدليل قوله تعالى: ﴿ ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزمر:54].
- المحبة: والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة:165].
- الخشية: وهي الخوف، وهي أم الخير كله. والدليل قوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[التوبة: ١٣] أتخشونهم فالله أحق ان تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾[التوبة: 13]. وفي الحديث: "إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله، تحاتت عنه ذنوبه، **كما تحاتت عن الشجرة اليابسة ورقها". والخشية أو الخوف أربعة أنواع:**

1. خوف تأله وتعبد، وهو الركن الثاني الذي يقوم عليه الإيمان، حيث أن الإيمان يقوم على ركنين: كمال المحبة، وكمال الخوف.
2. خوف السر: وهو الخوف من غير الله، كالخوف من آلهة المشركين أن تصيبه بمكروه وهو شرك أكبر.
3. ترك بعض الواجبات خوفا من الناس، وهو محرم.
4. الخوف الطبيعي كالخوف من السبع وغيره وهو جائز.

الرغبة والرهبة، أي الطمع والخوف، والدليل قوله تعالى:﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:90].

التألّه، وهو الإيمان بوجود إله خالق، فرد أحد صمد، لا إله إلا هو، والدليل قوله تبارك تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:163].

الركوع والسجود، والدليل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴾ [الحج:77].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:33].

الخشوع، وهو الإخبات والتطامن، وهو هيئة في النفس، يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع. والدليل قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران:199].

فمن صرف شيئا من هذه الأنواع لغير الله تعالى، نقول: والله أعلم، فقد أشرك - والعياذ بالله- سبحانه وتعالى عما يشركون.

توحيد الأسماء والصفات

هو إثبات ما أثبته الله ورسوله من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، لله سبحانه وتعالى، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

اعلم يا أخي أن صفات الله صفات جلال، وصفات كمال.

أما صفات الجلال، فنجدها في: القهار، والجبار، والمذل، والمنتقم، والضار.

أما صفات الجمال، فنجدها في: الغفار، والرحمن، والرحيم، وكل الصفات التي تتنزل بها رحمات الله وعطاءاته على خلقه. فمن اتقى صفات جلال الله، أخذ صفات

جماله. ولذلك يقول ﷺ: "إذا كان آخر ليلة من رمضان، تجلى الجبار بالمغفرة"[1].

هناك فرق بين الأسماء والصفات، فالأسماء يشتق منها صفات، كالرحمن يشتق منه الرحمة، والقادر تشتق منه القدرة. كما أن أسماء الله لا تشتق من أفعال الله، فمن أفعاله الغضب، فلا يقال من أسماء الله: الغاضب،

أما الصفات فلا يشتق منها أسماء، مثل صفة الاستواء، فلا يقال من أسماء الله: المستوي، كما أن صفاته تشتق من أفعاله، فتثبت صفة الغضب، لأن من أفعال الله أنه يغضب.

لهذا فإن أسماء الله وصفاته تشترك في جواز الاستعاذة والحلف بها، لكن تختلف في التعبيد وفي الدعاء، فيتعبد الله بأسمائه، ولا يتعبد بصفاته، فمثلا يقال: عبد الكريم، ولا يجوز أن يقال: عبد الكرم، كما أن الله سبحانه يدعى بأسمائه مثل: يا كريم، ولا يجوز أن يقال: يا كرم الله.

قال الله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ ﴿١٨٠﴾ ﴾[2]

يلحدون: من لحد يلحد، أي مال يميل عن الصواب. ومنه الإلحاد والملحد، الذي أمال مذهبه عن الأديان كلها. ويلحدون: أي يسمون الله تعالى بأسماء لا تجوز عليه، نحو أن يقول العبد: يا سخي.. يا رفيق، لأنه لم يسم نفسه بذلك. وذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: سموا اللاّت من الإله، وسموا العزّى من العزيز، وعبد مناف، وعبد شمس وغير ذلك.

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴿١١٠﴾ ﴾[3]

لأن المشروع حقا، هو التوسل بالأسماء والصفات. لأن أسماء الله سبحانه وتعالى، هي أسماء وأوصاف، دلّت على كماله وعظيم قدرته جل وعلا.

---

(1) رواه المتقي في كنز العمال.

(2)سورة الأعراف ،آية :180.

(3)سورة الاسراء، آية :110.

والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة، متقدمهم ومتأخرهم، هو إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ على ما يليق بجلال الله سبحانه وعظمته، إثباتا بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل. كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (1)

قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ 2

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر". أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان، وأخرجه الجرجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله. وزاد بعد قوله يحب الوتر: "هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعزّ، المذلّ، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحيّ، القيوم، الواحد، الأحد، الماجد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البرّ، التواب، المنتقم، العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، النافع، الضارّ،

(1)سورة الشوري،آيه :11.
(2)سورة الحشر ،آيه : 22-24.

النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور.

قال الترمذي: " ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء الحسنى إلا في هذا الحديث، والذي عند الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج. هذا ما ذكره العماد ابن كثير في تفسيره ". ثم قال: " ليعلم أن الأسماء ليست منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: " ما أصاب أحدا قطّ همّ ولا حزن فقال: " اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وذهاب حزني، وجلاء همّي وغمّي ". إلا أذهب الله همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا. فقيل: " يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ " فقال: " بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها ". اخرجه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه.

الشرك

أما الشرك فهو ضد التوحيد، وهو بمنزلة النجس، وهو ثلاثة أنواع:

الشرك الاكبر

وهو الذي يخرج من الإسلام، ولا يغفر الله لصاحبه. والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:48].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:72]

وهذا الشرك أربعة أنواع:

1. شرك الدعاء والمسألة، والدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت:65]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (1)شرك النيّة والإرادة والقصد، والدليل قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود:15-16].

النية في اللغة نوع من القصد والإرادة، وهي في كلام العلماء تقع بمعنيين:

أحدهما:

تمييز العبادات بعضها عن بعض، كتمييز صلاة الظهر عن صلاة العصر مثلا، وتمييز رمضان من صيام وغيره. أو تمييز العبادات من العادات، كتمييز الغسل من الجنابة، من غسل التبرد والتنظيف ونحو ذلك.

والمعنى الثاني:

بمعنى تمييز المقصود بالعمل، وهل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره؟ وهذه هي النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم عن الإخلاص وتوابعه. لهذا قال رسول الله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى". رواه البخاري ومسلم.

هناك فرق بين النية وبين والإرادة والقصد، فمن العلماء من قال: النية تختص بفعل الناوي، والإرادة لا تختص بذلك، كما يريد الإنسان من الله أن يغفر له ولا ينوي ذلك. ولكن النية في كلام النبي ﷺ وسلف الأمة، إنما يراد بها المعنى الثاني غالبا، فهي حينئذ بمعنى الإرادة، ولذلك يعبر عنها بلفظ الإرادة في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران:152].

---

(1)سورة لقمان، آيه : 33.

وخرج ابن ماجة من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: " يحشر الناس على نياتهم ".

3. شرك الطاعة، وهي طاعة المخلوق في معصية الخالق. والدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:31]. وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: على المرء المسلم السمع والطاعة، فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة ". متفق عليه. وقال ﷺ: " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ".

4. شرك المحبة، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ ﴾ [البقرة:165].

أما المحبة الحقيقية، فهي أربعة أنواع:

1. محبة الله سبحانه وتعالى، وهي أصل الإيمان.
2. المحبة في الله، وهي موالاة المؤمنين وحبهم جملة، وأما آحاد المؤمنين فكل يحب على قدر حبه من الله تعالى.
3. محبة مع الله، وهي إشراك غير الله في المحبة الواجبة، كمحبة المشركين لآلهتهم، وهي أصل الشرك.
4. محبة طبيعية، وهي أقسام: محبة إجلال كمحبة الوالدين. ومحبة شفقة، كمحبة الولد. ومحبة مشاكلة كمحبة سائر الناس. ومحبة فطرية كمحبة الطعام.

أما أقسام الناس في الولاء والبراء، فهم ثلاثة:

1. من يحب محبة خالصة لا معاداة معها، وهم المؤمنون الخلص من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.
2. من يبغض بغضا خالصا لا محبة ولا موالاة معها، وهم الكفار كأهل الكتاب

والمشركين.

3. من يحب من وجه ويبغض من وجه آخر، وهم عصاة المؤمنين، فيحب لما عنده من الإيمان، ويبغض ما عنده من معاصي، وعلى قدر زيادة أحدهما على الأخر، يزيد الولاء والبراء.

الشرك الأصغر

وهو الرياء، ولا يخرج صاحبه من الإسلام، والدليل قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:110].

وقال سبحانه تعالى: ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء:142]

وقال تعالى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الماعون:7].وقال تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ { البقرة: 264}.

والرياء أربعة أقسام:

1. أن يكون الرياء هو سبب العمل كحال المنافق، الذي يقول سبحانه وتعالى عنه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (1).
2. أن يكون العمل لله والرياء معا، وهذا النوع والذي قبله صاحبه مأزور غير مأجور، وعمله مردود عليه.
3. أن يكون العمل لله، فإذا دخلت عليه نية الرياء، ودافع العبد هذا الرياء وأعرض عنه لم يضره، وإن استرسل معه واطمأنت نفسه إليه فإن العبادة تبطل.
4. أن يكون الرياء بعد العمل، فهذه وساوس لا أثر لها على العمل، ولا على العامل.

---

(1) سورة الحشر، آية 16.

وهناك أبواب كثيرة للرياء على المسلم أن يتفقدها في نفسه، مثل طلب العلم لمباهاة العلماء أو مماراة السفهاء. ومثل ذم النفس أمام الناس ليقولوا متواضع.

قال رسول الله ﷺ: " من سمّع سمّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به "[1]. وقال ﷺ: "أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء، وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه".

الشرك الخفي

والدليل عليه قوله ﷺ: "الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء، على صفاة سوداء، في ظلمة الليل". وكفارته قوله ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئا وأنا أعلم، واستغفرك من الذنب الذي لا أعلم".

أما الكفر، فمعناه الستر، وكفر بالله أي ستر وجود الله. وهو كفران:

الكفر الأكبر، وهذا الكفر يخرج من الملّة، وهو خمسة أنواع:

1. كفر التكذيب، والدليل قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت:68].

2. كفر الإباء والاستكبار مع التصديق، والدليل قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة:34].

3. كفر الشك، وهو التردد بين أمرين. والدليل قوله تعالى:

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن

(1) سمّع الله به: فضحه يوم القيامة. يرائي به: يظهر سريرته.

تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الكهف:35-38].

4. كفر الإعراض: وهو التولية عن المواثيق، والابتعاد عن الإيمان، وتدبر آيات الله، فالمعرضون غافلون لا يؤمنون ولا يهتمون ولا يعتبرون. والدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأحقاف:3].

5. كفر النفاق، والدليل قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾[1].

واعلم يا أخي أن الكافرين قسمان: قسم كفر بالله أولا، ثم استمع إلى كلام الله، واستقبله بفطرته السليمة، فاستجاب وآمن. وقسم آخر مستفيد من الكفر، ومن الطغيان، ومن الظلم، ومن أكل حقوق الإنسان وغير ذلك. وهذا الصنف من الكفار يعرف أن الإيمان إذا جاء إليه فإنه سيسلبه جاها دنيويا، ومكاسب يحققها ظلما وعدوانا، وهو متشبث به مهما جاءه من الإيمان والأدلة الإيمانية، فإنه يعاند ويكفر.

الكفر الأصغر

وهو الكفر الذي لا يخرج من الملّة، وهو: كفر النعمة، والدليل قوله تعالى: وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:112].

أما النفاق ، فهو إظهار الموافقة وإضمار الخلاف، وهو نوعان:

النفاق الاعتقادي الأكبر، وهو أن يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وهو ستة أنواع: تكذيب الرسول ﷺ، أو تكذيب بعض ما جاء به الرسول، أو بغض الرسول، أو بغض ما جاء به الرسول، أو المسرة بانخفاض دين الرسول، أو الكراهية لانتصار

(1)سورة المنافقون ،آيه: 3.

دين الرسول. فهذه الأنواع الستة، صاحبها من أهل الدرك الأسفل من النار. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾[النساء:145]. ولهم صفات يتصفون بها. فهم يخادعون الله والذين آمنوا ويسخرون من المؤمنين، وإذا خلوا بمحارم الله انتهكوها، وينصرون الكفار على المسلمين، ويريدون بأعمالهم الصالحة عرضا من الدنيا. ويكون المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به". حديث حسن صحيح.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ قال: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار". رواه البخاري.

وعن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "نضر الله امرءا سمع منا شيئا، فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع". رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

النفاق العملي الأصغر، وهذا النوع لا يخرج صاحبه من الملة، وهو خمسة أنواع: والدليل قوله ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان. وزيد في رواية: وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر". وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: أربع من كن فيه كان منافقا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر". خرجه البخاري ومسلم.

نعوذ بالله من النفاق، والشقاق، وسوء الأدب. فحاسب نفسك يا أخي المسلم قبل أن تحاسب.

اعلم يا أخي المسلم أن الناس في هذه الدنيا على ثلاثة أحوال: إما مؤمن، أو كافر، أو منافق.

أما المؤمنون، فهم الذين قال تعالى عنهم: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾{ البقرة: ٣ }أما الكافرون، فهم الذين يقول الله تعالى عنهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ {البقرة: ٦}

أما المنافقون، فهم أشد خطرا من الكافرين، وقد وصفهم الله تعالى في مواضع كثيرة في كتابه العزيز، فهم:

- يتظاهرون أمامك بالإيمان، ولكنهم يبطنون الشر والكفر.
- يتخذون إيمانهم المزيف سلاحا لطعن الدين وهدمه.
- يخادعون الله والذين آمنوا ولا يخدعون إلا أنفسهم.
- يعرفون في لحن القول والله يعلم أعمالهم.
- في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم.
- يفسدون في الأرض ويزعمون أنهم مصلحون.
- حينما يدعون إلى الإيمان يرفضون ويقولون أنؤمن كما آمن السفهاء.
- إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون.
- اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم.
- ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.
- صم بكم عمي فهم لا يرجعون.

واعلم يا أخي المسلم أن في قلب كل منافق ظلمات متعددة، منها: ظلمات الحقد على المؤمنين، وظلمات الكراهية لهم، وظلمات أن يصيبهم شر وسوء، وظلمات تمني هزيمة الإيمان، وظلمات التمزق والألم الذي يبذله للتظاهر بالإيمان، وظلمات الكفر في قلبه.

واعلم يا أخي المسلم، أن المسلم ملكاته منسجمة، لأنه اعتقد بقلبه، في الإيمان، ونطق لسانه بما يعتقد، فلا تناقض بين ملكاته أبدا.

فيعيش في خوف ورعب عميقين.

وزيادة على ذلك، فإن المنافق بينه وبين ربه تناقض، وبينه وبين نفسه تناقض، وبينه وبين مجتمعه تناقض، وبينه وبين آخرته تناقض، وبينه وبين الكافرين تناقض. وسيبقى هذا التناقض إلى آخر يوم في الدنيا، ثم ينتقل معه إلى الآخرة، ليقوده إلى الدرك الأسفل من النار.

التوبة

التوبة: هي الرجوع إلى الحق، والتطهر بكل صدق ونية وإخلاص، وتقطيع القلب ندما وأسفا على التفريط، والاعتراف بالذنب، مع عدم الرجوع إلى اتباع الأهواء والشهوات. يقال: عبد تائب: إذا رجع إلى طاعة مولاه التواب الرحيم، ويقال: وعبد تواب: كثير الرجوع. قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، وهي فرض على المؤمنين لقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1]. وقال تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ [2].

إن التوبة واجبة على الفور، وبلا إمهال، والإنسان غير معصوم عن الخطأ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: "كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون". رواه الترمذي. ولكن المشكلة هي في الإصرار على الذنب، وتأخير التوبة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها". رواه أحمد.

قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [3].

---

(1) سورة النور، آية 31.

(2) سورة المائدة، آية 39.

(3) سورة الزمر، آية 53.

وقال تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى، قال: "أذنب عبد ذنبا، فقال: الله اغفر لي ذنبي. فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: قد غفرت لعبدي، فليفعل ما شاء". متفق عليه.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [2].

هذه الآية الكريمه دعوة للعصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا، لمن تاب منها توبة نصوحا، ورجع عنها، وإن كانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه، وبقي صاحبه سادرا في غيّه وضلاله. قال زرّ بن حبيش: قلت لأبي بن كعب: "فما التوبة النصوح؟ قال: سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: "هو الندم على الذنب حين يفرط منك، فتستغفر الله بندامتك منه، عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبدا".

وعن أبي بن كعب قال أبو عمرو بن العلاء قال: سمعت الحسن يقول: "أن تبغض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته". أما إذا جزم العبد بالتوبة وصمم عليها، فإنها تجبّ ما قبلها من الخطيئات، لعموم قوله ﷺ: "التوبة تجبّ ما قبلها". أي أن التوبة تهدم ما قبلها، ولكنها لا تكون توبة نصوحا مقبولة عند الله، إلا إذا اشتملت على خمسة شروط:

الأول: الإخلاص لله عز وجل، بأن يكون الدافع للإنسان على التوبة خوفه عز

(1) سورة غافر، آية 3.

(2) سورة النساء، آية 17.

وجل ورجاء ثوابه. لأن الإنسان قد يتوب من الذنب من أجل أن يمدحه الناس، أو من أجل دفع مذمة الناس له. أو من أجل مرتبة يصل إليها، أو من أجل مال يحصل عليه، كل هؤلاء لا تقبل توبتهم، لأن التوبة يجب أن تكون خالصة لوجه الله تعالى.

الثاني: من شروط كون التوبة نصوحا: الندم على ما حصل من الذنب، ولا بد أن يندم، إذا ذكر عظمة الله تعالى.

الثالث: أن يقلع عن الذنب، فلا تصح التوبة مع الإصرار على الذنب، لأن التائب هو الراجع.

الرابع: أن يعزم عزما تاما ألا يعود إلى الذنب.

الخامس: أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه التوبة، لأنه يأتي أوقات لا تقبل فيها التوبة، وذلك في حالين:

1. إذا حضره الموت، فإن توبته لا تقبل، لقول الله تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾[1]. وذلك بعد ما عاين الموت وشاهد العذاب. يقول: تبت فلا ينفع هذا.

   وهذا مثال واقع لهذه المسألة: إن فرعون لما أدركه الغرق:

   ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2]. ولهذا فلا بد من المبادرة بالتوبة، لأنك لا تدري في أي وقت يحضرك الموت.

---

(1) سورة النساء، آية 18.

(2) سورة يونس، آية 90 – 91.

2. إذا طلعت الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها، ورآها الناس آمنوا، ولكن الله تعالى يقول: ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾[1]. لأنه ليس إيمانا اختياريا، بل هو إيمان دفع العذاب والبأس عن النفس.

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: "ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض".

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: بادروا بالأعمال ستا: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، وخاصة أمركم، وأمر العامة".

وفي الترمذي عنه عن النبي ﷺ قال: بادروا بالأعمال سبعا: هل تنتظرون إلا إلى فقر منس، أو غنى مطغ، أو مرض مفسد، أو هرم مفند، أو موت مجهز، أو الدجال فشر غائب منتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر".

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها". رواه مسلم.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه". رواه مسلم.

وخرج أحمد والنسائي والترمذي ابن ماجه من حديث صفوان بن عسال عن النبي ﷺ قال: "إن الله فتح بابا قبل المغرب عرضه سبعون عاما للتوبة، لا يغلق حتى تطلع الشمس منه".

وفي المسند عن عبد الرحمن بنو عوف عن عبد الله بن عمر عن النبي ص قال: "لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما

(1) سورة الأنعام، آية 158.

فيه، وكفى الله العمل".

وتصح التوبة قبل أن تغرغر الروح في سكرات الموت، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: "إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر". رواه الترمذي وقال حديث حسن.

وإذا سأل سائل: هل التوبة تصح من كل الذنوب؟ وما أجر التائب؟ فالجواب: نعم، التوبة تصح من كل الذنوب، وجزاء التائب إن صدق في توبته أن تبدل سيئاته حسنات، وإن كثرت.

وعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على راهب – عابد من عبّاد بني إسرائيل – فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلقْ إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله تعالى فاعبد معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصّف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم – حكما – فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة". متفق عليه. وفي رواية في الصحيح: "فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي".. فقاسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له".

وإذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، ولا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط:

الأول: أن يقلع عن المعصية.

الثاني: أن يندم على فعلها والندم على الماضي من الذنوب.

الثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبدا. فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي، فشروطها أربعة: الثلاثة الأولى، والرابعة: أن يبرأ

من حق صاحبها، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه، وإن كان حد قذف ونحوه مكّنه منه أو طلب عفوه. وإن كان غيبة استحله منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي.

وعن الأغر بن يسار المزني قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس، توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مائة مرة". رواه مسلم.

وعن أبي حمزة أنس بن مالك الأنصاري خادم رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لله أفرح بتوبة عبده من أحد سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة". متفق عليه. وفي رواية لمسلم: "لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح".

ذكر الله سبحانه وتعالى

فضلنا الله سبحانه وتعالى على سائر المخلوقات بالكلام، وأداته اللسان، وهي نعمة مستعملة بالخير أو الشر، فمن استعملها بخير بلغته السعادة في الدنيا، والمنازل العلى في الجنة، ومن استعملها بغير ذلك، أوردته المهالك في الدنيا والآخرة.

والذكر: هو كل ما يجري على اللسان والقلب، من تسبيح الله سبحانه وتعالى، وتنزيهه وحمده، والثناء عليه، ووصفه بصفات الكمال، ونعوت الجلال والإكرام.

إن الذكر يطرد الشيطان ويقمعه، ويرضي الرحمن ويزيل الهم والغم عن القلب، ويجلب له الفرح والسرور، ويقويه وينوره. كما أنه يجلب الرزق ويكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، ويورث المحبة المراقبة والإنابة وهي الرجوع إلى الله. والذكر نور للذاكر في الدنيا ونور في قبره، ونور له في معاده، ويوجب صلاة الله تعالى وملائكته على الذاكر، ويباهي الله بالذاكرين ملائكته، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟"

أمر الله سبحانه وتعالى بالإكثار من الذكر، فقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً

وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾[1]. وأخبر أنه سيذكر ذاكره، فقال سبحانه: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴿٢٠٠﴾ ﴾[3].

وعن الحسن قال: قال موسى: "يا رب، كيف يستطيع ابن آدم أن يؤدي شكر ما صنعت إليه؟ خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنتك، وأمرت الملائكة فسجدوا له. فقال: يا موسى، علم أن ذلك مني، فحمدني عليه، فكان ذلك شكرا لما صنعته".

وجاء في الحديث القدسي الذي رواه البخاري ومسلم: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ بشبر، تقربت إليه ذراعا، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة".

اختص الله سبحانه وتعالى أهل الذكر بالتفرّد والسبق، فقال ﷺ: "سبق المفرّدون". قالوا: وما المفرّدون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات". رواه مسلم.

وخرج أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه سئل: أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟قال :الذاكرون الله كثيرا".

وقال أحمد بن أبي الحواري، حدثني أبو المخارق قال: قال رسول الله ﷺ: "مررت ليلة أسري بي برجل مغيب في نور العرش، فقلت: من هذا؟ أملَك؟ قيل: لا. قلت: أنبي؟ قيل: لا. قلت: من هو؟ قال هذا رجل كان لسانه رطبا بذكر الله، وقلبه معلق بالمساجد، ولم يستسبّ والديه قط".

وفي رواية عن ابن عباس مرفوعا: أكثروا ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم تراؤون".

وخرج ابن حبان في صحيحه من حديث معاذ بن جبل قال: "آخر ما فارقت عليه

---

(1) سورة الأحزاب، آية 42.

(2) سورة البقرة، آية 152.

(3) سورة البقرة، آية 200.

رسول الله ﷺ أن قلت له: أي الأعمال خير وأقرب إلى الله؟ قال: أن تموت ولسانك رطب بذكر الله".

وعن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: "مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر، مثل الحي والميت". رواه البخاري.

إن الذكر هو رأس الأعمال الصالحة، فمن وفق له قد أعطي منشور الولاية، ولهذا كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه، ويوصي الرجل الذي قال له: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبث به؟ فيقول له ﷺ: "لا يزال فوك رطبا من ذكر الله". ويقول لأصحابه: "ألا أنبأكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، خير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق (الفضة)، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: "ذكر الله". رواه الترمذي وأحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما عمل آدمي عملا قط، أنجى له من عذاب الله، من ذكر الله عز وجل". رواه أحمد.

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان جذع يقوم إليه رسول الله ﷺ، يعني في الخطبة، فلما وضع المنبر، سمعنا للجذع مثل صوت العشار[1]، حتى نزل النبي ﷺ، فوضع يده عليه فسكن". وفي رواية: فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها، حتى كادت أن تنشق". وفي رواية: فصاحت صياح الصبي، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكّت، حتى استقرت. قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر". رواه البخاري.

وصف الله سبحانه وتعالى أولي الألباب، الذين ينتفعون بالنظر في آياته ويتدبرون قرآنه بأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[2]. وقال تعالى:

---

(1) الناقة التي انتهت في حملها إلى عشرة أشهر.

(2) سورة آل عمران، آية 191.

﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [1].

سئل الإمام أبو عمرو بن الصلاح عن القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات، فقال: "إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحا ومساء، وفي الأوقات والأحوال المختلفة ليلا ونهارا، كان من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات". وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآيات، قال: "إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة، إلا جعل لها حدا معلوما، وعذر أهلها في حالة العذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدا ينتهي إليه. ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على تركه". وقال ابن عباس: "اذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم.. بالليل والنهار، والبر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والراحة والتعب، والسر والعلانية، وعلى كل حال".

إن المقصود من الذكر تزكية الأنفس وتطهير القلوب، وإيقاظ الضمائر. وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [2]. أي أن ذكر الله في النهي عن الفحشاء والمنكر أكبر من الصلاة، وذلك لأن الذاكر حين ينفتح لربه جنانه، ويلهج بذكره لسانه، يمدّه الله بنوره، فيزداد إيمانا إلى إيمانه، ويقينا إلى يقينه، فيسكن قلبه، ويطمئن به:
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [3].

وإذا اطمأن القلب للحق، اتجه نحو المثل الأعلى، وأخذ سبيله إليه، دون أن تلفته عنه نوازع الهوى، ولا دوافع الشهوة. ومن ثم عظم أمر الذكر وجل خطره في حياة الإنسان. ومن ير المعقول أن تتحقق هذه النتائج بمجرد لفظ يلفظه اللسان، فإن حركة اللسان قليلة الجدوى، ما لم تكن مواطئة للقلب، وموافقة له. وقد أرشد الله تعالى إلى

(1) سورة الأحزاب، آية 35.

(2) سورة العنكبوت، آية 45.

(3) سورة الرعد، آية 28.

الأدب الذي ينبغي أن يكون عليه المرء أثناء الذكر، فقال تبارك تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[1].

هذه الآية الكريمة، تشير إلى أنه يستحب أن يكون الذكر سرا، لا ترتفع به الأصوات، وقد سمع رسول الله ﷺ جماعة من الناس، رفعوا أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال: "يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا، إن الذي تدعونه سميع مجيب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته".

ومن أدب الذكر أن يكون الذاكر نظيف الثوب، طاهر البدن، طيب الرائحة، فإن ذلك مما يزيد النفس نشاطا، ويستقبل القبلة ما أمكن، فإن خير المجالس ما استقبل به القبلة.

مجالس الذكر

قال سعيد بن جبير: "كل عامل لله بطاعة الله، فهو ذاكر لله". وأراد بعض السلف أن يخصص هذا العام، فقصر الذكر على بعض أنواعه، منهم عطاء الذي يقول: "مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم، وتنكح وتطلق، وتحج وأشياء من ذلك". وقال القرطبي: "مجلس ذكر" يعني مجلس علم وتذكير، وهي المجالس التي يذكر فيها كلام لله وسنة رسوله، وأخبار السلف الصالحين، وكلام الأئمة الزهاد المتقدمين، المبرّأين من التصنع والبدع، والمنزهة عن المقاصد الرديئة والطمع".

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

أما عن الجلوس في مجالس الذكر، فقد جاء في ذلك العديد من الأحاديث الشريفة،

---

(1) سورة الأعراف، آية 205.

(2) سورة القمر، آية 32.

(3) سورة الذاريات، آية 55.

نذكر بعضا منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده". رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، أنهما شهدا أن رسول الله ﷺ قال: "لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى، إلا حفّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده".

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: "إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا". قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: "حِلَق الذكر، فإن لله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر، فإذا أتوا عليهم حفّوا بهم".

وروى مسلم عن معاوية أنه قال: "خرج رسول الله ﷺ على حلْقة من أصحابه، فقال: "ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنّ به علينا". قال: آلله، ما أجلسكم إلا ذاك". قالوا: آلله، ما أجلسنا إلا ذاك. قال: "أما إني لم أستحلفكم تهمة مني، ولكنه أتاني جبريل، فأخبرني أن الله تعالى يباهي بكم الملائكة".

أما عن جلوس العبد في مجلس لا يذكر الله سبحانه وتعالى فيه، ولا يصلى على نبيه ﷺ، فقد ورد ما يلي:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "ما قعد قوم مقعدا لم يذكروا اسم الله فيه، ولم يصلوا على النبي ﷺ، إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة". رواه الترمذي وقال: حسن. ورواه أحمد بلفظ: "ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه، إلا كان عليهم تِرَة[1]، وما من رجل يمشي طريقا، فلم يذكر الله تعالى، إلا كان عليه ترة".

أما عن ذكر كفارة المجلس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ. "من جلس مجلسا فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: "سبحانك الله وبحمدك،

(1) الترة: الحسرة أو النقص أو التبعة.

أشهد أن لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك، إلا كفّر[1] الله له ما كان في مجلسه ذلك "وعن أبي اسحق عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين".

فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

التسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزه. قال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ﴾[2]. يعني: نزّه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، سبّحه ذاكرا اسمه، بالقلب واللسان.

أما عن فضل التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، فعن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: استكثروا من الباقيات الصالحات". قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة الا بالله". رواه النسائي والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وعنه ﷺ أنه قال: من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر".

وعند أحمد أنه ﷺ قال: "إن ما تذكرون من جلال الله عز وجل من التهليل والتكبير والتحميد، يتعاطفن حول العرش، لهم دويّ كدويّ النحل، يذكرون بصاحبهن، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به".

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "للإنسان ثلاثمائة وستون عظما، أو ستة وثلاثون سلامى، عليه في كل يوم صدقة. قالوا: فمن لم يجد؟ قال: يأمر بالمعروف وينهى

---

(1) كفّر: ستر.

(2) سورة الأعلى، آية 1.

عن المنكر. قالوا: فمن لم يستطع؟ قال: فليرفع عظما عن الطريق. قالوا: فإن لم يستطع؟ قال: فليعن ضعيفا. قالوا: فمن لم يستطع؟ قال: فليدع الناس من شره".

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يصبح على كل سلامى[1] من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى". رواه مسلم.

قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾[2].

يبين الله سبحانه وتعالى أنه بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة: الزرع والشجر، والماء الزلال العذب البارد، ولو شاء لجعله ملحا أجاجا كالبحار المغرقة، وخلق الشجر الذي منه توقد النار، وجعل ذلك لمصلحة العباد، ومنفعة لهم في معاش دنياهم.

للعرب شجرتان: واحدة يقال لها المرخ، والثانية يقال لها العفار، فإذا أخذ منها غصنان أخضران، فحك أحدهما بالأخر، تباين من بينهما شرر النار. سبحانك يا ربنا وتعاليت، يا قادر على كل شيء... وهذه قطرة من بحر فضله ونعمه. وما دمنا نؤمن

---

(1) سلامى: بضم السين: المفصل. وهو في الأصل يكون في فرسن البعير. وقيل: عظم في طرف اليد والرجل، وذكر علماء الطب أن جميع عظام البدن 248 عظما، والباقي 112 عظما تسمى السمسمانيات. وبعضهم يقول: 360 عظما، يظهر منها للحس 265 عظما، والباقي 95 عظما صغيرا، لا تظهر وتسمى السمسمانية.

(2) سورة الواقعة، آية 64-74.

بقدرته العظيمة، وبنعمه التي لا تحصى، ألا يستحق منا رد الجميل بالتسبيح؟ فسبح باسم ربك العظيم.

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ (1).

أليس من الواجب عليك أيها الإنسان أن تسبح باسم ربك العظيم، حتى لا تكون من المكذبين الضالين، ولا تنزل نزلاً من حميم، وأن لا تصلى بنار الجحيم. ولما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: "اجعلوها في ركوعكم".

وعنه ﷺ أنه قال: "من قال سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة".

ولما نزل قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ (2). قال رسول الله ﷺ: "اجعلوها في سجودكم".

أما التسبيح فمعناه في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ (3): أي نصطف ثابتين في مكاننا للعبادة، فنسبح الرب ونمجده، ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه خاضعون لديه.

وردت قصة النبي يونس بن متى عليه السلام في سورة الأنبياء وفي سورة الصافات، حين ركب مع جماعة في سفينة تلعّبت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر، لتخفّ بهم السفينة. فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه السلام ثلاث مرات، وهم يضنّون به أن يلقى من بينهم. فتجرّد من ثيابه ليلقي نفسه، وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتا أن يشق البحر، وأن يلتقم يونس، فلا يهشم له لحما، ولا يكسر له عظما، فجاء ذلك الحوت، وألقى يونس عليه السلام نفسه فالتقمه الحوت، وذهب به فطاف به البحر. ولما استقر يونس في بطن الحوت،

---

(1) سورة الواقعة، آية 92-96.

(2) سورة الأعلى، آية 1.

(3) سورة الصافات، آية.

حسب أنه قد مات، ثم حرّك رأسه ورجليه وأطرافه، فإذا هو حيّ، فقام فصلى في بطن الحوت، قال تبارك تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ ﴾[1]. وكان من جملة دعائه: "يا رب، اتخذت لك مسجدا، في وضع لم يبلغه أحد من الناس". والله أعلم.

عن أنس مرفوعا عن النبي ﷺ قال: إن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو وهو في بطن الحوت فقال: اللهم لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش. قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف، من بلاد بعيدة غريبة. فقال الله تعالى: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، من هو؟ قال عز وجل: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء، فتنجيه في البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء". رواه ابن جرير.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ۝ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ۝ ﴾[2].

فلولا أنه كان من المسبّحين: أي لولا ما تقدم له من العمل والتقديس والتنزيه والتسبيح في الرخاء، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون.

اختلف في مقدار ما لبث عليه السلام في بطن الحوت. قال مجاهد عن الشعبي: "التقمه ضحى ولفظه عشية". وقيل ثلاثة أيام قاله قتادة، وقيل سبعة، وقيل غير ذلك. والله تعالى أعلم بذلك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم".

---

(1) سورة الأنبياء، آية 87 -88.

(2) سورة الصافات، آية 143- 146.

رواه الشيخان والترمذي.

وعند مسلم: أن النبي ﷺ قال: "أحب الكلام إلى الله أربع، لا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس". رواه مسلم والترمذي.

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن العبد إذا قال: سبحان الله، فهي صلاة الخلائق، وإذا قال: الحمد لله، فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها، وإذا قال: لا إله إلا الله، فهي كلمة الإخلاص التي لم يقبل الله من عبد قط عملا حتى يقولها، وإذا قال: الله أكبر، ملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، قال الله: أسلم واستسلم".

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟ قلت: أخبرني يا رسول الله. قال: "إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده". ورواه مسلم والترمذي ولفظه: "أحب الكلام إلى الله عز وجل ما اصطفى الله لملائكته: سبحان ربي وبحمده، سبحان ربي وبحمده".

وعن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها، أن النبي ﷺ خرج من عندها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: "ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم. قال النبي ﷺ: "لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: "سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته". رواه مسلم وأبو داود.

وخرج ابن أبي الدنيا بإسناد له أن النبي ﷺ قال لمعاذ: "يا معاذ، كم تذكر ربك كل يوم؟ تذكره كل يوم عشرة آلاف. قال: كل ذلك أفعل. قال: أفلا أدلك على كلمات هن أهون عليك من عشرة آلاف وعشرة آلاف، أن تقول "لا إله إلا الله عدد ما أحصاه علمه، لا إله إلا الله عدد كلماته، لا إله إلا الله عدد خلقه، لا إله إلا الله زنة عرشه، لا إله إلا الله ملء سمواته، لا إله إلا الله ملء أرضه، لا إله إلا الله مثل ذلك معه، لا إله إلا الله

مثل ذلك معه، لا إله إلا الله مثل ذلك معه".

فضل الاستغفار

كثر ذكر الاستغفار في القرآن الكريم، فتارة يؤمر به كقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]. وتارة يمدح أهله كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2]. وتارة يذكر أن الله يغفر لمن استغفره كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[3].

وكثيرا ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان، وتارة يفرد الاستغفار ويترتب عليه المغفرة. ولهذا فإن أفضل الاستغفار ما قرن به ترك الإصرار.

أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالاستغفار، لستر الذنوب، مع محوها والتجاوز عنها. ووعدهم بأنه سبحانه سيغفر لهم ما اقترفوه من ذنوب، عدا الكبائر والشرك، لمن لم يتب منها. قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[5]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا

(1) سورة البقرة، آية 199.
(2) سورة آل عمران، آية 135.
(3) سورة النساء، آية 110.
(4) سورة المزمل، آية 20.
(5) سورة محمد، آية 19.
(6) سور النساء، آية 110.

كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (1).

أما عن فضل الاستغفار، فقال تعالى على لسان نوح يعظ قومه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ (2).

ولكنهم رفضوا الاستغفار طيلة ألف سنة إلا خمسين عاما، فدعا نوح ربه قائلا:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح:26-27] (3). فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء سيدنا نوح، وكان مصير قومه الطوفان.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "سيد الاستغفار أن يقول العبد: "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء إليك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. قال: من قالها من النهار موقنا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة". رواه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك تعالى: "يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي.. يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني ولم تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة". رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "والذي نفسي بيده،

---

(1) سورة الأنفال، آية 33.

(2) سورة نوح، آية 10- 12.

(3) سورة نوح، آية 26-27.

لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم. والذي نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا لجاء بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم". تفرد به أحمد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب". رواه أبو داود.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم، وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لهم". رواه مسلم.

وعن أبي أيوب الأنصاري قال حين حضرته الوفاة: "قد كنت كتمت عنكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ يقول: "لولا أنكم تذنبون، لخلق الله عز وجل قوما يذنبون فيستغفرون، فيغفر لهم". رواه أحمد وأخرجه مسلم والترمذي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "الاستغفار باللسان، والندم بالجنان، والإقلاع بالأركان".

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "يا معشر النساء، تصدّقن، وأكثرن من الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر اهل النار". قالت امرأة منهن: ما لنا أكثر أهل النار؟ قال: "تكثرن اللعن وتكفّرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكن". قالت: ما نقصان العقل وَالدين؟ قال: "شهادة امرأتين بشهادة رجل، وتمكث الأيام لا تصلي". رواه مسلم. وفي رواية: عن أبي هريرة: "أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟" قلن: "بلى، فذلك من نقصان دينها".

الدعاء

إن الخلق كلهم مفتقرون إلى الله سبحانه، ومحتاجون لما عنده من النعم التي لا تحصى، وهو غني عنهم غير محتاج إليهم، ولهذا أمرهم الله سبحانه أن يدعوه ويضرعوا إليه، ووعدهم أن يستجيب لهم، ويحقق لهم سؤلهم ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ

أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

وروى عبد الرزاق عن الحسن، أن أصحاب رسول الله ﷺ سالوه: " أين ربنا؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴿١٨٦﴾ ﴾[2].

خرّج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، وإن الله تعالى لا يقبل دعاء من قلب غافل ساه ".

إن للدعاء منزلة عظيمة عند الله، وهو أكرم شيء عليه سبحانه، ودعاء المسلم مستجاب، ولا شك إن وجدت الأسباب وانتفت الموانع، ويعطى بهذا الدعاء أحد أمور، يقول رسول الله ﷺ: ما من مسلم يدعو بدعوة ليس بها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها. قالوا: إذا نكثر: قال: الله أكثر ". رواه احمد والترمذي.

إن الدعاء نوعان: دعاء عبادة كالصلاة والصيام، ودعاء مسألة. والاستجابة نوعان: استجابة دعاء الطالب بإعطائه سؤله، واستجابة دعاء المُثني بالثواب. وبكل واحد من النوعين فُسر قوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴿١٨٦﴾ ﴾[3].

أما أسباب إجابة الدعاء، فهناك أسباب ظاهرة، وأخرى باطنة.

أما **الأسباب الظاهرة**، فبتقديم الأعمال الصالحة كالصدقة والوضوء، والصلاة واستقبال القبلة ورفع اليدين والثناء على الله بما هو أهله، واستعمال أسماء الله الحسنى، بما يتناسب مع المدعي به.

أما دعاء المسألة، ينبغي أن يستفتح رجاء أن يقبل بالآتي:

عن بريدة أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول: " اللهم إني أسالك باني أشهد انك

---

(1) سورة غافر، آية 60.

(2) سورة البقرة، آية 186.

(3) سورة البقرة، آية 186.

أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. فقال ﷺ: لقد سألت الله بالاسم الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب". رواه أبو داود والترمذي وحسنه.

وأخرج ابن أبي الدنيا في الدعاء والطبراني وابن مردويه والهروي في فضائله والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي أمامة يرفعه، قال: اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور: سورة البقرة، وآل عمران، وطه. قال أبو أمامة: فالتمستها، فوجدت في البقرة في آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[1]. ووجدتها في سورة آل عمران: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[2]. وفي سورة طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾[3].

وعن أنس قال: مر رسول الله ﷺ بأبي عياش زيد بن الصامت الزرقي، وهو يصلي ويقول: "اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، يا حنّان، يا منّان، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم". فقال رسول الله ﷺ: لقد سألت الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى". رواه أحمد وغيره. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من دعا بهؤلاء الكلمات الخمس، لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه: لا إله إلا الله، والله أكبر، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله". رواه الطبراني بسند حسن.

وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء". وروى الترمذي عنه، أنه ﷺ قال: "من سرّه أن يستجيب الله تعالى له

(1) سورة البقرة، آية 255.

(2) سورة آل عمران، آية 2.

(3) سورة طه، آية 111.

عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء في الرخاء".

وروى أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: "أربع خصال: واحدة منهن لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادي. فأما التي لي: لا تشرك بي شيئا، وأما التي لك: فما عملت من خير جزيتك عليه. وأما التي بيني وبينك: فمنك الدعاء ومني الإجابة. وأما التي بينك وبين عبادي: فارض عنهم كما ترضى لنفسك".

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لا ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيختلجان إلى يوم القيامة". رواه البزار والطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا يردّ القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرّ". رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب. وعنه ﷺ أنه قال: "اللهم إني لا أسالك ردّ القضاء، ولكني أسألك اللطف فيه".

وللدعاء آداب ينبغي مراعاتها فيما يلي:

تحرّي الحلال، واستقبال القبلة ما أمكن، وملاحظة الأوقات الفاضلة، والحالات الشريفة كالدعاء يوم عرفة والتماس ليلة القدر، وفي شهر رمضان، ويوم الجمعة وفي الأسحار، وعند نزول الغيث وبعد الوضوء وعند الأذان ونحو ذلك.

أما **الأسباب الباطنة**، فتقديم التوبة الصادقة، ورد المظالم، وإطابة الطعام والمشرب، والملبس والمسكن، وأن يكون من الكسب الحلال، والإكثار من الطاعات واجتناب المحرمات، وحضور القلب، والثقة بالله، وقوة الرجاء والتضرع.

فعن أبي أمامة قال: قيل: يا رسول الله، أي الدعاء أسمع؟ قال: "جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات". رواه الترمذي بسند صحيح. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء، فقَمِن أن يستجاب لكم". رواه مسلم.

أما أذكار الصباح، فيبتدئ وقتها من الفجر إلى طلوع الشمس. أما أذكار المساء،

فيبتدئ وقتها ما بين العصر والغروب.

ومن آداب الدعاء أيضا: رفع اليدين حذو المنكبين، لما رواه أبو داود عن ابن عباس قال: المسألة أن ترفع يديك حذو منكبيك، او نحوهما، والاستغفار أن تشير بإصبع واحدة، والابتهال أن تمد يديك جميعا. وروي عن مالك بن يسار أنه ﷺ قال: "إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم، ولا تسألوه بظهورها".

وروي عن سلمان الفارسي أنه ﷺ قال: "إن ربكم تبارك وتعالى حي كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا".

ومن آداب الدعاء أيضا: البدء بحمد الله وتمجيده، والثناء عليه، والصلاة على نبيه ﷺ، مع حضور القلب، وإظهار الفاقة والضراعة إلى الله جل شأنه، وخفض الصوت بين المخافتة والجهر، والدعاء بغير إثم، ولا قطيعة رحم، والدعاء مع الجزم بالإجابة، واختيار جوامع الكلم. وعدم دعاء العبد على نفسه وماله وولده، وتكرار الدعاء ثلاثا، وإذا دعا فليبدأ بنفسه، ثم لغيره، كما قال الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴿١٠﴾ ﴾[2]. ومسح الوجه باليدين عقب الدعاء.

ومن الأدعية التي تستجاب بإذن الله تعالى: دعاء الوالد والصائم والمسافر والمظلوم.

روى أحمد وأبو داود والترمذي بسند حسن: أن النبي ﷺ قال: "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم".

وروى الترمذي بسند حسن، أن النبي ﷺ قال: "ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء. ويقول الرب: "وعزتي، لأنصرنك ولو بعد حين".

---

(1) سورة إبراهيم، آية 41.

(2) سورة الحشر، آية 10.

وروي عنه أنه ﷺ قال: " اتق دعوة المظلوم، فليس بينها وبين الله حجاب ".

وروى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: " من قال حين يصبح، وحين يمسي: سبحان الله وبحمد مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه ".

وروي أيضا عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ كان يعلم أصحابه يقول: " إذا أصبح أحدكم يقول: اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا، وبك نحيا وبك نموت، وإليك النشور. وإذا أمسى يقول: اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا، وبك نحيا وبك نموت، وإليك المصير ". رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وهناك العديد من الأذكار التي تقال عند النوم، منها:

روى البخاري عن حذيفة وأبي ذر رضي الله عنهما، قالا: كان رسول الله ﷺ، إذا أوى إلى فراشه قال: " باسمك اللهم أحيا وأموت ". وإذا استيقظ قال: " الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور ".

وعند الانتباه من النوم، أمر رسول الله ﷺ المستيقظ من نومه أن يقول: " الحمد لله الذي رد عليّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره ".

وعند الفزع والأرق والوحشة، عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: " إذا فزع أحدكم في النوم فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات، من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون، فإنها لن تضره ".

وعند لبس الثوب، روى ابن السني أن رسول الله ﷺ كان إذا لبس ثوبا، أو قميصا، أو رداء، أو عمامة يقول: " اللهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له، وأعوذ بك من شره وشر ما هو له ".

وعند طرح الثوب، روى ابن السني عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: " ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم، أن يقول الرجل إذا أراد أن يطرح ثوبه: بسم الله الذي لا إله إلا هو ".

وعند الخروج من المنزل، روى أهل السنن عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت:

ما خرج رسول الله ﷺ من بيتي، إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: "اللهم إني أعوذ بك ان اضلّ أو أُضل، او أزل أو أُزل، او أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل عليّ". قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وعند الدخول إلى المنزل، ففي سنن أبي داود عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج، وخير المخرج.. بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله".

وعند النظر في المرآة، فقد روي عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا نظر وجهه في المرآة قال: "الحمد لله الذي سوّى خلْقي فعدله، وكرّم صورة وجهي فحسّنها، وجعلني من المسلمين".

وعند رؤية أهل البلاء، روى الترمذي وحسنه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: من رأى مبتلى فقال: "الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضّلني على كثير ممن خلق تفضيلا، لم يصبه ذلك البلاء".

وعند سماع الرعد، روى الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان إذا سمع الرعد والصواعق قال: "اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك".

وعند رؤية الهلال، عن قتادة أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: "هلال خير ورشد، هلال خير ورشد، آمنت بالله الذي خلقك (ثلاث مرات) ثم يقول: "الحمد لله الذي ذهب بشهر (كذا)، وجاء بشهر (كذا)". رواه أبو داود مرسلا.

أما أذكار الكرب والحزن، فمنها:

روى الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر قال: يا حيّ يا قيّوم، برحمتك أستغيث".

وروى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص، قال: قال ﷺ: "دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدْعُ بها رجل في شيء قط، إلا استجيب له".

الفصل الرابع

هدي الرسول محمدﷺ في الوضوء

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أمتي يدعون يوم القيامة غرّا محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل". متفق عليه.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال ﷺ: "من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده، حتى تخرج من تحت أظفاره". رواه مسلم.

وعن أبي نجيح عمرو بن عبسة رضي الله قال: قلت: يا نبي الله، فالوضوء حدثني عنه؟ فقال: ما منكم رجل يقرّب وضوءه، فيتمضمض، ويستنشق، فينثر، إلا خرّت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه. ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله، إلا خرّت خطايا وجهه بين أطراف لحيته مع الماء. ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه مع أنامله مع الماء. ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه مع أطراف شعره مع الماء. ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرت خطايا رجليه مع أنامله مع الماء. فإن هو قام فصلى، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه ومجده بالذي هو له أهل، وفرغ قلبه لله تعالى، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه".

كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل صلاة في غالب أحيانه، وربما صلى الصلوات بوضوء واحد. وكان يتوضأ بالمدّ تارة، وبثلثيه تارة، وبأزيد منه تارة. وذلك نحو أربع أواق بالدمشقي إلى أوقيتين إلى ثلاث. وكان من أيسر الناس صبا لماء الوضوء. وكان يحذر أمته من الإسراف فيه، وأخبر أنه سيكون في أمته من يعتدي في الطهور. روى أحمد وأبو داود من حديث عبدالله بن مغفل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء". وقال ﷺ أيضا: "إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان، فاتقوا وسواس الماء". أخرجه الترمذي في الطهارة.

كان ﷺ يتمضمض ويستنشق تارة بغَرْفة، وتارة بغرفتين، وتارة بثلاث. وكان يصل

بين المضمضة والاستنشاق. وكان يستنشق بيده اليمنى، ويستنثر باليسرى، وكان يمسح راسه كله، ولم يصح عنه في حديث واحد، أنه اقتصر على مسح بعض رأسه البتة، ولكن كان إذا مسح بناصيته كمل على العمامة. وكان يغسل رجليه إذا لم يكونا في خفين، ويمسح عليهما إذا كانا في الخفين. وكان يمسح أذنيه مع راسه، وكان يمسح ظاهرهما وباطنهما. وكان وضوؤه مرتبا متواليا لم يخلّ به مرة واحدة البتة.

لم يثبت عنه ﷺ في الوضوء غير التسمية في بدايته، وغير قوله: "أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين". في آخره. أو قوله بعد الوضوء: "سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك".

لم يكن رسول الله ﷺ يعتاد تنشيف أعضائه بعد الوضوء، ولا صح عنه في ذلك حديث البتة، بل الذي صح عنه خلافه. ولم يكن من هديه أن يُصب عليه الماء كلما توضأ، ولكن تارة كان يصب على نفسه، وربما عاونه من يصب عليه أحيانا لحاجة كما في الصحيحين، عن المغيرة بن شعبة أنه صب عليه في السفر لما توضأ. رواه البخاري والترمذي ومسلم في باب الطهارة.

أما بالنسبة للمسح على الخفين، فقد صح عنه ﷺ أنه مسح في الحضر والسفر، ولم ينسخ ذلك حتى توفي. ووقّت للمقيم يوما وليلة، وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن، في عدة أحاديث حسان وصحاح. وكان يمسحَ ظاهر الخفين، ولم يصح عنه مسح أسفلهما، ومسح على الجوربين والنعلين[1]، ومسح على العمامة مقتصرا عليها، ومع الناصية.

أما بالنسبة لهديه ﷺ في التيمم، فإنه كان يتيمم بأن يضرب بيديه على الصعيد الطيب ضربة واحدة، فيمسح بهما وجهه وكفيه[2]، ولم يصح عنه تيمم بضربتين، ولا إلى المرفقين. وكان ﷺ يتيمم بالأرض التي يصلي عليها، ترابا كانت أو سبخة أو رملا. وصح

(1) انظر سنن الترمذي 1/ 167، 168.

(2) رواه البخاري 1/ 375، 376، ومسلم 368، 112، من حديث عمار بن ياسر.

عنه أنه قال: "حيثما أدركت رجلا من أمتي الصلاة، فعنده مسجده وطهوره"[1]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "جعلت لي الأرض مساجد وطهورا، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت".

أما ما ذكر في صفة التيمم، من وضع بطون أصابع يده اليسرى على ظهور اليمنى، ثم إمرارها إلى المرفق، ثم إدارة بطن كفه على بطن الذراع، وإقامة إبهامه اليسرى كالمؤذن، إلى أن يصل إلى إبهامه اليمنى فيطبقها عليها، فهذا مما يعلم قطعا أن النبي ﷺ لم يفعله، ولا علمه أحدا من أصحابه، ولا أمر به، ولا استحسنه. وكذلك لم يصح عنه التيمم لكل صلاة، ولا أمر به، بل أطلق التيمم وجعله قائما مقام الوضوء. وأثر عنه ﷺ أنه قال: "إن الصعيد الطيب وضوء المسلم، وإن لم يجد الماء عشر سنين، وإن وجد الماء فليمسه بشرته"[2]. قال تبارك وتعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ ۝﴾[3].

هدي الرسول محمد ﷺ في الصلاة

كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة، قال الله أكبر، ولم يقل شيئا قبلها، ولا تلفظ بالنية البتة، ولا قال: أصلي لله صلاة كذا، مستقبل القبلة أربع ركعات إماما أو مأموما. ولا قال: أداء ولا قضاء، ولا فرض وقت. ولم ينقل عنه أحد قط بإسناد صحيح ولا ضعيف، ولا مسند ولا مرسل لفظة واحدة منها البتة. بل ولا أحد من أصحابه، ولا استحسنه أحد من التابعين، ولا الأئمة الأربعة [4].

كان دأبه ﷺ في إحرامه لفظة: الله أكبر، لا غيرها، ولم ينقل أحد عنه سواها. وكان يرفع يديه معها ممدودة بالأصابع، مستقبلا به القبلة إلى فروع أذنيه. وروي إلى منكبيه. وقال أبو حميد الساعدي ومن معه: حتى يحاذي بها المنكبين. وكذلك قال ابن عمر. وقال

(1) رواه أحمد في المسند 5/ 248 من حديث أبي أمامة.

(2) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد عن أبي ذر.

(3) سورة المائدة، آية 6.

(4) زاد المعاد، ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1991م، صفحة 201.

وائل بن حجر: إلى حيال أذنيه. وقال البراء: قريبا من أذنيه.

ثم يضع يده اليمنى على اليسرى، ثم يستفتح تارة بـ: "اللهم باعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد، اللهم نقّني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس". أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة.

وتارة يقول: "وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض، حنيفا مسلما وما أنا من المشركين. إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعها، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيء الأخلاق، لا يصرف عني سيئها إلا أنت. لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك تباركت وتعاليت، استغفرك وأتوب إليك"[1].

وتارة يقول: "اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك، فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم". أخرجه مسلم من حديث عائشة.وتارة يقول: "الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا سبحان الله بكرة وأصيلا سبحان الله بكرة وأصيلا، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه". رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري.

وتارة يقول: "الله أكبر عشر مرات، ثم يسبح عشر مرات، ثم يحمد عشرا، ثم يهلل (عشرا)، ثم يستغفر (عشرا)، ثم يقول: "الله اغفر لي واهدني وارزقني وعافني (عشرا). ثم يقول: الله إني أعوذ بك من ضيق المقام يوم القيامة (عشرا)". رواه أبو داود والنسائي

---

(1) رواه مسلم 771 في صلاة المسافرين، وأبو داود 760، واحمد 729، وابن حبان 445 والنسائي 2/ 130 من حديث علي.

وأحمد والطبراني من حديث عائشة.

وروي عنه ﷺ أنه كان يستفتح بـ: "سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك". رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه في الصلاة. من حديث أبي سعيد الخدري.

وبعد الاستفتاح كان ﷺ يقول: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". ثم يقرأ سورة الفاتحة، وكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم تارة، ويخفيها أكثر مما يجهر بها. وكانت قراءته ﷺ مدّا، يقف عند كل آية، ويمدّ بها صوته. رواه البخاري عن أنس، وأخرجه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أم سلمة.

وإذا فرغ من قراءة الفاتحة قال: "آمين"، فإن كان يجهر بالقراءة رفع بها صوته، وقالها من خلفه. رواه أبو داود من حديث وائل بن حجر، وأخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة. وكانت له سكتتان: سكتة بين التكبير والقراءة، والثانية بعد الفاتحة.

فإذا فرغ ﷺ من قراءة الفاتحة، أخذ في سورة غيرها، وكان يطيلها تارة، ويخففها لعارض من سفر أو غيره، ويتوسط بها غالبا.

كان ﷺ يقرأ في الفجر بنحو ستين آية إلى مائة آية، وصلاّها بسورة (ق)، وصلاّها بسورة الروم، وصلاها بسورة التكوير، وصلاها بالزلزلة، وصلاها بالمعوذتين، وكان يصليها يوم الجمعة بسورة السجدة، وسورة الإنسان، كما كان يقرأ في الجامع العظام كالأعياد والجمع: بسور (ق)، والقمر، وسبّح، والغاشية.

أما في صلاة الظهر، فكان ﷺ يطيل قراءتها أحيانا، وكان يقرأ فيها تارة: سورة السجدة، وتارة بسورتي سبّح، والليل، وتارة بسور البروج، والسماء والطارق.

أما العصر، فكان يصليها على النصف من قراءة صلاة الظهر، إذا طالت، وبقدرها إذا قصرت.

أما المغرب، فإنه صلاها مرة بسورة الأعراف، فرقها في الركعتين، ومرة بسورة الطور، ومرة بسورة المرسلات. وروي أنه ﷺ قرأ في المغرب بسور الأعراف، والصافات، والدخان، وسبّح، والتين، والمعوذتين، والمرسلات.

أما العشاء الآخرة، فقرأ فيها: سور والتين، والشمس، وسبّح، والغاشية.

أما صلاة الجمعة، فكان يقرأ فيها بسورتي الجمعة والمنافقين كاملتين، وسورتي سبح والغاشية.أما قراءته ﷺ في الأعياد، فكان يقرأ تارة بسورتي سبح والغاشية، وتارة بسورتي (ق) والقمر.

هذا هو الهدي الذي استمر عليه رسول الله ﷺ، إلى أن لقي الله عز وجل، ولم ينسخه بشيء.

كان ﷺ لا يعين سورة في الصلاة بعينها لا يقرأ إلا بها، إلا في الجمعة والعيدين، وأما في سائر الصلوات، فقد ذكر أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال:: " ما من المفصّل[1] سورة صغيرة ولا كبيرة، إلا وقد سمعت رسول الله ﷺ يؤم الناس بها في الصلاة المكتوبة ". رواه أبو داود في باب الصلاة بإسناد حسن.

كان من هديه ﷺ قراءة السورة كاملة، وربما قرأها في الركعتين، وربما قرأ أول السورة. أما قراءة أواخر السور وأوساطها، فلم يحفظ عنه. أما قراءة السورتين في الركعة، فكان يفعله في النافلة ، أما في الفرض فلم يحفظ عنه.

كان ﷺ يطيل الركعة الأولى على الثانية، من صلاة الصبح ومن كل صلاة، وربما كان يطيلها حتى لا يسمع وقع قدم. وكان يطيل صلاة الصبح أكثر من سائر الصلوات، وهذا لأن قرآن الفجر مشهود، يشهده الله تعالى وملائكته. وأيضا فإنها لما نقص عدد ركعاتها جعل تطويلها عوضا عما نقصته من العدد. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

كان ﷺ إذا فرغ من القراءة سكت بقدر ما يترادّ إليه نفسه، ثم يرفع يديه ويكبر راكعا، ويضع يديه على ركبتيه كالقابض عليهما، ووتّر يديه، ونحّاهما عن جنبيه، وبسط ظهره ومدّه، واعتدل ولم ينصب رأسه ولم يخفضه، بل يجعله حيال ظهره معادلا له.

وكان ﷺ يقول: " سبحان ربي العظيم "، وتارة يقول مع ذلك أو مقتصرا عليه: " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي ". وكان ركوعه المعتاد مقدار عشر تسبيحات وسجوده كذلك. وكان يقول أيضا في ركوعه: " سبّوح قدوس رب الملائكة والروح ".

---

(1) المفصّل: هو من أول سورة ق إلى آخر القرآن (سورة الناس).

والسبوح: منزه عن كل ما لا يليق بجلاله، والقدوس معناه التطهير، وهو مأخوذ من القدس، وهو الدلو الذي كانوا يتطهرون منه. وتارة يقول: "اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري، ومخي وعظمي وعصبي". رواه مسلم من حديث علي.

ثم كان ﷺ يرفع رأسه بعد ذلك قليلا قائلا: "سمع الله لمن حمده"، ويرفع يديه كما تقدم. وكان دائما يقيم صلبه إذا رفع من الركوع، وبين السجدتين وكان ﷺ يقول: "لا تجزئ صلاة لا يقيم فيها الرجل صلبه من الركوع والسجود". ذكره ابن خزيمة في صحيحه.

وكان ﷺ إذا استوى قائما قال: "ربنا ولك الحمد". وبما قال: "ربنا لك الحمد". وربما قال: "اللهم ربنا لك الحمد، وأما الجمع بين اللهم والواو فلم يصح.

وكان من هديه ﷺ إطالة هذا الركن بقدر الركوع والسجود. فصح عنه أنه ﷺ كان يقول: "سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قاله العبد، وكلنا لك عبد. لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد". رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري.

وصح عنه أنه ﷺ كان يقول: "اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد، ونقني من الذنوب والخطايا، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المشرق والمغرب". رواه مسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

كان ﷺ يكبر ويخر ساجدا، ولا يرفع يديه. وقد روي أنه كان يرفعهما أيضا، وكان يضع ركبتيه بين يديه، ثم يديه بعدهما، ثم جبهته وأنفه، دون كور العمامة. ولم يثبت عنه السجود على كور العمامة، من حديث صحيح ولا حسن. ولكن روى عبد الرزاق في المصنف من حديث أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسجد على كور عمامته. وقد ذكر أبو داود في المراسيل أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يصلي في المسجد، فسجد بجبينه

وقد اعتم على جبهته، فحسر رسول الله ﷺ عن جبهته.

كان رسول الله ﷺ يسجد على الأرض كثيرا، وعلى الماء والطين، وعلى الخمرة المتخذة من خوص النخل، وعلى الحصير المتخذ منه، وعلى الفروة المدبوغة.. وكان إذا سجد مكن جبهته وأنفه من الأرض، ونحى يديه عن جنبيه وجافى بينهما، حتى يرى بياض إبطيه، ولو شاءت بهمة - الشاة الصغيرة - أن تمر تحتهما لمرّت.

وكان ﷺ يضع يديه حذو منكبيه وأذنيه، وكان يعتدل في سجوده، ويستقبل بأصابع رجليه القبلة. وكان يبسط كفيه وأصابعه، ولا يفرج بينهما ولا يقبضها، وكان يقول: "سبحان ربي الأعلى". وأمر به. وكان ﷺ يقول: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي".. وقال يقول: "سبوح قدوس رب الملائكة والروح". وكان يقول: "سبحانك الله وبحمدك لا إله إلا أنت". وكان ﷺ يقول: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت ما أثنيت على نفسك". رواه مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد من حديث عائشة.

وعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أرى فيما يرى النائم، كأني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم اكتب لي عندك أجرا، واجعلها لي عندك ذخرا، وضع بها عني وزرا، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد، كما حكى الرجل من كلام الشجرة". رواه ابن ماجه والترمذي وقال غريب.

وكان ﷺ يقول: "اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه وصوّره، وشقّ سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين". رواه مسلم من حديث علي.

وكان ﷺ يقول: "اللهم اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت.

وكان ﷺ يقول: " اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي سمعي نـورا، وفي بـصري نـورا، وعن يميني نورا، وعن شمالي نورا، وأمامـي نورا، وخلفـي نـورا، وفـوقي نـورا، وتحـتي نورا، واجعل لي نورا". أخرجه مسلم.

أمر رسول الله ﷺ الاجتهاد في الدعاء في السـجود، وقال: " إنه قَمِـن أن يـستجاب لكم". وقال ﷺ: " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد".

كان رسول الله ﷺ يرفع رأسه مكبرا غير رافع يديه، ويرفع من السجود رأسه قبل يديه. ثم يجلس مفترشا، يفرش رجله اليسرى ويجلس عليها، وينصب اليمنـى، ولم يحفـظ عنه ﷺ غير هذه الجلسة. وكان يضع يديه على فخذيه، ويجعل مرفقه على فخذه، وطرف يده على ركبته، ويقبض اثنين من أصـابعه ويحلـق حلقـة، ثـم يرفـع إصـبعه يـدعو بهـا ويحركها.

وكان ﷺ يقول بين السجدتين: " اللـهم اغفـر لـي وارحمـني، وأجرنـي، واهـدني، وارزقني". ثم كان ﷺ ينهض على صـدور قدميـه وركبتيـه، معتمـدا علـى فخذيـه، ولا يعتمد على الأرض بيديه، حتـى يـستوي جالـسا، وكـان إذا نهـض افتـتح بـالقراءة، ولم يسكت كما كان يسكت عند افتتاح الصلاة، وكان يـصلي الثانيـة كـالأولى، إلا في أربعـة أشياء: السكوت، والاستفتاح، وتكبيرة الإحرام، وتطويلها كالأولى.

وعن أبي عبد الله حذيفة بن اليمان قال: " صليت مع الـنبي ﷺ ذات ليلـة، فـافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضـى. فقلت: يصلي بهـا في ركعـة، فمـضى. فقلـت يركع بها. ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسـلا، إذا مـر بآيـة فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعـوذ تعـوذ، ثـم ركـع، فجعـل يقـول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمـده، ربنـا لـك الحمد. ثم قام قياما طويلا قريبا مما ركع، ثم سجد فقـال: سـبحان ربـي الأعلـى، فكـان سجوده قريبا من قيامه". رواه مسلم.

وعن أبي فراس ربيعة بن كعب الأسلمي خـادم رسـول الله ﷺ، وكـان مـن أهـل الصُفّة قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ، فآتيه بوَضوئه وحاجته، فقال: سـلني. فقلـت:

أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك. قال: فأعنّي على نفسك بكثرة السجود". رواه مسلم.

وعن أبي عبد الله ثوبان رضي الله عنه، مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "عليك بكثرة السجود، فإنك لن تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة". رواه مسلم.

فإذا جلس ﷺ للتشهد، وضع يده اليسرى على فخذه اليسرى، ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، وأشار بإصبعه السبّابة، وكان لا ينصبها نصبا ولا ينيمها، بل يحنيها شيئا، ويحركها شيئا.

أما صفة جلوسه ﷺ، فكان يجلس على رجله اليسرى، وينصب اليمنى، وكان ﷺ يتشهد دائما في هذه الجلسة، ويعلم أصحابه أن يقولوا: "التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله".

ثم كان ﷺ يسلم عن يمينه ويقول: "السلام عليكم ورحمة الله"، وعن يساره كذلك. وكان إذا سلم استغفر ثلاثا قال: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام". ولم يمكث مستقبل القبلة إلا مقدار ما يقول ذلك، بل يسرع الانتقال إلى المأمومين، وكان ينفتل عن يمينه وعن يساره، وكان يقبل إليهم بوجهه، ولا يخص ناحية منهم دون ناحية. وكان ﷺ إذا صلى الفجر، جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس.

وكان ﷺ يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: "اللهم أنت السلام، ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن. لا إله إلا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد".

وندب ﷺ أمته أن يقولوا في دبر كل صلاة: "سبحان الله ثلاثا وثلاثين، والحمد لله كذلك، والله أكبر كذلك، وتمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله

الحمد، وهو على كل شيء قدير".

وفي صفة أخرى: خمسا وعشرين تسبيحة، ومثلها تحميدة، ومثلها تكبيرة، ومثلها لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير".

وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: "من قال في دبر صلاة الفجر، وهو ثان رجليه قبل أن يتكلم: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير (عشر مرات)، كتب له عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وكان يومه ذلك كله حرزاً من كل مكروه، وحُرس من الشيطان، ولم ينبغ للذنب أن يدركه في ذلك اليوم إلا الشرك بالله". قال الترمذي حديث حسن صحيح.

وذكر النسائي في السنن الكبير من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت". وقال ﷺ: "من قرأ سورة الكهف فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة تكون، فإن يخرج الدجال في تلك الثمانية، عصمه الله من فتنة الدجال. ومن قرأ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[1]. عند مضجعه، كان له نور يتلألأ عند مضجعه إلى مكة، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه، حتى يقوم من مضجعه. وإن كان مضجعه بمكة، فتلاها، كان له نوريتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه، ويستغفرون له، حتى يستيقظ"[2].

قال تعالى:

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾[3].

إن المحافظة على الشيء: المداومة والمواظبة عليه، والوسطى: تأنيث الأوسط، وأوسط

---

(1) سورة الكهف، آية 110.

(2) تفسير النسفي.

(3) سورة البقرة، آية 238.

الشيء ووسطه: خياره. ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[1].

قد اختلف العلماء في تعيين الصلاة الوسطى على ثمانية عشر قولا، وأرجح الأقوال وأصحها ما ذهب إليه الجمهور من أنها العصر، لما ثبت عند البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم من حديث علي قال: كنا نراها الفجر، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وأجوافهم نارا". أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود مرفوعا. وأخرجه ابن جرير وابن المنذر والطبراني من حديث ابن عباس مرفوعا.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "صلاة الرجل جماعة تزد في صلاته في سوقه وبيته بضعا وعشرين درجة، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة، لا ينهزه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة، وحطّ عنه خطيئة، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد، كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه. والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه، يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه". متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

صلاة الاستخارة

هي أن يصلي المرء ركعتين من غير الفريضة، ولو كانتا من السنن الراتبة، أو تحية المسجد في أي وقت، يقرأ فيهما بما شاء بعد الفاتحة، ثم يحمد الله ويصلي على نبيه ﷺ ثم يدعو بالدعاء الذي رواه البخاري، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: " كان رسول الله ﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمور كلها[2]، كما يعلّمنا السورة من القرآن، يقول: "إذا همّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: "اللهم إني

(1) سورة البقرة، آية 143.

(2) قال الشوكاني: هذا دليل على العموم، إن المرء ليحتقر أمرا لصغره، ولا يهتم به، فيترك الاستخارة فيه، فرب أمر يستخف بأمره، فيكون في الإقدام عليه أو في تركه ضرر عظيم، لذلك قال النبي ﷺ: "ليسأل أحدكم ربه، حتى شسع نعله".

أستخيرك[1] بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب.. اللهم فإن كنت تعلم أن هذا الأمر (ثم تسميه بعينه) خيرا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال – عاجل أمري وآجله – فاقدره لي، ويسّره لي، ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن في هذا الأمر شرّ لي، في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال – عاجل أمري وآجله – فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضّني به". قال: ويسمي حاجته عند قوله: اللهم إن كنت تعلم أن في هذا الأمر...". رواه البخاري.

قال النووي: "ينبغي أن يفعل بعد الاستخارة ما ينشرح له، فلا ينبغي أن يعتمد على انشراح كان فيه هوى قبل الاستخارة، بل ينبغي للمستخير ترك اختياره رأسا، وإلا فلا يكون مستخيرا لله تعالى، بل يكون غير صادق في طلب الخيرة. وفي التبرّي من العلم والقدرة، وإثباتهما لله تعالى، فإذا صدق في ذلك، فقد تبرأ من الحول والقوة، ومن اختياره لنفسه.

فإذا قمت أيها المسلم إلى الصلاة، فوجه كل قلبك فيها، إلى استحضار معنى كل ما يتحرك به لسانك من ذكر وتلاوة... فإن قلت: الله أكبر، فحسبك أن تذكر في قلبك أن الله تعالى أعظم من كل عظيم، وأكبر من كل شيء، فلا يصح أن يشغلك عن صلاة له، أو فيها شيء دونه، وكل شيء فهو دونه.

وإذا قرأت ما ورد في ذكر الافتتاح، فلا تشغل نفسك بغير معناه وهو ظاهر، وإن استعذت بالله قبل القراءة عملا بعموم قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ ﴾[2]، فتصور من معنى صيغة الاستعاذة، أنك تلجأ إلى الله تعالى، وتعتصم به من وسوسة الشيطان الشاغلة عن الصلاة، وما يجب فيها من التدبر لكتابه والخشوع والإخلاص له تعالى.

---

(1) أستخيرك: أي أسألك يا رب أن تشرح صدري لأحد الأمرين، لأنك تعلم جزئيات الأمور، ومقدماتها ونتائجها: أطلب منك الخيرة أو الخير.

(2) سورة النحل، آية 98.

وإذا قرأت البسملة، فاستحضر من معناها: أنني أصلي أو أقرأ باسم الله، الذي شرع الصلاة وأقدرني عليها، الرحمن الرحيم ذي الرحمة العامة، التي وسعت كل شيء في الدنيا والآخرة، والخاصة بمن شاء من عباده المخلصين.

وإذا قلت الحمد لله رب العالمين، فاستحضر من معناها كل ثناء جميل بالحق، فهو لله تعالى، وفعلا من حيث أنه الرب خالق العالمين ومربيهم، ومدبر جميع أمورهم. الرحمن: ما في نفس الرحيم بخلقه، مالك يوم الدين: ذي الملك والتصرف دون غيره يوم محاسبة الخلق، ومجازاتهم بأعمالهم، فلا يرجى غيره. وإذا قلت: إياك نعبد، فتذكر أنك تخاطب هذا الرب العظيم كفاحا، بما يجب أن تكون صادقا فيه، ومعناه نعبدك وحدك دون سواك، بدعائك والتوجه إليك. وإياك نستعين: نطلب معونتك وحدك على عبادتك، وعلى جميع شؤوننا، بالعمل بما أعطيتنا من الأسباب، وبالتوكل عليك وحدك عند العجز عنها. اهدنا الصراط المستقيم: دلنا وأوصلنا بتوفيقك ومعونتك إلى طرق الحق في العلم والعمل، الذي لا عوج فيه ولا زلل، صراط الذين أنعمت عليهم بالإيمان الصحيح والعمل الصالح، وثمرتهما وهي سعادة الدارين، وتذكر أولئك الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن حظك من هذه الهداية لصراطهم إنما يكون بالتأسي والاقتداء بهم في الدنيا، ومرافقتهم في الآخرة، وحسن أولئك رفيقا، غير المغضوب عليهم بإيثارهم الباطل على الحق، وترجيحهم الشر على الخير، ولا الضالين عن طريق الحق والخير بجهلهم، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا".

ومن المجربات أن تغميض العينين في الصلاة يثير الخواطر، ولذلك كان مكروها، وإن رفع الصوت المعتدل في الصلاة الجهرية، ولا سيما صلاة الليل يطرد الغفلة، ويوقظ راقد الخشية، وإن إعطاء كل أسلوب حقه من الأداء والصوت، يعين على الفهم، ويستفيض ما غاض بطول الغفلة من شآبيب الدمع ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (1).

---

(1) سورة الإسراء، آية 110.

الباب الثالث

الفصل الأول

فاتحة الكتاب

معنى الفاتحة في الأصل: أول ما من شأنه أن يفتتح به، ثم أطلقت على أول كل شيء كالكلام، فسميت هذه السورة فاتحة الكتاب، لكونه افتتح بها. قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة، أو هي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف، وأول ما يتلوه التالي والمصلي من الكتاب العزيز، وإن لم تكن أول ما نزل من القرآن.

هذه السورة المباركة سورة مكية، قاله ابن عباس وقتادة. وقيل مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري.

وهي سبع آيات بلا خلاف، وإن اختلفوا في البسملة. يردد المسلم هذه السورة القصيرة، ذات الآيات السبع سبع عشرة مرة، في كل يوم وليلة على الحد الأدنى، وأكثر من ضعف ذلك إذا صلى السنن، وإلى غير حد إذا رغب في أن يقف المسلم بين يدي ربه متنفلا. وقال العلماء: إنها تشتمل على مجمل آيات القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء. ولهذا فإن لها مميزات تتميز بها عن غيرها، ولا تقوم صلاة بغير هذه السورة، لما ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ، من حديث عبادة بن الصامت: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب".

وروى الثعلبي بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "فاتحة الكتاب نزلت بمكة من كنز تحت العرش". وأخرج أبو بكر بن الأنباري في المصاحف عن عبادة، قال: فاتحة الكتاب نزلت بمكة.

وسئل عطاء: "أي وقت نزلت فاتحة الكتاب؟" قال: "أنزلت بمكة يوم الجمعة، كرامة أكرم الله تعالى نبينا محمد ﷺ، وكان معها سبعة آلاف ملك، حين نزل بها جبريل عليه السلام، ولم يعطها أحد قبله". والله أعلم. وهذا جملة ما استدل به من قال: إنها نزلت بمكة.

واستدل من قال: إنها نزلت بالمدينة، بما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية، وأبو سعيد ابن الأعرابي في معجمه، والطبراني في

الأوسط من طريق مجاهد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن إبليس رنّ حين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة".

وروي أنها نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، جمعا بين هذه الروايات، وقال ابن كثير: والأول أشبه. وأكد الشيخ العلامة النسفي في تفسيره على أنها مكية.

وقيل: إنها نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، لما أخرج أبو بكر بن الأنباري في كتاب المصاحف عن قتادة قال: "نزلت فاتحة الكتاب بمكة".

وأخرج وكيع والفريابي في تفسيريهما، وأبو عبيد في فضائل القرآن، وابن أبي شيبة في المنصف، وابن المنذر في تفسيره، وغيرهم عن مجاهد قال: "نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة، حين تحولت القبلة".

كان اليهود يتخذون غرب بيت المقدس قبلة لهم، وكان النصارى يتخذون شرقه قبلة لهم، وكل يزعم أن البر هو التوجه نحو قبلته. وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقليب وجهه في السماء وكان يتوقع من ربه جل وعلا أن يحوله إلى الكعبة موافقة لسيدنا إبراهيم، ومخالفة لليهود والنصارى، لأن الكعبة أدعى للعرب إلى الإيمان، ولأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم. وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة. فصعد جبريل فجعل رسول الله ﷺ يتبعه ببصره، وهو يصعد بين السماء والأرض، ينظر ما يأتيه به. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (1).

ذكر الله سبحانه وتعالى المسجد دون الكعبة، دليل على أن الواجب مراعاة الجهة دون العين، لأن استقبال عين القبلة متعسر على النائي.

وعن تحويل القبلة، كان الرسول ﷺ يتحرق شوقا إلى تحويلها إلى الكعبة، وظل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، لعل الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة قبل البيت، ولكن رب القرآن لم ينزل في هذا التحويل قرآنا، رغم تلهف رسوله الكريم إلا بعد قرابة سنة نصف.

---

(1) سورة البقرة، آية 144.

أخرج ابن ماجه عن البراء قال: "صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهرا، وقيل سبعة عشر شهرا، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين.

وقال ابن إسحق: ويقال: صرفت القبلة من جهة بيت المقدس، في صلاة الظهر من يوم الثلاثاء، للنصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من مقدم رسول الله ﷺ المدينة. حيث صلى ركعتين نحو بيت المقدس، ثم أمر بالتوجه نحو المسجد الحرام، فصلى الركعتين الباقيتين متوجها نحوه، وكان ذلك في المسجد الذي يسمى اليوم: مسجد القبلتين.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "يا جبريل، كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس؟" فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ [1].

وأخرج البيهقي في سننه عن البراء مرفوعا قال: "البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض".

وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق إبن اسحق: حدثني إسحق بن يسار عن رجل من بني سلمة قال: "لما أسلم فتيان بني سلمة، وأسلم ولد عمرو بن الجموح قالت امرأة عمرو له: "هل لك أن تسمع من ابنك ما روي عنه؟ – تعني رسول الله محمد ﷺ – فقال: "أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل". فقرأ عليه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾[2]. فقال: "ما أحسن هذا وأجمله. وكل كلامه مثل هذا؟" فقال: "يا ابتاه، وأحسن من هذا..".

(1) سورة البقرة، آية 143.

(2) سورة البقرة، آية 143.

ولكثرة فضائل سورة الفاتحة، رنّ[1] إبليس ثلاث رنات. وعن مجاهد رضي الله عنه قال: " رنّ إبليس ثلاث رنات: رنّ حين لُعن، ورن حيث بعث سيدنا محمد، ورنّ حين أنزلت سورة الفاتحة". وفي رواية: "رنّ إبليس أربع رنات، ثلاث كما ذكرنا، والرابعة حين فرضت الجمعة".

يقال: رنّ إبليس عند بعث محمد ﷺ، فاجتمع عنده الأباليس، وقالوا: يا سيدنا ومولانا، ما أصابك؟ وما أجزعك حتى صرخت مثل هذه" وقالوا: إن كان غضبك من بني آدم نهلكهم، وإن كان من الجبال مرنا نكسرها، وإن كان من البحار نهلك أهلها. فقال إبليس: ليس مما تقولون شيء، ولكنه بعث نبي هو رحمة للعالمين، فحزني من ذلك.

وحين أنزلت فاتحة الكتاب رن أيضا، فاجتمع عند الشياطين، وقالوا مثل ذلك. فقال لهم: ليس مما تقولون شيء، ولكن أنزلت سورة، أجر قارئها، أن حرم الله عليه نار جهنم، ويطل كيدكم ومكركم. وقال الشياطين: وأي شيء تأمرنا يا سيدنا ومولانا؟ فقال: اذهبوا واجتهدوا، وأغفلوا قلوبهم، حتى لا يقرأوا هذه السورة، ولا يكون لهم أجر وثواب، بل يكون لهم عذاب وعقاب.

الأحاديث الصحيحة الواردة في أسماء الفاتحة

إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، ومن أسماء هذه السورة:

1–فاتحة الكتاب

أخرج أبو نعيم والديلمي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: " فاتحة الكتاب تجزئ ما لا يجزئ شيء من القرآن، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان، وجعل القرآن في الكفة الاخرى، لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات".

وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ربما قمت وركعت ركعة لا أقرأ فيها إلا بفاتحة الكتاب. فقال ﷺ. " بخ بخ، فاتحة الكتاب تجزئ ما لا تجزئ سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة". قال أبو الدرداء: " وربما قرأت البقرة وذواتها لا أقرأ معهن فاتحة الكتاب". فقال ﷺ: " تجزئ من القرآن، ولو

---

(1) رنّ: أصدر صوتا منكرا من شدة الغيظ.

أن فاتحة الكتاب وضعت في كفة ميزان، ووضع القرآن في الكفة الأخرى، لرجحت فاتحة الكتاب سبع مرات".

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: "هي أم القران، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني". وسميت بذلك لأنه يفتتح بها في المصاحف، وفي التعليم، وفي القرآن، وفي الصلاة... وقيل لأنها أول سورة نزلت.. وقيل لأنها أول سورة كتبت في اللوح المحفوظ..

أما عن السبع المثاني، فقد روى أحمد عن عائشة في المسند باللفظ، أن رسول الله ﷺ قال: "من أخذ السبع من القرآن فهو خير". وأخرج أبو عبيد عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: "ولقد آتيناك سبعا من المثاني". قال: "هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس". وبذلك قال مجاهد ومكحول وعطية بن قيس، وأبو محمد شداد بن عبدالله، ويحيى بن الحارث الذماري.

أما بالنسبة إلى تسميتها بفاتحة الكتاب، فقد قيل: لأنها فاتحة كل كلام.. وقيل لأنها فاتحة كل كتاب، فيكون المراد بالكتاب هو القرآن. وأخرج الشافعي في الأم وابن أبي شيبة في المصنف وأحمد في مسنده والبخاري ومسلم وأبوداود والترمذي، وابن ماجة والبيهقي عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ قال: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب". واختلف في سبب تسميتها بذلك، فقيل: لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، وبقراءتها في الصلاة قبل السور. (قاله أبو عبيدة في مجازه، وجزم به البخاري في صحيحه)، لأن ذلك يناسب تسميتها فاتحة الكتاب.. لا أم الكتاب.

2– فاتحة القرآن

قيل: سميت بذلك، لأنها فاتحة أبواب المقاصد في الدنيا، وأبواب الجنان في العقبى.. وقيل لأن انفتاح أبواب خزائن أسرار الكتاب بها، لأنها مفتاح كنوز لطائف الخطاب، بانجلائها ينكشف جميع القرآن لأهل البيان، لأن من عرف معانيها يفتح بها أقفال المتشابهات، ويقتبس بسناها أنوار الآيات.

3- **أم الكتاب**

قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة، ولأنها مستهلة بعبارة الحمد لله، وأخرج ابن الضريس في فضائل القرآن عن أيوب عن محمد بن سيرين كان يكره أن يقول أم القرآن، ويقول: قال الله تعالى: " وعنده أم الكتاب". وقيل إنما سميت بذلك لرجوع معاني القران كله إلى ما تضمنته. أخرج البخاري والدارمي وأبو داود والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "الحمد لله رب العالمين، هي أم الكتاب، وأم القران، والسبع المثاني".

وقال بعض أهل السلف: "أم الكتاب هي رأس القرآن وعماده، وفيها خمسة أسماء، وهي التي شرف الله تعالى بها هذه السورة على غيرها من السور. وفيها اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي بها أجاب، وإذا سئل به أعطى".

وقيل سميت بأم الكتاب: لأنها أفضل سور القرآن.. وقيل لأن حرمتها كحرمة القرآن كله.. وقيل لأن مفزع أهل الإيمان إليها.. وقيل لأنها محكمة، والمحكمات هي أم الكتاب. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝ ﴾ (1).

اختلف العلماء في تفسير الآيات المحكمات والمتشابهات، وكان ذلك على أقوال: فقيل إن المحكم: ما عرف تأويله، وفهم معناه وتفسيره، ولم ينسخ منه شيء، وليس فيه عيب. وقيل: المحكم ما لا يحتمل إلا وجها واحدا، والمتشابه ما يحتمل وجوها، فإذا زدت إلى وجه واحد، وأبطل الباقي صار المتشابه محكما.

وقيل: المحكم: ما كان قائما بنفسه، لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره. والمتشابه: ما

(1) سورة آل عمران، آية 7.

يرجع فيه إلى غيره. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات.

وقيل: إن المحكم: هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة، إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره. والمتشابه: ما لا يتضح معناه، أو لا تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره.

أما المتشابه: فهو الذي لا يعلم تأويله إلا الله، ولم يكن لأحد إلى علمه سبيل، وهو الذي استأثره الله بعلمه. ومن القائلين بهذا جابر بن عبدالله والشعبي وسفيان الثوري، قالوا: وذلك نحو الحروف المقطعة في أوائل السور، وقيل غير ذلك والله أعلم.

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم". روي عن ابن عباس: إن المحكم ناسخه وحرامه وحلاله وفرائضه، وما نؤمن به ونعمل عليه، والمتشابه منسوخه وأمثاله وأقسامه وما نؤمن به ولا نعمل عليه. وروي عن ابن مسعود وقتادة والربيع والضحاك، أن المحكم: الناسخ، والمتشابه: المنسوخ.

وقال مجاهد وابن إسحق: المحكم الذي ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له، والمتشابه ما فيه تصريف وتحريف وتأويل. وقال ابن عطية: هذا أحسن الأقوال.

وروى أبو همام عبد الرزاق الصنعاني عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس، أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثا عن النبي ﷺ في الصفات استنكارا لذلك، فقال: ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه".

أما قوله: هن أم الكتاب، أي أصله الذي يعتمد عليه ويرد ما خالفه إليه. فأما الذين في قلوبهم زيغ، أي الميل وترك القصد، فيتبعون ما تشابه لتشكيك المؤمنين، وابتغاء فتنة الناس في دينهم، والتلبيس عليهم، وإفساد ذات بينهم. والله سبحانه هو الذي يعلم تأويله وتفسيره. أما الراسخون في العلم فيعلمونه قائلين: "آمنا به، كل من عند ربنا".

4– أم القرآن

قيل: سميت بذلك، لاشتمالها على المعاني التي في القرآن الكريم، من الثناء على الله تعالى، بما هو أهله.. ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد والوعيد... أخرج الدارقطني عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "إذا قرأتم الحمد لله، فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين.. السورة، لأنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع

المثاني.

وقال الماوردي: سميت بذلك لتقدمها، وتأخر ما سواها تبعا لها. وقال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمر، أو مقدم أمر، إذا كانت له توابع تتبعه، هو لها إمام جامع "أمّا"[1]. فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: أم الرأس ، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها: أمّا. ويقال لما مضى من سني الإنسان أم لتقدمها، ولمكة أم القرى لتقدمها على سائر القرى. وقيل أم الشيء أهله، وهي أهل القران لانطوائها على جميع أغراض القرآن، وما فيه من العلوم والحكم.

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن أبي زيد – وكانت له صحبة – قال: كنت مع النبي ﷺ في بعض فجاج المدينة، فسمع رجلا يتهجد، ويقرأ بأم القرآن، فقام النبي ﷺ فاستمع حتى ختمها، ثم قال: "ما في الأرض مثلها". وروى محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أم القران عوض عن غيرها، وليس غيرها عوضا عنها".

5– القرآن العظيم

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "هي أم القرآن، والسبع المثاني، والقران العظيم". وسميت بذلك لاشتمالها على المعاني التي في القرآن الكريم.

6– السبع المثاني

أخرج أبو عبيد وأحمد والدارميّ والترمذي وصححه والنسائي وابن خزيمة وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ خرج على أبّي بن كعب، فقال: "يا أبّي – وهو يصلي– فالتفت أبّي، فلم يجبه. فصلى وخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: "ما منعك أن تجيبني إذ دعوتك؟" فقال: يا رسول الله، إني كنت في الصلاة.. قال:" أفلم تجد فيما أوحى الله إلي، أن استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم". قال:

(1) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب القراءة في الفجر، (772)، ومسلم، كتاب الصلاة، حديث 395

بلى، ولا أعود إن شاء الله. قال: أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها؟ " قال: نعم، يا رسول الله. فقال ﷺ: " كيف تقرأ في الصلاة؟ " فقرأ بأم القرآن. فقال رسول الله ﷺ: " والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنها السبع من المثاني – أو قال – السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته ". رواه الترمذي وقال حديث حسن.

وفي رواية عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: " من قرأ فاتحة الكتاب، فكأنما قرأ التوراة والإنجيل، والزبور والقرآن، وصحف إدريس وإبراهيم عليهما السلام سبع مرات، وله بكل حرف درجة في الجنة، كل درجة ما بين السماء والأرض ".

وأخرج الدارمي والترمذي وحسنه، والنسائي وأحمد وابن جرير والحاكم وصححه من طريق علاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: " ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان، مثل أم الكتاب، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيت ".

أما تسميتها سبعا، فلأنها سبع آيات، كل آية تعدل قراءتها بسبع من القرآن، فمن قرأ الفاتحة أعطاه الله ثواب من قرأ القرآن كله. وقال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات، إلا ما روي عن حسين الجعفي أنها ست وهو شاذ. وإلا ما روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل إياك نعبد آية، فهي عنده ثمان. وهو شاذ.

وقيل لأن آياتها سبع، وأبواب النيران سبعة. فمن قرأها أغلقت عنه الأبواب السبعة... والدليل عليه ما روي أن جبريل ﷺ قال للنبي ﷺ: " يا محمد، كنت أخشى العذاب على أمتك، فلما نزلت الفاتحة أمنت ". قال: " لم يا جبريل؟ " قال: لأن الله تعالى قال: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [1]. وآياتها سبع، فمن قرأها صارت كل آية طبقا (حاجزا) على كل باب من أبواب جهنم، فتمر أمتك عليها سالمين ".

وقيل لأنها خلت من سبعة أحرف وهي: (الثاء، والجيم، والخاء، والزاي،

---

(1) سورة الحجر، آية 44.

والشين، والظاء، والفاء). وقال المريسي: وهذا أضعف ما قيل، لأن الشيء إنما يسمى بشيء وجد فيه، لا بشيء جعل منه.

أما المثاني: المثاني جمع مثناة أو مثنية، أي مرددة ومكررة. ويحتمل أن يكون الاسم مشتقا من الثناء، لما فيها من الثناء على الله تعالى. ويحتمل أن يكون من الاستثناء، لأن الله استثناها لهذه الأمة. ويحتمل أن يكون من التثنية، لانها تثني في كل ركعة، ويقويه ما اخرجه ابن جرير عن عمر رضي الله عنه قال: السبع المثاني فاتحة الكتاب، تثنى في كل ركعة.

وقيل لأنها تثنى بسورة أخرى، ولا يملّ منها. وقيل لأنها نزلت مرتين.. وقيل لأنها على قسمين: ثناء ودعاء.. وقيل لأنها كلما قرأ العبد منها آية، أثنى عليه الله بالأخبار عن فعله. وقيل لأنه اجتمع فيها فصاحة المباني وبلاغة المعاني.. وقيل غير ذلك.

جاء في تفسير ابن عادل: السبع المثاني، لأنها مستثناة من سائر الكتب. قال ﷺ: "والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثل هذه السورة، وإنها السبع المثاني والقران العظيم".

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴿٢٣﴾ ﴾[2].

هذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم، المنزل على رسوله الكريم. قال مجاهد: يعنى القرآن كله متشابه مثاني. وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال الضحاك: "مثاني: ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى". وقال الحسن: "تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأخرى آية تشبهها".

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مثاني: مردد أو مكرر، حيث ردد سيدنا موسى وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة من القرآن الكريم.

(1) سورة الحجر، آية 87.

(2) سورة الزمر، آية 23.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: مثاني: القرآن يشبه بعضه بعضا، ويرد بعضه على بعضه.

وقال بعض العلماء: ويروى عن سفيان بن عيينة قوله تعالى: متشابها مثاني: إن سياقات القرآن تأتي تارة في معنى واحد، فهذان من المتشابه. وتارة تكون بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وذكر السماء والأرض، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وذكر العقاب ثم الثواب، والخير والشر، والحق والباطل، وما أشبه هذا فهذا من المثاني، حتى يكون سير الإنسان إلى ربه بين الخوف والرجاء، لأنه إذا غلب عليه الرجاء، وقع في الأمن من مكر الله، وإذا وقع عليه الخوف، وقع في القنوت من رحمة الله، وكلاهما من كبائر الذنوب، قال الإمام أحمد: "ينبغي أن يكون الإنسان في عبادته لربه، بين الخوف والرجاء، فأيهما غلب هلك صاحبه".

ذكر غير واحد أن سبب نزول قوله تعالى: ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم، أن عير أبي جهل قدمت من الشام بمال عظيم، وهي سبع قوافل، ورسول الله ﷺ وأصحابه ينظرون إليها وبأكثرهم عري وجوع. فذكر رسول الله ﷺ حاجة أصحابه، فنزلت: ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم. أي: آتيناكها بدل القوافل، فلا تنظر لما أعطيناه لأبي جهل وهو متاع الدنيا، ولا تحزن على أصحابك، واخفض جناحك لهم، فإن تواضعك لهم أطيب لقلوبهم، من ظفرهم بما يحبون من أسباب الدنيا.

وفي بعض الأخبار: بينما كان رسول الله ﷺ جالسا مع أصحابه، يتذاكرون نعماء الله تعالى عليهم، وفناء الدنيا وبقاء الآخرة، وثواب المؤمنين وعذاب الكافرين، إذ سمع صيحة من الناس، وسرورا وطربا، وضرب دفوف، فقال النبي ﷺ: "ما هذه الصيحة والسرور في أهل مكة؟" فقيل: "يا رسول الله، هذا دخول القوافل مكة، وسرورهم لذلك". فقال رسول الله ﷺ: "قوموا، فلنخرج ننظر ونعتبر".

خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه، وجلسوا على تلّة، ينظرون إلى القوافل وهي تدخل قافلة إثر قافلة. وقال الناس: "هذه قافلة بني أمية، وهذه قافلة بني هاشم، وهذه قافلة بني عدي"، حتى دخلت سبع قوافل. فلما نظر رسول الله ﷺ إليهم وإلى جمالهم، وزينتهم وأموالهم وسرورهم، دخل في قلبه ﷺ غمّ، لأن أصحابه كانوا جائعين منذ أيام،

ولم يجدوا شيئا يأكلونه، فأهمّ ذلك رسول الله ﷺ، وقال في نفسه: "إن الله تعالى أعطى الكفار مالا كثيرا، ولم يعطنا أكلة". فنزل جبريل ﷺ من ساعته، فقال: "يا محمد، إن الله تبارك وتعالى يقول لك: "ولقد أعطيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم"، يعني الفاتحة.. حرم الله على قارئها سبعة أبواب جهنم، وهي شفاء من كل داء إلا السام، أي الموت. وليس في الكتب أفضل منها.

وقال جبريل ﷺ. "رنّ إبليس بسببها رنّة، فاجتمع الأبالسة عنده، وقالوا: "ما لك يا سيدنا واميرنا؟ "فقال لهم: "اعلموا أن اليوم قد نزلت سورة على هذه الأمة، من قرأها دخل الجنة بلا حساب وعذاب، وأنتم لا تطيقون مع قارئها، وقد أبطل كيدكم ومكركم". وهذا الذي أعطيت يا محمد، خير أم هذه السبع القوافل التي أعطيت للكفار؟ "فقال رسول الله ﷺ : "بل هذه يا جبريل". فقال جبريل ﷺ: "يا محمد، أتستبدل سبعتك بسبعتهم؟ "فقال النبي ﷺ: "لا يا جبريل". قال: "فاعرف حرمة ما أعطاك ربك".

ثم قال جبريل ﷺ. قال تعالى: آتيناك القرآن العظيم، لو كان مكتوبا في صحف، أو في جراب، فطرح في النار لما أحرقته النار، فكيف تحرق النار قارئه وحافظه؟ فمن قرأ حرفا من القرآن، أعطاه الله تعالى مائة حسنة، فهذا خير أم القوافل؟ "قال ﷺ: "لا، بل هذا القرآن خير يا جبريل". قال: "أتستبدل القرآن بالقوافل؟ "قال: "لا يا جبريل". قال: "يا محمد، فاعرف حقه". ثم قال جبريل: يقول لك ربك: آتيناك في كل سبعة أيام جمعة، ليلتها خير من الدنيا وما فيها، ويعتق الله تعالى في كل ساعة منها مائة ألف ممن وجبت عليهم النار، وكل مولود يولد من أولاد المشركين في تلك الليلة، يكرمه الله تعالى بالإسلام بحرمة تلك الليلة، ويكفر ما بينها وبين الجمعة المستقبلة، ويرفع الله العذاب عن أهل مقابر المؤمنين، وكل أهل عذاب في تلك الليلة لحرمتها، أهي خير أم القوافل؟ "قال ﷺ: "هي خير". قال: "أتستبدل الجمعة بالقوافل؟ "قال: "لا". قال: "فاعرف حرمة ما أعطيت فيها".

ثم قال جبريل ﷺ: "يا محمد، إن ربك يقول: وآتيناك سبعا في الطواف، من طاف بها – أي الكعبة – فكأنما طاف بعرش الله تعالى، ومن طاف بعرشه فإن الله يستحي أن يعذبه، وفي كل طواف يطوفه المؤمن، فإن الله ينظر إليه سبع مرات، ويكرمه تعالى بالمغفرة، فهذا خير أم القوافل؟ "قال: "بل هذا خير". قال جبريل ﷺ: "أتستبدل هذا

بذاك؟" فقال ﷺ: "لا". قال: "فاعرف حرمة ما أعطيت". ثم قال: "يا محمد، إن ربك يقول: آتيناك سبع جمرات ترميهن، في كل جمرة يغفر لك ولأمتك كبيرة من الكبائر[1]، وتسد كل جمرة بابا من أبواب جهنم، دونك ودون الرامين بها، فهذا خير أم القوافل"؟ قال: "لا، بل هذا خير". قال: "فاعرف حرمة ما أعطيت". ثم قال جبريل ﷺ: "إن ربك يقول: إني أمرت سبع سموات وأهلها، وسبعة أرضين وأهلها بالدعاء لك ولأمتك، في كل يوم خمس مرات في أوقات الصلاة، هذا خير أم القوافل؟" فقال النبي ﷺ: "هذا خير". قال جبريل: "لا تمدن عينيك إلى ما متعناهم به، ولكن انظر إلى ما متعك به". فتنفس رسول الله ﷺ الصعداء، ثم قال: "لست أنا برجل الدنيا، ولكن برجل العقبى".

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ ﴾ [2]. والتمني هنا نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل، كالتلهف يتعلق بالماضي، وهنا ينهى الله سبحانه عن أن يتمنى الإنسان ما فضل الله به غيره من الناس عليه، فإن ذلك من عدم الرضا بالقسمة التي قسمها الله بين عباده، على مقتضى إرادته وحكمته البالغة، وفيه أيضا نوع من الحسد المنهي عنه، إذا صحبه إرادة زوال تلك النعمة عن الغير.

أما الغبطة، وهي أن يتمنى المرء أن يكون به حال مثل حال صاحبه، من دون أن يتمنى زوال ذلك الحال عن صاحبه. وقد اختلف العلماء هل تجوز أم لا؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك، واستدلوا بالحديث الصحيح: "لا حسد[3] إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار". متفق عليه.

---

(1) الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب.

(2) سورة النساء، آية 32.

(3) لا حسد: أي لا غبطة، وهو تمني ما لدى غيرك بدون رغبة في زواله عنه، وليس الحسد بالمعنى المفهوم.

7–**سورة الوافية**

أخرج الثعلبي عن عبد الجبار بن العلاء قال: كان سفيان بن عيينة يسمي فاتحة الكتاب الوافية، لأنها وافية لما في القرآن من المعاني. وقيل لأنها لا تقبل التنصيف، فإن كل سورة طويلة من القرآن توفر نصفها في كل ركعة، والنصف الثاني في أخرى. وهذا التنصيف غير جائز في هذه السورة. وقيل لأنها جمعت ما لله سبحانه وما للعبد من حقوق وواجبات.

8–**سورة الواقية**

قيل: سميت بذلك، لأنها واقية لمن قرأها عن جميع الآفات والأمراض. وأخرج الديلمي عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "فاتحة الكتاب وآية الكرسي، لا يقرؤها عبد في داره، فلا يصيبه في ذلك اليوم عين إنس أو جن".

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: مرض الحسن بن علي رضي الله عنهما، فاغتم النبي ﷺ، فأوحى الله تعالى إليه: أن اقرأ بسورة لا فاء فيها، فإن الفاء من الآفات، على إناء فيه ماء أربعين مرة، وتغسل به يديه ورجليه ووجهه ورأسه، وما بطن وما ظهر من بدنه، فإن الله يذهب عنه ما يؤلمه".

9- **سورة الكنز**

وسميت بذلك، لما أخرج ابن الضريس في فضائل القرآن، والبيهقي عن أنس رضي الله عنه، والواحدي في أسباب النزول والثعلبي في تفسيره، عن علي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الله أعطاني فيما منّ به عليّ: إني أعطيتك فاتحة الكتاب، وهي من كنوز عرشي، ثم قسمتها بيني وبينك نصفين". وقال علي بن أبي طالب: "نزلت فاتحة الكتاب من كنز تحت العرش". أي من أسرار المعارف المحيطة بمعرفة الصفات والأسماء والأفعال والمعاد، والصراط والجزاء، وسائر الأحكام.

10–**سورة الكافية**

لما أخرج الثعلبي عن عفيف بن سالم قال: سألت عبد الله بن يحيى بن أبي كثير عن قراءة الفاتحة خلف الإمام، فقال: عن الكافية تسأل؟ قلت: وما الكافية؟ قال: الفاتحة، أما

علمت أنها تكفي عن سواها، ولا يكفي سواها عنها؟ إنها تكفي في الصلاة عن غيرها، وغيرها لا يكفي عنها.

11- **سورة الأساس**

قيل: لأنها أهل القرآن، وأول سورة فيه.. وأخرج الثعلبي عن الشعبي أن رجلا شكا إليه وجه الخاصرة، فقال: عليك بأساس القرآن. قال وما أساس القران؟ قال: الفاتحة.. وقيل اشتكى رجل إلى ابن أبي الشعبي من وجع الخاصرة، فقال: عليك بأساس القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وقد سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: "لكل شيء أساس، وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة: بسم الله الرحمن الرحيم".

وقيل: لأنها أول سورة من القرآن فهي كالأساس.. وقيل: إن أشرف العبادات بعد الإيمان هي الصلاة، وهذه السورة مشتملة على كل ما لا بد منه من الإيمان، والصلاة لا تتم إلا بها.

12- **سورة النور**

لما ورد عن أنس رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن أم الكتاب، فقال: "يا أنس، سألت أنا جبريل كما سألتني عن فاتحة الكتاب، قال جبريل: سألت ميكائيل، وميكائيل عن إسرافيل، وهو عن اللوح المحفوظ والقلم، فأجاب القلم: لما خلقني من جزء نور محمد ﷺ، قال الله عز وجل: اكتب يا قلم. فقلت: أي شيء أكتب؟ قال: اكتب ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾. فلما كتبت خرج نور ساطع فتحرزت عن الكتابة، وبقيت ما شاء الله تعالى، وجعل الله تعالى ذلك النور نصفين، فخلق الجنة من نصفه، وخلق الملائكة من نصفه. فأمر الله تعالى أن يكتبوا ثواب سورة الفاتحة عن أمة محمد ﷺ، ووعد الجنة لقارئها بخلوة القلب.

قال ابن عباس ﷺ أول ما خلق الله سبحانه وتعالى اللوح المحفوظ، فحفظه بما كتب الله فيه مما كان ويكون، لا يعلم ما فيه إلا الله عز وجل، وهو من درة بيضاء، دفتاه ياقوتتان حمراوان، وهو في عظم لا يوصف". لا يناله أحد، محفوظ عن التغيير والتبديل، والتبديل والتغيير إنما يكون في الكتب الأخرى، لأن الكتابة من الله عز وجل أنواع:

النوع الأول: الكتابة في اللوح المحفوظ، وهذه الكتابة لا تبدل ولا تغير، ولهذا سماه الله لوحا محفوظا، لا يمكن أن يبدل أو يغير ما فيه.

النوع الثاني: الكتابة على بني آدم وهم في بطون أمهاتهم، وذلك بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.

النوع الثالث: كتابة حولية كل سنة، وهي الكتابة التي تكون في ليلة القدر، فإن الله سبحانه وتعالى يقدر في هذه الليلة ما يكون في تلك السنة، قال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾[1]. فيكتب في هذه الليلة ما يكون في تلك السنة. وهذه الكتابات الثلاث السابقة تكون قبل العمل.

النوع الرابع: كتابة الصحف التي في أيدي الملائكة، وهذه الكتابة تكون بعد العمل، حيث يكتب على الإنسان ما يعمل من قول بلسانه، أو فعل بجوارحه، أو اعتقاد بقلبه. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾[2].

فإذا كان يوم القيامة، فإن كل إنسان يعطى هذا الكتاب، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[3].

قال ابن عباس: "خلق الله القلم من جوهرة طولها مسيرة خمسمائة عام، مشقوق السن، ينبع منه النور، كما ينبع من أقلام أهل الدنيا المداد. ثم نودي القلم أن اكتب. فاضطرب القلم من هول النداء، حتى صار له ترجيع كترجيع الرعد، ثم جرى في اللوح بما هو كائن، وما هو فاعله، في الوقت الذي يفعله إلى يوم القيامة، فامتلأ اللوح وجفّ

(1) سورة الدخان، آية 4.

(2) سورة الانفطار، آية 10-11.

(3) سورة الإسراء، آية 13-14.

القلم، سعد من سعد، وشقي من شقي.

ثم أمر الله القلم أن يكتب: ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. فلما كتب خرج نور من تحت العرش، فخلق الله ذلك النور بحر الرحمة.

ثم أمر الله تعالى القلم أن يكتب: ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾. فلما كتب خرج نور من تحت العرش، وخلق الله من ذلك النور بحر العدل، فإذا أراد الله أن يغفر لعبد، يصب على رأسه قطرة ماء من ذلك البحر.

ثم أمر الله سبحانه القلم أن يكتب: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾. فكتب القلم، فخرج نور من تحت العرش، فجعله الله تعالى نصفين: نصفه الأول توفيق لطاعة محمد ﷺ، ونصفه الثاني توفيق لجميع الأمم، من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ.

ثم أمر الله سبحانه القلم أن يكتب: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾. فكتب القلم، فخرج نور من تحت العرش، وجمع الله ذلك النور فقال: هذا النور بركة رزق العباد، وحلالا إلى يوم القيامة.

ثم أمر الله القلم أن يكتب: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾. فكتب، فخرج نور من تحت العرش، فأخرج من ذلك النور صُورا، فجعل الهواء والفزع في الصور، وسلمه إسرافيل عليه السلام.

وأخرج مسلم والنسائي وابن حبان والطبراني والحاكم، عن ابن عباس قال: " بينما رسول الله ﷺ جالس وعنده جبريل، إذ سمع نقيضا من السماء من فوق، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: يا محمد، هذا ملك قد نزل، لم ينزل إلى الأرض قط. قال: فأتى النبي ﷺ فسلم عليه، فقال:: أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته".

وهذه خواتيم سورة البقرة: قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ

﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [1].

13– سورة الحمد

وسميت بذلك، لأن في أولها لفظ الحمد. وكان ﷺ كثير الحمد. روى البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود من حديث حذيفة قال: "كان ﷺ إذا انتبه من نومه قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور". وكان ﷺ يقول: اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيّوم السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق". أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.

14– سورة الشكر

وسميت بذلك، لأن الحمد لله هو الشكر. ومن قرأ سورة الحمد، فقد شكر الله تعالى. وأخرج ابن جرير والحاكم في تاريخ نيسابور والديلمي عن ابن عمير – وكانت له صحبة – قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قلت الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله تعالى". وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "الحمد لله كلمة الشكر، إذا قال العبد: الحمد لله، قال الله تعالى: "شكرني عبدي". وروى الحاكم والبيهقي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ما أنعم الله على عبد من نعمة، فقال الحمد لله الأولى، فقد أدى شكره. وإن قالها الثانية، جدد الله تعالى ثوابها. وإن قالها الثالثة، غفر له ذنوبه أي الصغائر".

وروى أبو علي والنسائي عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "من أكل فشبع، وشرب فروي، فقال: الحمد لله الذي أطعمني وأشبعني، وسقاني وأرواني، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه". ولذا كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من طعامه

(1) سورة البقرة، آية 285-286.

قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي ". رواه أحمد وأبو داود ومسلم والترمذي من حديث أنس.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال العلماء: لسان الحمد ثلاث: لسان الإنسان: وهو للعوام، وشكره التحديث بأنعام الله، مع تصديق القلب بأداء الشكر. ولسان الروحاني: وهو للخواص، وهو ذكر القلب لطائف اصطناع الله تعالى في تربية الأحوال وتزكية الأفعال. ولسان الرباني: وهو لأخص الخواص وهم العارفون، وهو حركة السر بقصد شكر حق الله تعالى، بعد إدراكه لطائف المعارف وغرائب الكشف. فعلى الغافل أن يحمد الله تعالى في السرّاء والضرّاء، كي يدعى إلى الجنة أولا، كما قال ﷺ: " أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة، الذين يحمدون الله تعالى في السرّاء والضرّاء ". رواه سعيد ابن جبير عن ابن عباس.

15- **سورة الرقية**

وسميت بذلك، لأن بعض الصحابة رقوا بهذه السورة على لديغ، وعلى بعض الأوجاع والأمراض. كما أخرج أبو عبيدة وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ثلاثين راكبا، فنزلنا بقوم من العرب، فسألناهم أن يضيّفونا فأبوا، فلدغ سيدهم، فأتوا وقالوا: فيكم أحد يرقي من العقرب؟ فقلت: نعم، أنا.. ولكن لا أفعل حتى تعطونا شيئا. قالوا: فإنا نعطيكم ثلاثين شاة. فقال: فقرأت عليه الحمد لله سبع مرات. فلما قبضنا الغنم عرض في أنفسنا منها، فكففنا حتى أتينا النبي ﷺ، فذكرنا ذلك له فقال: " أما علمت أنها رقية؟ " وفي رواية: وما كان يدريك أنها رقية؟ اقتسموها واضربوا لي معكم بسهم[(1)].

وأخرج أحمد والبخاري والبيهقي في سننه عن ابن عباس: أن نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ مرّوا بماء فيه لديغ أو سليم، فعرض لهم رجل من أهل الحي فقال: هل فيكم من راق؟ إن في الماء رجلا لديغا أو سليما؟ فانطلق رجل منا، فقرأ بفاتحة الكتاب

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، حديث 2276، ومسلم في كتاب السلام، حديث رقم 2201.

على شاء، فبرئ فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكرهوا ذلك وقالوا: أخذت على كتاب الله أجرا. ولما قدموا المدينة، قالوا: يا رسول الله، أخذ على كتاب الله أجرا. فقال رسول الله ﷺ: "إن أحق ما أخذتم عليه أجرا: كتاب الله".

واخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن جرير والحاكم وصححه، عن خارجة بن الصلت التميمي عن عمه أنه أتى رسول الله ﷺ، ثم أقبل راجعا من عنده، فمر على قوم وعندهم رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله: أعندك ما تداوي به هذا؟ فإن صاحبكم – يعني رسول الله ﷺ – قد جاء بخير. قال: فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام، في كل يوم مرتين، غدوة وعشية. أجمع بزاقي ثم أتفل فبرأ. فأعطاني مائة شاة، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له. فقال: كل، فمن أكل برقية باطل، فقد أكلت برقية حق".

وعن حصين بن عبد الرحمن الحارثي قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: "أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟" فقلت: أنا. ثم قلت: أما لأني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت". قال: "فما صنعت؟ قال: ارتقيت. قال: فما حملك على هذا؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لارقية إلا من عين أو حُمة. قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع. ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: "عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: ولعلهم الذين ولدوا في الإسلام، فلم يشركوا به شيئا، وذكروا أشياء. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: "هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون". فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم". قال: أنت منهم". ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: سبقك بها عكاشة".

أما بخصوص التمائم (1)، والنهي عنها، فقد ورد في الصحيح أن أبا بشير قيس بن عبيد الله الأنصاري رضي الله عنه، أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولا: أن لا يبقينّ في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت.

ولهذا لا يجوز وضع التمائم على ما يخشى وقوع العين عليه، من جلود وأساور، وقلائد، وخرز، وغيره. قال ﷺ: "من تعلّق تميمة، فلا أتم الله له". رواه أحمد. وقال ﷺ: "من تعلّق شيئا وكل إليه". رواه الترمذي.

وروى أحمد وأبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الرقى (2) والتمائم والتولة (3) شرك". ولفظ أبو داود عن زينب امرأة عبد الله ابن مسعود أن عبد الله رأى في عنقي خيطا. فقال: ما هذا؟ قلت: خيطا رقي لي به. قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله الأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الرقى والتمائم والتولة شرك".

قال المصنف رحمه الله: لكن إذا كان المعلق من القرآن، فرخص فيه بعض السلف. وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهى عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

16– سورة الشفاء

قال تعالى﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (4).

سميت الفاتحة بذلك، لما أخرج سعيد بن منصور والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "فاتحة الكتاب شفاء من السم". وفي رواية شفاء من كل سقم. وأخرج الخلعي عن جابر رضي الله عنه قال: فاتحة الكتاب شفاء من كل شيء إلا السام، والسام هو الموت. وروى البيهقي عن عبد الملك بن عمير

---

(1) التمائم: شيء يعلق على الأولاد من العين.

(2) الرق: هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا الشرك، فقد رخص به رسول الله ﷺ من العين والحمة

(3) التولة: شيء يصنعونه يزعمون انه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.

(4) سورة الإسراء، آية 82.

مرسلا قال ﷺ: " فاتحة الكتاب شفاء من كل داء". أي داء الجهل والمعاصي والأمراض الظاهرة والباطنة، وإنها كذلك لمن تدبر وتفكر وجرب وقوي يقينه.

وأخرج ابن قانع في معجم الصحابة، عن رجاء الغنوي قال: قال رسول الله ﷺ ": استشفوا بما حمد الله به نفسه، قبل أن يحمده خلقه، وبما مدح الله به نفسه". قلنا: وما ذاك يا نبي الله؟ قال: " الحمد لله، وقل هو الله أحد".

قد يسأل سائل: لماذا قدم الله الشفاء على الرحمة؟ فالجواب: لأن الرحمة تشفي الناس من كل شر قادم، ولكن، لا بد من الشفاء أولا. فعندما نزل القرآن الكريم كانت الأمراض والداءات تملأ المجتمعات: الظلم، وأكل حقوق الناس، واستعباد الإنسان للإنسان، والسطو، والقتل إلى غير ذلك، فجاء الإسلام أولا ليشفي المجتمع من هذه الأمراض والآفات، إذا اتبع منهجه، وبعد ذلك تأتي الرحمة، وتمنع عودة هذه الداءات، فإذا حدثت غفلة عن منهج الله، عادت الداءات والأمراض. ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاعتصام بحبل الله، واتباع نهجه القويم.

17- سورة الشافية

وسميت بذلك، لأن فاتحة الكتاب تبرئ من الآلام، وتعجل العافية في حينها. وقد ورد في الأخبار الصحيحة والآثار الصريحة ، لقوله ﷺ: " إن في سورة الحمد سبعين شفاء". وأخرج الطبراني في الأوسط والدار قطني في الإفراد وابن عساكر بسند ضعيف، عن السائب بن يزيد قال: " عوّذني رسول الله ﷺ بفاتحة الكتاب تفلا".

18- سورة الصلاة

وسميت بذلك، لتوقف الصلاة عليها.. وقيل هذه من أسمائها لحديث: " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي (أي السورة). وقيل: لأن الصلاة من لوازمها فهو ما باب تسمية الشيء باسم لازمه. وأخرج البخاري ومسلم ومالك في الموطأ وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن الأنباري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: " من صلى صلاة ولم يقرأ بأم القرآن، فهي خداج فهي خداج فهي خداج (ثلاث مرات) غير تام.

وقال أبو السائب: يا أبا هريرة: إني أحيانا أكون وراء الإمام، فغمز ذراعي وقال: اقرأ بها يا فارسي في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. قال تعالى: اقرأ. فيقول العبد: الحمد لله رب العالمين، فيقول الله تعالى: حمدني عبدي. يقول العبد: الرحمن الرحيم، يقول الله تعالى: أثنى عليّ عبدي. يقول العبد: مالك يوم الدين. يقول الله تعالى: مجدني عبدي. يقول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين. يقول الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي، أولها لي وآخرها لعبدي، ولعبدي ما سأل. يقول العبد: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. فيقول الله: هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل". ولهذا سميت الصلاة.

وأخرج الدار قطني والبيهقي في السنن بسند ضعيف عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: قسمت هذه الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ﴾ يقول الله: ذكرني عبدي. فإذا قال " ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ يقول الله: حمدني عبدي. فإذا قال:﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ﴾. يقول الله: أثنى علي عبدي. فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾ يقول الله: مجدني عبدي. فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ قال الله: هذه الآية بيني وبين عبدي نصفين، وآخر السورة لعبدي، ولعبدي ما سأل. وللكلام الذي يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة وجوه:

الوجه الأول:

إنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ ﴾[1]. أي بقراءتك كما جاء مصرحا به في الصحيح عن ابن عباس. وهكذا قال في هذا الحديث: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي

---

(1) سورة الإسراء، آية 110.

نصفين. ثم بين تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة. فدل على عظمة القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذ أطلقت العبادة، وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة. كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[1]. والمراد صلاة الفجر. كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، لما نص حديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم – وهو أعلم بهم –: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون".

دل هذا كله، على أنه لا بد من القراءة في الصلاة، وهو اتفاق من العلماء، ولكن اختلفوا: هل يتعين للقراءة في الصلاة غير فاتحة الكتاب؟ أم تجزئ هي عن غيرها؟ وعلى هذا، فهناك قولان مشهوران:

القول الأول:

إنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزاه في الصلاة، وهو قول أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم. واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾[2]. وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في قصة المسيء في صلاته، أن رسول الله ﷺ قال له: إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن. قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها.

والقول الثاني:

إنه يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة، كمالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وجمهور العلماء. واحتجوا على ذلك بهذا الحديث، قال ﷺ: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج". والخداج هو الناقص وغير

(1) سورة الإسراء، آية 78.

(2) سورة المزمل، آية 20.

التام. واحتجوا أيضا بما ثبت في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب". وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن".

الوجه الثاني:

مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم، أنه يجب قراءتها في كل ركعة. وقال آخرون: إنما تجب قراءتها في معظم الركعات. وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها قراءة في ركعة واحدة من الصلوات، أخذا بمطلق الحديث: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب".

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا تتعين قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ (1).

الوجه الثالث:

هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ وفيه ثلاثة أقوال للعلماء:

الأول: إنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة.

الثاني: لا تجب على المأموم قراءة بالكلية للفاتحة ولا غيرها، لا في الجهرية ولا في السرية.

الثالث: إنه تجب القراءة على المأموم في السرية، ولا تجب ذلك في الجهرية.

19– **سورة الدعاء والطلب.**

لاشتمالها عليهما في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

20– **سورة تعليم المسألة.**

لأن الله تعالى علم عباده فيها آداب السؤال، فبدأ بالثناء، ثم بالإخلاص، ثم بالدعاء.

وأخرج أبو عبيد عن مكحول قال: أم القرآن قراءة ومسألة ودعاء.

---

(1) سورة المزمل، آية 20.

21- **سورة المناجاة.**

لأن المصلي يناجي ربه فيها، فينجيه الرب.

22- **سورة التفويض.**

لما فيها من الاستعانة بتقديم إياك نعبد وإياك نستعين.

23- **سورة المكافاة.**

لأنها مكافأة القوافل السبعة حين دخلوا مكة.

24- **افضل سور القرآن.**

وسميت ذلك، لما اخرج البيهقي في شعب الإيمان وأبو ذر الهروي والحاكم وصححه وأحمد في المسند عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ في مسير له فنزل، فمشى رجل من أصحابه إلى جنبه، فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: "ألا أخبرك بأفضل القرآن؟ فتلا عليه: الحمد لله رب العالمين.... السورة".

25- **أخير سورة من سور القرآن**

لما أخرج أحمد والبيهقي في شعب الإيمان بسند جيد عن عبد الله بن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال له: "ألا أخبرك بأخير سورة نزلت في القرآن؟ قلت: "بلى يا رسول الله". قال: اقرأ فاتحة الكتاب حتى تختمها". وأحسبه قال: "فإن فيها شفاء من كل داء".

26- **أعظم سورة في القرآن**

لما أخرج أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد رافع بن المعلى الأنصاري رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ فأخذ بيدي. فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله، إنك قلت: لأعلمنّك أعظم سوزة في القرآن. قال: "الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقران العظيم الذي أوتيته".

وفي رواية صحيحة أقسم المصطفى ﷺ قال: "والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها، وإنها السبع المثاني والقرآن العظيم

الذي أعطيته".

هذه السورة وبشهادة الرسول ﷺ أعظم سورة في القرآن، لأنها اشتملت – رغم إيجازها– على مجمل ما نزل بعدها، من سور القرآن، التي فصلها الله تفصيلا: ففيها صور مجملة من توحيد الألوهية والربوبية، والوعد والوعيد يوم الدين والحساب، وتوجه الخلق إلى عبادة الخلاق، والعبرة بقصص من اهتدى من السعداء، أو ضل وانحرف من الأشقياء.

إن هذه الأحاديث لا تنافي: البقرة أعظم السور، لأن المراد به ما عدا الفاتحة من السور التي فصلت فيها الأحكام، وضربت فيها الأمثال، وأقيمت فيها البراهين.

الإشارات في فاتحة الكتاب

الإشارة الأولى:

إن الفاتحة سبع آيات، مختصرة من سبعة كتب: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، وصحف آدم، وصحف إدريس، وصحف إبراهيم عليهم الصلاة والسلام. وفيها من المواعظ ما تلين به القلوب، وتصلح به الأحوال. فإذا قرأت الفاتحة يكون لك ثواب من قرأ هذه الكتب السبعة – كذا في تفسير الحنفي –.

روى الثعلبي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، كم من كتاب أنزل الله عز وجل؟ قال: "أنزل الله تعالى مائة كتاب وأربعة كتب: أنزل تعالى على آدم عليه السلام عشر صحائف، وعلى شيت خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم الخليل عشر صحائف، وأنزل الله تعالى التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. قال: قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالا".

وعن الحسن قال: "أنزل الله مائة وأربعة كتب: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، ثم أودع علوم المائة وأربعة كتب في الفرقان، ثم أودع علوم الفرقان في المفصّل، ثم أودع علوم المفصّل في الفاتحة، فمن علم تفسير الفاتحة كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة، ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان".

- كذا في تفسير ابن عادل -.

الإشارة الثانية:

أكثر الأشياء وضع على سبع: فإن السموات سبع، والأرضين سبع، والأبحر سبع، والأجبل سبع، والأنجم العظام سبع لهم سلطان في السماء.

الإشارة الثالثة:

وعنه ﷺ أنه قال: "أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: الوجه، واليدين، والركبتين، والقدمين". وأعطى الله محمدا ﷺ سورة بسبع آيات، فمن قرأ السبع المثاني، ويقبلها الله تعالى من العبد، لشكر العبدَ سبعُ جوارح. وليكون بقراءتها ثواب كل سبع في ملكوته، وهذا يوافق ما روي عن مقاتل بن سليمان: أن لله تعالى قنديلا معلقا بالعرش، في ذلك القنديل ثمانية عشر ألف عالم، إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، تحرك القنديل بالثناء على الله تعالى، ويعطي الله لقائلها من الثواب ثمانية عشر ألف عالم.

الإشارة الرابعة:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾[1]. وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص من الثمرات آيات مفصّلات، وكانت هذه الآيات محنة على قوم موسى. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾[2]. أي أعطاك يا محمد رحمة على أمتك، فشتان ما بين العطاءين، الأول: يخرج من خزانة العدل، وهي آيات فانية، والثاني: يخرج من خزانة الفضل والكرم، ولهذا فهو باق لا يفنى إلى يوم القيامة.

كانت المناهج التي أرسلها الله سبحانه إلى الرسل السابقين، من أجل التغيير، وكانت معجزات الرسل السابقين قد حدثت وانتهت، لأنها معجزات حسية، من رآها آمن بها، ومن لم يرها فهو غير مقصود بها، لأنها حدثت لتثبيت المؤمنين الذين يتبعون

---

(1) سورة الإسراء، آية 101.

(2) سورة الحجر، آية 87.

الرسول.

كانت التوراة منهج موسى ﷺ، وكانت معجزته العصا، التي شقت البحر، ولا يستطيع أتباع موسى أن يأتوا بها الآن، ليقولوا هذه معجزته.

وكان الإنجيل منهج عيسى ﷺ، وكانت معجزته إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله سبحانه. ومعجزته لن تعود الآن من جديد، ولكن المعجزة في رسالة محمد ﷺ أمر موجود، ويمكن أن يشار إليه في أي وقت من الأوقات.

كان العرب يتفاخرون بالفصاحة، ويرون أنها أعظم منقبة للإنسان، فجاء محمد ﷺ بهذا القرآن العظيم، الذي أعجز أمراء الفصاحة كافة، وعجزوا أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

الإشارة الخامسة:

وكما أن شريعة موسى وسنته، قد فنيت ونسخت بعد موته. أما ما أعطاه الله سبحانه لسيدنا محمد ﷺ فمن جملته: القرآن الكريم، وأعظمه الفاتحة التي لا تفنى أبدا، وكذا شريعته وسننه لا تفنى ولا تنسخ أبدا.

الإشارة السادسة:

من مثلك يا محمد، إلهك رب العالمين، ونبوتك رحمة للعالمين. قال تبارك تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. وقال في نبوتك يا محمد: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

الإشارة السابعة:

إلهك يا محمد هو: الرحمن الرحيم، وأنت يا محمد بالمؤمنين رؤوف رحيم.

---

(1) سورة الإسراء، آية 88.

(2) سورة الأنبياء، آية 107.

الإشارة الثامنة:

إلهك يا محمد مالك يوم الدين، ونبوتك شفاعة المذنبين من أهل الدين يوم الدين.

الإشارة التاسعة:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ﴾ [1]. وكان ذلك العلم كلام الطيور. وقال تبارك وتعالى لمحمد ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ [2]. وكان السبع المثاني كلام الملك الغفور، وشتان بين الكلامين.

الإشارة العاشرة:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ﴾ [3]. والفضل قد يكون صغيرا أو كبيرا، ولم يبين الله حجم هذا الفضل. ولما جاء وصف محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [4]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [5].

من أسرار الفاتحة من حيث عدد حروفها

الحمد: خمسة أحرف، والصلاة خمسة، فإذا قال العبد: الحمد، كتب له ثواب خمس صلوات.

لله: ثلاثة أحرف، فإذا ضمت إلى الأولى، صارت ثمانية، وأبواب الجنة ثمانية، فإذا قال العبد: الحمد لله، فتحت له أبواب الجنة الثمانية، ليدخل من أي باب شاء، بلا حساب أو عذاب.

رب العالمين: عشرة أحرف، فإذا ضمت إلى الأول، صارت ثمانية عشر حرفا،

(1) سورة النمل، آية 15.

(2) سورة الحجر، آية 87.

(3) سورة النمل، آية 15.

(4) سورة النساء، آية 113.

(5) سورة الأحزاب، آية 47.

والعالم ثمانية عشر ألف عالم، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، كتب له ثواب تلك العوالم.

الرحمن: ستة أحرف، فإذا ضمت إلى الأولى، صارت أربعة وعشرين حرفا، وساعات الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين الرحمن، كتب الله تعالى له ثواب الليل والنهار.

الرحيم: ستة أحرف، فإذا ضمت إلى الأولى، صارت ثلاثين حرفا، وجعل الله تعالى شهر رمضان ثلاثين يوما، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، كتب الله له ثواب من صام شهر رمضان.

مالك يوم الدين: اثنا عشر حرفا، فإذا ضمت إلى الأولى، صارت اثنين وأربعين حرفا، وركعات الفرائض والوتر في كل يوم عشرون ركعة، وركعات السنن الرواتب مع ركعتي الضحى اثنان وعشرون، وتبلغ كلها اثنين وأربعين ركعة، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، كتب له ثواب اثنتين وأربعين ركعة.

إياك نعبد: ثمانية أحرف، فإذا ضمت إلى الأولى، صارت خمسين حرفا، وخلق الله تعالى يوم القيامة خمسين ألف سنة، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد، يكون آمنا من فزع يوم القيامة خمسين ألف سنة.

وإياك نستعين: أحد عشر حرفا، فإذا ضمت إلى الأولى، صارت إحدى وستين حرفا، وخلق الله البحار إحدى وستين بحرا، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، أعطاه الله تعالى ثوابا عدد قطر البحار.

اهدنا الصراط المستقيم: تسعة عشر حرفا، فإذا ضمت إلى الأولى، صارت ثمانين حرفا، فإذا قذف العبد مؤمنا أو مؤمنة محصنة، أو شرب الخمر، فعقوبتهما ثمانون جلدة فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، عفا تعالى عنه

عقوبة ثمانين جلدة.

صراط الذين أنعمت عليهم: تسعة عشر حرفا، فإذا ضمت إلى الأولى، صارت تسعة وتسعين حرفا، وأسماء الله تعالى في القرآن تسعة وتسعون اسما، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، كتب الله تعالى له ثواب تلك الأسماء.

غير المغضوب عليهم: خمسة عشر حرفا، فإذا ضمت إلى الأولى، صارت مائة وأربعة عشر حرفا، وعدد سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، كتب الله تعالى له ثواب جميع سور القرآن الكريم.

ولا الضالين: عشرة أحرف، فإذا ضمت إلى الأولى، صارت مائة وأربعة وعشرين حرفا، وعدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي. فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، ولا الضالين، كتب الله تعالى له ثواب عدد الأنبياء.

آمين: أربعة أحرف، الأول مأخوذ من اسم آدم، والميم مأخوذ من اسم محمد، والياء مأخوذ من اسم يحيى، والنون مأخوذ من اسم نوح، صلوات الله عليهم أجمعين [1].

قال النبي ﷺ: "آمين أربعة أحرف، فمن قال: آمين، أمنه الله تعالى من أربعة أنواع من البلاء، أولها: زوال الإيمان، وثانيها: خوف من العرضات، وثالثها: هول الصراط، ورابعها: خلوده من الدركات".

(1) اقرأ المزيد في تفسيرنا لكلمة آمين في تفسير الفاتحة.

ومن فضائل سورة الفاتحة:

هذه السورة العظيمة المباركة، تحوي العديد من الخواص الظاهرة والباطنة، وفيها أسرار لأرباب البدايات، وأنوار النهايات، لأنها تدل على الدين القيّم، والصدق، والإنابة، والتوفيق، والنصر، والقهر، والغلبة، والطاعة، والعطف، والمحبة، والكفاية، والوقاية، والأمن وغير ذلك من نعم الله سبحانه. وبها تتنزل البركات وترفع الحاجات. فمن داوم على تلاوتها بصدق النية الخالصة، والتجرد للذات العلية، مع التيقن الأكيد بالإجابة، أعطاه الله ما طلب، وطهر الله تعالى ظاهره وباطنه من جميع الآفات النفسية والإرادات الشيطانية، وألهمه الله تعالى العلم اللدني ظاهرا وباطنا، شريطة أن يكون القارئ على استقامة تامة.

ومن خواص هذه السورة، أن رسول الله ﷺ قال: " من قرأها عند وضع جنبه على الفراش، وقرأ معها: قل هو الله احد، ثلاث مرات، والمعوذتين، فقد أمن من كل شيء إلا الموت ".

وعنه ﷺ قال: " الفاتحة مفتوحة لمقصد المؤمنين، ومن قرأها بالوشوء سبعة أيام في كل يوم سبعين مرة، ونفخ على ماء طاهر، وشربه، يرزقه الله تعالى بفضله العلم والحكمة ". إلا طهر قلبه من الأفكار الفاسدة، وجعله ذكيا لا ينسى أبدا ما سمعه.

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: اثنتا عشرة ركعة، من صلاها في ليل أو نهار، وقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب سبع مرات، وسورة، ويتشهد في كل ركعتين ويسلم، ثم يسجد بعد التشهد من الركعتين الأخيرتين قبل السلام، ويقرأ فاتحة الكتاب سبع مرات، وآية الكرسي سبع مرات، ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات، ثم يقول: الله إني أسألك بمعاقد العز من عرشك، ومنتهى الرحمن من كتابك، وباسمك الأعظم، ووجهك الأعلى، وكلماتك التامة، أن تقضي حاجتي. ثم يسأل حاجته، ثم يرفع رأسه ويسلم يمينا وشمالا، فإن الله تعالى يقضي حاجته ". ثم قال ﷺ: " لا تعلموها سفهاءكم، لأنها دعوة مستجابة ".

وروي عن الشيخ محيي الدين بن العربي، أنه قال: " من كانت له حاجة فليقرأ

الفاتحة أربعين مرة بعد صلاة المغرب، عند الفراغ من الفرض والسنة، ولا يقوم من مقامه إلا بعد أن يفرغ من قراءة الفاتحة، وبعده يسأل مراده، فإن الله يقضيه لا محالة. ثم يدعو: " إلهي علمك كاف عن السؤال، فاكفني بحق الفاتحة، وكرمك كاف، فأكرمني بحق الفاتحة، وحصل ما في ضميري".

كتب ابن القيم في كتابه: كل داء له دواء، يقول: أنا أحسنت المداواة بالفاتحة، فوجدت لها تأثيرا عجيبا في الشفاء، وذلك أنني مكثت بمكة يعتريني داء، فلم أجد له طبيبا ولا دواء، فقلت: يا نفس، دعيني أعالج نفسي بالفاتحة، ففعلت. فرأيت لها تأثيرا عجيبا، وكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألما شديدا، فكان كثيرا منه يبرأون سريعا ببركة الفاتحة".

- من قرأ الفاتحة مع وصل البسملة على مريض إحدى وأربعين مرة، شفاه الله تعالى.
- من داوم على قراءة الفاتحة مع البسملة، بين سنة الصبح وفرضه، إحدى وأربعين مرة، لم يطلب منزلة إلا وجدها. فإن كان فقيرا أغناه الله، وإن كان مديونا قضى الله دينه، وإن كان مريضا شفاه الله سريعا، وإن كان ضعيفا قوي، وإن كان غريبا عز وشرف بين الناس.
- من داوم على قراءة الفاتحة مع البسملة عقب كل صلاة مكتوبة عشرين مرة، وسع الله تعالى له في رزقه، وحسن حاله، ونور بصره، ويسر أمره، وفرج همّه.
- من داوم على قراءة الفاتحة وقت السحر إحدى وأربعين مرة، فتح الله عليه الرزق، وسهل أموره.
- من كتب سورة الفاتحة في إناء نظيف، ومحاها بماء، وشرب منه المريض، شفي من مرضه بإذن الله تعالى. ومن مسح به جميع بدنه مرة واحدة أو على موضع الوجع ثلاث مرات، وهو يقول: اللهم اشف فأنت الشافي، اللهم اكف فأنت الكافي، اللهم عاف فأنت المعافي" فإن فعل ذلك فإنه يبرأ بإذن الله تعالى.

وعن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال: "من قرأ الفاتحة على

الترتيب الآتي، وصل إلى جميع مرادات الدنيا والآخرة باليسر، وسخر له قلوب بني آدم وحواء، ورفع الله تعالى عنه جميع البلاء، وزلات الدنيا والآخرة، وتكون قراءته في كل يوم مرة واحدة".

وروي عن البخاري قوله: "من داوم على قراءة الفاتحة على هذا الوجه الذي رتب، لا يحتاج إلى أحد في حوائج الدنيا، وفتح الله تعالى له أبواب الغيب".

ومن كان له أمر مهم، فليقرأ هذا الترتيب في مكان خال، بوضوء كامل، وهو طاهر البدن والثياب، ثم يصلي ركعتين نافلة. وبعد السلام، يأتي بالاستغفار سبعين مرة، والصلاة على النبي ﷺ سبعين مرة، ثم يقرأ هذا الترتيب سبعين مرة، ثم يسأل حاجته، فإنها تقضى بإذن الله تعالى.

أما الترتيب الذي أشار إليه الإمام علي والبخاري فهو كالتالي:

أول أيامه الأحد، تقول:

"**بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين**، يا حي يا قيوم، أجب يا روفائيل سميعا مجيبا أنت وخدّامك (مذهب)، بحق الحمد لله رب العالمين، وبحق الحي القيوم، وبحق سيدنا محمد ﷺ، وبحرمة الملائكة الموكلين بقوائم العرش (أبجد).. **الرحمن الرحيم**، يا رءوف يا عطوف، أجب يا جبريل أنت وخدّامك (أبيض) بحق الرحمن الرحيم، الرءوف العطوف، وبحق سيدنا محمد ﷺ، وبحرمة الملائكة الموكلين بقوائم العرش (هوزج)، **مالك يوم الدين**، يا مقلب القلوب والأبصار، أجب يا سمسمائيل سميعا مطيعا، أنت وخدّامك (أحمر) بحق مالك يوم الدين، وبحق مقلب القلوب والأبصار وبحق سيدنا محمد ﷺ، وبحرمة الملائكة الموكلين بقوائم العرش (طيكل)، **إياك نعبد وإياك نستعين**، يا سريع ويا قريب، أجب يا ميكائيل سميعا مطيعا، أنت وخدّامك (برقان)، بحق إياك نعبد وإياك نستعين، وبحق السريع القريب، وبحق سيدنا محمد ﷺ، وبحرمة الملائكة الموكلين بقوائم العرش (منسع)، **اهدنا الصراط المستقيم**، يا قادر يا مقتدر، أجب يا إسرافيل، سميعا مطيعا، أنت وخدّامك (شمهورش)، وبحق الصراط المستقيم، وبحق القادر المقتدر، وبحق سيدنا محمد ﷺ، وبحرمة الملائكة الموكلين بقوائم العرش (فصقر)، **صراط الذين أنعمت عليهم**، يا عليم ويا حكيم، أجب يا عينيائيل سميعا مطيعا، أنت وخدامك (زوبعة)، بحق

الذين أنعمت عليهم، وبحق العليم الحكيم، وبحق سيدنا محمد ﷺ، وبحرمة الملائكة الموكلين بقوائم العرش (شتشخ)، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، يا قاهر يا عزيز، أجب يا كسفيائيل سميعا مطيعا، أنت وخدامك (ميمون) بحق القاهر العزيز، وبحق سيدنا محمد ﷺ، وبحرمة الملائكة الموكلين بقوائم العرش (ضطلع)، أقسمت عليكم بالملائكة الروحانيين، من العلويات والسفليات، ويا خدام فاتحة الكتاب، أجيبوني، وأمدوني، وأعينوني بجميع أموري، الوحا الوحا، العجل العجل، الساعة الساعة، بحق السبع المثاني والقرآن العظيم، وبحق الأسرار والبركات فيهما، وبحق ما تعتقدونه من العظمة والبرهان، وبحرمة سيدنا محمد ﷺ، اللهم سخر لي الرفرف الأخضر، إنك على كل شيء قدير، برحمتك يا أرحم الراحمين".

أما دعاء سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه، فهو كالتالي، بعد حذف البسملة وآمين:

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، **الحمد لله رب العالمين**، حمدا يفوق حمد الحامدين، حمدا يكون مرضيا عند رب العالمين **الرحمن الرحيم**، الذي دحا الأرض والأقاليم، واختص موسى الكليم، وأحيا العظام وهي رميم، وسمّى نفسه الرحمن الرحيم، فهما اسمان جليلان فيهما شفاء لكل سقيم، **مالك يوم الدين** ليس له منازع في الملك، ولا شريك، ولا قرين، ولا وزير، ولا مشير، ولا معين، بل كان قبل العوالم كلها أجمعين، أنت المحيط بجميع السلاطين والشياطين، أعنّي على الأبعدين والأقربين، **إياك نعبد** بالإقرار ونعترف بالتقصير، ونستغفرك من الذنوب، ونتوب إليك، ونشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك ﷺ، **وإياك نستعين** على كل حاجة من حوائج الدنيا والدين، يا هادي المضلين، ولا هادي غيرك، **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**، اللهم يا مالك رقاب العوالم كلها، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، رب نجني من الغمّ يا منجّي المؤمنين، فرج الكرب عني يا مفرج الكرب عن المكروبين، يا رب يا غياث المستغيثين، اكفني ونجّني مما أخاف وأحذر، وسخّر لي الملك الأخضر.. يا مغيث أغثني.. وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني

كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته أجمعين، والحمد لله رب العالمين".

ومن الأدعية بعد الوضوء وصلاة ركعتين يقرأ المسلم هذا الدعاء، أثناء قراءة الفاتحة: بسم الله الرحمن الرحيم، رب أسألك بالاسم الذي فتحت به عالم الأمر والخلق، يا عليم يا حليم يا فتاح، يا رب أسألك اللهم يسر، يا رحمن يا رحيم يا فتاح، أسألك التدبير والتيسير والمعونة، والحفظ والرعاية والستر، وحسن الظن بك، واليأس من غيرك، بسم الله الرحمن الرحيم تكون بأمرك، وتكون بوجودك، وبركة منك. تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، بك آمنا ولك أسلمنا وعليك توكلنا، احفظنا اللهم بنورك يا مالك يوم الدين، ونوّر أبصارنا بنورك يا برهان، يا نور النور، يا هادي المضلين لا هادي إلا أنت، الحمد لله رب العالمين، اغننا بك عن غيرك يا غني يا مغني يا الله، الرحمن الرحيم شهود ذاتك يا رحمن: سلام قولا من رب رحيم، مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، اللهم إني أسألك بأنك أنت الله في حقائق محض التخصيص، وبأنك أنت الله على كل حال من أحوال الجد والتعديل، وبأنك أنت الله المقدس بخصائص الأحدية والصمدية عند الضد والند، والنقيض والنظير والظهير، وبأنك أنت الله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أسألك أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وأن تقي حاجتي بحق اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، أسالك أن تنعم علي بقضاء حاجتي، وما يكون لي فيه خير الدنيا والآخرة، يا من هو أهل التقوى وأهل المغفرة، اللهم لا تجعلنا من أهل الخزي في الحياة الدنيا والآخرة، واجعلنا من غير الذين غير المغضوب عليهم ولا الضالين .. اللهم لا تجعلنا ضالين ولا مضلين ولا عن بابك ولا عن وجهك مطرودين.. آمين، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله علي سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أسرار الرقم 7

من المدهش حقا، أن لهذا الكون فكرا يعتمد على الحساب والأرقام في علم الرياضيات الذي يقوم على التعادل والتوازن والمنطق، فمثلا رسالة النور من السماء،

تعتمد على رقم (7)، بمعنى أن لشعاع الضوء سبعة أمواج مرئية هي ألوان قوس قزح، وسبعة أمواج غير مرئية في الطيف الكهرومغناطيسي. وكذلك فإن رسالة الصوت أيضا لها سبعة أمواج في أنغام السلم الموسيقي، ولهذا فلا بد أن يكون للرقم سبعة دلالة عقلية وفكرية.

الرقم 7 في القرآن الكريم

ولا بأس من أن نورد بعض ما ورد في القرآن الكريم، عن الرقم 7:

خلق الكائنات وما يتصل بها:

خلق الله سبحانه وتعالى السموات سبع، والأرضون سبع، والجبال سبع، وعمر الدنيا سبعة آلاف سنة، والكواكب السيارة سبعة، وأبواب جهنم سبعة، ودركتها سبعة، وامتحان النبي يوسف سبع سنين.. فلبث في السجن سبع سنين، وإيتاؤه ملك مصر سبع سنين، وكرامة الله إلى المصطفى سبع في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [1]. وتركيب ابن آدم على سبعة أعضاء، وخلقه من سبعة أشياء. ورزق الإنسان وطعامه سبعة أشياء، وأمره بالسجود على سبعة أعضاء، والطواف بالبيت سبعة أشواط، والسعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط. ورمى الجمرات سبعة، والأيام سبعة.

تردد في القرآن الكريم كغيره من الكتب المقدسة، خلال سوره وآياته رقم (7)، وهذه الآيات:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:29]

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك:3].

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [المؤمنون:86].

(1) سورة الحجرآية87.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح:15].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ النبأ

﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ { فصلت: 12}.

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق:12]
- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء:44]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون:17]
- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان:27]
- ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [البقرة:196]
- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:261]

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ

خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف:43].

- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف:46]

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر:44]

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف:22].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة:7].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:87].

ومن الآيات الكريمة التي تضمنت معان سبع، في بعض سور من القرآن الكريم:

- ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾ [الشمس:1-7].
- ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأحزاب:55].
- **سورة المؤمنون، وفيها سبع صفات للمؤمنين:** ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون: 1-10].

- السور التي تبدأ بـ حم سبع: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

السبع الآيات المنجيات:

1. ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [التوبة: 51].
2. ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ [يونس: 107].
3. ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾ [هود: 6].
4. ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [هود: 56]
5. ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ [العنكبوت: 60].
6. ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ [فاطر: 2].

7. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) ﴾ [الزمر:38]

وردت كلمة يسألونك سبع مرات في الآيات التالية من سورة البقرة:

1. ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ (١٨٩) ﴾ [البقرة:189].
2. ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾ [البقرة:215]
3. ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ (٢١٧) ﴾ [البقرة:217].
4. ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ (٢١٩) ﴾ [البقرة:219].
5. ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ (٢١٩) ﴾ [البقرة:219].
6. ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ (٢٢٠) ﴾ [البقرة:220]
7. ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ (٢٢٢) ﴾ [البقرة:222]

قدر الله سبحانه أقوات البشر والبهائم في الأرض بسبعة أنواع، كما جاء في سورة عبس:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا

﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ {عبس: ٢٤ – ٣٢}

قسم القرآن الكريم إلى سبعة أقسام [1]:

السبع الأول: إلى قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النساء:55]

والسبع الثاني: إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأعراف:147]

والسبع الثالث: إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد:35]

والسبع الرابع: إلى قوله تعالى:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحج:34]

والسبع الخامس: إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب:36]

السبع السادس: إلى قوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفتح:6].

السبع السابع: إلى آخر القرآن الكريم.

---

(1) تفسير القران العظيم، الحافظ عماد الدين ابوالفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي

أسماء السماء وألقابها في القرآن سبع مسميات:

1. البناء: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ [الشمس:5].
2. السقف: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء:32].
3. الطرائق: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ [المؤمنون:17].
4. الطباق: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [الملك:3]
5. الشداد: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ:12]..
6. الرتق والفتق: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء:30].
7. الدخان: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت:11]

ذكر السماء وآخر أحوالها سبعة:

1. ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ { الطور: 9}.
2. ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ { المعارج: 8}.
3. ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ { الرحمن: 37}.
4. ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ { الانشقاق: 1}.
5. ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ { الانفطار: 1}.
6. ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ { المرسلات: 9}.
7. ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ { التكوير: 11} .

أسماء الأرض في القران الكريم سبعة:

1. فراش: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ { البقرة: 22}.
2. قرار: ﴿ **أم من جعل الأرض قرارا** ﴾ { النمل: 61}.
3. مهاد: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ { النبأ: آية 6 }.

4. رتق:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴿٣٠﴾ ﴾ {الأنبياء: 30}.

5. بساط: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ ﴾ { نوح: 19}.

6. ذات الصدع: ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾ { الطارق: 12}.

7. كفات: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ ﴾ { المرسلات: 25}.

خص الله الأرض في عاقبتها ومآلها، وآخر حالها في سبع آيات:

1. التبديل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴿٤٨﴾ ﴾ { إبراهيم: 48}.

2. الزلزلة: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾ { الزلزلة: 1}.

3. البروز: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴿٤٧﴾ ﴾ { الكهف: 47}.

4. الرّج: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾ { الواقعة: 4}.

5. الرجف: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴿١٤﴾ ﴾ { المزمل: 14}.

6. المدّ: ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾ { الانشقاق: 3}.

7. الدّك: ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾ { الفجر:21}.

وجوه الأرض سبعة:

1. ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾{ الرعد: ٤١} (أرض مكة).

2. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾{ النساء: ٩٧}. (أرض المدينة).

3. ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ {المائدة: ٢١}(بلاد الشام).

4. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ { يوسف: ٢١ } (أرض مصر).

5. ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ {الكهف: ٩٤ }(الشرق).

6. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ {هود: ٦} (الأرضين كلها).

7. ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ {الزمر: ٧٤} (أرض الجنة).

أطوار خلق الإنسان سبعة:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ { المؤمنون: 12-14}.

والنطفة هي في الأصل: الماء القليل، والمهين الضعيف، والمراد به هنا ماء الرجل الدافق، الذي يخرج من بين صلب الرجل وترائبه أعلى صدره، يلقيه في رحم المرأة فتحمل. ثم جعله أطوارا: نطفة ثم علقة ثم مضغة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق الصدوق فقال: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه، أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فنفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد. فو الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل

الجنة فيدخلها"[1].

الرقم 7 في بعض الأحاديث النبوية الشريفة

- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: **إمام عادل، وشاب** عاش في عبادة الله، **ورجل قلبه** معلق بالمسجد حتى يعود إليه، **ورجلان تحابا** في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، **ورجل دعته** امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أحلف الله، **ورجل تصدق** بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، **ورجل ذكر** الله خاليا ففاضت عيناه".
- قال رسول الله ﷺ: سبعة لعنوا: "الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمستحل حرمة الله، والمستحل من حرمتي ما حرم الله، والتارك لسنتي، والمستأثر بالفيء، والمتجبر لسلطانه ليعز من أذل الله ويذل من أعز الله".
- عن عائشة عن رسول الله ﷺ: "طواف سبع لا لغو، فيه يعدل عتق رقبة".
- وعن أبي جهيم عن النبي ﷺ: "القرآن يقرأ على سبعة أحرف، ولا تماروا في القران، فإن مراء في القرآن كفر".
- وعن فضل قريش، قال سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة عن أبيه عن جدته أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: "فضّل الله قريشاً بسبع خلال لم يعطها أحد قبلهم، ولا يعطاها أحد بعدهم: إني منهم، وإن النبوة فيهم، وإن الحجابة فيهم، وإن السقاية فيهم، وإن الله نصرهم على الفيل، وإنهم عبدوا الله عز وجلّ عشر سنين لا يعبده غيرهم، وإن الله أنزل فيهم سورة من القرآن"[2]. ثم تلا السورة، قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ

---

(1) رواه مسلم في كتاب القدر، حديث رقم 6243.

(2) أخرجه البخاري في الأدب، وأخرجه الحاكم والبيهقي.

﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝﴾ (1).

وعنه ﷺ: "سبعة للعبد تجري بعد موته: من علم علما، أو أجرى نهرا، أو حفر بئرا، أو بنى مسجدا، أو أورث مصحفا، أو ترك ولدا صالحا يدعو له، أو صدقة تجري له بعد موته".

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ: "السجود على سبعة أعضاء: اليدين، والقدمين، والركبتين، والجبهة".

وعنه ﷺ: "الشهادة سبع: المقتول في سبيل الله، والمطعون، والغريق، وصاحب ذات الجنب، والمبطون، وصاحب الحريق، والذي يموت تحت الهدم، والمرأة تموت نفساء".

وقوله ﷺ: "طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات، أولاهن بالتراب.

وعنه ﷺ: "طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن لم يرني وآمن بي". سبع مرات.

وقوله ﷺ: "علموا أولادكم الصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر".

وقوله ﷺ: "العقيقة تذبح لسبع أو لأربع عشرة أو لإحدى وعشرين".

وقوله ﷺ : "الكبائر سبع: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وقوله ﷺ : "لجهنم سبعة أبوابَ باب، منها لمن سلّ السيف على أمتي".

- عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ : "يوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين".
- وعن الحسن مرسلا: "العلم خليل المؤمن، والعقل دليله، والعمل قيمته، والحلم وزيره، والصبر أمير جنده، والرفق والده، واللين أخوه".
- عن البراء بن عازب قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: عيادة المريض، وتشييع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام،

(1) سورة قريش.

وإبرار القسم". متفق عليه.

- وعن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ. "قد أفلح من أخص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليما، ولسانه صادقا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وأذنه مستمعة، وعينه ناظرة".

القراءات السبع

القران الكريم هو كلام الله المنزل على نبيه، المكتوب بين دفتي المصحف، وهو متواتر بين الأمة، إلا أن الصحابة رووه عن رسول الله ﷺ على طرق مختلفة، في بعض ألفاظه، وفي أداء كيفيات الحروف. وتنوقل ذلك واشتهر، إلى أن استقر منها سبع طرق معينة، تواتر نقلها بأدائها. واختصت بالانتساب إلى من اشتهر برواياتها من الجم الغفير، فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة.

لم يزل القراء يتداولون هذه القراءات ورواياتها، إلى أن كتبت العلوم ودوّنت، فكتبت فيها كتب، وصارت صناعة مخصوصة، وعلما منفردا تناقله الناس في المشرق والمغرب.

أما المشهورون بقرّاء القرآن الكريم من الصحابة، فهم سبعة:

عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري.

والمشهورون من قرّاء القرآن من التابعين سبعة:

- أبو عمران عبد الله بن عامر الحميري إمام أهل الشام ت 118هـ.
- عبد الله بن كثير إمام أهل مكة في القراءة ت 120هـ.
- أبو بكر عاصم الأسدي الكوفي ت 127هـ.
- أبو عمر زيدان بن العلاء التميمي البصري ت 155هـ.
- أبو عمارة حمزة بن حبيب الكوفي ت 157هـ.

- أبو عبد الله نافع بن عبد الرحمن الليثي ت 169 هـ.
- علي بن حمزة الكسائي النحوي ت 189هـ..

الرقم 7 في بعض حياة الرسول ﷺ

أنجب الرسول محمد ﷺ سبعة أبناء هم:

رقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وزينب، والقاسم، وعبد الله، من زوجه أم المؤمنين خديجة الكبرى، وإبراهيم من زوجه أم المؤمنين مارية القبطية.

أما سيوف رسول الله ﷺ، فسبعة:

المأثور، والقلعي، والبتار، والحتف، والمخذم، والرّسوب، والقضيب ، وذو الفقار قبل أن يعطيه إلى الإمام علي كرم الله وجهه.

وكان له ﷺ سبعة أدرع، وهي:

ذات الفضول، وذات الوشاح، وذات الحواشي، والسعدية، وفضة، والبتراء، والخِرْنق

ومن عاداته ﷺ:

كان ﷺ لا يغدو حتى يفطر على سبع تمرات.

كان ﷺ يقول: "اللهم أجرني من النار"، سبع مرات.

كان ﷺ يقول: "اللهم إني أسألك الجنة" سبع مرات.

كان ﷺ يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان، وهي:

الشعر، والظفر، والدم، والحيض، والسنّ، والعلقة، والمشيمة.

كان ﷺ يكره من الشاء سبعا، وهي:

- المرارة، والمثانة، والحيا، والذكر، والأنثيين، والغدة، والدم.
- أما المواضع التي كان رسول الله ﷺ يدعو فيها في صلاته، فهي سبعة:
- بعد تكبيرة الإحرام في محل الاستفتاح.
- قبل الركوع، وبعد الفراغ من القراءة في الوتر والقنوت العارض في الصبح، قبل الركوع إن صح ذلك.
- بعد الاعتدال من الركوع.
- في الركوع.
- في السجود.
- بين السجدتين.
- بعد التشهد وقبل السلام.

الفصل الثاني

تفسير سورة الفاتحة

هذه سورة عظيمة، لا يمكن لأحد أن يحيط بكل معانيها، ودقائق مضمونها وأسرارها. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "لو شئت أن أوقر من تفسير البسملة وفاتحة الكتاب سبعين بعيرا، لفعلت". لكن ما سنورده هو عبارة عن قطرة من بحر، ومن أراد التوسع في ذلك، فعليه بكتاب مدارج السالكين لابن القيم، وغيره من المراجع والمصادر.

أخرج الفريابي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "فاتحة الكتاب ثلث القران". وأخرج الطبراني في الآوسط بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ أم القرآن، وقل هو الله أحد، فكأنما قرأ ثلث القرآن". وأخرج عبد بن حميد في مسنده بسند ضعيف عن ابن عباس يرفعه إلى النبي ﷺ: "فاتحة الكتاب تعدل ثلثي القران".

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1]. النزغ: النخس، كأنه ينخس حين يغري العبد على المعاصى، ويبعثه على ما لا ينبغي، وصرفه عما وصى به الله سبحانه، من الدفع بالتي هي أحسن. أو أريد بنزغ الشيطان: اعتراء الغضب، كقول أبى بكر الصديق رضى الله عنه: "إن لى شيطانا يعترينى". واستعذ بالله: أي التجئ إلى الله من شر الشيطان، ولا تطعه، وامض على حلمك آمنا.

إن الاستعاذة: من عاذ يعوذ، وأعوذ بالله عياذة، أي أحتمي وألتجئ لجوءا، وأعتصم بأمنه، طلبا للحماية والسلامة المطلقة من كل أذى. أما الاستعاذة بغير الله فهي شرك، قال تعالى:

---

(1) سورة الأعراف، آية 200.

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [2].

طلب الله تعالى من كل مؤمن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، في كل وقت من الأوقات، خاصة قبل أن يقرأ القرآن، لأن الاستعاذة هي أول التقاء بين المؤمن وبين بداية قراءته للقرآن الكريم.

من الواضح أن هذه الآية الكريمة، تطلب من كل مؤمن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل أن يقرأ القرآن، لأن كل مخلوق إذا اتجه إلى خالقه واستعاذ به، يكون هو الأقوى برغم ضعفه، وهو الغالب برغم عدم قدرته. لأن الله عندما يكون معك، تكون قدرتك وقوتك فوق كل قدرة، وأعلى من كل قوة، لأنك جعلت الله في جانبك. ونحن حين نقرأ القرآن يجب أن نصفي جهاز استقبالنا لحسن استقبال كلام الله سبحانه، لأننا في هذه الحالة لا نفعل ذلك بقدرتنا نحن لا بقوتنا، ولكن بالاستعانة بقوة الله وقدرته، لأن معوقات المنهج عند الإنسان المؤمن، إنما هي من عمل الشيطان.

يأتي إبليس دائما من الباب الذي يرى فيه المنهج ضعيفا، فإذا وجد إنسانا متشددا في ناحية، فإنه يأتيه من ناحية أخرى. فلو أن العبد المؤمن كان متشددا في الصلاة، يحافظ عليها ويؤديها في أوقاتها، جاءه إبليس من ناحية المال، يوسوس له بألا يخرج زكاة أمواله، ويوهمه بأنها ستؤدي به إلى الفقر، ويوسوس له أن يأكل حقوق الناس، مدخلا السرور في نفسه بالوهم، أنه سيصبح غنيا آمنا مطمئنا، وهذا كذب وافتراء من عمل الشيطان.

والحقيقة هي التي رواها لنا رسول الله ﷺ حين قال: "ما نقص مال من صدقة" [3].

والزكاة هي: النماء والزيادة، لأن الصدقة هي التي تكثر المال، فتضع فيه البركة، فيزداد وينمو. والمال هو مال الله، ينتقل من يد في الدنيا، ثم يموت الإنسان ويتركه. ولكن إبليس يستغل غفلة الناس عن هذه الحقيقة، ليدفعهم إلى المال الحرام والكسب الحرام، وعدم

---

(1) سورة الجن، آية 6.

(2) سورة النحل، آية 98.

(3) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة.

الامتثال لما فرضه الله سبحانه.

وإذا كان الإنسـان متشددا من ناحية المال، جاءه الشيطان من ناحية المرأة، فيظـل يزين له حتى يسقط في الزنا، وإذا كان قويا من هذه الناحيـة، زيـن لـه إبليـس الخمـر أو مجالس السوء والنميمة. وهكذا يظل إبليس يدور حول نقاط الضعف في الإنسان، حتى يسقطه في المعصية، ويورده شر المهالك.

لهذا، فإن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، إنما تجعل الله سبحانه يقـوي نقـاط الضعف في الإنسان، فلا يستطيع الشيطان أن ينفذ إلى الإنسان وهو يقرأ القرآن، ليضع في رأسه هواجس تلهيه عن هذه القراءة.

يجب علينا أن نبعد الشيطان عن أنفسنا، قبل أن يبعدنا عن منهج الله سبحانه وعن آياته. وبما أننا لا نرى الشيطان وهو يرانا، ولا نعرف أين هو، بينما هو يعرف أين نحن، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [1]. لهذا يجب علينا أن نستعيذ بقوة تستطيع أن تقهر الشيطان وتدمره، لأن الله هو القادر على أن يحمينا، ويصفي قلوبنا ونفوسنا من همزات الشياطين. ولكي نتقي الشيطان في حياتنا، شرح لنا القرآن كيف سيغوي إبليس بني آدم، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [2].وهذا يعني أن إبليس لن يجتهد في إغواء من باع نفسه للمعصية، لأن هذه النفس ليست بحاجة إلى إغواء، لأنها تأمر صاحبها بالسوء. ولكنه يذهب إلى مهابط الطاعة وأماكن العبادة، ليبذل معهم كل جهده وكل حيله، ليصرفهم عن عبادة الله، ولهذا لم يقل: لأقعدن لهم على الطريق المعوج.

هذه هي جهات الغواية التي يأتي منها إبليس: من أمـامهم، ومـن خلفهـم، وعن

(1) سورة الأعراف، آية 27.

(2) سورة الأعراف، آية 17.

شمائلهم، وعن أيمانهم، ولم يقل: من فوقهم من تحتهم، لأنه يعلم أن الجهة العليا تمثل الفوقية الإلهية، وأن الجهة السفلى تمثل العبودية البشرية، حينما يسجد الإنسان لله. ولذلك استبعد إبليس هاتين الجهتين تماما.

وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه". رواه مسلم.

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: الصيام والقرآن يشفعان في العبد يوم القيامة. يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه. ويقول القرآن: أي رب، منعته النوم بالليل فشفعني فيه. قال: فيشفعان". رواه أحمد وإسناده حسن.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به، مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه، وهو عليه شاق له أجران". متفق عليه.

وروى الترمذي بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " اقرؤوا القرآن، فإن الله لا يعذب قلبا وعى القرآن، وإن هذا القرآن مأدبة الله، فمن دخل عليه فيه فهو آمن، ومن أحب القرآن فليبشر".

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه". رواه البخاري.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجّة[1]: ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة: لا ريح لها وطعمها حلو. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة: ريحها طيب وطعمها مرّ. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة: ليس لها ريح وطعمها مرّ". متفق عليه. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "من القرآن سورة ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له، وهي: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١﴾ {الملك: ١} رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

(1) الأترجّة: نوع من الثمر، أصها الأترّجة بالنون، ثم أدغمت النون بالجيم.

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه". متفق عليه.

وعن خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامّات، من شرّ ما خلق، لم يضرّه شيء حتى يرحل من منزله ذلك". رواه مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

من فضائل هذه الآية: ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه، وابن خزيمة في كتاب البسملة والبيهقي عن ابن عباس قال: "استرق الشيطان أعظم آية من القرآن: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وأخرج أبوعبيد وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عنه أيضا.

وأخرج ابن مردويه والثعلبي عن جابر قال: لما نزلت ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هرب الغيم إلى المشرق، وسكنت الريح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بآذانها، ورجمت الشياطين من السماء، وحلف الله بعزته وجلاله أن لا تسمى على شيء، إلا بارك فيه".

وأخرج أبو نعيم والديلمي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم موقنا، سبحت معه الجبال، إلا أنه لا يُسمع ذلك منها".

وأخرج أبو عبيد وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، قال: "أغفل الناس آية من كتاب الله، لم تنزل على أحد سوى النبي ﷺ، إلا أن يكون سليمان عليه السلام: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾.

وأخرج الدارقطني بسند ضعيف عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "كان جبريل إذا جاءني بالوحي، أول ما يلقي علي: بسم الله الرحمن الرحيم. وأخرج أبو داود بإسناد صحيح والحاكم في المستدرك عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، كان لا يعرف فصل السورة، حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وعن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال: "هو اسم من أسماء الله تعالى، وما بينه وبين اسم الله الأعظم، إلا كما بين سواد العين وبياضها من

القرب".

وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس، أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: "كانت قراءته مدًّا، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمدّ بسم الله، ويمدّ الرحمن، ويمدّ الرحيم".

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ كتب له بكل حرف أربعة آلاف حسنة، ومحي عنه أربعة آلاف سيئة، ورفع له أربعة آلاف درجة".

ونقل عن الشيخ محيي الدين بن العربي قوله:: من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم وسورة الفاتحة، في جوف الليل، فإذا وصل إلى قوله: نستعين، يدعو بها هذا الدعاء: "اللهم اجمع بيني وبين حاجتي، كما جمعت بين أسمائك وصفاتك، يا ذا الجلال والإكرام". ثم يقرأ: اهدنا الصراط المستقيم، ثم يقرأ على رأس كل آية: اللهم سخر لي مطلوبي، بحق جلالك وجمالك، وبحق أهل السموات والأرض، وبحق جميع الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والحمد لله رب العالمين".

وفي تفسير سورة الفاتحة، نقل عن الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي في الفتوحات قوله: إذا قرأت فاتحة الكتاب، فصلها ببسملتها في نفَس واحد من غير قطع، فأنا أقول بالله العظيم: لقد حدثني أبو الحسن على بن أبي الفتح بمدينة الموصل سنة إحدى وستمائة، وقال حالفا: لقد سمَعت عن أبي الفضل الطوسي يقول حالفا عن المبارك بن أحمد النيسابوري يقول حالفا: عن أبي بكر الفضل بن محمد الهروي، وقال حالفا: عن أبي بكر محمد بن علي الشاشي، وقال حالفا: عن عبد الله المعروف بأبي نصر السرخي، وقال حالفا: عن أبي بكر محمد بن الفضل، وقال حالفا: عن عبد الله بن محمد بن علي بن يحيى الوراق، وقال حالفا عن محمد بن يونس الطويل الفقيه، وقال حالفا: عن ابن الحسن العلوي، وقال حالفا: حدثني ابن عيسى، وقال حالفا: حدثني أبو بكر الراجعي، وقال حالفا حدثنا عمار بن موسى البرمكي، وقال حدثني أنس بن مالك، حالفا عن الإمام علي بن أبي طالب، حالفا عن أبي بكر الصديق، حالفا عن المصطفى ﷺ، حالفا عن جبريل عليه السلام حالفا عن ميكائيل عليه السلام حالفا عن إسرافيل عليه السلام، قال الله

تعالى: "يا إسرافيل، بعزتي وجلالي، وجودي وكرمي، من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم متصلة بفاتحة الكتاب مرة واحدة، اشهدوا أني قد غفرت له، وقبلت منه الحسنات، وتجاوزت عن السيئات، ولا أحرق لسانه بالنار، وأجيره من عذاب يوم القيامة والفزع الأكبر، ويلقاني قبل الأنبياء والأولياء أجمعين".

وأخرج ابن داود في مراسيله عن عمر بن عبد العزيز أن النبي ﷺ مرّ على كتاب في الأرض، فقال لفتى معه: ما في هذا؟ قال: بسم الله. قال: لعن من فعل هذا.. لا تضعوا بسم الله إلا في موضعه".

وأخرج الخطيب في تالي التلخيص عن أنس مرفوعا: "من رفع قرطاسا من الأرض فيه بسم الله الرحمن الرحيم، إجلالا له أن يداس، كتب عند الله من الصديقين، وخفف عن والديه وإن كانا كافرين".

نلاحظ هنا أن ثلاثة أسماء تكررت في بسم الله الرحمن الرحيم، وهذه الأسماء: الله، والرحمن، والرحيم. وليس هناك تكرار في القرآن الكريم، وإن تكرر اللفظ يكون معناه في كل مرة مختلفا عن معناه في المرة السابقة، لأن المتكلم هو الله تعالى، ولذلك فهو يضع اللفظ في مكانه الصحيح، وفي معناه الصحيح.

- **البدء ب: بسم الله الرحمن الرحيم**

إن البدء باسم الله هو الأدب الذي أوحى الله إلى نبيه ﷺ في أول ما نزل من القرآن باتفاق وهو قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾[1]. وهو الذي يتفق مع قاعدة التصور الإسلامي الكبرى، من أن الله هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، فهو سبحانه وتعالى الموجود الحق، الذي يستمد منه كل موجود وجوده، ويبدأ منه كل مبدوء بدأه.. فباسمه إذن يكون كل ابتداء، وباسمه تكون كل حركة وكل اتجاه.

قال الإمام محمد عبده: "القرآن إمامنا وقدوتنا، فافتتاحه بهذه الكلمة، إرشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بها، وليس معناه أن نفتتح أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى، بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به، بل أن نقول هذه العبارة: بسم الله الرحمن الرحيم،

(1) سورة العلق، آية 1.

فإنها مطلوبة لذاتها"[1].

مثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم ومنهم العرب، وهو أن الواحد منهم إذا أراد أن يفعل أمرا ما، لأجل أمير أو عظيم، بحيث يكون متجردا من نسبته إليه ومنسلخا عنه، يقول: أعمله باسم فلان، ويذكر اسم ذلك الأمير أو السلطان، لأن اسم الشيء دليل وعنوان عليه. فإن كنت أعمل عملا لا يكون له وجود ولا أثر، لولا السلطان الذي به أمر، أقول: إن عملي هذا باسم السلطان، أي أنه معنون باسمه، ولولاه لما عملته. ومعنى ابتدئ عملي ببسم الله الرحمن الرحيم: أنني أعمله بأمره، وله لا لي.. ولا أعمله باسمي مستقلا به، على أنني فلان. فكأني أقول: إن هذا العمل لله لا لحظ نفسي..

وفيه الابتداء ببسم الله الرحمن الرحيم، وجه آخر وهو: إن القدرة التي أنشأت بها العمل هي من الله تعالى، فلولا ما منحني منها، لم أعمل شيئا، ولم يصدر عني هذا العمل، إلا باسم الله ولم يكن باسمي. إذ لولا ما آتاني من القوة عليه لم استطع أن آتيه. وقد تم هذا المعنى بلفظ الرحمن الرحيم كما هو ظاهر.

وحاصل المعنى أنني أعمل عملي متبرئا من أن يكون باسمي، بل هو باسمه تعالى. لأنني استمد القوة والعناية منه، وأرجو إحسانه عليه. فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله. بل ما كنت عاملا له على تقدير القدرة عليه، لولا أمره ورجاء فضله. فلفظ الاسم هنا مراد، ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضا، وهو العلم الواجب الوجود الموصوف بالأسماء الحسنى كلها. وهذا يعني أن البسملة في الفاتحة، وأن جميع ما يقرر في القرآن من الأحكام والآيات وغيرها، هو لله ومنه، وليس لأحد غير الله فيه شيء.

وهناك معنى آخر وهو: إن القرآن كان وحيا يلقيه الروح الأمين في قلب النبي ﷺ، وكل سورة منه مبتدئة ببسملة، فمتعلق البسملة من ملك الوحي، يعلم من أول آية نزل بها، وهي قوله تعالى: اقرأ بسم ربك الذي خلق. فمعنى البسملة الذي كان يفهمه النبي ﷺ من روح الوحي: اقرأ يا محمد هذه السورة: بسم الله الرحمن الرحيم على عباده. أي

---

(1) المرجع السابق، صفحة 25.

اقرأها على أنها منه تعالى لا منك، فإنه برحمته بهم أنزلها عليك، لتهديهم بها إلى ما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة.

وأخرج السلفي في جزء له عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تمد الباء إلى الميم حتى ترفع السين".

وأخرج الخطيب في الجامع عن الزهري قال: نهى رسول الله ﷺ أن تمد بسم الله الرحمن الرحيم.

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس وابن عساكر في تاريخ دمشق عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا كتبْتَ بسم الله الرحمن الرحيم، فبيّن السين فيه".

وأخرج الخطيب في الجامع والديلمي عن أنس عن النبي ﷺ قال: إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم، فليمدّ الرحمن".

البسملة آية أو جزء آية؟

اختلف أهل العلم في البسملة، هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كتبت في أولها، أو هي جزء آية من أول كل سورة؟ أو هي آية في الفاتحة فقط دون غيرها؟ أو أنها ليست بآية في الجميع؟ وإنما كتبت للفصل بين السور؟

أجمع العلماء المسلمون على أن البسملة آية من آيات من القرآن، ولكنها ليست آية في كل سورة، ما عدا فاتحة الكتاب، فهي آية من سورة الفاتحة، وهناك سورة واحدة لا تبدأ ببسم الله وهي سورة التوبة، وتكررت بسم الله في سورة النمل، وأنها جزء آية من سورة النمل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝﴾[1]. ولكنهم اختلفوا في مكانها من سائر السور. فذهب علماء السلف من أهل مكة وفقهائهم وقرّائهم ومنهم ابن كثير، وأهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائي من القرّاء، وبعض الصحابة والتابعين من أهل المدينة، والشافعي وأتباعه، والثوري وأحمد، إلى أنّها آية من الفاتحة، ومن كل سورة، ولذلك يجهرون بها.

---

(1) سورة النمل، آية 30-31.

وقال حمزة من قراء الكوفة وروى عن أحمد: "إنها آية من الفاتحة دون غيرها". وأقوى الأدلة على كونها آية من الفاتحة، كتابتها في المصحف الإمام، حيث لا فصل بينها وبين سورة قبلها. فإنها أول سورة نزلت تامة. وما نزل من أول سورة العلق، لم ينزل معه البسملة، ولم يكن سورة كما تقدم، وروايتها بالتواتر. ولا عبرة مع هذا بمن نفى كونها منها، فإنه رأى، والإثبات مقدم على النفي. وما روي في الأخبار من عدم قراءة النبي ﷺ لها في الصلاة، فهو خبر آحاد، معارض بمثله في إثبات قراءتها، وبما هو أقوى منه من تواتر كتابتها وقراءتها، ويحتمل أن يكون سببه عدم سماع الراوي لها.

ومن المروي عند ذلك من علماء الصحابة: الإمام علي، وابن عباس، وابن عمر، وأبو هريرة. ومن علماء التابعين سعيد بن جبير، وعطاء، والزهري، وابن المبارك. وأقوى حججهم في ذلك: إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة، سوى سورة براءة (التوبة)، مع الأمر بتجريد القران عن كل ما ليس منه، ولذلك لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة.

أخرج أبو عبيد وابن سعد في الطبقات، وابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود، وابن الأنباري والدارقطني والبيهقي، عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقرأ: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين... السورة". قطعها آية آية، وعدّدها عدّ الاعراب، وعدّ بسم الله الرحمن الرحيم، واعتبر: صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم آية".

وأخرج الدارقطني والحاكم والبيهقي عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فعدها آية ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ آيتين ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ثلاث آيات ﴿ ملك يوم الدين ﴾ أربع آيات. وقال هكذا ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وجمع خمس أصابعه".

وأخرج الأنباري عن أم سلمة قالت: قرأ رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين.... السورة". وقال: "هي سبعة يا أم سلمة".

وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: "﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ آية.

وجاء في الدر المنثور: أخرج أبو عبيدة عن محمد بن كعب القرظي قال: فاتحة الكتاب سبع آيات، ببسم الله الرحمن الرحيم".

وأخرج الثعلبي عن أبي هريرة قال: "كنت مع النبي ﷺ في المسجد، إذ دخل رجل يصلي، فافتتح الصلاة وتعوذ، ثم قال: "الحمد لله رب العالمين... الآية. فسمع النبي ﷺ فقال: "يا رجل، قطعت على نفسك الصلاة.. أما علمت أن بسم الله الرحمن الرحيم من الحمد، فمن تركها فقد ترك آية، ومن ترك آية فقد أفسد عليه صلاته".

وأخرج الدارقطني والبيهقي في السنن بسند صحيح عن عبد خير قال: "سئل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه عن السبع المثاني، فقال: "الحمد لله رب العالمين". فقيل له: إنما هي ست آيات". فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم آية".

وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه في تفسيره والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الحمد لله رب العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهي السبع المثاني والقران العظيم، وهي أم القرآن، وفاتحة الكتاب".

وأخرج الدارقطني والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان إذا قرأ وهو يؤم الناس، افتتح بسم الله الرحمن الرحيم. وقال أبو هريرة: "آية من كتاب الله، اقرأوا إن شئتم فاتحة الكتاب، فإنها الآية السابعة".

أما قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها فقالوا: إن البسملة ليست بآية من الفاتحة، ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها، كما بدئ بذكرها في كل أمر ذي بال. وهو مذهب أبو حنيفة ومن تابعه، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة.

وذهب مالك وغيره من علماء المدينة والأوزاعي وغيره من علماء الشام، وأبو عمرو ويعقوب من قراء البصرة إلى أنها آية مفردة، أنزلت لبيان رؤوس السور والفصل بينها، وعليه الحنفية. وهذا القول هو الحق، والدليل على ذلك: سياق السورة، والنص.

أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي بن كعب، قال: "قرأ رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب، ثم قال: قال ربكم: يا ابن آدم أنزلت عليك سبع آيات: ثلاث لي، وثلاث لك، وواحدة بيني وبينك. أما التي لي: ﴿ الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين ﴾، والتي بيني وبينك: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ منك العبادة وعلي العون لك. وأما التي لك: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير

المغضـوب عليهم ولا الضالين﴾.

أما النص: فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قـال: قـال الله تعالى: " قسمت الصلاة بين وبين عبدي نصفين: فـإذا قـال: الحمـد لله رب العـالمين، قـال تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال تعالى: أثنـى علي عبـدي. وإذا قـال: مالك يوم الدين، قال تعالى: مجّدني عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإيـاك نـستعين، قـال الله تعالى: هذه بيني وبين عبدي نصفين، وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم... إلى آخـر الآيـة، قال الله تعالى: هذه لعبدي، ولعبدي ما سأل "[1].

وهذا النص، يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة. وفي الصحيح عن أنـس بـن مالك رضي الله عنه قال: صليت خلـف الـنبي ﷺ وأبـي بكـر وعمـر، وعثمـان، فكـانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين، لا يذكرون: بسم الله الرحمن الرحيم، في أول القـراءة، ولا في آخرها، والمراد لا يجهرون، والتمييز بينها وبين الفاتحة في الجهر وعدمه، يدل علـى أنها ليست منها.

أما من جهة السياق من حيـث المعنـى، فالفاتحـة سـبع آيـات بالاتفـاق. وبحـسب الحديث السابق: تكون الآيات الثلاث الأولى لله عز وجل، وثـلاث آيـات للعبـد، وهـي الثلاث الأخيرة، وواحدة بين العبد وربه، وهي الرابعة الوسطى.

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: " ثم من جهة السياق من حيث اللفظ، فـإذا قلنا: إن البسملة آية من الفاتحة، لزم أن تكون الآية السابعة طويلة على قدر الآيتين، ومن المعلوم أن تفارب الآيات في الطول والقصر هو الأصل. وأضاف الشيخ محمد بن صالح: فالصواب الذي لا شك فيه، أن البسملة ليست من الفاتحة، كمـا أنهـا ليـست مـن بقيـة السور "[2].

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، حديث رقم 395.

(2) تفسير القرآن الكريم، جزء عم، الشيخ محمد بن صالح العثيمين، اعتنى به وخرج أحاديثه فهـد بـن ناصر السليمان، دار الثريا للنشر، الرياض، 2002م، صفحة11.

الجهر بالبسملة

وكما وقع الخلاف في إثبات البسملة، وقع الخلاف في الجهر بها في الصلاة. كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم تارة، ويخفيها أكثر مما يجهر بها. ولا ريب أنه لم يكن يجهر بها دائما في كل يوم وليلة، خمس مرات أبدا، حضرا وسفرا، ويخفى ذلك على خلفائه الراشدين وعلى جمهور أصحابه، وأهل بلده في الأعصار الفاضلة. والثابت عنه ﷺ أنه كان لا يجهر بها.

روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم. وقد أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس بلفظ: كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال صحيح.

وأخرج الطبراني والدارقطني والبيهقي عن أبي هريرة قال: "كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة".

وعن أنس قال: "سمعت رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم". وعن علي ابن أبي طالب قال: "كان النبي ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في السورتين جميعا".

وأخرج النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في المستدرك وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي عن أبي هريرة: أنه صلى فجهر في قراءته البسملة". وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر أنه كان يقرأ في الصلاة: بسم الله الرحمن الرحيم، فإذا ختم السورة قال: "ما كتبت في المصحف إلا لتقرأ".

وأخرج الدار قطني عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "علمني جبريل الصلاة، فقام فكبر لنا، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، فيما يجهر به في كل ركعة".

وأخرج الثعلبي عن علي بن زيد بن جدعان قال: إن العبادلة كانوا يستفتحون القراءة بـ: بسم الله الرحمن الرحيم، يجهرون بها: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير.

وأخرج أبو داود في مراسيله عن سعيد بن جبير قال: "كان رسول الله ﷺ يجهر

ببسم الله الرحمن الرحيم بمكة، وكان أهل مكة يدعون مسيلمة الكذاب الرحمن ، فقالوا: "إن محمدا يدعو إلى إله اليمامة". فأمر رسول الله ﷺ بإخفائها، فما جهر بها حتى مات".

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن ابن عبد الله بن مغفل قال: سمعني أبي وأنا أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فقال:: أي بُني محدِث؟ صليت خلف رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فلم أسمع أحدا منهم جهر ببسم الله الرحمن الرحيم.

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال: الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، قراءة الأعراب.

وأخرج البيهقي عن الزهري قال: من سنة الصلاة أن تقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، وإن أول من أسرّ بها عمرو بن سعيد بن العاص بالمدينة، وكان رجلا حييًا.

وقد احتج من قال بأنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، بما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: "كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين".

وفي الصحيحين عن أنس قال: "صليت خلف النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان، فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين. ولمسلم: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول القراءة ولا في آخرها. وقد أخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن الانباري في المصاحف، عن محمد بن سيرين: أن أبي بن كعب وعثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة الكتاب والمعوذتين، ولم يكتب ابن مسعود شيئا منهن.

نحن نقرأ القرآن ونفتتحه ببسم الله، لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يسره لنا، كلاما وتنزيلا وقراءة، ولكن هل نحن مطالبون أن نبدأ فقط تلاوة القرآن ببسم الله الرحمن الرحيم؟

إننا مطالبون أن يبدأ كل عمل باسم الله لأننا لا بد أن نحترم عطاء الله في كونه، فمن زرع مثلا، لا بد أن يبدأ باسم الله، لأننا لم نخلق الأرض التي نحرثها، ولا خلقنا البذرة التي نبذرها، ولا أنزلنا من السماء ماء لينمو الزرع، لأن الفلاح الذي يمسك الفأس ويرمي البذرة، قد يكون أجهل الناس بعناصر الأرض، وبمحتويات البذرة، وما يفعله الماء في التربة لينمو الزرع، إن كل ما يفعله هو أن يعمل فكره المخلوق من الله، في المادة

المخلوقة من الله، بالطاقة التي أوجدها الله في أجسادنا ليتم الزرع.

إن الإنسان لا قدرة له على إرغام الأرض لتعطيه الثمار، ولا قدرة له على خلق الحبة وتصبح شجرة، ولا سلطان له على إنزال الماء من السماء، وكأنه حين يبدأ العمل باسم الله، يبدؤه باسم الله الذي سخر له الأرض، وسخر له الحب، وسخر له الماء، وكلها لا قدرة له عليها، ولا تدخل في طاقته ولا في استطاعته، فكأنه يعلن أنه يدخل على هذه الأشياء جميعا باسم من سخرها له.

ولنضرب مثلا: يأتي الله سبحانه إلى أرض، فينزل عليها المطر بغزارة. وهناك بعض العلماء يقولون: إن هذا يحدث بقوانين الكون. فيلفتنا الخالق سبحانه وتعالى إلى خطأ هذه الكلام، بأن يأتي مواسم جفاف، لا تسقط فيها حبة مطر واحدة، لنعلم أن الطر لا يسقط بقوانين الكون، ولكن بإرادة خالق الكون. فإذا كانت القوانين تعمل، فمن الذي عطلها؟ إن إرادة الله سبحانه فوق القوانين، إن شاءت إرادة الله جعلت القوانين تعمل، وإن شاءت جعلتها لا تعمل.

صحيح إن أصل الذرية تأتي من اجتماع الذكر والأنثى، هذا هو القانون، ولكن القوانين لا تعمل إلا بأمر الله، لذلك يتزوج الرجل ولا تأتي له ذرية، لأنه ليس القانون الذي يخلق، ولكنها إرادة خالق القانون.

كما أن الله قادر على أن يجعل القوانين تفعل أو لا تفعل، فهو قادر على أن يخرق القوانين. خذ مثلا قصة زكريا ﷺ، الذي كان يكفل مريم، ويأتيها بكل ما تحتاج إليه، ولما دخل عليها وجد عندها ما لم يحضره لها، ولما سألها: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله. وهذا يعني أن طلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون.

لفتت مريم زكريا إلى طلاقة القدرة، فدعا ربه في قضية لا تنفع معها إلا طلاقة القدرة، فهو رجل عجوز وامرأته عجوز وعاقر، وقال: أريد ولدا. هذه القضية ضد قوانين الكون، لأن الإنجاب لا يتم إلا في سن الشباب، فإذا كبر الرجل وكبرت المرأة لا ينجبان، فما بالك إذا كانت الزوجة أساسا قرا؟ فكيف تنجب وهي عجوز عاقر، وزوجها عجوز؟ ولكن الله وحده القادر على أن يأتي بالقانون وضده، ولذلك شاء أن

يرزق زكريا بالولد، فكان ابنه يحيى.

إذن، فكل شيء في هذا الكون باسم الله، ويتم باسم الله، وبإذن من الله. والكون تحكمه الأسباب، ولكن إرادة الله فوق كل الأسباب.

وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أقطع". أي ناقص، لأنك حين لا تبدأ العمل باسم الله، قد يصادفك الغرور والطغيان، بأنك أنت الذي سخرت ما في الكون ليخدمك وينفعل لك. وحين لا تبدأ العمل باسم الله فليس لك عليه جزاء في الآخرة، لأنك قد أخذت عطاءه في الدنيا، وبترت أو قطعت عطاء الآخرة.

- **بسم**

أما فيما يتعلق به الجار والمجرور في قوله: بسم، فللنحاة قولان:

أحدهما: إنه اسم.

وثانيهما: إنه فعل. وهما متقاربان، في كل ما ورد به القرآن. أما من قدره باسم فتقديره: باسم الله ابتدائي، أو باسم الله قراءتي وتلاوتي ودعائي، أو باسم الله أكلي وشربي وعملي. لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [1]. ومن قدره بالفعل أمرا أو خبرا، فتقديره: أبدأ باسم الله، أو ابتدأت باسم الله، أو أقرأ وأتلو باسم الله، لأن الذي يتلو التسمية مقروء. كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل فقال: باسم الله والبركات، كان المعنى باسم الله أحلّ وباسم الله ارتحل. وكذلك الذابح وكل فاعل يبدأ في فعله باسم الله، كان مضمرا ما جعل التسمية مبدأ له. ونظيره في حذف متعلق الجار كقوله سبحانه وتعالى: "في تسع آيات إلى فرعون وقومه". أي اذهب في تسع آيات. لأنه المناسب لما جعلت البسملة مبدأً له. فمن قدره متقدما كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل. ومن قدره متأخرا، كان غرضه الدلالة بتأخيره على الاختصاص، مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم، والإشارة إلى أن البداية به أهم، لكون التبرك حصل به.

---

(1) سورة هود، آية 41.

وكذلك قول العرب للمعرس: بالرفاه والبنين. وقول الأعرابي: باليمن والبركة بمعنى أعرست أو نكحت. ومنه قوله:

فقلت إلى الطعام فقال منهم   فريق نحسد الإنس الطعاما

وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخرا في مثل هذا المقام، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾. لأن ذلك المقام مقام القراءة. فكان الأمر بها أهم. وكلاهما صحيح. فإن الفعل لا بد له من مصدر. فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله: إن كان قياما أو قعودا، أو أكلا أو شربا، أو قراءة أو وضوءا أو صلاة. فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله، تبرّكا وتيمّنا واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم.

وعلى هذا كان النبي ﷺ يقصد من متعلق البسملة ما معناه: أنني أقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمي، وعلى أنها منه لا مني.. فإنما أنا مبلّغ عنه عز وجل بأمره.. وأمرت أن أكون أول المسلمين، وأن أتلو القران.

ولتعلق الباء في البسملة بمحذوف تقديره: باسم الله أقرأ، أو أتلو، وجهان:

الأول: إن فعل الابتداء يصبح تقديره في كل بسملة: ابتدئ بها فعلا ما من الأفعال، خلاف فعل القراءة. والعام صحة تقديره أولى ان يقدر.. ألا تراهم يقدرون متعلق الجار الواقع خبرا أو صفة أو حالا بالكون والاستقرار حيثما وقع، ويؤثرونه لعموم صحة تقديره.

والثاني: إن تقدير فعل الابتداء مستقل بالغرض عن البسملة، إذ الغرض منها أن تقع مبدأ، فتقدير فعل الابتداء أوقع بالمحل. وأنت إذا قدرت: اقرأ، فإنما تعني ابتدئ بالقراءة .

فإن قيل: لم قدرت المحذوف متأخرا؟ فالجواب: لأن الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به.. لأنهم كانوا يبدأون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى. فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله تعالى بالابتداء. وذلك بتقديم وتأخير الفعل، كما فعل في قوله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾ حيث صرح بتقديم الاسم إرادة

للاختصاص، والدليل عليه قوله تعالى:﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾[1]. فإن قيل: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾[2]، فقدم الفعل. قلت: هنا تقديم الفعل أوقع، لأنها أول سورة نزلت، فكان الأمر بالقراءة أهم.

فإن قيل: ما معنى تعلق اسم الله بالقراءة؟ فالجواب فيه وجهان:

أحدهما: أن يتعلق بها تعلق القلم بالكتبة، في قولك: كتبت بالقلم. على معنى أن المؤمن لما اعتقد أن فعله لا يجيء معتدا به في الشرع واقعا على السنة، حتى يصدر بذكر اسم الله لقوله ﷺ: "كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر".

والثاني: أن يتعلق بها تعلق الدهن بالإنبات في قوله تعالى: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾[3]. على معنى: متبركا باسم الله أقرأ.

أما الفائدة من تقدير الفعل متأخرا، فهي: التبرك بتقديم اسم الله متأخرا، والحصر، لأن تأخير العامل يفيد الحصر.

أخرج ابن جرير وابن عدي وابن مردويه وأبو نعيم وابن عساكر في تاريخ دمشق والثعلبي بسند ضعيف جدا، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتّاب ليعلّمه، فقال له المعلم: اكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾. فقال له عيسى: "وما باسم الله؟" قال المعلم: "لا أدري". فقال له عيسى عليه السلام: "الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم مملكته، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة".

---

(1) سورة هود، آية 41.

(2) سورة العلق، آية 1.

(3) سورة المؤمنون، آية 20.

خلق الجن والإنس

قال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

خلق الجان والجن

إن قصور المعرفة التامة، وعدم إدراك الشيء، لا يعني بالضرورة عدم وجوده، أو إلغاء إمكانية عدم وجوده. فقبل أن نبدأ في الخوض في صلب الموضوع، نرى أن نعرج قليلا لبيان المعاني الصحيحة للفظتي الجن والشيطان.

جاء في قاموس لسان العرب الشهير، في مادة جنن ما يلي:

جنّ الشيء: يجنه جنًا، بمعنى ستره. وبه سمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأنظار. وجنّ الليل وجنونه وجناته: شدة ظلمته وادلهمامه. والجنن: القبر لستره الميت. والجنن: الكفن. والجنين: المقبور. والجنان: القلب لاستتاره في الصدر. والمجن: الوشاح والترس. والجنة: السترة، والوقاية والجنة: هي دار النعيم في الآخرة من الاجتنان، وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها. وجنان الناس: معظمهم. والجِنة: الجنون وطائف الجن. والجان: ضرب من الحيات، والشيطان.

وجاء في قاموس محيط المحيط: الجن: ما استتر عن الحواس من الملائكة والشياطين.

اما بالنسبة للفظ الشيطان، فقد جاء في معجم لسان العرب، تحت مادة شطن:

شطن: بعد، والشاطن: البعيد عن الحق، والشطين: البعيد، والشيطان: من شطن أي بعد، وهو كل عاث متمرد من الجن والإنس والدواب. وقيل: الشيطان: فعلان، من شاط يشيط، إذا هلك احترق.

وجاء في كتاب عباس محمود العقاد: الشيطان، شرح وتحليل لغوي لمعنى كلمة شيطان، قال: " والأرجح عندنا أن الكلمة أصيلة في اللغة العربية، قديمة فيها، ولا يبعد أن تكون أقدم من نظائرها في اللغة البابلية، لأن اللغة العربية قدد اشتملت على كل جذر يتفرع منه لفظ الشيطان، على أي احتمال، وكل تقدير. ففيها مادة: شط وشاط وشوط وشطن، في هذه المواد معاني البعد والضلال والتلهب والاحتراق. وهي تستوعب أصول

---

(1) سورة الذاريات، آية 56.

المعاني التي تفهم من كلمة الشيطان جميعها.

فالشطط: من الغلو الذي يدخل في أخص عناصر الشيطنة. والشط: بمعنى الجانب المقابل، وشاط: بمعنى احترق وتلف، وشطن: أي ابتعد، فهو شيطان على صيغة فيعال.

إن الشيطان في تعليم القرآن الكريم هو مصدر الإيحاء بالأفكار الشريرة، التي تصد الناس عن سبيل الله الحق وصراطه المستقيم، وقد يكون الشيطان فكرة أو نازعا، أو خاطرا أو كلاما، أو وسوسة أو غير ذلك، مما يزين للإنسان ويغويه ويفتنه، ويستفزه للقيام بالأعمال الشيطانية الشريرة، والتي هي في حقيقتها كل ما ينافي الهدي الإلهي من قول أو عمل.

روي عن وهب قال: خلق الله نار السموم، وهي نار شديدة الحرارة، تنفذ في المسام، وقيل هذه السموم جزء من سبعين جزءا من سموم جهنم، وخلق الله منها مخلوقا عظيما، وسماه مارجا، وخلق منه زوجة سماها مرجة، فواقعها فولدت الجان، قال تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [1].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [2]. والمارج هو اللهب الصافي، الذي لا دخان فيه، وقيل المختلط بسواد النار، أي من نار مخصوصة. وولد للجان ولد فسماه الجن، فمنه تفرعت قبائل الجن، ومنه إبليس. وكان يلد من الجان الذكر والأنثى، ومن الجن كذلك توأمين. فصاروا سبعين ألفا، وتوالدوا حتى بلغوا عدد الرمل. فتزوج إبليس امرأة من ولد الجان، وكثر أولاده وانتشروا، حتى امتلأت الأقطار منهم.

أسكن الله الجان في الهواء، وإبليس وأولاده في السماء الدنيا، وأمرهم بالعبادة والطاعة، فكانت السماء تفتخر على الأرض بأن الله رفعها، وجعل فيها ما لم يكن في الأرض.

اشتكت الأرض إلى خالقها الوحشة، إذ ليس ليس على ظهرها خلق يذكرون الله.

---

(1) سورة الحجر، آية 27.

(2) سورة الرحمن، آية 15.

فنوديت الأرض: " اسكني، فإني خالق من أديمك صورة لا مثل لها في الجن، وأرزقها العقل واللسان، وأعلّمها من علمي، وأنزل عليها من كلامي، فأملأ منها بطنك، وظهرك، وشرقك وغربك، على مزاج تربتك من الألوان، والخيرية والشرية، فافتخري يا أرض على السماء بذلك ". فاستقرت الأرض وهي مع ذلك بيضاء نقية، كأنها الفضة البيضاء، فأشرفت الجان على الأرض وقالت: " ربنا اهبطنا إلى الأرض ". فأذن الله لهم بذلك، على أن يعبدوه ولا يعصوه، فأعطوه العهود على ذلك، ونزلوا وهم ألوف، وعبدوا الله حق عبادته دهرا طويلا.

ثم أخذ الجانّ في المعاصي وسفك الدماء، حتى استغاثت الأرض منهم وقالت: " إن خلوّي يا رب، أحب إلي من يكون على ظهري من يعصيك ". فأوحى إليها سبحانه وتعالى أن: " اسكني، فإني باعث إليك رسلي ".

قال كعب الأحبار[1]: فأول نبي بعثه الله من الجان نبيا منهم، يقال له عامر بن عمير بن الجان، فقتلوه. ثم بعث لهم من بعد عامر: صاعق بن ماعق بن مارد بن الجان. فقتلوه حتى بعث إليهم ثمانمائة نبي في ثمانمائة سنة، في كل سنة نبيا[2]، وهم يقتلونهم. فلما كذبوهم أوحى الله إلى أولاد الجن في السماء أن: " انزلوا إلى الأرض، وقاتلوا من فيها من أولاد الجان ". وعليهم إبليس. فقاتلهم إبليس هو ومن كان معه، حتى أدخلهم إلى بقعة من الأرض، فاجتمعوا فيها، فأرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم.

سكن إبليس الأرض مع الجن، وعبد الله حق عبادته. فكانت عبادته أكثر من عباداتهم كلهم. ثم رفعه الله تعالى إلى السماء الدنيا لكثرة عبادته، فعبد الله فيها ألف سنة، حتى سمي فيها العابد. ثم رفعه الله تعالى إلى السماء الثانية، فعبد الله فيها ألف سنة، ثم رفعه إلى الثالثة، فعبد الله فيها ألف سنة، فعبد الله كذلك، حتى رفعه إلى السماء السابعة.

---

(1) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري (أبو اسحق) الأحبار، اشتهر باسم كعب الأحبار، وكان من علماء اليهود في اليمن، وأسلّم في زمن أبي بكر، وعاش في المدينة زمنا، ثم أقام بحمص، وتوفي فيها. وكان كثير الرواية والنقل عن الكتب الإسرائيلية.

(2) الأنبياء هم أسوة سلوكية تسهل على الناس التزامهم بالمنهج، ولا يأتون بمنهج جديد. أما الرسل فهم أنبياء وهم أسوة سلوكية، جاءوا بمنهج جديد. وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا.

كان إبليس بمنزلة عظيمة، بحيث إذا مر به جبريل أو ميكائيل أو غيرهما من الملائكة، يقول بعضهم لبعض: لقد أعطى الله هذا العابد من القوة على طاعة ربه، ما لم يعط أحد من الملائكة. فلما كان ذلك بدهر طويل، أمر الله تعالى جبريل، أن يهبط إلى الأرض، ويقبض قبضة من شرقها وغربها، ووعرها وسهلها، ليخلق منها خلقا جديدا، وليجعله أفضل الخلائق. فعرف ذلك إبليس، فهبط إلى الأرض، حتى وقف في وسطها وقال لها: إني جئتك ناصحا. فقالت: "وما نصحك يا زين العابدين وإمام الزاهدين؟" فقال لها: إن الله يريد أن يخلق منك خلقا، يفضله على جميع خلقه، وأخاف منه أن يعصيه فيعذبه، وقد أرسل الله إليك جبريل، فإذا جاءك فأقسمي عليه أن لا يقبض منك شيئا.

فلما هبط جبريل، نادته الأرض وقالت: "يا جبريل، بحق من أرسلك إلي، ألا تقبض مني شيئا، فإني أخاف أن يخلق الله مني خلقا، فيعصيه ذلك الخلق، فيعذبه بالنار". فارتعد جبريل من هذا القسم فرجع. ولم يأخذ منها شيئا. فأخبر جبريل ربه بذلك، فبعث الله ميكائيل ليأتيه بالقبضة، فكانت حالته كحالة جبريل. فبعث الله عزرائيل ملك الموت، فلما همّ أن يقبض ما أمره ربه، أقسمت عليه أيضا. فقال ملك الموت: وعزة ربي، لا أعصي له أمرا. فقبض منها قبضة من جميع بقاعها: عذبها ومالحها، وحلوها ومرّها، وطيبها وخبيثها، وكل ابن آدم مخلوق من تلك القبضة. فلما رجع ملك الموت بالقبضة، وقف في موقفه أربعين عاما لا ينطق.

ثم أتاه النداء: يا ملك الموت، مَا الذي صنعته؟ — وهو أعلم — فأخبره بقسمه وقسم الأرض، فقال تعالى: وعزتي وجلالي، لأخلقن مما أتيت به خلقا، ولأسلطنك على قبض أرواحهم، لقلة رحمتك بهم. فجعل نصف تلك القبضة في الجنة، ونصفها في النار، وقال: أنا الله الذي لا إله إلا أنا، أقضي ولا يقضى عليّ".

وهنا نجد سؤالا يطرح نفسه: هل مجرد ورود ذكر الجن والشياطين في القرآن الكريم، يجب أن يعني بالضرورة وبشكل حتمي، موافقة كتاب الله على المفهوم الخرافي الشائع بين الناس، بأن الجن والشياطين إنما هي مخلوقات شبحية غامضة، تقفز في كل مكان، وتتصرف بقدرات عجيبة، فتارة تخيف الناس، وتارة تدخل في أجسادهم وتسبب لهم الصرع والجنون؟ وراح المروجون يفصلون القصص الخيالية الغامضة والمثيرة.

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال، لا بد من التطرق إلى ما في أذهان الناس عن العقائد والأفهام المأثورة في الأذهان على اختلاف المستويات العلمية والاجتماعية، أو غيرها، فيما يسمى بحقيقة الوجود الشبحي للجن والشياطين.

يقولون: إن الجن أجسام عاقلة خفيفة تغلب عليها النارية أو الهوائية، وهم مخلوقات سفلية من أخلاط نارية صافية، يأكلون ويشربون ويتناسلون، وهم غالبا ما يسكنون في مواضع النجاسات والمعاصي والخرائب والأماكن المظلمة، أو قرب الينابيع أو تحت أشجار معينة كالبلوط وغيرها. ولهم قدرات كبيرة ومهارات فائقة وإبداعات فنية، وهم عالم حقيقي قائم بحد ذاته، وليس وهما تخيليا، منهم المؤمنون ومنهم دون ذلك، وهم على أديان مختلفة، وإنهم كالإنس يملكون حرية التصرف والإرادة، ومنهم من يتزوج من إنسية، ومن الإنس من يتزوج من جنية. ولهذا قام المصنفون في كتبهم، فصنفوا الجن فقالوا: الجان: أبو الجن، والجن على مراتب:

إذا ذكروا خالصا، قالوا: جني.

وإذا أرادوا أنه ممن يسكن مع الناس، قالوا: عامر.

وإذا كانوا ممن يعرضون للصبيان، قالوا: أرواح.

فإن خبث وتعرض، قالوا: شيطان.

فإن قوي وزاد على ذلك قالوا: عفريت.

وقد تفنن المحرفون من المشعوذين وغيرهم من إخوان الجني الأحمر أو الأزرق، في اختراع أسماء للمردة والشياطين، وكلمات مبهمة ممزوجة بآيات من القرآن الكريم، وأسماء الله تعالى، وأحاديث للرسول ص، توحي إلى الإنسان العادي بأن ما يقال هو جزء من الدين بصورة أو بأخرى، كما هو موجود في القصيدة الجلجلوتية المشهورة لدى مشايخ الجن[1].

ويتساءل المرء مستغربا: من أين يأتي هؤلاء بكل هذه المعلومات والبيانات المفصلة عن هذه الأشباح؟

---

(1) قاموس العادات، أحمد أمين، صفحة 117.

إن هذه الخرافات المتعلقة بمفهوم الأشباح والمخلوقات الخفية، قد تداخلت من خلال الأسطورة وغيرها مع الأديان لدى مختلف الشعوب منذ القدم. ولقد لاحظ المستفيدون من نشر الوهم والخرافة بين الناس، أن ربط الخرافة بالدين بشكل أو بآخر، يكسب هذه الخرافة مع الزمن قوة متميزة ويدفع الجماهير الجاهلة إلى قبولها وتصديقها، مما يتيح لمحترفي الشعوذة في المجتمع فرصةأكبر لاكتساب مكانة أكبر على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، وأحيانا السياسي[1].

لا جدال في أن التاريخ الإسلامي قد ذكر عدد من المفكرين الإسلاميين، الذين امتازوا بنزعة عقلانية، بحيث لم يكونوا على استعداد لتصديق كثير من الخرافات الرائجة في عصرهم، وكان المعتزلة على رأس هؤلاء، وقد أدت بهم نزعتهم العقلانية إلى تأويل الآيات القرانية، التي فيها إشارات إلى الجن والسحر أو ما يشبهها، وأولوا الآيات الدالة عليها تأويلات تحمل معنى الرمز أو المجاز أو ما شابه ذلك. ولعل الأمام الزمخشري كان من أبرز المفسرين الذين رفضوا الاعتراف بوجود هذه الخرافات[2].

إن من يتدبر القرآن الكريم، ويتعمق في أعماق الحديث الشريف، سيجد أن كل هذه الاعتقادات الباطلة، وما يتبعها من تأليفات وتصورات وأوهام وخيالات وممارسات، وهي ليست من الدين والإيمان في شيء، بل هي مجرد تخريف ودجل باطل، وتجارة يتكسب بها المشعوذون من ضحاياهم.

إن الإيمان بوجود غيبي للشياطين والجن، ليس ركنا من أركان الإيمان المعروفة في الإسلام. أما عن القول بأن الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بوجود الجن والشياطين على أساس أنها مذكورة في القرآن الكريم، فنقول: إن التصديق بالقرآن يستلزم التصديق بأن هناك ما يسمى بالجن والشياطين، ولكنه لا يستلزم مطلقا التصديق بالصور الخرافية التي يعتقد بها عامة الناس، على أنها هي وحدها المفهوم الإسلامي الصحيح، الذي ذكره

---

(1) راجع كتاب دراسات في العقلية العربية، الجزء الثاني، باب الخرافة، د. إبراهيم بدر خان، و د. سلوى خماش.

(2) ضحى الأسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ج3، صفحة 25-27.

القرآن الكريم، أو جاءت به الأحاديث.

- **خلق آدم عليه السلام**

قال النبي ﷺ: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض، فجاء بنو آدم على قدر (لون) الأرض، منهم الأحمر والأسود والأبيض، وما بين ذلك، ومنهم الحزن والسهل، وما بين ذلك، وإنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض".

قال تعالى للملائكة:

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1]. فاعرض عنهم، فطافوا بالعرش ست سنين، يقولون: "لبيك لبيك اعتذارا إليك، لبيك لبيك، نستغفرك ونتوب إليك".

وبعد هذا الطواف والتلبية والاستغفار، رضي الله عنهم، وأوحى إليهم أن ابنوا لي في الأرض بيتا يطوف به من عبادي، من أغضب عليه لأرضى عنه، كما رضيت عنكم.

ابتلي الملائكة بآدم عليه السلام، الذي خلق من أديم الأرض، وقد سألوا الله سبحانه سؤال استفسار عن هذا المخلوق العجيب، الذي يختلف عن مادة خلقهم أصلا وطبيعة، وعلموا من علم الله بما شاء الله سبحانه، ما سيكون عليه من أمر هذا المخلوق وذريته، وأن كثيرا منهم فاسقون، وهم يعبدون الله بلا معصية، فلماذا يا رب تجعله في الأرض خليفة، ليفسد فيها ويسفك الدماء؟ أجابهم الله سبحانه، بأنه يعلم عن هذا المخلوق ما لا يعلمونه، رغم ما أتاهم من علم، ورغم ذلك فقد كان علمهم قاصرا، وإدراكهم محدودا.

قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا

(1) سورة البقرة، آية 30.

جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [1].

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في (سورة البقرة آية 30، وفي أول سورة الأعراف آية 11، وفي سورة الحجر آية 38، وفي سورة الكهف آية 50، وفي سورة ص آية 71). وهي أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم ﷺ، بأنه سيخلق بشرا من صلصال، وهو الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار. ومن حمأ مسنون، أي من طين أسود متغير، وهو صفة للصلصال، ومسنون: المحكوك، وهو مأخوذ من سنت الحجر إذا حككته، وقيل: هو المصبوب. وقال سيبويه: المصوّر على صورة ومثال، بعد أن كان ترابا، فعجن بالماء، فصار طينا، فمكث فصار حمأ، فخلص فصار سلالة، فصوّر ويبس فصار صلصالا، وتقدم إليهم بالأمر، متى فرغ من تسويته وإتمامه، ونفخ فيه الروح، وأصبح إنسانا سويا، فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما، وامتثالا لأمره عز وجل. وهي فضيلة عظيمة لآدم ﷺ. وكان ذلك السجود لمجرد التذلل والانقياد.

رأى الملائكة من هذا المخلوق عجبا، وكان أول اختبار بينهم وبين آدم مناظرة علمية تبحث في أسماء الأشياء فقط، وليس ما وراءها، وما يستفاد منها، وما يمكن صناعته منها. قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [2]. **فعجزوا أن يسموا الأشياء بأسمائها، بعد أن أدلى بها آدم من علم الله الذي علمه إياه. وهنا قالوا:** ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا

(1) سورة الزمر، آية 71-85.

(2) سورة البقرة، آية 31.

﴿ مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1]. واعترفوا لآدم بفضله عليهم، لما حباه الله من كرمه ولطفه وعطفه.

حمل آدم الأمانة، التي أبت السموات والأرض والجبال أن تحملها، وحملها هذا المخلوق، الذي نظرت إليه الملائكة نظرة استهجان وامتهان، وعلى رأسهم إبليس، وكان اسمه بالعبرانية عزازيل.

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن الأنباري، وحكى الثعلبي عن ابن عباس: أن إبليس كان من حي من أحياء الجن، خلقوا من نار السموم، وخلقت الملائكة من نور. وكان أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما، وكان أعظم عابد وعالم فيهم، عبد الله ثمانين ألف سنة، وكان له سلطان السماء الدنيا، ورئيس ملائكتها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، وكان له سلطان الأرض. وكان من خزّان الجنة. فرأى لنفسه بذلك شرفا وعظمة، فوقع في صدره كبر، وقال: "ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي". فاطّلع الله تعالى على ذلك منه، فذلك الذي دعاه إلى الكفر، فعصى الله، فمسخه شيطانا رجيما، مذؤوما مدحورا.

أخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن ابن عباس قال: كان إبليس اسمه عزازيل، وكان من أشراف العبّاد، من ذوي الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بعد. وإنما سمي إبليس، لأن الله أبلسه من الخير كله، أي: آيسه منه. وهو على وزن إفعيل، وهو مشتق من الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله تعالى، ولم يتصرف، لأنه معرفة، ولا نظير له في الأسماء تشبهه بالأعجمية

كما نجد أن إبليس كلمة مشتقة من أبلس، وتعني الذي: قنط ويأس من رحمة الله، وتناقص مع خيره وفضيلته، وكان محتارا وغير قادر على تبين سبيله، وحرم من تحقيق أمنيته، وصار محطم الروح.

وجاء في لسان العرب: بلس الرجل: قُطع به. وأبلس: سكت، وأبلس من رحمة الله: يئس وندم ومنه سمي إبليس.

---

(1) سورة البقرة، آية 32.

والمبلس: اليائس، والساكت من الحزن والخوف، قال تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ﴾[1]. فالسجود معناه في كلام العرب: التذلل والخضوع. وغايته وضع الوجه على الأرض. وقال ابن فارس: سجد: إذا تطامن، وكل ما سجد فهو ذلّ. والإسجاد إدامة النظر. وقال ابن عمر: سجد: إذا طأطأ رأسه. أما السجود لآدم، فهو إطاعة لأمر الله، وليست عبادة لآدم، لأن هناك فرقاً كبيراً بين السجود لله، وبين السجود لأمر الله.

امتثل الملائكة كلهم لأمر الله سبحانه وتعالى بالسجود إلا إبليس، لأنه لم يكن منهم جنسا، وكان من الجن، فخانه طبعه، لأنه كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بما عنده، فاستنكف عن السجود لآدم حسدا على ما أعطاه الله من الكرامة، وخاصم ربه عز وجل فيه. وادّعى أنه خير من آدم، لأنه مخلوق من نار، وآدم مخلوق من طين، والنار خير من الطين في زعمه. قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾[2].

قد يقال: إن إبليس لم يكن من الذين أمرهم الله بالسجود، لأن الأمر شمل الملائكة وحدهم، وإبليس ليس ملكا، لأنه منَ الجن كما يروي لنا القرآن الكريم. فالجواب: إن كون إبليس من الجن هو الذي جعله يعصي أمر الله، ولو كان من الملائكة لأطاع أمر الله وسجد،، ولكن لكونه من الجن الذين لهم اختيار في أن يطيعوا أو يعصوا، فذلك الذي مكنه أن يعصي أمر السجود. .

أخطأ إبليس في ذلك وخالف أمر الله تعالى، لأنه رد الأمر على الأمر استكبارا، وكأنه لم يرض بحكم الله سبحانه، وأراد أن يعدله، وكانت معصيته في القمة، جعلت الله

---

(1) سورة البقرة، آية 34.

(2) سورة ص، آية 75-78.

تبارك وتعالى يطرده من نعمته، ويصفه بأنه رجيم. قيل: فاخرج منها: أي من السماء، أو الجنة، أو من زمرة الملائكة.

ورغم أنه قد وقع بالمعصية وأقرها في نفسه، وأصر على أفضليته على آدم ﷺ، لم يندم على فعله، وبذلك طرد من رحمة الله، وحلّت عليه اللعنة. ورغم ذلك، فقد سأل الله النظرة إلى يوم البعث، ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝ ﴾[1]. فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه. فلما أمن إبليس الهلاك إلى يوم القيامة، تمرد وطغى، وقال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ﴾[2].

قال ثابت البناني: بلغنا أن إبليس لعنه الله ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام، فرأى عليه معاليق من كل شيء، فقال له يحيى ﷺ: يا إبليس، ما هذه المعاليق التي أرى عليك؟ قال: هذه الشهوات التي أصيب من بني آدم. قال: فهل لي فيها شيء؟ قال: ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر. قال فهل لي غير هذا؟ قال: لا. قال: لله عليّ أن لا أملأ بطني من طعام أبدا. قال: فقال إبليس: لله عليّ أن لا أنصح مسلما أبدا"[3].

وقال ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾[4]. أي سأستأصلهم بالإغواء، إلا المستثنون في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝ ﴾[5]. أما أنت ومن تبعك منهم ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ﴾[6].

---

(1) سورة ص، آية 79-81.

(2) سورة ص، آية 82.

(3) جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبد الرحمن الحنبلي البغدادي، دار الفكر، صفحة 372.

(4) سورة الإسراء، آية 62.

(5) سورة الإسراء، آية 65.

(6) سورة ص، آية 85.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله أمر آدم بالسجود فسجد، فقال لك الجنة ولمن سجد من ولدك... وأمر إبليس السجود، فأبى أن يسجد، فقال: لك النار ولمن أبى من ولدك أن يسجد".

ولما أنزل الله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝ ﴾[1]. بكى إبليس وصاح بجنوده، وحثا التراب على رأسه، ودعا بالويل والثبور، حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر، فقالوا: ما لك يا سيدنا؟ قال: آية نزلت في كتاب الله، لا يضر بعدها أحدا من بني آدم ذنب. قالوا: ما هي؟ فأخبرهم. قالوا: نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون، ولا يرون إلا أنهم على حق". فرضي منهم بذلك.

خليفة الله سبحانه في الأرض

كان ذلك الخليفة هو آدم عليه السلام. قال الأخفش: وأصل اسمه أأدم بهمزتين، إلا أنهم ليّنوا الثانية، وإذا حركت قلبت واو، كما قالوا في الجمع: أوادم. واختلف في اشتقاقه: فقيل من أديم الأرض وهو وجهها، وقيل من الأدمة وهي السمرة. وقال في الكشاف: وما آدم إلا اسم عجمي، وأقرب أمره أن يكون على وزن فاعل، كآزر وعازر وعابر وشالخ، والنسبة إليه: آدميّ.

وجاء في القواميس العربية: آدم: بمعنى لأم، وأصلح، وألف، من هنا نتلاحظ أن كلمة آدم ليست هي مجرد تسمية لشخص أبينا آدم فحسب، بل هي اسم وصفي يدل على الجمع واللأم والتوافق والأسوة والإصلاح. كما أنها تشير إلى الجنس الآدمي، الذي يتصف بجميع هذه الصفات.

من حديث أبي هريرة في الصحيح قال: "أخذ النبي ﷺ يدي، فقال: خلق الله التربة

---

(1) سورة آل عمران، آية 135-136.

يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر، في آخر ساعة من النهار، فيما بين العصر إلى الليل". رواه مسلم.

وفي رواية: خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه".

مرّ خلق آدم ﷺ بأطوار ستة: طور التراب، وطور الطين اللازب اللزج الجيد، وطور الصلصال، وهو الطين اليابس يسمع له صلصلة إذا نقر، وطور الحمأ المسنون، وهو الطين الأسود المتغير، وطور التسوية ونفخ الروح، وطور صيرورته ﷺ خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

كان آدم ﷺ كامل الخلقة والتصوير، من الرأس حتى أخمص القدمين، بكامل أجهزته الداخلية والخارجية، من طين من صلصال كالفخار، في أحسن تقويم، بدون حياة أو حركة أو حيوية. وكان هذا هو: **الإعجاز الأول**.

ثم خلق الله سبحانه آدم الروح بدون مادة أولية، وإنما بأمر إلهي: "كن آدم". أي على صورة آدم. فكان آدم الروح على صورة آدم الصلصال تماما، بما فيه من أجهزة بنفس الدقة والصنعة، وكان هذا هو: **الإعجاز الثاني**، الذي يفوق الإعجاز الأول، لأنه من أمر الله سبحانه، قال تبارك تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[1].

يمتاز آدم الروح عن آدم الصلصال، أن آدم الروح خلق فيه الحياة والحركة والحيوية، وفيه العقل والإدراك والعلم، وفيه الأحاسيس والمشاعر من الحب والكره، وفيه الصدق والجحود، وفيه النسيان وفيه التذكر. بالإضافة إلى القلب الروحي، الذي هو وعاء ذلك كله.

---

(1) سورة الإسراء، آية 85.

وبأمر الله سبحانه، تم نفخ آدم الروح بآدم الجسد، فكان خلقا آخر، تحول من آدم الصلصال، إلى آدم الروح، إلى آدم الإنسان من لحم ودم وعظم. وهذا **الإعجاز الثالث**، حيث يقف الإنسان أمام هذا الإعجاز طويلا، ليتفكر في عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وقدرته وتفرده ووحدانيته. وكانت أول كلمة نطقها آدم عليه السلام بعد أن عطس: "الحمد لله". فقالت له الملائكة: "يرحمك الله. وفي رواية: قال آدم بعد أن عطس: الحمد لله. فقالت الملائكة: رب العالمين، فقال سبحانه وتعالى: يرحمك الله".

كان آدم عليه السلام طويل القامة، كأنه نخلة سحوق، طوله ستون ذراعا، وعرضه سبعة أذرع، جميل الخلقة، أمرد الوجه، أبيض البشرة، كثير شعر الراس، لم يأت بعده أجمل منه. ويكون أهل الجنة بإذن الله على هيئة أبيهم آدم في طوله وجماله.

أخرج البخاري في كتابه "بدء الخلق" ج 4، ص 131: حدثنا عبد الله ابن محمد، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر عن عِمّام، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "خلق الله آدم، طوله ستون ذراعا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك الملائكة، فاستمع ما يحيّونك، تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم. فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله. فزادوه: ورحمة الله. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم".

أما **الإعجاز الرابع**، فهو: خلق حواء أم البشر.

خلق الله سبحانه وتعالى حواء من ضلع آدم من عظم ولحم، وأمر الله سبحانه الخالق بأمره للعظم واللحم: "كن". فكانت حواء جسدا وروحا، خلقا عظيما، عظم آدم عليه السلام، جميلة، وسيمة، بيضاء البشرة، لم يأت بعد أجمل منها، وسميت حواء: لأنها خلقت من ضلع حي، وقيل: لأنها أم كل بشر حي. وسميت امرأة لأنها أخذت من امرء.

هذا الإعجاز فاق ما سبقه، حيث لم تصور حواء لا جسدا ولا روحا على انفراد، وإنما خلقت في وقت واحد، كلمح بالبصر، حيث صدر الأمر الإلهي للضلع: "كن" فكان. قال سبحانه وتعالى وهو أحسن الخالقين: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [1].

(1) سورة الأعراف، آية 189.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن المرأة خلقت من ضلع – وفي رواية: وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه – لن تستقيم لـك علـى طريقة واحدة، فإن استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرته، وكسره طلاقها".

من المفيد في سياق بحثنا، أن نعرج على دراسة موجزة وهامة، تتعلق بشرح المفهوم القرآني للروح والنفس، لبيان الخطأ الشائع في الخلط بينهما. يخلط بعض الناس في اللغـة الدارجة بين النفس والروح، فيقولون: خرجت روح فلان، أو أن روحه اطمأنت، أو أنها تتعذب.. إلخ، وكل هذه تعبيرات خاطئة، لأنها في الحقيقة أحوال تخص الـنفس ولـيس الروح.

يبين لنا القرآن الكريم أن ما يخرج من بدن المحتـضر عنـد المـوت والحـشرجة هـي نفسه، وليست روحه، حيث يورد لنا قول الملائكـة للمجـرمين لحظـة المـوت: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ ﴾[1].

فهنا بيان قرآني واضح، أن التي تخرج عند الموت هي النفس وليست الروح. كمـا يبين لنا القرآن الكريم أن النفس هي التي تذوق الموت، يقول تبـارك وتعـالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى[3] ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[4].

ويقـول تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[5].

---

(1) سورة الأنعام، آية 93.

(2) سورة آل عمران، آية5 18.

(3) يقال: توفى فلان حقه: أخذه وافيا. وتوفاه الله: قبض روحه.

(4) سورة الزمر، آية 42.

(5) سورة الفجر، آية 28-31.

إن النفس في القرآن الكريم تندرج في القرآن الكريم في مدارج ثلاثة:

- **النفس الأمارة بالسوء**: قال تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ [1]. ، حيث تغري صاحبها بالشر والسوء، وتدفعه بعيدا عن تحصيل كماله الأخلاقي، وتدفعه على اتباع السبل السيئة والشريرة.
- **النفس اللوامة**: قال تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ {القيامة: ٢ }، وهي مصدر الحالة الأخلاقية عند الإنسان، وتدفعه إلى التخلص من أسر النفس الأمارة بالسوء، كما تدفعه إلى اتباع السلوك الأخلاقي الراقي، وضبط الغرائز الطبعية والسيطرة عليها، وعلى العواطف والرغبات وتنظيمها بفعل العقل. ولقد شرف الله سبحانه هذه النفس حين أقسم بها، لأنها القرين الذي يأمر بالخير.
- **النفس المطمئنة**: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [2]. وهي التي تشكل بداية المرحلة الروحية لدى الإنسان، وتملؤها بالطاقات الروحية، وتؤسس صلته بالله عز وجل، وتأتي هذه المرحلة بعد أن يكون الإنسان قد تخلص من ضعفه ونقائصه.

وبالإضافة إلى هذه المدارج الثلاثة، فإن النفس هي شيطان الإنسان، الذي يوسوس له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ ﴿١٦﴾﴾ [1]. وهي التي تطوع صاحبها العمل الخاطئ والشرير، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [2]. وهي التي تسول لصاحبها، وتضيق عليه، وتزهق،

---

(1) سورة يوسف، آية 54.

(2) سورة الفجر، آية 28-31.

قال تعالى: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ [3]. والتسويل: تزيين الخطأ وتهوين ارتكابه. وقال تعالى:﴿ [4].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [5]. وهكذا تكون النفس دائما في حركة تذبذب واستقطاب بين القطب الروحي وبين القطب الجسدي، إما انجذاب وهبوط إلى الجسد.. إلى حمأة الواقع وطين الغرائز والشهوات، أو انجذاب وصعود إلى الروح.. إلى سموات المثال والقيم الأخلاقية الربانية.

أما الروح في القرآن الكريم، فتذكر دائما بدرجة عاليه من التقديس والتشريف، ولا يذكر لها أحوال من عذاب، أو هوى، أو شهوة.. إلخ، ولا يذكر أنها تخرج من الجسد، أو أنها تذوق الموت، ولا تنسب إلى الإنسان، وإنما تأتي دائما منسوبة إلى الله تعالى.

يقول الله سبحانه في قصة آدم:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [6]. فهنا يقول تبارك وتعالى: روحي، ولم يقل: روح آدم.

وقال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [7]. وقال تعالى:

---

(1) سورة ق، آية 16.

(2) سورة المائدة، آية 30.

(3) سورة يوسف، آية 18.

(4) سورة التوبة، آية 18.

(5) سورة التوبة، آية 55.

(6) سورة الحجر، آية 29.

(7) سورة مريم، آية 17.

﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[1].

وفي التعبير القرآني جاءت كلمة الروح بمعنى القرآن الكريم، الذي أنزله الله سبحانه على رسوله الأمين، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[2].

والروح في القرآن الكريم، هي وحي الله لعباده المرسلين، قال تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾[3]. وهنا نجد من هذا البيان القرآني ان الروح في كتاب الله، تأتي دائما منسوبة إلى الله، وهي دائما في حركة من الله إلى الله، وتكون علاقتها مع الجسد، هي أشبه ما تكون بالعلاقة بين أرض الواقع وسماء المثال. ولا تجري عليها الأحوال الإنسانية كالنفس، ولهذا فقد جاءت في القرآن الكريم في موضع تكريم وتشريف من الله تعالى.

إن العلاقة بين الجسد والروح، هي أشبه ما تكون بالعلاقة بين أرض الواقع، وسماء المثال، وهما معا مجال الابتلاء والامتحان.

خطيئة آدم معصية، وخطيئة إبليس كفر

خلق الله تعالى من ضلع آدم حواء زوجته، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].

إن لفظ الجنة مأخوذ من جنّ: أي ستر، ذلك لأن فيها أشجار كثيفة تستر من يعيش فيها، فلا يراه أحد، ومنه الجنّ، والجنون، والجنين، والجنة. ويقال للأرض المليئة

(1) سورة المجادلة، آية 22.

(2) سورة الشورى، آية 52.

(3) سورة غافر، آية 15.

(4) سورة البقرة، آية 35.

بالأشجار والثمار جنة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وهناك في سورة الكهف قصة صاحب الجنتين: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾[2]. وقوله في سورة سبأ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ ﴿١٥﴾ ﴾[3].

وقد يسأل سائل: هل الجنة التي سكنها آدم هي نفس جنة الآخرة؟ فالجواب: لا. فجنة الآخرة للآخرة. إن الجنة التي سكنها آدم، سكنها فترة ثم طرد منها، أما جنة الخلد فكل من دخلها عاش فيها خالدا مخلدا في نعيم أبدي.

إن الجنة التي سكنها آدم هي جنة التجربة، أو المكان الذي تمت فيه تجربة تطبيق المنهج. ولو كانت جنة الخلد، فكيف يدخلها آدم بعد أن عصى وكفر؟ ولو كانت جنة الخلد، لما وجد فيها شجر ممنوع الاقتراب أو الأكل منه. إن جنة الآخرة لا يوجد فيها تكليف، أما جنة آدم، ففيها تكليف من الله، حين قال: ولا تقربا هذه الشجرة.

إن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بآدم وزوجه، كان لا يريدهما أن يقعا في غواية المعصية، فلو أنه قال: ولا تأكلا من هذه الشجرة، لكان مباحا أن يقتربا منها، فتجذبهما بجمال منظرها، ويقتربا من ثمارها، فتفتنهما برائحتها العذبة، وتمتد أيديهما تحت هذا الإغراء إلى الشجرة ليأكلا منها.

ولكن الله يعلم أن النفس البشرية إذا حرم عليها شيء، ولم تحم حوله، كان أدعى ألا تفعله، فالله حين حرم الخمر، لم يقل حرمت عليكم الخمر، وإلا كنا جلسنا في مجالس الخمر، ومع الذين يشربون الخمر، أو رحنا نتاجر فيها. وهذا كله إغراء لشرب الخمر. ولكنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ

(1) سورة القلم، آية 18.

(2) سور الكهف، آية 22.

(3) سورة سبأ، آية 15.

وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [1]. وهذا النص هو الذي يجعلنا أن نبتعد عن الأماكن التي فيها خمور، ولا نجالس شاربيها، ولا نتاجر بها، حتى لا نقع في المعصية، والاجتناب أشد من التحريم.

اختلف الناس في نوع هذه الشجرة، تفاح أو تين أو عنب أو غير ذلك، وليس هذا هو المقصود، ولكن المقصود هو التحريم.

ابتلي آدم وحواء بإبليس، عندما سكنا الجنة، التي كانت تعطيهما كل مقومات حياتيهما، بلا تعب ولا عمل. فأراد إبليس أن يدخلها، ليوسوس لآدم وحواء، من باب الحرص على البقاء والخلود في الجنة، حسدا وبغضا ومكيدة، فمنعه الخزنة، فعرض نفسه على دواب الأرض أن تحمله حتى يدخل الجنة، ليكلم آدم وزوجته، فكل الدواب أبت ذلك إلا الحية، فإنها أدخلته الجنة بين نابيها، وكانت إذ ذاك على غير شكلها الآن.

كان في الجنة آلاف الأشجار، تعطي كل الثمرات، وهي حلال لآدم وحواء، يأكلان منها ما يشاءان، ما عدا شجرة واحدة، حرمها الله عليهما، وكانت هذه الشجرة هي بداية المعصية. فلما دخل إبليس الجنة، وسوس لآدم وحواء، وحسن عندهما الأكل من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عنها وقال: إن أمر المنع من أكل الشجرة، ما هو إلا ليكونا ملكين في عبادتهما لله. وأقسم الأيمان المغلظة أنهما إذا أكلا من الشجرة المحرمة، خلدا في الجنة، ولن يخرجا منها أبدا.

حذر الله سبحانه وتعال آدم من إبليس اللعين، ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ [2]. لكن مكائد إبليس كانت السبب في طرد آدم وحواء من الجنة، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ

(1) سورة المائدة، آية 90.

(2) سورة طه، آية 117.

عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[2].

هكذا نرى أن إبليس يأتي الإنسان من أكثر من زاوية، فكانت الزاوية الأولى هي أن كل من يأكل هذه الشجرة، يكون ملكا ويكون خالدا. وكان الإغواء الثاني أن هذه الشجرة تعطي لمن يأكل منها بجانب الخلود ملكا لا ينتهي.

ثم طرق إبليس بابا آخر للإغواء، قال تعالى: فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى.

أكل آدم وحواء من الشجرة، فلم يخلدا، ولم يأت لهما ملك لا ينتهي، بل ظهرت عوراتهما. وعرف آدم وحواء أن إبليس كان كاذبا، ومخادعا ومضللا، وأن الله سبحانه وتعالى يريد لهما كل الخير.

ولو أن آدم كان قد حكم عقله، لعرف كذب وسوسة إبليس، ولو أن هذه الشجرة كانت تعطي الخلد فعلا، لما طلب إبليس من الله أن يبقي على حياته إلى يوم القيامة، لأكل من الشجرة ونال الخلد.

دخل إبليس من ناحية غفلة النفس البشرية، ليوقع آدم في المعصية، وهو يدخل إلى أبناء آدم من ناحية الغفلة أيضا. ولو أن أبناء آدم حكموا عقولهم، وهم يعرفون أن هناك عداوة مسبقة بين أبيهم آدم وبين إبليس، وأن إبليس طلب من الله أن يبقيه إلى يوم القيامة لينتقم من آدم وذريته، بإغوائهم على المعصية، لتنبهوا إلى كل هذا، ولعنوه وطردوه.

---

(1) سورة طه، آية 120-122.

(2) سورة الأعراف، آية 20-22.

لقد بين لنا الله سبحانه طريق الهدى وطريق المعصية، ثم تركنا أن نختار طاعة الله ورحمته، أو معصية الله وعذابه، ولم يعطنا الله هذا الاختيار إلا في فترة محدودة، وهي فترة حياتنا الدنيا، ولم يعطنا الاختيار في كل أحداث الدنيا، بل أعطاه لنا في المنهج فقط، في الطاعة أو المعصية.

كان إبليس كما ورد في الأثر يسمى طاووس الملائكة، وكان يزهو بخيلاء بينهم، وهذا الخيلاء أو الكبر هو الذي جعله يقع في المعصية، ولهذا أصرّ على غواية الإنسان، حتى لا يكون هو العاصي الوحيد، فما دام قد عصى ولعن وطرد من رحمة الله، فلماذا يكون هو العاصي الوحيد؟ ولماذ لا يكون الكل عاصيا؟ بعض الناس يقول: إبليس عصى، وآدم عصى، والله طرد إبليس من رحمته، وغفر لآدم. فالجواب: إن هناك فرقا بين معصية ومعصية، فمعصية إبليس كانت معصية فوق القمة، لأنه رد الأمر على الأمر، ولم يلتزم بطاعة الله، وهذا أول الكفر. يعني معصية كفر وعناد واستكبار، ولم يندم على ما فعل، ولم يستغفر، ولم يعتذر.

أما معصية آدم فكانت خطيئة، اعترف فيها آدم بالخطأ والضعف، واتجه إلى الله طالبا التوبة والغفران، وقال: يا رب، أمرك الحق، وقولك الحق، ومنهجك الحق، ولكني ضعيف لم أستطع أن أحمل نفسي على الطاعة، فسامح ضعفي يا رب". ولذلك شرع له الله سبحانه وتعالى التوبة. لأن هناك فرقاً بين الخطأ والخطيئة، فالخطأ يصوّب، والخطيئة يعاقب عليها. فآدم أخطأ وصوبه الله تعالى، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه.

وعلى إثر ذلك، أمر الله سبحانه وتعالى الجميع: آدم وزوجه وإبليس وقبيله والحية، أمرهم بالهبوط إلى الأرض، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (1).

إن العداوة معلنة ومسبقة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ

(1) سورة طه، آية 123.

نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ ﴾[1]. ولكن هل النسيان معصية؟ نعم، كان النسيان معصية في الأمم الغابرة، ولهذا يقول ﷺ: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"[2].

جاء في إنجيل برنابا: "ثم قال الله لآدم وحواء، اللذين كانا ينتحبان: "اخرجا من الجنة، وجاهدا أبدانكما، ولا يضعف رجاؤكما، لأني أرسل ابنكما، على كيفية يمكن بها لذريتكما، أن ترفع سلطة الشيطان عن الجنس البشري، لأني سأعطي رسولي الذي سيأتي كل شيء". فاحتجب الله، وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس[3] فلما التفت آدم رأى مكتوباً فوق الباب: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". فبكى عند ذلك وقال: "أيها الابن، عسى الله أن يريد أن تأتي سريعاً، وتخلّصنا من هذا الشقاء"[4].

قال الله سبحانه وتعالى للحية: "لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية.. على بطنك تسعين، وترابا تأكلين كل أيام حياتك... وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه. وقال لحواء: تكثيرا أكثر أتعاب حملك، بالوجع تلدين أولادا، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك. وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك لا تأكل منها.. ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكا وحسكا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك.. تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب، وإلى التراب تعود".

سلب الله سبحانه وتعالى آدم وحواء ما كانا فيه من النعمة والكرامة، فهبط آدم من باب التوبة بسرنديب من أرض الهند، على جبل يقال له نود. وهبطت حواء من باب الرحمة بجدة من أرض الحجاز، وهبط إبليس من باب اللعنة بإيلة (العقبة جنوب الأردن)، وهبطت الحية من باب السخط بأصفهان، وكان الوقت عصرا، لتكون الأرض مستقرا

---

(1) سورة طه، آية 115.

(2) رواه الطبراني عن ثوبان.

(3) الفردوس هنا الجنة، وفي لغة الكنعانيين: يريد الله.

(4) برنابا، الفصل 42 الآية: 25-31.

ومتاعا لذرية آدم إلى حين.

هبط العملاقان إلى الأرض: آدم في المشرق، وحواء في المغرب، وراح كل منهما يبحث عن زوجه، ويناديه بلوعة واشتياق. وبعد مرحلة شاقة مضنية، شاهدا فيها الأهوال، التقى الزوجان على أرض عرفات في الحجاز.

اقتضت حكمة الله أن يرانا إبليس وقبيله، من حيث لا نراهم. وبدأ آدم ﷺ بتعليم أبنائه حقيقة إبليس وعداوته لهم، ثم العداوة والبغضاء بين الجن والإنس إلى يوم القيامة، وبيّن أساليب إبليس اللعين في الغواية، وتحذيرهم منها لعدم الوقوع بها، وأن عباد الله الذين دخلوا في دائرة العبودية الكاملة لله تعالى في جميع أمورهم، ليس للشيطان عليهم سلطان. أما الذين لم تترع قلوبهم بالإيمان الخالص، واليقين الحق، فمن السهل على إبليس، أن يجري في أجسادهم مجرى الدم، يزين لهم ويغويهم. أما الباب الذي يستطيع إبليس الدخول منه، ليواجه معجزة الأنبياء والرسل، هو السحر وعلم النجوم والكهانة، لأنه هو زعيم السحرة والمنجمين والكهان.

عن ابن عباس أنه قال: ولد لآدم ﷺ أربعون ولدا، عشرون غلاما، وعشرون جارية، فكان ممن عاش منهم: هابيل وقابيل، وصالح، وعبد الرحمن الذي سماه عبد الحارث، وودّ، الذي كان يقال له شيت، ويقال له هبة الله، وكان إخوته قد سوّدوه، وولد له: سواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وهم الذين عبدهم قوم نوح، ولهذا أغرقهم الله بالطوفان.

روي أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى آدم أن يزوج كل واحد من ولديه توأمه الأخر. كان لقابيل أخت توأمه اسمها إقليما، وكانت أجمل من توأمه هابيل[1]، فحسد هابيل وسخط عليه لأنه سيتزوجها، فقال لهما أبوهما آدم: قربا قربانا[2]، فمن أيكما قبل تزوجها. فقرّب هابيل كبشا من أحسن ما عنده ومن أسمنها، وقدم قابيل ثمرا ليس بالجيد، فتقبل من هابيل، حيث نزلت نار من السماء، وأكلت قربانه. ولم يتقبل من قابيل،

(1) تفسير العلامة أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي.

(2) القربان: كل ما يتقرب به إلى الله سبحانه، من نسيكة أو صدقة.

الذي غضب وأضمر الحسد في نفسه، وكان أول حسد على وجه الأرض، وصمم على قتل أخيه هابيل ابن العشرين سنة، وكان أول قتيل على وجه الأرض.

وبعد أن قتل قابيل أخاه هابيل على حين غفلة منه، قيل بالبصرة، وقيل عند عقبة غار حراء – والله أعلم –، وتركه في العراء، لا يدري ما يصنع به، فخاف عليه السباع، فحمله في جراب، وراح يدور به حتى أروح، وعكفت عليه السباع، فبعث الله غرابين فقتل أحدهما الآخر، وراح الغراب القاتل ينبش الأرض بمنقاره ورجليه، حتى حفر حفرة، ثم ألقى القتيل في الحفرة، وراح يثير التراب حتى واراه، ليري قابيل كيف يواري سوأة أخيه، وسرعان ما حفر حفرة، ووارى أخاه القتيل.

وعاش آدم تسعمائة وثلاثين سنة، وذلك باتفاق المؤرخين.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾[1].

اختار الله سبحانه الأنبياء من ولد آدم ﷺ، عن أبي ذر الذي رواه أحمد وابن حبان في صحيحه[2]، من حديث أبي أمامة أن رجلا قال: "يا رسول الله، أنبي كان آدم؟ قال: "نعم، معلَّم مكلَّم". قال: "كم بينه وبين نوح؟" قال: "عشرة قرون". قال: كم كان بين نوح وإبراهيم؟ قال: "عشرة قرون". قال: وكم عدد الأنبياء؟ قال: مائة وأربعة وعشرون ألفا. قالوا: يا رسول الله، كم كانت الرسل؟ قال: "ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا". سنده صحيح على سند مسلم كما قال الحاكم ووافقه الذهبي. وقيل: ثلاثمائة وخمسة عشر رسولا.

اختار الله سبحانه من بين هؤلاء الرسل، أربعة من العرب وهم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد عليهم السلام، واختار أولي العزم منهم. قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[3]. وهم الخمسة المذكورون في سورة الأحزاب والشورى قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ

(1) سورة غافر، آية 78.

(2) أخرجه احمد في المسند 5/ 178 -179، وفي سنده ثلاثة ضعفاء، واخرجه ابن حبان رقم 94.

(3) سورة الأحقاف، آية 35.

وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[2].

جوهر الإنسان

هذا الإنسان الصغير شأنه شأن الكون، يعتمد في تكوينه وتركيبه ووظائفه ونشاطه، على قوانين العلوم الرياضية والطبيعية، وهذا مما يجعله والكون في وحدة متجانسة ومتناسقة تسبح للخالق المبدع.

إن العقل الإنساني الذي هو جوهرة الخلق والوجود، يعتمد على علم الرياضيات في المنطق والحساب والأرقام، ولذلك فإنه لا يقبل إلا الأفكار والآراء التي تكون في تعادل وتوازن. وبذلك يكون هذا الأمر منطقيا معقولا ينظمه العقل في حدود العلم والمعرفة.

أما الجسم الإنساني المادي فيعتمد في تكوينه وتركيبه على علم الكيمياء، وعناصر المادة التي تتحد لتكون المركبات التي يتكون منها الجسم وهي الماء والمواد النشوية والبروتينية والدهنية والفيتامينات وعناصر بعض المعادن، وهذه المواد موجودة في الجسم بنسب معينة، بحيث لو زادت أو نقصت قليلا لاختل التوازن واضطرب الجسم.

لقد تجلت الحكمة الإلهية في تركيب الجسم الإنساني في كونه لا يمتص المواد الغذائية المعقدة التركيب، إلا بعد هضمها وتحليلها إلى أصغر وحدات تكوينها. فمثلا فإن الأمعاء لا تمتص النشويات إلا إذا تحللت إلى جلوكوز، والبروتينات إلا إذا تحللت إلى أحماض أمينية، والدهنيات إلا إذا تحللت إلى أحماض دهنية. وهذا يعني أن لا فرق بين غذاء وآخر إلا بالمظهر، اما الجوهو فالغذاء واحد والمصير واحد وكله يتحول إلى طاقة ونمو، ومغزى هذه الحكمة هو التساوي بين البشر.

---

(1) سورة الأحزاب، آية 7.

(2) سورة الشورى، آية 13.

أما أجهزة الجسم الإنساني ووظائفها الحيوية، فإنها تعتمد على علم الطبيعة وقوانينها، فالقلب مضخة جبارة تدفع الدم دون توقف أو كلل إلى شبكة الدورة الدموية لتوزيع الغذاء والأوكسجين على جميع أنحاء الجسم، ثم العودة بالفضلات وغاز ثاني أكسيد الكربون عن طريق الرئتين والكلى.

أما الجهاز الهضمي فيمارس نشاطه في حركة دائمة مصحوبة بإفراز مستمر لا يتوقف للأنزيمات والعصارات الهاضمة، ثم يعقبها الامتصاص حسب قوانين طبيعية ذات صفات انتقائية. أما بالنسبة للجهاز البولي، فيتم الترشيح في مصاف في غاية الدقة والتعقيد، كما يتم الامتصاص بواسطة مضخات تبادلية للأملاح المطلوبة، ثم التخلص من الفضلات والسموم.

أما الجهاز الحركي الذي يشمل العضلات والمفاصل فهو مثال حي لقوانين الروافع والحركة. أما أجهزة الحواس الخمس، فلكل منها قوانينها الخاصة. أما الجهاز العصبي، فهو سيد الأجهزة، فهو إبداع كهربائي يدل على إبداع الخالق. فالمخ مركز الإدارة والتفكير، والمخيخ هو مركز التوازن والاتزان، وخزن المعلومات. أما الشبكة العصبية، فهي شبكة الكهرباء العصبية التي تنقل الإرساليات من وإلى الجهاز العصبي المركزي من جميع أنحاء الجسم، فسبحانك يا من خلقت الإنسان في أحسن تقويم.

مراحل خلق ذرية آدم ﷺ

يمرّ خلق ذرية آدم ﷺ، بأربع مراحل هي:

*** مرحلة الخلق الأولى:**

عن عبد الله بن عمرو قال: "إن الله تعالى لما خلق آدم، نفضه نفض المرود، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النغف، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقي وسعيد. ثم ألقاهما ثم قبضهما فقال: فريق في الجنة وفريق في السعير".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسَمَة، هو خالقها إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وميضا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: "أي رب، من هؤلاء؟" قال: "هؤلاء

ذريتك". فرأى رجلا منهم، فأعجبه وميض ما بين عينيه، فقال: "أي ورب، من هذا؟" قال: "هذا رجل من ذريتك، يقال له داود". فقال: "أي ورب، كم جعلت عمره؟" قال: "ستين سنة". قال: "أي ورب، زده من عمري أربعين سنة". فلما قضي عمر آدم، جاءه ملك الموت، فقال: "أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟" قال: "أو لم تعطها ابنك داود؟" قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته، وخطئ آدم، فخطئت ذريته". وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وفي رواية أخرى له: "ثم أكمل الله تعالى لآدم ألف سنة، وأكمل لداود مائة".

وعن خلق سيدنا محمد ﷺ، ورد في إنجيل برنابا ما يلي: "فلما انتصب آدم على قدميه، رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصّها: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". ففتح حينئذ آدم فاه وقال: "أشكرك أيها الرب إلهي، لأنك تفضّلت فخلقتني، ولكن أضرع إليك أن تنبئني ما معنى هذه الكلمات: "محمد رسول الله". فأجاب الله: "مرحباً بك يا عبدي آدم، وإني أقول لك: إنك أول إنسان خلقت، وهذا الذي رأيته، إنما هو ابنك، الذي سيأتي إلى العالم، بعد الآن بسنين عديدة، وسيكون رسولي الذي لأجله خلقت كل الأشياء، الذي متى جاء، سيعطي نوراً للعالم، الذي كانت نفسه موضوعة في بهاء سماوي، ستين ألف سنة قبل أن أخلق شيئاً [1]". فضرع آدم إلى الله قائلاً: "يا رب، هبني هذه الكتابة على أظافر أصابع يدي". فمنح الله الإنسان الأول تلك الكلمات على إبهاميه: على ظفر إبهام اليد اليمنى: لا إله إلا الله، وعلى ظفر إبهام اليد اليسرى: محمد رسول الله. فقبل الإنسان الأول بحنوّ أبوي هذه الكلمات، ومسح عينيه وقال: "بورك ذلك اليوم الذي سيأتي فيه إلى العالم"[2].

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا

(1) وجاء في موضع آخر: قال يسوع: رسول الله الذي خلق الله روحه قبل كل شيء بستين ألف سنة (فصل 35: الآية 8).

(2) برنابا، فصل 39 آية 14- 28.

غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (1).

هذا هو **الإعجاز الخامس**، وهو: إن الله سبحانه وتعالى بأمره: "كن"، بمسح عملية القدرة الإلهية على الاستغراق، حتى انتهاء عملية الأخذ، سقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، ولكن هذه المرة جسدا وروحا، كامل التكوين الجسدي والروحي. إن المادة الأصلية للخلق، هي من آدم بجسده وروحه: ذكورا وإناثا وخناثى، وبعد انتهاء موقف الشهادة، أعادهم الله سبحانه بأمره بعد أن أماتهم إلى ظهور آبائهم، ثم إلى ظهر آدم، بعد أن قبض أرواحهم. ومما يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (2).

فقبل الحياة التي نعيشها، كان الموت في الصُّلب، وقبل الموت كانت حياة الخلق الأولى. وحفظ الله سبحانه أرواح الخلق، إلى أن يحين وقت مرحلة نفخ الروح في الجنين، فيأخذها الملك المكلف، فينفخها فيه في الوقت المعلوم.

ومما يؤيد هذا حديث البخاري في الإسراء والمعراج، عندما صعد الرسول ﷺ مع الملك جبريل عليه السلام، ورأى في السماء الدنيا روح آدم، وعلى يمينه ويساره ظله، فسأله عنها، فقال: التي عن يمينه هي أرواح أهل الجنة، والتي على يساره هي أرواح أهل النار، فإذا التفت آدم عليه السلام على يمينه، ضحك فرحا لأهل الجنة، وإذا التفت إلى شماله، بكى حزنا على أهل النار من ذريته. وهم جميعا أرواح لم تخلق بعد. أما أرواح الأموات بعد حياتهم الدنيا، فهي إما في روضة من رياض الجنة، أو في حفرة من حفر النار.

---

(1) سورة الأعراف، آية 172-173.

(2) سورة البقرة، آية 28.

***مرحلة الخلق الثانية:**

وهي خلق بني آدم، وهو الإعجاز السادس.

خلق الله بني آدم من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، من صلب الرجل وترائب المرأة وهو صدرها، وقيل فوق الثديين. وقيل صلب الرجل ونحره. ويمر الخلق في ستة أطوار: النطفة (نقطة دم جامدة) من الرجل، والبويضة من المرأة، ولا يُريان إلا بالمجهر، ويحملان عنصر الذرية التي بعدهما، فيتم التلقيح، وتبدأ المرحلة الحوصلية.

وفي الأسبوع الثاني تبدأ القدرة الإلهية في صقل النطفة وتهذيبها، إلى رقيقة مستوية، على هيئة صفيحة ملساء، تتكون من طبقتين هما: الأندوديرم، وهي الطبقة الداخلية، والإكتوديرم، وهي الطبقة الخارجية.

وفي الأسبوع الثالث، تتكون الطبقة الثالثة، وهي الوسطى وتسمى الميزوديرم.

وفي هذه المرحلة تظهر ثنيتا الرأس والدماغ، ثم تبدأ التحورات المختلفة في الجنين، ليأخذ شكله الآدمي المعروف.

ثم يأتي طور العلقة، التي تبدأ من الاسبوع الرابع حتى الاسبوع الثامن، أي من 28–56 يوما، وهنا يتم تكوين الأجهزة المتميزة على انفراد، ومن ثم يتشكل الطفل على صورته الأولى.

ثم المضغة (قطعة لحم صغيرة قدر ما يمضغ)، ثم العظام، ثم كسوة العظام لحما، ثم طور نفخ الروح، حيث ينفخ الملك الروح في هيكل عظمي، وعليه وبداخله كامل صورة ابن آدم، ويصبح خلقا آخر مستقلا عن أمه، سوى غذاءه الذي يأخذه عن طريق الحبل السري. وهذه الأطوار كلها، يكون مستقرها الرحم.

وجاء في الحديث القدسي عن رب-العزة: "يا بن آدم، جعلت لك قرارا في بطن أمك، وغشيت وجهك بغشاء كي لا تنفر منك، وجعلت وجهك إلى ظهر أمك، كي لا تؤذيك رائحة الطعام، وجعلت لك متكأ عن يمينك، ومتكأ عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فهو الكبد، وأما الذي عن شمالك فهو الطحال، وأنبعت لك عرقين دقيقين يخرجان لك لبنا سائغا للشاربين، حارا في الشتاء، وباردا في الصيف".

أما بالنسبة للمشيمة التي هي محل اتصال الحبل السري من ناحية الأم، أما الحبل

السري فإنه يبدأ تكوينه في اليوم الرابع عشر من إخصاب البويضة، وهو الذي يحمل اليها الأوكسجين والغذاء الضروري من دم الأم، وهذا الذي يحتويه الحبل السري حار في الشتاء بارد في الصيف.

هناك وسادة مائية من السائل الأمنيوتي يتربع على عرشها الطفل الجنين، وهي غاية في الترفيه، حتى يكون الطفل حرّ الحركة، من انثناء والتواء إلى تقلب وامتداد. ولهذا الحبل السري قدرة رهيبة غريبة في القيام بجميع وظائف الجسم التي تكفل له استمرار الحياة، من الغذاء والتنفس والدوران والإخراج وانتاج الهرمونات، وبه غشاء يسمى الغشاء الاختياري الإيجابي، الذي ينقل للجنين كل ما يحتاج إليه من عناصر ضرورية وهامة، ويمنع مرور العقاقير المؤذية للجنين، والمواد الضارة وبعض الميكروبات.

أما بالنسبة للتوائم، فقد تنتج من إخصاب حيوان منوي واحد، لبويضة واحدة، تنقسم إلى قسمين، ينمو كل قسم على حدة، مكونا جنينا مستقلا منفردا، رغم اتصالهما بمشيمة واحدة. وهذا النوع من التوائم يطلق عليه اسم التوائم المتماثلة.

والمعروف أن التوأمين المتماثلين يعتبر الواحد منهما مرآة للآخر، وتكون جيناتهما متشابهة تماما، كذلك كل الصفات الوراثية، مثل الجنس أو فصيلة الدم، او لون العين. أما الصفات الأخرى مثل الوزن والذكاء، فتعتمد على الوراثة والبيئة معا، ومن ثم نجد أن التوائم المتماثلة، تختلف عادة في الوزن، وليس في الطول.

أما التوائم غير المتماثلة، فتنتج عن بويضتين أخصبت كل واحدة منهما بحيوان منوي مستقل، وينجم عنهما زويجتان يتصل كل منهما بناحية من جدار الرحم، بواسطة مشيمة خاصة، ومن ثم نجد الجنينين مستقلين ومختلفين تماما في كل شيء. حيث تختلف الصفات الوراثية لمثل هذه التوائم، قد تكون من جنس واحد، أو من جنسين مختلفين.

ولنتأمل قول الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝ ﴾ (1).

قال ابن عباس: البنان هو طرف الإصبع، وقال ابن الأثير كذلك، أما ما يحتويه لفظ التسوية من معنى الإعجاز الخلقي الدقيق، تتأتى المعجزة في تحدي الكفار

(1) سورة القيامة، آية 4.

والمعاندين، في عدم تشابه بصمات الأنامل مع شخص آخر. واختص الله سبحانه وتعالى الأنامل بالذات، لأن بها صلاح الأحوال، ولا ظهور على العدو إلا بها.

إن في الأنامل ثنيات ونتوءات على جلد أطرافها، وتوجد بهذه الثنيات والنتوءات ثقوب مجهرية دقيقة، لا ترى بالعين المجردة. وهذه الثقوب المجهرية تنتهي إلى قنوات الغدد العرقية الموجودة تحت الجلد. وبواسطة حبر خاص تتم بصمات الأنامل، وتؤخذ العشر بصمات جميعا، على ورقة خاصة خالصة، وبالتأمل فيها نجد احتواءها على أقواس أو لولبيات أو حلزونيات أو لفائف وعصي، وقد تكون مركبة من هذه الأشكال. ولعل في اختلافها من شخص لآخر لدليل آخر أو معجزة أخرى من معجزات الله سبحانه وتعالى في خلقه.

إن ظاهرة البصمات لا تقبل التكرار من شخص لآخر، مهما اختلفت الظروف والتقت الأسباب. وليست بصمات الأنامل وحدها هي المعجزة، ولكن بصمات القدم كذلك، لها نفس الطابع الإعجازي الخلقي، وبهذه أو تلك يتمكن المسؤولون من حصار المحتالين والمجرمين والعابثين. وبتطابق البصمات المطبوعة على الجريمة، يسهل إدانتهم. حكمة بالغة الخطورة، فما تركوه من أنفسهم عفوا وبلا إرادة، يجشمهم نتيجة ما اقترفوه من عبث، وما جنوه من جناية.

أما العقل، فهو أعظم نعمة أنعم بها الله سبحانه على بني آدم، وكرمهم بها على الخلق جميعا. وإذا ضاع العقل، ضاع معه كل شيء.

اما الذكاء فيكمن في العقل، ومنه تكون القدرة على الاستقرار، والمقدرة على الاستنباط والتمييز. ويختلف الذكاء من شخص لآخر، وهو في وجوده لا يخضع لأي اعتبار أو أي ظرف.

عّرف العالم (لامبروزو) الذكاء بأنه مقدرة الشخص وكفاءته، في أن يعمل ما يعجز عنه الآخرون. ووصفت مدرسة (لامبروزو) الشخص الذكي، بانه يكون طويلا بائن الطول، أو قصيرا بائن القصر، غزير الشعر أو نزيره، يكتب بيده اليسرى أو بكلتا يديه.

مرهف الحس، متوقد الشعور، لديه فضول شديد وولع، لمعرفة ما لا يعرف[1].

أما العالم (شتيرن)، فيقول: "إن الذكاء هو القدرة على التكيف مع المواقف الجديدة". ويعرفه تيرمان: "بأنه القدرة على التفكير المجرد". ويصفه كلفن: بأنه القدرة المعرفية على التعلم". ويفيدنا (ثورونديك): إن الذكاء هو المتوسط الحسابي والمحصلة العامة لكل الطاقات والقدرات للفرد[2].

إن العقل سر من أسرار الله سبحانه، لم يفلح الطب في الوصول إلى غيبة سره، رغم أنه يختلف من شخص لآخر، في المذهب، ووسائل الإقناع، بل حتى في السلوك العام.

ينقسم المخ إلى مساحات ومناطق مختلفة، وهو ما نسميه الجهاز العصبي المركزي، لكل منها فوائدها في الإشعاع والإشراف على سلوك وأعمال الجسم، فهناك مساحة تتحكم في التفكير، وأخرى للذكاء، وثالثة للحركة، ورابعة للإحساس، وخامسة للإبصار.. إلخ.

ينقسم المخ إلى قسمين، أو نصفين متماثلين: النصف الأيمن يمثل الشق الأيسر من الجسم، والنصف الأيسر يمثل الشق الأيمن من الجسم. اما المساحات العليا السطحية من القشرة المخية، فتتحكم في حركة القدمين، والمساحات المتوسطة منها، تمثل وسط الجسم، أما المساحات السفلى من القشرة المخية، فتتحكم في الوجه والجبهة والعينين، من هذا نخلص إلى أن صورة الإنسان مقلوبة في عقله.

إن كل سنتميتر من المخ يحتوي على آلاف مؤلفة من المراكز والخلايا والقنوات العصبية المتوازية حينا، والمتقاطعة حينا آخر، ولكل منهما مجرى خاص، وسلوك معين.

أما بالنسبة للجهاز العصبي الذاتي، فيتألف من جهازين: السمبتاوي، والباراسمبتاوي، ولكل منهما عمله المضاد للآخر المعاكس له. والعمل بينهما يتم بالتناوب.

---

(1) الإعجاز الطبي في القرآن، د. السيد الجميلي، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط2، 1985م. صفحة87.

(2) المرجع السابق، صفحة 88.

يحتوي المخ على ألف مليون خلية عصبية، وتسري الشرارة الكهربية العصبية في العصب بسرعة تعادل ثمانين ميلا في الساعة الواحدة.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق الصدوق قال: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد. فوالله الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها". رواه البخاري ومسلم.

وخرج أحمد والنسائي والترمذي والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تخبرنا. فقال: للذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيه ولا ينقص منه أبدا. ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار واسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيه ولا ينقص منه أبدا. فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله، إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سدّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعَمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار، وإن عمل أي عمل. ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما، ثم قال: فرغ ربكم من العباد: فريق في الجنة وفريق في السعير".

قال سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ﴾ [1]. والظلمات الثلاث هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة التي

---

(1) سورة الزمر، آية 6.

هي كالغشاوة والوقاية على الولد، وإعطائه الفرصة الكاملة للتطور والنمو. وقيل: ظلمة الصلب، وظلمة البطن، وظلمة الرحم.

إن المادة الأساسية كانت في الخلق عظما ولحما كامل الصورة، فيه حياة مشتركة مع الأم من جهة، وحياة الحيوان المنوي والبويضة اللذين فيهما الروح العضوية، التي تصلح فقط للحياة، وغير إرادية من جهة أخرى. ثم جعل على العباد حفظة، وللكتاب خزّانا. فالحفظة ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم، فإذا فني الرزق، وانقطع الأثر، وانقضى الأجل، أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم، فتقول لهم الخزنة: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئا، فترجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا. قال ابن عباس: ألستم قوما عربا تسمعون الحفظة يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]. وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل؟

ويأتي بعد الحياة الموت خاتمة لحياة الإنسان، حيث يأخذ الملك آدم الروح، ويبقى آدم الجسد، لينتقل بعدها إلى الحياة البرزخية، وفيها حياة الروح، والتي هي مقدمة للسعادة أو الشقاوة الأخروية الأبدية... من التراب وإلى التراب يعود، فسبحان الذي قهر عباده بالموت.

▪ الحياة البرزخية

عن ابن عمر (رضي الله عنهما)، قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: "كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل". وكان ابن عمر يقول: "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء. وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك". رواه البخاري.

وكان النبي ﷺ يقول: "ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا، كمثل راكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها". وقال ﷺ: "وتزودوا، فإن خير الزاد التقوى".

---

(1) سورة الجاثية، آية 29.

قال تعالى مخاطبا رسوله الأمين: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]. وقال سبحانه وتعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

تلا الحسن البصري قوله تعالى: ﴿ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾[3]. وقال: يا ابن آدم، بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك، فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أو اقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة". قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾[4]. فتنبه يا ابن آدم، لقد جعلك الخالق عز وجل حسيب نفسك يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾[5].

أما المؤمن الحقيقي ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[6]. ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾[7]. في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وتنسل الملائكة روحه، كما تنسل الشعرة من العجين.

---

(1) سورة الزمر، آية 30.

(2) سورة الأنبياء، آية 35.

(3) سورة ق، آية 17.

(4) سورة الإسراء، آية 13-14.

(5) سورة ق، آية 19.

(6) سورة الواقعة، آية 88-89.

(7) سورة الفجر، آية 27-30.

وعن البراء ﷺ قال: إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة، من الجسد الطيب، كنت تعمرينه.. اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان".

هكذا تتوفى الملائكة المؤمنين طيبين طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر. قيل إذا أشرف العبد المؤمن على الموت، جاءه ملك فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام. ويبشره الله بالجنة بما كان يعمل. وتنسل روحه كما تنسل الشعرة من العجين.

أما الكافرون، فيقول تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [1]. ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [2]. أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعاصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب؟ وتجذب أرواحهم بكل عنف وقسوة ودون رحمة، كما يجذب عود ذو نتوء من بين كومة قطن.

وعن ابن عباس قال: " لا يتوفى أحد على معصية، إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره". لأنه اتبع ما أسخط الله وكره رضوانه.

وعندما يقومون للبعث، ويتأكدون ما وعدوا به يقولون: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [3]. ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [4]. **فيردّ عليهم:**

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ

(1) سورة الأنفال، آية 50.

(2) سورة محمد، آية 25-27.

(3) سورة الصافات، آية 20.

(4) سورة يس، آية 52.

تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [1].

إن مراحل الموت، هي عكس مراحل الحياة، فأول شيء يخرج من جسد الإنسان هو الروح، وهو آخر ما دخل إليه. ثم يتصلب الجسم ويصبح كالحمأ المسنون، ثم يتعفن ويصبح كالصلصال، ثم يتبخر الماء فيصير ترابا، ثم إليه يرجع جميع الخلق.

تحدى الله تعالى جميع البشر، ليؤكد لهم أن الموت حق، فقال: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [2]. أي إذا بلغت الروح الحلقوم، وهو رأس الغلصمة في ساعة الاحتضار، وما يكابده الكافر من سكرات الموت، فهلا ترجعون هذه الروح، التي بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول؟ وإلى مقرها في الجسد؟

وما أن يشيع جثمان الميت، يقول رسول الله ﷺ: "إذا وضعت الجنازة، واحتملها الناس على أعناقهم، فإن كانت صالحة، قالت: قدموني قدموني. وإن كانت غير صالحة، قالت: يا ويلها ! أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها لصعق". رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري.

وقال أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: "يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله. فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله". متفق عليه.

وما أن يدفن العبد في لحده، الذي سيكون حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، يبدأ حياته البرزخية، وسرعان ما يأتيه ملكان يسألانه عن: ربه، ونبيه، ودينه. فإن أجاب بلسان طلق: "الله ربي، ومحمد نبيي، والإسلام ديني، والكعبة قبلتي، والقرآن كتابي، وأنا عشت ومت على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله"، كان بإذن الله من الناجين، ويصبح قبره روضة من رياض الجنة. وإن أجاب: لا دريت ولا تلوت، يصبح قبره حفرة من حفر النار والعياذ بالله.

---

(1) سورة الصافات، آية 20-21.

(2) سورة الواقعة، آية 83-87.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[1].

عن نافع وابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أحدكم إذا مات، عرض عليه مقعدة بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إلى يوم القيامة" أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك.

لا شك أن هذه الآية هي دليل على عذاب القبر في البرزخ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة لها شيئا من المعروف، إلا قالت لها اليهودية: "وقاك الله عذاب القبر". قالت عائشة: فدخل الرسول ﷺ علي، فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال ﷺ: "لا، من زعم ذلك؟" قالت: هذه اليهودية، لا أصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر". قال ﷺ. " كذبت يهودية وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة". ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار، مشتملا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: القبر كقطع الليل المظلم، أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم، بكيتم كثيرا وضحكتم قليلا.. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق". حديث اسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه.

وعن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: "اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والهرم، والجبن، والبخل، وعذاب القبر".

إن الأرواح تعرض على النار غدوا وعشيا في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن تتصل في الأجساد في قبورها. وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا. وعن عبد الله بن مسعود قال: إن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر، تسرح بهم في الجنة حيث شاءوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصآفير، تسرح بهم في الجنة حيث شاءت، فتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود، تغدو على جهنم وتروح

---

(1) سورة غافر، آية 46.

عليها، فذلك عرضها.

عن المقدام بن معديكرب الكندي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه". أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أحدكم إذا مات، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال هذا مقعدك حيث يبعثك الله عز وجل يوم القيامة". أخرجه الشيخان في الصحيحين من حديث مالك.

*** مرحلة الخلق الثالثة:**

وهي مرحلة يوم القيامة، يوم يحيي الله العظام وهي رميم، وبأمره سبحانه وتعالى، يعود الجسد كما كان في الحياة الدنيا، لا ينقص منه شيء كما ولد، حيث يولد من رحم الأرض، وتنفخ فيه روحه هي هي، ليلقى الله سبحانه، وليتحدد مصيره الأخروي الأبدي

*** مرحلة الخلق الرابعة:**

وهي مرحلة دخول حياة الخلود التي لا موت فيها، فإن الله سبحانه وتعالى يغير طبيعة أجساد بني آدم وهيئتها، فأجساد أهل الجنة على هيئة جسد أبينا آدم عليه السلام للذكور، وعلى هيئة جسد أمنا حواء للإناث. لا يبولون ولا يتغوطون، إنما ترشح أجسامهم روائح عطرية جميلة.

أما أصحاب أهل النار، فإن خلقتهم تختلف اختلافا كبيرا عن خلقة أهل الجنة. جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ضرس الكافر – أو ناب الكافر – مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث". أخرجه مسلم، وعنه أيضا: "ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع". أخرجه مسلم.

أما من يخرجهم الله سبحانه وتعالى من النار، فإنهم يردون ماء الحياة في الجنة، فتنبت أجسامهم مرة أخرى، وتأخذ بأمر الله أجسام أهل الجنة.

- **الحمد لله رب العالمين**

الحمد لله: شكر الله على ما فعل لنا، ولن نستطيع أن نقدم الشكر لله، إلا إذا استخدمنا لفظ الجلالة الجامع لكل صفات الله سبحانه، لأننا نحمده على كمال صفاته، فيشمل الحمد كمال الصفات كلها.

هناك فرق بين باسم الله، الذي نستعين به على ما لا قدرة لنا عليه، لأن الله هو الذي سخر كل ما في هذا الكون وجعله يخدمنا، وبين الحمد لله، فإن لفظ الجلالة هنا جاء لنحمد الله على ما فعل لنا، فكأن باسم الله في البسملة طلب العون من الله بكل كمال صفاته، وأن الحمد لله في الفاتحة، تقديم اشكر لله بكل كمال صفاته.

الرحمن الرحيم في البسملة، لها معنى غير الرحمن الرحيم في الفاتحة. ففي البسملة تذكرنا رحمة الله وغفرانه، حتى لا نستحي ولا نهاب أن نستعين باسم الله إن كنا قد فعلنا معصية، التي لا تمنعنا من الاستعانة في كل عمل باسم الله، فندخل عليه من باب الرحمة المفتوح، لأنه رحمن رحيم، ويغفر لنا، ونستعين به فيجيبنا. ولولا رحمة الله التي سبقت عدله، ما بقي للناس نعمة، وما عاش أحد على وجه الأرض. لأن الإنسان خلق ضعيفا وخلق هلوعا، ولهذا قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل أحدكم الجنة بعمله، إلا أن يتغمده الله برحمته". قالوا: حتى أنت يا رسول الله. قال: حتى أنا ما لم يتغمدني الله برحمتة".

أما الرحمن الرحيم في الفاتحة، فإنها مقترنة برب العالمين، الذي أوجدنا من العدم، وأمدنا بنعم لا تعد ولا تحصى.. ونحن نحمده على هذه النعم، التي تفضل بها برحمته سبحانه في ربوبيته، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من الرحمة.

جاء في تفسير الحنفي: الحمد: الألف آلاء الله مع العارفين، واللام لطف الله على العارفين، والحاء حكم الله على ثواب العارفين، والميم معرفة الله تعالى في قلوب العارفين، والدال دفع البلاء عن العارفين.

يقال إن الله تعالى أورثنا-الحمد من ستة نفر:

الأول: آدم عليه السلام حين عطس، فقال الحمد لله. فوجد الرحمة من الله تعالى، حين قالت الملائكة: "يرحمك الله".

الثاني: نوح عليه السلام، فإنه قال﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾
{ المؤمنون: 28 }، فوجد السلامة حين قال تعالى:
﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا ﴾ {هود: 48}.

الثالث: إبراهيم عليه السلام، قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ { إبراهيم: 39}، فوجد الفداء. قال تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ { الصافات: 107}.

الرابع والخامس: داود ﷺ وسليمان ﷺ، اللذان قالا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ { النمل: 15}. فوجدا العلم والحكمة، قال تعالى: وكلا آتينا حكما وعلما.

السادس: محمد ﷺ. قال تعالى:﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ { الإسراء: 111}، فوجد محمد ﷺ مقاما محمودا. قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ { الإسراء: 79 }.

نقول والله أعلم: إن لأهل الجنة سبعة محاميد:

الأول: إذا تميزوا من المجرمين يقولون:﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ { المؤمنون: 28}.

الثاني: إذا فرغوا من الحساب يقولون: ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾.

الثالث: إذا جازوا الصراط يقولون:
﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ { فاطر: 34}.

الرابع: إذا رأوا الجنة يقولون: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ { الأعراف: 43}.

الخامس: إذا دخلوا الجنة يقولون: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ { الزمر: 74}.

السادس: إذا استقروا في الجنة يقولون: الحمد لله ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ { فاطر: 35}.

السابع: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ { يونس: 10}.

أما قوله: رب العالمين، فذكره الله عن الأنبياء:

- نوح وهود وصالح وشعيب ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، حين قالوا:

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ { الشعراء: 164}.

- هابيل بن آدم ﷺ، حين قال:

﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ { المائدة: 28}.

- سحرة فرعون، حين قالوا:

﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ {الأعراف: ١٢١ }.

- بلقيس ملكة سبأ، حين قالت:

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ { النمل: 44}.

أما قوله سبحانه: الرحمن، فقد ذكره:

- هارون ﷺ، حين قال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿٩٠﴾ ﴾ { طه: 90}.
- إبراهيم ﷺ حين قال:

﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴿٤٥﴾ ﴾ { مريم: 45}.

- محمد ﷺ حين قال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴿٢٩﴾ ﴾ { الملك: 29 }.

أما قوله تعالى: الرحيم، فقد ذكره إبراهيم ﷺ حين قال: ﴿ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ { إبراهيم: 36 }.

أما قوله تعالى: مالك يوم الدين، فقد ذكره محمد ﷺ حين قال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ

ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴿٢٦﴾ ﴾ {آل عمران: 26}.

أما قوله تعالى: إياك نعبد، فقد ذكره الله على لسان أولاد يعقوب ﷺ: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ { البقرة: 133}.

أما قوله تعالى: وإياك نستعين: فقد ذكره موسى ﷺ حين قال لقومه:
﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ﴿١٢٨﴾ ﴾ {الأعراف: 128}.

أما قوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم، فإنه ذكره من محمد ﷺ حين قال: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾**﴾ { الأنعام: 153 }.

وأما قوله تعالى: أنعمت عليهم، فإنه تعالى ذكره للنبيين عليهم الصلاة السلام، حين قال: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴿٦٩﴾ ﴾ { النساء: 69}.

وأما قوله تعالى: غير المغضوب عليهم، فهم اليهود. قال تعالى: ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ ﴿٩٠﴾ ﴾ { البقرة: 90}.

وأما قوله: ولا الضالين، فهم النصارى. قال تعالى: ﴿ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ { المائدة: 77 }.

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين

تضمنت هذه الآيات الثلاث ثلاث مسائل:

الآية الأولى: الحمد لله رب العالمين.

تضمنت المحبة، لأن الله منعم، والمنعم يحب على قدر إنعامه. أما هذه المحبة، فتنقسم إلى أربعة أنواع:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ
ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ
كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ
ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ {البقرة: 165 – 167}.

المحبة الثانية: حب الباطل وأهله، وبغض الحق وأهله. وهذه صفة المنافقين.

المحبة الثالثة: حب المال والولد، إذا لم تشغل عن طاعة الله، ولم تعن على محارم الله فهي مباحة.

المحبة الرابعة: حب أهل التوحيد وبغض أهل الشرك، وهي أوثق عرى الإيمان، وأعظم ما يعبد به العبد ربه.

الآية الثانية: الرحمن الرحيم، تضمنت الرجاء.

الآية الثالثة: مالك يوم الدين، تضمنت الخوف.

- **الحمد لله**

الله سبحانه وتعالى محمود لذاته، ومحمود لصفاته، ومحمود لنعمه، ومحمود لرحمته، ومحمود لمنهجه، ومحمود لقضائه، والله محمود قبل أن يخلق من يحمده. ومن رحمته تعالى، أن جعل الشكر في كلمتين اثنتين وهما: الحمد لله.

إن كلمتي الحمد لله قد ساوى الله بهما بين البشر جميعا، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد، لتفاوتت درجات الحمد بين الناس بتفاوت قدراتهم على التعبير، فهذا أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا يستطيع أنّ يجد الكلمات التي يحمد بها الله، وهذا عالم له قدرة على التعبير، يستطيع أن يأتي بصيغة الحمد بما أوتي من علم وبلاغة، وهكذا تفاوتت درجات

البشر في الحمد طبقا لقدراتهم في منازل الدنيا. ولكن الله شاء عدله أن يسوي بين عباده جميعا في صفة الحمد لله، فيعلمنا في أول كلماته في القرآن أن نقول الحمد لله ليعطي الفرصة المتساوية لكل عبيده، بحيث يستوي المتعلم وبين المتعلم في عطاء الحمد، ليظل العبد دائما حامدا، ويظل الله دائما محمودا.

إن آيات الله في كونه تستوجب الحمد، لأنها تعطينا الد ليل على وجود قوة عظمى هي التي أوجدت، وهي التي خلقت، وهذه الآيات ليست ساكنة، حتى لا ننساها، بل هي متحركة لتلفتنا إلى خالق هذا الكون العظيم. وعلى هذا، فالقضية محسومة لله، لأنه وضع في نفوسنا الإيمان الفطري، ثم أيده بإيمان عقلي بآياته في كونه.

إن الله يستحق منا الحمد لأنه لا يأخذ منا، ولكنه يعطينا، وعنده خزائن كل شيء، وهو دائم العطاء، وهو في عطائه يحب أن يطلب منه الإنسان وأن يدعوه وأن يستعين به، وهذا يوجب الحمد، لأن بابه مفتوح دائما، ويده ممدودة بالعطاء دائما، وعطاؤه لا ينفذ، وخزائنه لا تفرغ.

وعندما نقول الحمد لله، نعبر عن انفعالات متعددة، هي في مجموعها تحمل العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان. هذه الانفعالات تأتي من النفس وتستقر في القلب، ثم تفيض من الجوارح على من حولها. والحمد ليس ألفاظا تردد باللسان، ولكنها أولا تمر على العقل، ليعي معنى النعم، ثم بعد ذلك تستقر في القلب، فينفعل بها، وتنتقل إلى الجوارح، فنقوم ونصلي لله شاكرين، وتهتز أجسامنا، وينتقل هذا الانفعال إلى من حولنا.

إن الحمد لله ليس في الدنيا فقط، بل هو في الدنيا والآخرة، لأن الله محمود دائما في الدنيا، لعطاء ربوبيته لكل خلقه، وعطاء ألوهيته لمن آمن به، وفي الآخرة بعطائه للمؤمنين من عباده.

ولنقرأ الحديث القدسي، لنعرف شيئا عن رحمة الله بعباده، يقول الله سبحانه وتعالى: "ما من يوم تطلع شمسه، إلا وتنادي السماء، تقول: يا رب ائذن لي أن أنزل كسفا على ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك. وتقول البحار: يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك. وتقول الجبال: يا رب ائذن لي أن أطبق

على ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك. فيقول الله تبارك وتعالى: دعوهم دعوهم، لو خلقتموهم لرحمتموهم، إنهم عبادي، فإن تابوا إلي فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ". رواه أحمد في مسنده.

الحمد: من حمد يحمد، ومنه الحمد، فهو مصدر الثلاثي. والحمد: وصف المعبود بالكمال مع المحبة والتعظيم والكمال الذاتي والوصفي والفعلي. فهو كامل في ذاته وصفاته وأفعاله، ولا بد من قيد وهو المحبة والتعظيم. قال أهل العلم: لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة ولا تعظيم، لا يسمى حمدا، وإنما يسمى مدحا. وهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح، لكنه يريد أن ينال منه شيئا. ولهذا نجد بعض الشعراء يقفون أمام الأمراء، ثم يأتون لهم بأوصاف عظيمة، لا محبة فيهم، ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفا منهم. ولكن حمدنا لربنا عز وجل حمد محبة وتعظيم.

يقال: إن " ال " التي في الحمد، هي لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى. لأنه لا يصار إلى كل منهما في فهم الكلام إلا بدليل، وهو غير موجود في الآية. ومعنى كون الحمد لله تعالى بأي نوع من أنواعه، هو أن أي شيء يصح الحمد عليه، فهو مصدره وإليه مرجعه، فالحمد لله على كل حال ".

ومن حمد يحمد: محمد وأحمد وحامد ومحمود وحميد. ولهذا أثر عنه ﷺ قوله: " خير الأسماء ما حمّد وعبّد ".

أما محمد، فهو اسم مفعول من حمّد فهو محمد، إذا كان كثير الخصال التي يحمد عليها. ولذلك كان أبلغ من محمود، فإن محمودا من الثلاثي المجرد، ومحمد من المضاعف للبالغة، فهو الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره من البشر.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وأحمد: قال جبير بن مطعم: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، فقال: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، والعاقب الذي ليس بعده نبي ".

أما أحمد، فهو على زنة أفعل التفضيل، وهو مشتق من الحمد. وقد اختلف الناس فيه: هل هو بمعنى فاعل أو مفعول؟ فقالت طائفة: هو بمعنى فاعل، أي حمده لله أكثر من حمد غيره له، فمعناه: أحمد الحامدين لربه. ورجحوا هذا القول بأقياس أفعل التفضيل أن

يصاغ من فعل الفاعل، لا من الفعل الواقع على المفعول. قالوا: ولهذا لا يقال: ما أضرب زيدا، ولا زيد أضرب من عمرو، باعتبار الضرب الواقع عليه. ولا يقال: "ما أشربه للماء، وآكله للخبز ونحوه". قالوا: لأن أفعل التفضيل وفعل التعجب، إنما يصاغان من الفعل اللازم، ولهذا يقدر نقله من فَعَل وفَعِل، إلى فَعُل، ولهذا يعدّى بالهمزة إلى المفعول، فهمزته للتعدية.

نازع هذه الطائفة آخرون فقالوا: يجوز صوغهما من فعل الفاعل، ومن الواقع على المفعول، لأن كثرة السماع به من أبين الأدلة على جوازه. تقول العرب: ما أشغله بالشيء، وهو من شُغِل، وهو مشغول. وكذلك يقولون: ما أولعه بكذا، وهو من أُولع بالشيء، فهو مولع به.

ولهذا يمكن أن نقول: تقدير أحمد على قول الأولين: أحمد الناس لربه، وعلى قول الآخرين: أحق الناس وأولاهم أن يحمد، فيكون كمحمد في المعنى. إلا أن الفرق بينهما أن محمدا كثير الخصال التي يحمد عليها، وأحمد هو الذي يُحمد أفضل مما يُحمد غيره. فمحمد في الكثرة والكمية، وأحمد في الصفة والكيفية. فيستحق من الحمد أكثر مما يستحق غيره، وأفضل مما يستحق غيره، فيحمد أكثر حمد، وأفضل حمد حمده البشر. فالإسمان واقعان على المفعول، وهذا أبلغ في مدحه وأكمل معنى، ولو أريد معنى الفاعل لسمي الحماد، أي كثير الحمد، فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمدا لربه، فلو كان اسمه أحمد باعتبار حمده لربه، لكان الأولى به الحماد، كما سميت بذلك أمته.

إن هذين الاسمين قد اشتقا من أخلاقه ﷺ، وخصائصه المحمودة التي من أجلها استحق أن يسمى محمدا، وأحمد، وهو الذي يحمده أهل السماء، وأهل الأرض، وأهل الدنيا، وأهل الآخرة، لكثرة خصائصه المحمودة، التي تفوق عدد العادين، وإحصاء الحاصين.

أما بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ {الفاتحة: ٢} ففيه التوحيد، لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما، فهو له تعالى. ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة في الكون تستوجب الحمد. ومنها نعمة الخلق،

والإيجاد، والتربية، والتنمية، ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى، فصرح به بقوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ ﴾ {الفاتحة: ٢}

إن الحمد هو: الثناء باللسان على الجميل، لا على سبيل المدح، وإن لم يكن الممدوح مختارا، كمدح الرجل على جماله وقوته وشجاعته.

ويكون الحمد باللسان على الجميل الاختياري من نعمة وغيرها.. تقول حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على حسبه وشجاعته. وأما الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

قال صاحب الكشاف: الحمد والمدح أخوان، والحمد أخص من الشكر موردا، وأعم منه متعلقا. فمورد الحمد باللسان فقط، ومتعلقه النعمة وغيرها. ومورد الشكر اللسان والجنان والأركان، ومتعلقه النعمة.

وأضاف صاحب الكشاف: وإن قيل: إن مورد الحمد كمورد الشكر، لأن كل ثناء باللسان لا يكون من صميم القلب مع موافقة الجوارح. وأجيب بأن اعتبار موافقة القلب والجوارح في الحمد لا يستلزم أن يكون موردا له بل شرطا. وفرق بين الشرط والشكر وتعريفه لاستغراق أفراد الحمد، وإنها مختصة بالرب سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به. لأن المنعم هو الله عز وجل، أو على أن حمده هو الفرد الكامل، فيكون الحصر ادعائيا. ورجح صاحب الكشاف أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق.

والحمد نقيضه الذم، والشكر نقيضه الكفران. أما الحمد لله، فهو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكر الله. فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضا من فيوضات النعمة الإلهية، التي تستجيش الحمد والثناء.. وفي كل لحة وفي كل خطوة توالى آلاء الله ختاما، وهو: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠ ﴾ {القصص: ٧٠}

والحمد: هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية. قال أبو جعفر بن جرير: معناه: الشكر لله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه. ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على

عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد.

أخرج عبد الرزاق في المصنف والحكيم والترمذي في نوادر الأصول، والخطابي في الغريب، والبيهقي في الأدب، والديلمي في مسند الفردوس والثعلبي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الحمد رأس الشكر، فما شكر الله عبد لا يحمده". وإنما جعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها، أشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد وادب الجوارح، لخفاء عمل القلب، وما في عمل الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي، ويجلي كل مشتبه.

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن النواس بن سِمْعان قال: سرقت ناقة رسول الله ﷺ فقال: "لئن ردها الله لأشكرن ربي". فوقعت في حي من أحياء العرب فيهم امرأة مسلمة، فوقع في خلدها أن تهرب عليها، فرأت من القوم غفلة، فقعدت عليها ثم حركتها، فصبحت بها المدينة. فلما رآها المسلمون فرحوا بها، ومشوا بمجيئها، حتى أتوا رسول الله ﷺ، فلما رآها قال: "الحمد لله". فانتظروا هل يحدث رسول الله ﷺ صوما أو صلاة". فظنوا أنه نسي، فقالوا: يا رسول الله، قد كنت قلت: لئن ردها الله لأشكرن ربي". قال: "ألم أقل الحمد لله؟"

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع[1]. فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة، وسموه بيت الحمد". رواه الترمذي وقال حديث حسن.

إن جملة الحمد لله هي جملة خبرية، ولكنها استعملت لإنشاء الحمد. فأما معنى خبرية، فهو إثبات أن الثناء الجميل في أي أنواعه تحقق، فهو ثابت له تعالى وراجع إليه. لأنه متصف بكل ما يحمد عليه الحامدون. فصفاته أجل الصفات، وإحسانه عم جميع الكائنات. ولأن جميع ما يصح أن يتوجه إليه الحمد مما سواه، فهو منه جل ثناؤه، إذ هو مصدر الكون كله فيكون له ذلك الحمد أولا وبالذات. والخلاصة إن أي حمد يتوجه إلى

---

(1) قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

محمود، فهو لله تعالى، سواء لاحظه الحامد أم لم يلاحظه.

وأما معنى الإنشائية، فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء إلى الله تعالى في الحال.

وقال ابن جرير رحمه الله: "الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه. فكأنه قال: قولوا الحمد لله".

وأخرج ابن جرير والحاكم والديلمي بسند ضعيف عن الحكم بن عمير –وكانت له صحبة – قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قلت الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله فزادك".

وعن زيد بن أرقم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من قال دبر كل صلاة: سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين ثلاث مرات، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر". وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: "الحمد لله كلمة الشكر، إذا قال العبد: الحمد لله. قال الله تعالى: شكرني عبدي. وفي رواية عن ابن عباس قال: الحمد هو الشكر والاستحذاء لله، والإقرار بنعمه وهدايته وابتدائه، وغير ذلك".

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك قال ﷺ: "الحمد لله رداء الرحمن".

وأخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة وابن حبان والبيهقي في شعب الإيمان عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله".

وأخرج الترمذي في نوادر الأصول عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "لو أن الدنيا كلها بحذافيرها في يد رجل من أمتي، ثم قال الحمد لله، لكان الحمد أفضل من ذلك".

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: "الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله تملآن –أو تملأ – ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها".

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والترمذي وحسنه وابن مردويه عن رجل من بني

سليم أن رسول الله ﷺ قال: " سبحان الله نصف الميزان، والحمد لله تملأ الميزان، والله أكبر يملأ ما بين السماء والأرض، والطهور نصف الميزان، والصوم نصف الصبر ".

وأخرج ابن شاهين في السنة والديلمي من طريق أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: " التوحيد ثمن الجنة، والحمد لله ثمن كل نعمة ".

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: " التسبيح نصف الميزان، والحمد لله تملؤه، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب، حتى تخلص إليه ".

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن ابن عباس قال: إذا عطس أحدكم فقال: الحمد لله، قال الملك: " رب العالمين ". قال رب العالمين: " يرحمك الله ".

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم، وحمد الله تعالى، كان حقا على كل مسلم سمعه أن يقول له: " يرحمك الله ". أما التثاؤب فإنه من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، فإن أحكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان ". رواه البخاري.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: " إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فيه، فإن الشيطان يدخل فيه ". رواه مسلم.

يفهم من هذا الحديث منع التثاؤب في جميع الأحوال، ووضع اليد على الفم عند التثاؤب، ويوحي إلى الإنسان بالرغبة في الامتناع من هذا التثاؤب المكروه اجتماعيا، لأنه ضرب من الكسل النفسي، فلا عجبَ إذا نسب للشيطان، فما من شيء يكرهه الإنسان، إلا يحبه الشيطان.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: " إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: " يرحمك الله ". فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: " يهديكم الله ويصلح بالكم ". رواه البخاري.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمّتوه (قولوا له: يرحمك الله)، فإن لم يحمد الله فلا تشمّتوه ". رواه مسلم.

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس، وضع يده أو ثوبه على فيه،

وخفض – أو غض – بها صوته". رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

ومن فضل الله سبحانه وفيضه على عبده المؤمن، أنه إذا قال: "الحمد لله". كتبت له حسنة ترجح كل الموازين. جاء في سنن ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ حدثهم: أن عبدا من عباد الله قال: "يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك". فعضلت الملكين، فلم يدريا كيف يكتبانها. فصعدا إلى الله فقالا: "يا ربنا، إن عبدا قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها؟ قال – هو أعلم بما قال – وماذا قال عبدي؟" قالا: "يا رب، إنه قال: "لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك". فقال الله لهما: "اكتباها كما قال عبدي، حتى يلقاني فأجزيه بها".

وأخرج احمد والنسائي والحاكم وصححه والبخاري عن الأسود ابن سريع قال: قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي تبارك وتعالى؟" فقال ﷺ: "أما إن ربك يحمد الحمد".

- **لله**

الله: هو الاسم الجامع لصفات الكمال، وهو المعبود في كونه، يطاع فيما أمر به، ويبتعد عن كل ما نهى عنه.

الله: تضخم لامه إذا كان قبلها ضمة أو فتحة، وترقّق إذا كان قبلها كسرة، ومنهم من يرققها بكل حال، ومنهم من يفخّم بكل حال، والجمهور على الأول.

اللام تفيد الاختصاص، والاستحقاق. والله: اسم رب العالمين، لا يسمى به غيره، وهو أصل الأسماء، ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

قال ابن القيم: "الإله: هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالا، وإنابة وإكراما، وتعظيما وذلا وخضوعا، وخوفا ورجاء وتوكلا عليه وسؤالا منه، ودعاء له، ورغبة إليه في حصول نفع أو دفع ضر، ولا يصلح ذلك كله إلا لله سبحانه".

وقال ابن رجب: "الإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالا، ومحبة، وخوفا ورجاء، وتوكلا عليه، وسؤالا منه، ودعاء له. ولا يصلح ذلك إلا لله عز وجل".

والإله: هو المعبود المطاع، والمألوه الذي يستحق أن يعبد، وهو المحبوب المعبود

ولفظ الجلالة: الله، علم لذات الواجب الموجود، لم يطلق على غيره، وأصله إله حذفت الهمزة، وعوضت عنها أداة التعريف فلزمت. وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحق أو بباطل، ثم غلب على المعبود بحق، كالنجم والصعق، فهو قبل الحذف من الأعلام الغالبة. وبعده من الأعلام المختصة.

وهو سبحانه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وهو علم على الرب سبحانه وتعالى، لم يسم به غيره. قال ابن عباس: " اسم الله الأعظم هو الله، لأنه يوصف بجميع الصفات، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ { الحشر: 23}. وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ { الحشر: 24}. فأجرى الأسماء الباقية كلها صفاتا له سبحانه.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾ { الحشر: 22 }.

- **رب**

الله سبحانه وتعالى هو رب للمؤمن وللكافر، فهو الذي خلقهم واستدعاهم جميعا إلى الوجود، لأنه يعطيهم من النعم برحمته، وليس بما يستحقون. فالشمس تشرق على المؤمن والكافر، ولا تحتجب عن أحد. والمطر ينزل على من يعبدون الله، وعلى من يعبدون أوثانا من دون الله، والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله، ومن لم يقلها.

إذا تأملت أحوال هذا الخلق، رأيت كل اختيار وتخصيص فيه دالا على ربوبيته تعالى ووحدانيته، وكمال حكمته وعلمه وقدرته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره. فهذا التخصيص المشهود أثره في هذا العالم من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله، وصدق رسله.

رب: وهو اسم الله الأعظم، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، ولا يقال في غيره

إلا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهليه للملك. والرب: المصلح المدبر، والجابر، والقائم. والرب: المعبود.

تقول: ربّه يربّه فهو ربّ. كما تقول: نمّ عليه ينمّ فهو نمّ. ويجوز أن يكون وصفا بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل، ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهوفي العبد مع التقيد.

قال في الكشاف: الرب: المالك المتصرف للإصلاح والتربية والإنماء، وهو صريح بأن كل نعمة وجدها الإنسان في نفسه وفي الآفاق، فهي منه عز وجل. فليس في الكون متصرف بالإيجاد، ولا بالإشقاء، ولا بالإسعاد سواه.. وقال القرطبي: الرب: السيد.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ { يوسف: 42}. وقوله تعالى: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ { يوسف: 50}. وقوله تعالى على لسان يوسف في مولاه عزيز مصر: رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ { يوسف: 23 }. وفي الحديث الشريف: "أن تلد الأمة ربتها". ومنه قول صفوان لأبي سفيان: "لأن يربيني رجل من قريش، أحب إلي من أن يربيني رجل من هوازن".

وأما الرب: فلا يقال إلا لله سبحانه وتعالى وحده، ولا يستعمل لغير الله سبحانه إلا بالإضافة، تقول: رب الدار رب كذا، ورب الناقة. وقول عبد المطلب لأبرهة الأشرم في يوم الفيل: "أما الإبل فأنا ربها، وأما البيت فإن له ربا يحميه".

إن ربوبية الله للناس تظهر بتربيته إياهم، وهذه التربية قسمان: تربية خلقية بما يكون به نموهم وكمال أبدانهم، وقواهم النفسية والعقلية، وتربية شرعية تعليمية، وهي ما يوحيه إلى أفراد منهم ليكمل به فطرتهم بالعلم والعمل، إذا اهتدوا به، فليس لغير رب الناس أن يشرع للناس عبادة، ولا أن يحرم عليهم ويحل لهم من عند نفسه، بغير إذن منه تعالى.

إن الربوبية المطلقة الشاملة، هي إحدى كليات العقيدة الإسلامية، وهي مفرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل، والغبش الذي ينشأ عن عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها القاطعة. فإطلاق الربوبية في هذه السورة، وشمولها للعالمين جميعا، هو

مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة، لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد، تقر له بالسيادة المطلقة، ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية الله الدائمة، وربوبيته القائمة، وإلى أن هذه الرعاية لا تنقطع أبدا، ولا تفتر، ولا تغيب.

وإذا قيل لك: " من ربك؟: فقل: "ربي الله، الذي رباني بنعمته، وخلقني من عدم إلى وجود، خلقني لأعبده ولا أشرك به شيئا. والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ { الزخرف: 64 }.

وإذا قيل لك: "بأي شيء عرفت ربك؟ " فقل: "بآياته ومخلوقاته، فأما الدليل على آياته: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ { فصلت: 37 }. والدليل على مخلوقاته قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ { الأعراف: 54 }.

وعنه ﷺ أنه قال: "من قال: رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وجبت له الجنة".

▪ **العالمين**

العالمين: جمع عالم بفتح اللام، جمع مذكر سالم تغليبا، وأريد به جميع الكائنات الممكنة. وهو كل موجود سوى الله، وأهل كل زمان عالم. وهو اسم شامل لكل مخلوق وموجود، وهو مأخوذ من العلم والعلامة، لأنه يدل على موجده، ودليله قوله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ { الشعراء: 23 }.

هناك بعض العلماء يقولون: إن المراد بالعالمين هنا أهل العلم والإدراك من الملائكة والإنس والجن. ويؤثر عن الإمام جعفر الصادق قوله: "إن المراد به الناس فقط،

كما يدل على هذا وذلك استعمال القرآن في مثل:

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ {الشعراء: 165}. **أي الناس. وقوله تبارك وتعالى:** ﴿ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ {الفرقان: 1}. **تشمل كلمة العالمين جميع الخلائق.**

والعالم: جمع لا مفرد له من لفظه، وهو كل موجود سوى الله عز وجل، وكل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة، وهو اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين. وقيل: كل ما علم به الخالق من الأجسام والأعراض.

فإن قيل: لم جمع؟ فالجواب: ليشمل كل جنس مما سمي به. فإن قيل: هو اسم غير صفة، وإنما تجمع بالواو والنون صفات العقلاء أو ما في حكمها. فالجواب: ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى العلم. وقال أحمد: تعليله الجمع: بإفادة استغراقه لكل جنس تحته فيه نظر. فإن عالما كما قرره اسم جنس عرف باللام الجنسية، وصار العالم وهو مفرد أدل على الاستغراق منه جمعا.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: "رب العالمين، قال: إله الخلق كلهم، والسموات كلها ومن فيها، والأرضون كلها وما عليها ، وما بينها مما يعلم ومما لا يعلم".

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وصححه من طرق، عن ابن عباس في قوله: رب العالمين: الإنس والجن. وقال الفراء وأبو عبيد: العالم عبارة عمن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس، والجن، والملائكة، والشياطين. ولا يقال للبهائم عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل.

ومن هنا يمكن أن نقول: إن تربيته تعالى للعالمين، ليست بحاجة به إليهم، كجلب منفعة أو دفع ضر، وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه. والله سبحانه لم يخلق الكون ثم يتركه هملا، إنما هو يتصرف فيه للإصلاح ويرعاه ويربيه".

أخرج الترمذي في نوادر الأصول وأبو يعلى في مسنده، وابن عدي في الكامل وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف، عن جابر بن عبد الله قال: " قل الجراد في سنة من سني عمر التي ولي فيها، فسأل عنه فلم يخبر بشيء، فاغتم لذلك،

فأرسل راكبا يضرب إلى كداء، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق، يسأل: هل رؤي من الجراد شيء أو لا؟ " فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد، فألقاها بين يديه، فلما رآها كبر، ثم قال: " سمعت رسول الله ﷺ يقول: خلق الله ألف أمة، ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر، فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا أهلكت، تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه".

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن تتبع الجهري: العالمون ألف أمة، فستمائة في البحر وأربعمائة في البر".

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: رب العالمين: قال: " الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم من الملائكة. وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم، وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته". وأخرج الثعلبي من طريق شهر بن حوشب عن أبي كعب قال: العالمون الملائكة، وهم ثمانية عشرة آلاف ملك، منه أربعمائة أو خمسمائة بالمشرق، ومثلها بالمغرب، ومثلها بالكتف الثالث من الدنيا، ومثلها بالكتف الرابع من الدنيا، مع كل ملك من الأعوان ما لا يعلم عددهم إلا الله.

وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن وهب قال: " إن لله عز وجل ثمانية عشر ألف عالم، والدنيا منها عالم واحد".

اختار الله أمة محمد ﷺ على سائر الأمم، كما في مسند أحمد وغيره، من حديث بهز ابن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: " أنتم موفون سبعين أمة، أنتم أخيرها وأكرمها على الله (1).

ظهر هذا الاختيار في أعمال أمة محمد ﷺ وأخلاقهم وتوحيدهم، ومنازلهم في الجنة ومقاماتهم في الموقف. ذكر الترمذي من حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي، قال: قال رسول الله ﷺ: " أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من

---

(1) مسند أحمد 5/ 5، وسنن الترمذي 3004، وسنن ابن ماجه 4288.

سائر الأمم[1].

ومن فوائد هذه الآية: الحمد لله رب العالمين:

- إثبات الحمد الكامل لله عز وجل، وذلك ما "أل" في قوله تعالى: الحمد، التي تدل على الاستغراق.
- إن الله تعالى مستحق مختص بالحمد الكامل من جميع الوجوه، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أصابه ما يسره قال: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات". وإذا أصابه خلاف ذلك قال: "الحمد لله على كل حال".
- تقديم وصف الله بالألوهية على وصفه بالربوبية، وهذا إما لأن الله هو الاسم العلم الخاص به، والذي تتبعه جميع الأسماء، وإما لأن جميع الذين جاءتهم الرسل ينكرون الألوهية فقط.
- عموم ربوبية الله تعالى لجميع العالم، لقوله سبحانه: العالمين.

- **الرحمن الرحيم**

الرحمن والرحيم من صيغ المبالغة، يقال: راحم ورحمن ورحيم ورحمة. فإن قيل راحم: ففيه صفة الرحمة. وإن قيل رحمن: ففيه مبالغة في الصفة، لأن صيغة المبالغة تشمل جميع خلق الله في الدنيا. وإن قيل رحيم، تكون مبالغة في الصفة.

إن صفات الله هي صفات الكمال المطلق، وإن الذي يتغير هو متعلق هذه الصفات. والله سبحانه وتعالى رحمن الدنيا رحيم الأخرة

رحمن في الدنيا: لكثرة عدد الذين يشملهم الله برحمته، فتشمل المؤمن والعاصي والكافر، فيعطيهم الله مقومات حياتهم، ولا يؤاخذهم بذنوبهم، يرزق من آمن به، ومن لم يؤمن به، ويعفو عن كثير.

رحيم في الأخرة: وتشمل المؤمنين فقط، فالكفار المشركون مطرودون من رحمة الله، إذن فالذين تشملهم رحمة الله في الآخرة، أقل عددا من الذين تشملهم رحمة الله في الدنيا، فمن أين تأتي صفة المبالغة؟ فالمبالغة هنا بكثرة النعم وخلودها، فكأن المبالغة في الآخرة،

---

(1) سنن الترمذي 2549، ومسند أحمد 5/ 347، وابن ماجة 4289، والحاكم 1/ 82.

أكثر كثيرا منها في الدنيا. أي بعموم العطاء وخصوصيته للمؤمن.

الرحمن: صفة للفظ الجلالة، وهو ذو الرحمة الواسعة، ولهذا جاء على وزن فعلان، الذي يدل على السعة. والرحيم: صفة أخرى، وهو فعله، هو ذو الرحمة الواصلة، لمن يشاء من عباده، ولهذا جاء على وزن فعيل، الدال على وقوع الفعل.

وصف سبحانه وتعالى نفسه بالرحمن الرحيم، وهو وصف يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها، وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفين. وهما اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر الذي تقتضيه هذه الصفة. وهما مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم. وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا. ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا. وقد تقرر أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى

وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق، ما خرّجه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "قال الله تعالى: " أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت له اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته". واتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة، وأن قطيعتها محرمة.

وقال رسول الله ﷺ: من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه".

أما الرحمة التي أثبتها الله لنفسه فهي رحمة حقيقية، دلّ عليها السمع والعقل. أما السمع: فهو ما جاء في الكتاب والسنة، من إثبات الرحمة لله، وهي كثير جدا. أما العقل: فهو ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة، فهو من آثار رحمة الله التي يعرفها حتى العوام، فلو سألت عاميًا صباح ليلة المطر: بم مطرنا؟ لقال: بفضل الله ورحمته.

هذا وقد أنكر قوم وصف الله تعالى بالرحمة الحقيقية، وحرّفوها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام، زعما منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك. قالوا: لأن الرحمة انعطاف ولين وخضوع ورقّة، وهذا لا يليق بالله عز وجل، والرد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: منع أن يكون في الرحمة خضوع، وانكسار، ورقّة، لأننا نجد من

الملوك الأقوياء رحمة دون أن يكون منهم خضوع ورقّة وانكسار.

الوجه الثاني: أنه لو كان هذا من لوازم الرحمة ومقتضياتها، فإنما هي رحمة المخلوق، أما رحمة الخالق سبحانه وتعالى، فهي تليق بعظمته، وجلاله وسلطانه، ولا تقتضي نقصا بوجه من الوجوه.

ثم نقول: إن العقل يدل على ثبوت الرحمة الحقيقية لله عز وجل، فإن ما نشاهده في المخلوقات من الرحمة بينها، يدل على رحمة الله عز وجل، ولأن الرحمة كمال، والله أحق بالكمال.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لما خلق الله الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي". وفي رواية: "غلبت غضبي". وفي رواية: "سبقت غضبي". متفق عليه.

وعنه ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عندة تسعاً وتسعين، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه". وفي رواية: إن لله تعالى مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة، بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها. وأخر الله تعالى تسعا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة". متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد". رواه مسلم.

قال الأنباري والزجّاج: والرحمن من الصفات الغالبة، لم يستعمل في غير الله عز وجل. وأما قول بني حنيفة في مسيلمة الكذاب رحمن اليمامة، فقال في الكشاف: إنه باب من تعنّتهم في كفرهم.

وقال أبو علي الفارسي: الرحمن: اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله تعالى وحده. والرحيم: إنما هو من جهة المؤمنين. قال تعالى:

﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [1].

قال القرطبي: إنما وصف الله تعالى نفسه بالرحمن الرحيم، بعد قوله الحمد لله رب العالمين، ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب، كما قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [2]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3]. فالرب فيه ترهيب، والرحمن الرحيم ترغيب. وفي صحيح مسلم والبخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد".

وقال القرطبي: ثم قيل: الرحمن الرحيم، هما بمعنى واحد، كندمان ونديم، قاله أبو عبيد. وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل، نحو قولك: رجل غضبان، للرجل الممتلئ غضبا، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو علي الفارسي: الرحمن: اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله سبحانه وتعالى، والرحيم: إنما هو من جهة المؤمنين. قال تعالى:

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [4].

إن صيغة فعلان تدل على وصف فعلي فيه معنى المبالغة، وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة، كعلاّم وعطشان وغرثان وغضبان، وأما صيغة فعيل، فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة، كالأخلاق والسجايا في الناس، كعليم وحكيم، وحليم وجميل. والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل، التي تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين. فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار

---

(1) سورة الأحزاب، آية 43.

(2) سورة الحجر، آية 49-50.

(3) سورة الأعراف ' آية 167.

(4) سورة الأحزاب، آية 43.

الرحمة بالفعل. وهي إفاضة النعم والإحسان. ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة. وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر، ولا يكون الثاني مؤكدا للأول. فاذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن، وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا، لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما. لأن الفعل قد ينقطع، إذا لم يكن عن صفة لازمة وإن كان كثيرا. وعندما يسمع لفظ الرحيم، يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى، ويرضيه سبحانه. ويعلم أن لله صفة ثابتة هي الرحمة التي عنها يكون أثرها. وإن كانت هذه الصفة على غير مثال صفات المخلوقين.. ويكون ذكره بعد الرحمن كذكر الدليل بعد الدلول، ليقوم برهانا عليه.

سبق العلامة ابن القيم إلى التفرقة بين الصيغتين، ولكنه خالف في دلالة الاسمين الكريمين قال: وأما الجمع بين الرحمن والرحيم، ففيه معنى بديع، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم. وكأن الأول الوصف والثاني الفعل.. فالأول دال على أن الرحمة صفته، أي صفة ذات له سبحانه، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، أي صفة فعل له سبحانه. فإذا أردت فهم هذا فتامل قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (1). وقوله تعالى:

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2). ولم يجئ قط رحمن بهم. فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، والرحيم هو الراحم برحمته.

إن اسم الرحمن خاص لله تعالى، لم يسم به غيره، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (3). وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (4). ولما اجترأ مسيلمة

---

(1) سورة الأحزاب، آية 43.

(2) سورة النور، آية 20.

(3) سورة الإسراء، آية 110.

(4) سورة الزخرف، آية 45.

الكذاب، وتسمى برحمن اليمامة، كساه الله جلباب الكذب وشهر به، فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

الرحمن :اسم ممنوع، والله سبحانه وحده المختص بصفة الرحمن.. والرحيم اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه.. فمن الجائز أن يوصف عبد من عباده بأنه رحيم، ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمن.. ومن باب أولى أن تجتمع لله تعالى هاتان الصفتان.

وعند الجمهور: إن معنى الرحمن: المنعم بجلائل النعم، ومعنى الرحيم: المنعم بدقائقها.. وبعضهم يقول: إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم، والرحيم هو المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين.. وكل هذا تحكم في اللغة مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقا، فصفة الرحمن تدل على كثرة الإحسان الذي يعطيه سواء كان جليلا أو دقيقا. وأما كون أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأكثر حروفا أعظم من أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأقل حروفا، فهو غير معنى ولا مراد.

وقد قارب من قال: إن معنى الرحمن المحسن بالإحسان العام. ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين. ولعل الذي حمل من قال إن الثاني مؤكد للأول على قوله هذا، هو عدم الاقتناع بما قالوه مَن التفرقة، مع عدم التفطن لما هو أحسن منه.

جاء اسم الرحمن في القرآن علما كلفظ الجلالة الله، تجري عليه صفات الله وأسماؤه كما قال: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾[1]. واستعمل في التنزيل في المعاني التي لا تناسب معنى الرحمة بالعباد، كقوله تعالى على لسان إبراهيم لأبيه ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ

---

(1) سورة الإسراء، آية 110.

ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله:

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴿١١٠﴾ ﴾[2].

ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلي: " اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم ". قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، ولا الرحيم ". وقال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾[3].

والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد، وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن. قال ابن جرير: وقد أنشد بعض شعراء الجاهلية:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقدْ ويطلق

أما الرحيم، فإنه تعالى وصف به غيره، حيث قال: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴿٢٩﴾ ﴾[5].

كما وصف غيره بذلك من أسمائه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ

---

(1) سورة مريم، آية 45.

(2) سورة الإسراء، آية 110.

(3) سورة الفرقان، آية 60.

(4) سورة التوبة، آية 128.

(5) سورة الفتح، آية 29.

أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾[1].

ويتكرر لفظ الرحمن الرحيم في صلب السورة في آية مستقلة، لتؤكد السمة البارزة في تلك الربوبية الشاملة، ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه، وبين الخالق ومخلوقاته.. إنها صلة الرحمة والعناية، التي تستجيش الحمد والثناء.

فإذا قال العبد: الرحمن الرحيم. قال الله: دعاني عبدي باسمين رقيقين، أحدهما أرق من الآخر.. فالرحيم أرق من الرحمن وكلاهما رقيقان.. وهما مشتقان من الرحمة وهي معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه، ويحمله على الإحسان إلى غيره. وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر، لأن في البشر ألم في النفس شفاؤه الإحسان، والله تعالى منزّه عن الآلام والانفعالات. فالمعنى المقصود بالنسبة إليه من الرحمة: أثرها وهو الإحسان.

وأخرج ابن جريج وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: " الرحيم: الرفيق الرقيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يضعف عليه العذاب.

إن معنى الرحمة في بسملة كل سورة، هو أن السورة منزلة برحمة الله وفضله، وأن الرحمة في البسملة للمعنى العام في الوحي والتنزيل. وفي السور للمعنى الخاص الذي تبينه السورة[2].

أما الرحمة في مذهب السلف الصالح، فمن صفات الذات، يراعى في فهمها التنزيه دون التأويل، خلافا للمتكلمين. فيقال إن رحمة الله تعالى أولى وأكمل من رحمة عباده. فهي ليست انفعالا ولا ألما في النفس، كما أن علمه وقدرته وسائر صفاته أعلى وأكمل مما يعرف من صفات خلقه، فلا صفاته تشبه صفاتهم ولا ذاته تشبه ذواتهم.

وأما حظّ من وصف الله بالرحمة، فهو أن يطالب نفسه بأن يكون رحيما بكل ما يراه مستحقا للرحمة من خلق الله تعالى، حتى الحيوان الأعجم، وأن يتذكر دائما أنه

---

(1) سورة الإنسان، آية 2.

(2) تفسير الفاتحة وست سورمن خواتيم القرآن، السيد محمد رشيد رضا، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1988م، صفحة 32 .

يستحق بذلك رحمة الله تعالى. قال ﷺ: " إنما يرحم الله من عباده العلماء ". رواه الطبراني عن جرير بسند صحيح. وقال ﷺ: " الراحمون يرحمهم الرحمن.. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ". رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عمر. وقال ﷺ: " في كل كبد رطبة أجر ". رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبّل النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما، فقال الأقرع بن حابس: " إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ". فقال رسول الله ﷺ: " من لا يرحم لا يرحم ". متفق عليه.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " قسم ربنا رحمته مائة جزء، فأنزل منها جزءا في الأرض، فهو الذي يتراحم به الناس والطير والبهائم. وبقيت عنده مائة رحمة إلا رحمة، لعباده يوم القيامة ". رواه الطبراني.

وعلى هذا يفهم بعضهم أن معنى الرب هو الجبروت والقهر، فأراد تعالى أن يذكرهم برحمته ولإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال. فذكر الرحمن وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما، والرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبدا، فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده، فأفهمهم أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان، ليعلموا أن هذه الصفة هي التي ربما يرجع إليها معنى الصفات وليتعلقوا به، ويقبلوا على اكتساب مرضاته، منشرحة صدورهم، مطمئنة قلوبهم، ولا ينافي عموم الرحمن وسبقها ما شرعه الله من العقوبات في الدنيا، وما أعده من العذاب في الآخرة، للذين يتعدون الحدود وينتهكون الحرمات، فإنه وإن سمي قهرا بالنسبة لصورته ومظهره، فهو في حقيقته وغايته من الرحمة، لأن فيه تربية للناس وزجرا لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية، وفي الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم، وفي الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم.

ومن فوائد هذه الأية: الرحمن الرحيم:

- إثبات هذين الاسيمين الكريمين لله عز وجل، وإثبات ما تضمناه من الرحمة التي هي الوصف، ومن الرحمة التي هي الفعل.
- إن ربوبية الله عز وجل مبنية على الرحمة الواسعة الواصلة للخلق، لأنه تعالى قال: رب العالمين، كأن سائلا يسأل: ما نوع هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية

أخذ وانتقام؟ أم ربوبية رحمة وإنعام؟ قال سبحانه: الرحمن الرحيم.

مالك يوم الدين

إذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد، فإن مالك يوم الدين تستحق الحمد الكبير، لأنه لو لم يوجد يوم للحساب، لنجا الذي ملأ الدنيا شرورا، دون أن يجازى على ما فعل، ولكان الذي التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيوية كثيرة إرضاء لله قد شقي في الحياة الدنيا، ولكن الله تبارك وتعالى مالك يوم الدين قد أعطى الاتزان للكون كله، وهذه الملكية ليوم الدين هي التي حمت الضعيف، والمظلوم وأبقت الحق في كون الله، وهو وحده الذي سيحاسب خلقه على ما فعلوا، لأن مالك يوم الدين هو الميزان، لأن الذي يفسد في الأرض تنتظره الآخرة، ولن يفلت مهما كانت قوته ونفوذه. ويطمئن المؤمن اطمئنانا كاملا إلى أن عدل الله سينال كل ظالم ظلم واستبد بالضعيف.

إن مالك لها قراءتان: مالك يوم الدين، وملك يوم الدين. والقراءتان صحيحتان.

مالك: وهي قراءة سبعية.. قرئ ملك بسكون اللام، وملك بصيغة الفعل. وقد اختلف العلماء أيهما أبلغ مالك أو ملك. فقيل: إن ملك أعم وأبلغ من مالك، إذ كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكا. ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك.

وقيل: مالك أبلغ، لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم. فالمالك أبلغ تصرفا وأعظم. وقال أبو حاتم: إن مالكا أبلغ في مدح الخالق من ملك، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك.. لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك. وإذا كان الله مالكا كان ملكا.

فإن قال قائل: أليس الأمر لله في ذلك اليوم وفي غيره؟

فالجواب: بلى، الأمر لله تعالى في يوم الدين وما قبله، لكن ظهور أمره في ذلك اليوم أكثر بكثير من ظهور أمره في الدنيا، لأن في الدنيا يخالف الإنسان أمر الله سبحانه، ويطيع أمر سيده، فلا يكون الأمر لله بالنسبة لهذا، لكن في الآخرة، ليس فيه إلا أمر الله عز وجل، وفيه يظهر أمر ملكوته وأمره.

والحق إن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر. فالمالك يقدر

على ما لا يقدر عليه الملك، من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته، ورعاية مصالح الرعية. فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور. والملك أقوى من المالك في بعض الامور. والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله. أخرج الترمذي وابن أبي الدنيا وابن الأنباري كلاهما في كتاب المصاحف عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقرأ: ملك يوم الدين بغير ألف.

وأخرج ابن الأنباري عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ وأبو بكر وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل: "ملك يوم الدين" بغير ألف.

واخرج ابن أبي داود والخطيب من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيب والبراء بن عازب قالا: "قرأ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ملك يوم الدين".

وأخرج أحمد والترمذي وابن أبي داود وابن الأنباري عن أنس أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان، كانوا يقرؤون "مالك يوم الدين" بالألف.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي داود في المصاحف من طريق سالم عن أبيه أن النبي ﷺ وأبا بكر كانا يقرآن "مالك يوم الدين" بالألف.

قرأ عاصم والكسائي ويعقوب: مالك، والباقون: ملك، وعليها أهل الحجاز، وكلاهما صحيح متواتر في السبع. والفرق بينهما أن المالك ذو الملك بكسر الميم، والملك ذو الملك بضم الميم. والقرآن يشهد للأولى بمثل قوله تعالى﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾[2]. وللثانية بقوله: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[3].

وأخرج أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي عن عائشة قالت: "شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضعه في المصلى، ووعد الناس يوما يخرجون فيه. فخرج حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر، فكبر وحمد الله، ثم قال: "إنكم

(1) سورة الانفطار، آية 19.

(2) سورة الأنعام، آية 73.

(3) سورة غافر، آية 16.

شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر عن أبان زمنه عنكم، وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم. ثم قال: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم لا إله ألا انت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزل قوة وبلاغا إلى حين". قال أبو داود: حديث غريب إسناده جيد.. وأهل المدينة يقرؤون ملك يوم الدين، وهذا الحديث حجة لهم.

قرئ: ملك يوم الدين". ومالك وملك بتخفيف اللام، وقرأ أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه: مَلَكَ يوم الدين "بلفظ الفعل ونصب اليوم، وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه: مالكَ بالنصب، وقرأ غيره: مَلْك، وهو نصب على المدح. ومنهم من قرأ: مالكٌ بالرفع.

قال بعضهم: إن قراءة ملك أبلغ، لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبير. وقال آخرون: إن القراءة الأخرى أبلغ، لأن الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة، ولا تصرف له بشيء من شؤونهم الخاصة، والمالك سلطته أعم، وقد قيل: إنما تظهر هذه التفرقة في عبد مملوك في مملكة لها سلطان، فلا ريب أن مالكه هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه.

والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة، وفي الحقيقة هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ { الحشر: 23}. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ واللفظ لمسلم: " أخنع[1] اسم عند الله، رجل تسمى بملك الأملاك، ولا مالك إلا الله". وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ واللفظ للبخاري قال: "يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ ". فأما تسمية غيره في الدنيا بـ" مُلك" فعلى سبيل المجاز. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ { البقرة: 247}. وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ { الكهف: 79 }.

(1) أخنع: اوضع واذل. اي من تسمى بهذا الاسم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ {الزمر: ٦٧ }. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: "يا محمد، إنا نجد ان الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: "أنا الملك". فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا للخبر. ثم قرأ رسول الله ﷺ: "وما قدروا الله حق قدره... الآية". وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن يقول: أنا الملك، أنا الله".

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعا: "يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: "أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟" ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله ثم يقول: "أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟"

وروي عن ابن عباس قال: ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن، إلا كخردلة في يد أحدكم. وقال ابن جرير: حدثني يونس أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: "ما السموات السبع في الكرسي، إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس". قال وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما الكرسي في العرش، إلا كحلقة من حديد، ألقيت بين ظهري فلاة في الأرض".

إن تخصيص الملك بيوم الدين، لا ينفيه عما سواه، وإنما أضيف إلى يوم الدين، وهو إضافة اسم الفاعل إلى الظرف عن طريق الاتساع، ومعناه: مالك الأمر كله في يوم الدين. لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئا، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال تعالى:

" ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾". { النبأ: 38}.

وعن ابن عباس: مالك يوم الدين، يقول: لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكما كملكهم في الدنيا".

أما معنى يوم الدين: يوم القيامة، والدين هو الجزاء والحساب، كما قال تعالى:

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ {النور: 25}. وقال:﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ {الصافات: 53} أي مجزيون محاسبون. ويقال: يوم الدين: يوم يدين الله العباد بأعمالهم.

وقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ {الانفطار: 17–19}.

هناك يوم، وهناك الدين، فاليوم هو من شروق الشمس إلى شروقها في اليوم التالي، وهو ما يسمى فلكيا يوما، وهو ظرف زمان تقع فيه الأحداث، وهو بمقاييس البشر، والمفسرون يقولون: مالك يوم الدين، أي مالك أمور الدين، لأن ظرف الزمان لا يملك، ونحن لا نملك الزمن، فالماضي لا نستطيع أن نعيده، والمستقبل أيضا لا نستطيع أن نأتي به. وقوله تعالى: مالك يوم الدين لا يحده زمان ولا مكان. والله سبحانه لا يحده زمان ولا مكان ولكن الله سبحانه هو خالق الزمن، حيث يستطيع أن يخلق يوما مقداره ساعة، ويوما كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة، ويوم مقداره ألف سنة، قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (1).

﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (2)، فذلك خاضع لمشيئة الله.

إن يوم الدين موجود في علم الله سبحانه، بأحداثه كلها، وجنته وناره، وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه، وعندما يريد أن يخرج ذلك اليوم من علمه إلى علم خلقه، سواء كانوا من الملائكة أو البشر أو الجن، يقول: "كن". فالله سبحانه هو خالق هذا اليوم، وهو وحده الذي يحدد كل أبعاده، أما نحن في الدنيا فنحدده ظاهرا بأربع وعشرين ساعة، ونحدده بأنه الليل والنهار، الموجودين أصلًا بسبب دوران الأرض حول نفسها.

إن الاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية، ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر غير عالم الأرض، فلا تستبد بهم ضرورات الأرض،

---

(1) سورة الحج، آية 47.

(2) سورة المعارج، آية 4.

وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات، ولا يستبد بهم القلق على جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود، وفي مجال الأرض المحصور. وعندئذ يملكون العمل لوجه الله، وانتظار الجزاء حيث يقدره الله.

أما الإضافة على الظرف، فهي على طريق الاتساع كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار. وقد يضاف اسم الفاعل وما في معناه إلى المستقبل، كقولك: هذا ضارب زيدا غدا.

وقوله سبحانه وتعالى: مالك يوم الدين: هذه الآية تمثل كلية الاعتقاد الضخمة العميقة التأثير في الحياة البشرية كلها. كما تتضمن الوعد والوعيد معا. لأن معنى الدين هو الخضوع: أي أن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق، والسيادة التي لا نزاع فيها لا حقيقة ولا ادعاء.. وأن العالم كله يكون فيه خاضعا لعظمته ظاهرا وباطنا، يرجو رحمته ويخشى عذابه.. وهذا يتضمن الوعد والوعيد.

أو معنى الدين: الجزاء، وهو إما ثواب للمحسن، وإما عقاب للمسيء، وذلك وعد ووعيد. ولذلك ذكر بعده اهدنا الصراط المستقيم، وهو الذي من سلكه فاز، ومن تنكبه هلك، وذلك يستلزم الوعد والوعيد. وهو أساس الدين وأساس التقوى، لأن كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على أساس ذلك اليوم.

ومن فوائد هذه الآية: مالك يوم الدين:

- إثبات ملك الله عز وجل وملكوته يوم الدين، لأن في ذلك اليوم تتلاشى جميع الملكيات والملوك... وإن سأل سائل: أليس هو مالك يوم الدين والدنيا؟ فالجواب: بلى، لكن ظهور ملكوته وملكه وسلطانه، إنما يكون في ذلك اليوم، لأن الله سبحانه وتعالى ينادي: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيب أحد، فيقول تبارك وتعالى: الملك لله الواحد القهار.
- إثبات البعث والجزاء.
- حث الإنسان على أن يعمل لذلك اليوم، الذي يدان فيه العاملون، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

- **إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**

الحمد لله رب العالمين غيب، والرحمن الرحيم غيب، ومالك يوم الدين غيب، وكان السياق اللغوي أن يقال: إياه نعبد وإياه نستعين، ولكن الله سبحانه غير السياق ونقله من الغائب إلى الحاضر، وقال: إياك نعبد، فانتقل الغيب إلى حضور المخاطب، فأصبحت الرؤية رؤية يقين إيماني.

قال سيبويه: إيا: اسم مضمر، والكاف حرف خطاب، ولا محل له من الإعراب. وقال الخليل: اسم مضمر، لأنه يشبه المظهر، لتقدمه على فعل الفاعل. وقال الكوفيون: إياك بكمالها اسم، وتقديم المفعول بقصد الاختصاص.

إن إياك نعبد تفيد الخصوصية، وفيها قصر سبحانه العبودية على ذاته الكريمة، لأنه لو قال: نعبدك وحدك، فهي لا تؤدي المعنى نفسه، ولكنه سبحانه قدم إياك، فيكون الأمر قد حسم بأن العبادة لله وحده، ولا يجوز العطف عليها، وتنفي العبودية لغير الله سبحانه.

أما قوله تبارك وتعالى: إياك نعبد وإياك نستعين، فقد قرن العبادة لله وحده، بالاستعانة بالله سبحانه، أي لا نعبد سواك، ولا نستعين إلا بك، وهذا هو دستور الحركة في الحياة.

إن قراءة السبعة وغيرهم بتشديد الياء في إيّاك. وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر. وقرأ الفضل والرقاشي بفتح الهمزة. وقرأ أبو السوار الغنوي هياك في الموضعين، وهي لغة مشهورة. والضمير المنفصل هو إيّا، مفعول به مقدم، وعامله نعبد، وقدم على عامله لإفادة الحصر. وما يلحقه من الكاف والهاء والياء، هي حروف لبيان المخاطب والغائب والمتكلم (الخطاب والغيبة والتكلم) ولا محل لها من الإعراب، كما ذهب إليه الجمهور. وتقديمه على الفعل بقصد الاختصاص، وقيل للاهتمام. والمعنى: نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه.

إن هذه الآية هي الكلية الاعتقادية، التي تنشأ عن الكليات السابقة في السورة، فلا عبادة إلا لله، ولا استعانة إلا بالله.

وهنا مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد، وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل... التحرر من عبودية الأوهام، والتحرر من عبودية النظم، والتحرر من عبودية الأوضاع... فإذا كان الله وحده هو الذي يعبد، وهو وحده الذي يستعان، فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والآشخاص، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات.

هناك نوعان من القوى: القوى الإنسانية، والقوى الطبيعية.

أما القوى الإنسانية بالنسبة للمسلم فهي نوعان: قوة مهتدية تؤمن بالله، وتتبع منهج الله، وهذه يجب أن يؤازرها، ويتعاون معها على الخير والحق والصلاح. وقوة ضالة لا تتصل بالله ولا تتبع منهجه، وهذه يجب أن يحاربها ويكافحها ويغير عليها، مهما كانت ضخمة أو عاتية، فهي بضلالها عن قوة الله تعالى تفقد قوتها الحقيقية، وتفقد الغذاء الكامل الذي يحفظ لها طاقتها.

أما القوى الطبيعية، فموقف المسلم منها هو موقف التعرّف والصداقة، لا موقف التخوف والعداء. ذلك أن قوة الإنسان وقوة الطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيئته، ومحكومتان بإرادة الله ومشيئته، متناسقتان ومتعاونتان في الحركة والاتجاه.

إن عقيدة المسلم توحي إليه أن الله ربه قد خلق هذه القوى كلها، لتكون له صديقا مساعدا متعاونا، وأن سبيله إلى كسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها، ويتعرف عليها ويتعاون معها، ويتجه معها إلى ربه وربها. وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحيانا، فإنها تؤذيه لأنه لم يتدبرها ولم يتعرف عليها، ولم يهتد إلى الناموس الذي يسيرها.

لقد درج الغربيون على التعبير عن استخدام قوى الطبيعة بقولهم: قهر الطبيعة. ولهذا التعبير دلالته الظاهرة على نظرة الجاهلية المقطوعة الصلة بالله، وبروح الكون المستجيب لله. أما المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم، الموصول الروح بروح هذا الوجود، المسبحة لله رب العالمين، فإنه يؤمن بأن هناك علاقة أخرى غير علاقة القهر والجفوة... إنه يعتقد أن الله هو مبدع هذه القوى جميعا، خلقها جميعا وفق ناموس واحد، لتتعاون على بلوغ الأهداف المقدرة لها بحسب هذا الناموس. وأنه سخرها للإنسان ابتداء، ويسر له كشف أسرارها ومعرفة قوانينها، وأن على الإنسان أن يشكر الله كلما

هيأ له أن يظفر بمعونة من إحداها. فالله هو الذي يسخرها له، وليس هو الذي يقهرها، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ {الحج: 65}.

وما أروع قول الرسول ﷺ وهو ينظر إلى جبل أحد: "هذا الجبل يحبنا ونحبه". ففي هذه الكلمات كل ما يتحمله قلب المسلم الأول محمد ﷺ من ود وألفة وتجاوب، بينه وبين الطبيعة في أضخم وأخشن مجالاتها.

وبما أن التوحيد هو أهم ما جاء لأجله الدين، ولذلك لم يكتف الله سبحانه بالفاتحة بمجرد الإشارة إليه، بل استكمله بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾. فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية، التي كانت متفشية في جميع الأمم، وهي اتخاذ أولياء من دون الله، وتعتقد لهم السلطة الغيبية، ويدعون لذلك من دون الله، ويستعان بهم على قضاء الحوائج في الدنيا، ويتقرب بهم إلى الله زلفى، وجميع ما في القران الكريم من آيات التوحيد ومقارعة المشركين، هي تفصيل لهذا الإجمال.

أما الوعد والوعيد، فالأول منهما مطوي في بسم الله الرحمن الرحيم، فذكر الرحمة في أول الكتاب – وهي التي وسعت كل شيء – وعد بالإحسان، وقد كررها مرة ثانية، تنبيها لنا على أمره إيانا بتوحيده وعبادته، رحمة منه سبحانه بنا، لأنه من مصلحتنا ومنفعتنا.

إيا: ضمير منفصل للمنصوب، واللواحق التي تلحقه من الكاف والهاء والياء في قولك: إياك، وإياه، وإياي لبيان الخطاب والغيبة والتكلم. وقيل: إن إيا اسم ظاهر مضاف إلى الضمير الذي هو الكاف، فتقديمه على الوجهين يؤذن بالاهتمام به، الذي هو العلة الأصلية العامة للتقديم في هذه اللغة. وعدل عن الغيبة إلى الخطاب بقصد الالتفات، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر، كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر وإيقاظا للإصغاء اليه، من إجرائه على أسلوب واحد.

وقد يسأل سائل: ما الحكمة من تقديم إياك على الفعلين؟ فالجواب: هي إفادة

الاختصاص والاهتمام والحصر على المشهور، مع كمال الطاعة. فالمعنى: نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك ولا نستعين سواك، لأن إياك ضمير راجع إلى الله تعالى. والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: "الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: إياك نعبد وإياك نستعين. فالأول: تبرؤ من الشرك، والثاني: تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل. وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ {هود: ١٢٣}

ومنه أن إفادة الحصر بهذا الاسم أو الضمير المقدم على الفعل، أبلغ من إفادة الحصر بالضمير المتصل الذي يقرن به ما يدل على ذلك من الكلم كقولك: إنما نعبدك وإنما نستعينك أو نستعين بك وحدك، وإعادة إياك مع الفعل الثاني، يفيد أن كلا من العبادة والاستعانة مقصود بالذات، فلا يستلزم كل منهما الآخر، ذلك أن الاستعانة بالله تعالى يجب ان تكون عامة في كل شيء.

فإن قيل: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ فالجواب: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴿٢٢﴾ ﴾ { يونس: 22}. وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ ﴿٩﴾ ﴾ { فاطر: 9}. إن تحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب مناسب، لأنه لما أثنى على الله، فكأنما اقترب وحضر بين يدي الله تعالى، ولهذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة، بجميل صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك. ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك، وهو قادر عليه، كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب".

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: إياك نعبد: يعني إياك نوحد ونخاف يا ربنا لا غيرك، وإياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها. وحكى ابن

كثير عن قتادة أنه قال في إياك نعبد واياك نستعين: يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أمركم.

قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: إياك نعبد يعني: إياك نوحّد ونخاف، ونرجوك يا ربنا لا غيرك، وإياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها". وقال قتادة: إياك نعبد وإياك نستعين: يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم، وإنما قدم إياك نعبد على وإياك نستعين، لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

ومنهم من قال: إياك نعبد ألطف من إياك عبدنا، لما في الثاني من تعظيم نفسه، من جعله نفسه وحده أهلا لعبادة الله تبارك تعالى، الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته، ولا يثني عليه بما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله عز وجل.

يبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء، فترى من خضوعهم لهم، وتحريهم مرضاتهم، ما لا تراه من المتحنثين القانتين، ولم يكن العرب يسمون شيئا من هذا الخضوع عبادة.

فإن قيل: فما معنى النون في قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين،، فإن كانت للجمع: فالداعي الذي يدعو بها واحد، وإن كانت للتعظيم فلا يناسب هذا المقام؟ وقد أجيب: بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد، والمصلي فرد منهم، ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة، التي خلقوا لأجلها، وتوسط لهم بخير.

ومنهم من قال: يجوز أن تكون النون للتعظيم، كأن العبد قيل له: إذا كنت داخل العبادة، فأنت شريف وجاهك عظيم فقل: إياك نعبد وإياك نستعين.

ومنهم من قال: جاء لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه، لقصد التواضع لا لتعظيم النفس.

وإن قيل: لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟ فالجواب: ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم، وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته. فإن قيل: فلم قدمت العبادة على الاستعانة؟ فالجواب: لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة، ليستوجبوا الإجابة عليها. فإن قيل: لم أطلقت الاستعانة؟ فالجواب: ليتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة. ويكون قوله: اهدنا بيانا للمطلوب من المعونة، كأنه قال: كيف أعينكم؟ فقالوا: اهدنا الصراط المستقيم.

أما العبادة، فتتضمن فعل كل ما أمر الله تعالى به، وترك كل ما نهى الله عنه، والعبد: هو الذي يوافق المعبود في مراده الشرعي. وهي أقصى غاية الخضوع والتذلل. وفي اللغة فهي: من الذلة، يقال طريق معبد وبعير معبد: أي مذلل، وثوب ذو عبدة" إذا كان في غاية الصفاقة وقوة النسج. ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى، لأنه مولى أعظم النعم، فكان حقيقا بأقصى غاية الخضوع. أي أنها ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشئوها. واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها. وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به، ولكنها فوق إدراكه، فمن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملوك، لا يقال إنه عبده، وإن قبل موطئ أقدامه، ما دام سبب الذل والخضوع معروفا وهو الخوف من ظلمه المعهود، أو الرجاء بكرمه المحدود.. اللهم إلا الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية، أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى، واختارهم الله للاستعلاء على سائر أهل الدنيا، لأنهم أطيب الناس عنصرا، وأكرمهم جوهرا، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد، فاتخذوا الملوك آلهة وأربابا وعبدوهم عبادة حقيقية.

إن للعبادة صورا كثيرة في كل دين من الأديان، شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى، الذي هو روح العبادة وسرها. ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه. والأثر إنما يكون عن ذلك الشعور، الذي كون منشئه التعظيم والخضوع. فإذا وجدت صورة العبادة خالية من

هذا المعنى لم تكن عبادة، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسانا. وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الاولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب، وإطلاق الاستعانة بقصد التعميم.

ولو أخذنا عبادة الصلاة مثلا، ورأينا كيف أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها، وإقامة الشيء هي الإتيان به مقوما كاملا، يصدر عن علته، وتصدر عنه آثاره، وآثار الصلاة ونتائجها، وهي التي أنبأنا الله تعالى بها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ {العنكبوت: 45}. كما توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة، وسرها فيها المؤدي إلى غايتها قوله:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝﴾ { الماعون: 4–7}.

أما بالنسبة إلى الاستعانة، فهي طلب المعونة، لإزالة العجز والمساعدة على إتمام العمل الذي يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه.

وعن ابن عباس مرفوعا قال: " احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك.. رفعت الأقلام وجفت الصحف، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً".

إن كل عمل يقوم به الإنسان، تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب، التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية إليه، وانتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه. وقد مكن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع، وكسب بعض الأسباب، وحجب عنه البعض الآخر. فقوله تعالى: وإياك نستعين، متمم لمعنى قوله: إياك نعبد، لأن الاستعانة بهذا المعنى فزع من القلب إلى الله، وتعلق من النفس به، وذلك من مخ العبادة. فإذا توجه العبد إلى غير الله تعالى كان ضربا من

ضروب العبادة الوثنية، التي كانت ذائعة في زمن التنزيل وقبله. وخصت بالذكر لئلا يتوهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوهم اولياء من دون الله، واستعانوا بهم فيما وراء الأسباب المكتسبة لعامة الناس، هي كالاستعانة بسائر الناس في الأسباب العامة. فأراد الله سبحانه أن يرفع هذا اللبس عن عباده، ببيان أن الاستعانة بالناس فيما هو في استطاعة الناس، إنما هو ضرب من استعمال الأسباب المسنونة، وما منزلتها إلا كمنزلة الآلات فيما هي آلات له، بخلاف الاستعانة بهم في شؤون تفوق القدر والقوى الموهوبة لهم، كالاستعانة في شفاء المرض بما وراء الأدوية والعلاجات المجربة، وعلى غلبة العدو بما وراء العدد والعدة، فإن ذلك مما لا يجوز الفزع والتوجه فيه إلى غير الله تعالى صاحب السلطان الأعظم.

إن وإياك نستعين، هي معراج السعادة في الدنيا والآخرة، شريطة أن نعمل الأعمال النافعة، ونجتهد في إتقانها ما استطعنا. لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته، فلم يوفه حقه، أو يخشى ألا ينجح فيه، فيطلب المساعدة والمعونة على إتمامه، مع وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده.

وأفضل الاستعانة ما كان على الطاعة والخير، وقد أخذ النبي ﷺ بيد معاذ يوما وقال له: " والله إني لأحبك.. أوصيك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك".

وأخرج أبو القاسم البغوي والبارودي معا في معرفة الصحابة، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: "كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فلقي العدو، فسمعته يقول: "يا مالك يوم الدين إيا نعبد وإياك نستعين، قال: فلقد رأيت الرجال تصرع، فتضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها".

ومن فوائد هذه الآية:

إخلاص العبادة لله سبحانه.

إخلاص الاستعانة بالله سبحانه. فإن قال قائل: كيف يقال: إخلاص الاستعانة بالله، وقد جاء قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: 2]، وهي إثبات

المعونة من غير الله عز وجل. وقال تعالى:

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ {البقرة: 45}. وقال النبي ﷺ: "تعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة"[1]. وقال ﷺ: الله في عون العبد، ما دام العبد في عون أخيه".

فالجواب: إن الاستعانة نوعان: استعانة تفويض، بمعنى أنك تعتمد على اله عز وجل، وتتبرأ من حولك وقوتك، وهذا خاص بالله عز وجل. واستعانة بمعنى المشاركة فيما تريد أن تقوم به. فهذه جائزة إذا كان المستعان به حيا قادرا على الإعانة، لأن ذلك ليس عبادة.

فإن قال قائل: هل الاستعانة بالمخلوق جائزة في جميع الأحوال؟

فالجواب: لا، لأن الاستعانة بالمخلوق إنما تجوز إذا كان المستعان به قادرا عليها، وأما إذا لم يكون قادرا عليها، فإنه لا يجوز الاستعانة به. كما لو استعان رجل بصاحب قبر فهذا حرام. بل شرك أكبر، لأن صاحب القبر لا يغني عن نفسه شيئا، فكيف يعينه؟ كما لو استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه، مثل أن يعتقد أن الولي في شرق الدنيا يعينه على مهمته في بلده، فهذا أيضا شرك أكبر، لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك بعيد.

وإن قال قائل: هل يجوز أن يستعين المخلوق فيما تجوز استعانته به؟

فالجواب: الأولى أن لا يستعينِ بأحد إلا عند الحاجة، او إذا علم أن صاحبه يُسرّ بذلك، فيستعين به من أجل إدخال السرور عليه، وينبغي لمن طلبت منه الإعانة على غير الإثم والعدوان أن يستجيب لذلك.

فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله: إياك نعبد وإياك نستعين... أوضح معناها بعض الإيضاح في بيان الأمر الرابع، الذيّ يشملها ويشمل احكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى:

- **اهدنا الصراط المستقيم**

بعد أن آمنا بالله إلها وربا، واستحضرنا عطاء الألوهية ونعم الربوبية، وفيوضات

---

(1) اخرج البخاري في كتاب الجهاد، حديث رقم 2891، ومسلم في كتاب الزكاة، حديث رقم 1009

رحمة الله على خلقه، وأعلنا أنه لا إله إلا الله، وقولنا إياك نعبد وإياك نستعين، فإننا قد أصبحنا من عباد الله، وما دمنا من عباده، فإن الله سيستجيب لنا مصداقا لقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [1].

إن المؤمن لا يطلب الدنيا أبدا، لأن الحياة الحقيقية للإنسان هي الحياة الآخرة، حيث الحياة الأبدية والنعيم المقيم، وأول ما يطلبه المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم.

هدى: أصله أن يتعدى باللام أو بإلى، كقوله تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾ ﴾ {الإسراء: 9}. وقوله تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ {الشورى: 52}. والهداية لغة: أنها الدلالة بلطف على ما يوصل إلى المطلوب ، وهي ثلاثة أنواع: هداية دلالة، وهداية إيمان عامة، وهداية معونة.

أما هداية الدلالة، وهي هداية رسول الله ﷺ بتبليغه للقرآن، وبيانه لمنهج الله. وهي للناس جميعا، وقد دلهم على طريق الخير وبينه لهم، وهذا يعني أنها دلالة عامة، وهي أساس البلاغ عن الله. وقد بين الله في منهجه: افعل ولا تفعل، وبين ما يرضيه وما يغضبه، وأوضح لنا الطريق الذي نتبعه، والطريق الذي يجب أن لا نتبعه، لأننا لو سلكناه حق علينا غضب الله وسخطه. فهناك من يأخذ طريق الهداية بالاختيار، الذي أعطاه الله له، وهناك من يخالف ويأبى ويضل ويطرد، فالمطرودون من هداية الله في العونة على الإيمان هم: الكافرون والفاسقون والظالمون. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ {الشورى: 52}.

أما هداية الإيمان العامة، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ {القصص: ٥٦}لأن الله هو الذي يهدي القلوب، ويزيدها هدى وإيمانا.

أما هداية المعونة، فهي للمؤمنين فقط، المتبعين لمنهج الله.

---

(1) سورة البقرة، آية 186.

وهناك أربع هدايات يتوصل بها العبد إلى سعادته:

- هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري، وتكون للأطفلال منذ ولادتهم، فإن الطفل بعد ما يولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء، فيصرخ طالبا له بفطرته، وعندما يصل الغذاء إلى فيه، يلهم التقامه وامتصاصه.
- هداية الحواس والمشاعر، وهي متممة للهداية الأولى في الحياة الحيوانية، ويشارك الإنسان فيها الحيوان الأعجم، بل هو فيهما أكمل من الإنسان، فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الإنسان فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج في زمن غير قصير. ألا تراه عقب الولادة لا تظهر عليه علامات إدراك الأصوات والمرئيات، ثم بعد مدة يبصر، ولكنه لقصر نظهره يجهل تحديد المسافات، فيحسب البعيد قريبا، فيمد يده إليه ليتناوله وإن كان قمر السماء، ولا يزال يغلط حسّه حتى في طور الكمال.
- هداية العقل: خلق الإنسان ليعيش مجتمعا، ولم يعط من الإلهام والوجدان ما كفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية، كما أعطى النحل والنمل، فإن الله قد منحها من الإلهام ما يكفيها لأن تعيش مجتمعة، يؤدي كل منها وظيفة العمل لجميعها، ويؤدي الجميع وظيفة العمل لواحد ،وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد. أما الإنسان فلم يكن من خاصة نوعه، أن يتوافر له مثل هذا الإلهامَ، فحباه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والإلهام، وهي العقل الذي يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرا، ويرى العود المستقيم في الماء معوجّا، والصفراوي يذوق الحلو مرا، والعقل هو الذي يحكم بفساد مثل هذا الإدراك.
- هداية الدين، يغلط العقل في إدراكه كما تغلط الحواس، وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله، فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية، ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال، فيجمعها مسخرة لشهواته ولذاته، حتى توردہ موارد التهلكة. فإذا وقعت المشاعر في مزالق الزلل، واسترقت الحظوط

والأهواء العقل، صار يستنبط منها ضروب الحيل.. فكيف يتسنى للإنسان مع ذلك أن يعيش سعيدا؟ هذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده، وما هو بعائش وحده، وكثيرا ما تتطاول به إلى ما في يد غيره، فهي لهذا تقتضي أن يعدو بعض أفراده على بعض، فيتنازعوا ويتدافعوا ويتجادلوا ويتجالدوا، ويتواثبوا ويتناهبوا، حتى يفني بعضهم بعضا. ولا تغني عنهم تلك الهدايات شيئا، فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم في ظلمات أهوائهم، إذا هي غلبت على عقولهم، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها. ثم إن مما أودع في غرائز الانسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب إليها كل ما لا يعرف له سببا، لأنها هي الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث، إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة، الذي خلقه فسوّاه فعدله، ووهبه هذه الهدايات وغيرها، وما فيه سعادته في الحياة الثانية؟ كلا، إنه في أشد الحاجة إلى هداية الدين، وقد منحه الله تعالى إياها.

أشار القرآن الكريم إلى أنواع الهداية التي وهبها الله تعالى للإنسان في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ ﴾ {البلد: 10}. القول الأول: أي طريقي السعادة والشقاوة، والخير والشر. وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة، وهداية العقل وهداية الدين. والقول الثاني: دللنا المولود على ما به غذاؤه وهو الثديان، فإنهما نجدان لارتفاعهما فوق الصدر، فهداه الله تعالى وهو رضيع لا يعرف، فمن حين أن يخرج وتضعه أمه يطلب الثدي، والذي علمه هو الله عز وجل،، بعد أن كان في بطن أمه يتغذى عن طريق السرة، لأنه لا يستطيع أن يتغذى من غير هذا، فلو تغذى عن طريق الفم لاحتاج إلى بول وغائط، وكيف ذلك؟ لكنه عن طريق السرة يأتيه الدم من دم أمه، وينتشر في عروقه، حتى يحيا، إلى أن يأذن الله تعالى بإخراجه.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ {فصلت: 17}. أي دللناهم على طريقي الخير والشر فسلكوا سبل الشر المعبر عنها بالعمى.

وهناك هداية أخرى وهو المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ {الأنعام 90}. فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره، فالهداية في الآيات السابقة بمعنى الدلالة، وهي بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين: المهلك والمنجي، مع بيان كل ما يؤدي إليه كل منهما. وهي مما تفضل الله به على جميع أفراد البشر. أما هذه الهداية فهي أخص من تلك، والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير في طريق الخير والنجاة مع الدلالة، وهي لم تكن ممنوحة لكل احد كالحواس وشرع الدين.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ {سورة الأعلى: 3}. فالهداية هنا تشمل: الهداية الشرعية، والهداية الكونية.

أما الهداية الكونية، فهي أن الله خلق كل شيء لما خلق له. قال فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ {طه:49-50}، تجد كل مخلوق قد هداه الله تعالى لما يحتاج إليه. حتى أدنى الحشرات كالنمل والنحل.

أما الهداية الشرعية، وهي الأهم بالنسبة لبني آدم، فقد بينها الله تعالى، حتى الكفار قد هداهم الله، يعني قد بينها لهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ {فصلت: 17}. وهي المقصود من حياة بني آدم قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ {الذاريات: 56}.

الهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تُعدى الهداية بنفسها كقوله: اهدنا الصراط المستقيم، فتضمن معنى: ألهمنا أو وفقنا، أو ارزقنا أو أعطنا. وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ {البلد: 10}.أي بينا له الخير والشر. وقد تعدى بإلى كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ {الشورى: 52}. أي ترشد وتدلّ. وقد تعدّى باللام

كقول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ {الأعراف: 43}. أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا.

هذا الفرق بين معنى الهداية معروف في اللغة، وبه يجاب عن التعارض الظاهري في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ {القصص: 56}. وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ {البقرة: 272}. فالهداية التي أثبتها للنبي ﷺ هي الدلالة على الخير والحق، والتي نفاها عنه هي الثانية، التي بمعنى الإعانة عليهما، والتوفيق لهما.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ {فصلت: 30}.

ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين، وفي استعمال الحواس والعقل على ما قدمنا، كان محتاجا إلى المعونة الخاصة، فأمرنا الله سبحانه بطلبها منه في قوله:

- **اهدنا الصراط المستقيم.**

والصراط هو الطريق الموصل إلى الغاية، والمستقيم هو أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية، لأن أقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم، الذي لا عوج فيه، أما الغاية فهي الجنة والنعيم في الآخرة.

ومعنى اهدنا الصراط المستقيم: دلّنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك، تحفظنا بها من الضلال والخطأ. وما كان هذا أول دعاء علمنا الله تعالى إياه، إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواه[1].

أخرج الحاكم وصححه، وتعقبه الذهبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ: "اهدنا الصراط المستقيم" بالصاد.

واخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري وابن الأنباري عن ابن عباس

---

(1) راجع تفسير الفاتحة، المرجع السابق، صفحة 44.

أنه قرأ: اهدنا السراط بالسين المهملة. والسراط: الجادة، من سرط الشيء إذا ابتلعه، لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه، ويجمع سرطا، نحو كتاب وكتب، ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل، وهي قراءة ابن كثير. كما سمي لقما: لأنه يلتقمهم. والصراط من قلب السين صادا لتجانس الصاد مع الطاء في الإطباق، كقوله: مصيطر، في مسيطر. وقد تشم الصاد صوت الزاي، لأن الزاي أقرب إلى الطاء لأنهما مجهورتان وهي قراءة حمزة. وقرئ بهن جميعا لإخلاص الصاد، وهي لغة قريش، وهذه الثابتة في المصحف الإمام.

وأخرج ابن الانباري عن الفراء قال: قرأ حمزة الزراط بالزاي. قال الفراء: والزراط بإخلاص الزاي، وهي لغة لعذرة وكلب وبني العين.

وروى صاحب المزهر عن الأصمعي: أن رجلين اختلفا في الصقر، فقال أحدهما: بالصاد، وقال الآخر: بالسين، فتراضيا بأول وارد عليهما، فحيا له ما هما فيه، فقال: لا أقول كما قلتما، إنما هو الزقر". وإذا اختلفت الحروف في اللهجة العربية الواحدة هذا الاختلاف، فلا محل للجزم بالتخطئة، حيث تختلف السين والزاي، أو التاء والثاء، في لغات تباعدت بينها الآماد.

اهدنا الصراط المستقيم: اهدنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل، ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته.. فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته. والتوجه إلى الله في هذا الأمر، هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين.

أما الصراط المستقيم، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وذلك في لغة جميع العرب. ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول. فروي أنه: كتاب الله سبحانه، وروى إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا: هو الإسلام. وعن جابر بن عبد الله قال: هو الإسلام أوسع مما بين السماء والأرض". وقال محمد ابن الحنفية: هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره".

وفي هذا المعنى الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن

جرير وابن المنذر وغيرهم عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: " ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تعوجوا – وفي رواية ولا تتفرقوا –، وداع يدعو من فوق الصراط. فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، ~~والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط:~~ كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم". رواه ابن أبي حاتم وابن جرير والترمذي والنسائي، وإسناده حسن صحيح.

وعن مجاهد: اهدنا الصراط المستقيم قال: الحق، وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم. وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة. فإن من اتبع النبي ﷺ واقتدى بالذين من بعده فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام. ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم.

أما الإمام أبو جعفر بن جرير، فقال: " والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي – أعني اهدنا الصراط المستقيم – أن يكون معنيا به: وفقنا للثبات على ما ارتضيته، ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم. لأن من وفق لما وفق له من الذين

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ {النساء: 70}. فقد وفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم".

أخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية، والضياء المقدسي في صفة الجنة وحسنه، عن عائشة قالت: " جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إليّ من نفسي، وإنك لأحبّ إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع

النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك". فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ { النساء 69-70}.

وما أحسن أن نقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ { آل عمران: 169 }. إن الاعتبار هنا هو بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. ومعنى الآية عند الجمهور: إنهم يحيون حياة محققة، ثم اختلفوا. فمنهم من يقول: أرواحهم تردّ إليهم في قبورهم فيتنعمون. وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أي يجدون ريحها وليسوا فيها. وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى أنهم في حكم الله مستحقون للتنعم في الجنة. والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز. وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر، وأنهم في الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون، لاخوف عليهم ولا هم يحزنون.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الشهداء يتقلدون سيوفهم حول عرشه، تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت، ثمارها ألين من الحرير، مدّ خطاها مدّ أبصار الرجال يسيرون في الجنة يقول عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا لننظر كيف يقضي بين حلقه، يضحك إليهم إلهي، وإذا ضحك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه".

فإن قيل: كيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب: أن لا. ولولا احتياجه ليلا ونهارا إلى سؤال الهداية، لما أرشده الله تعالى إلى ذلك. فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى، في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها، وتبصره وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، إلا ما شاء الله. فأرشده الله تعالى إلى أن يسأله في كل وقت، أن يمده بالمعونة

والثبات والتوفيق. فالسعيد من وفقه الله لسؤاله، فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار. وقد قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ {النساء: 136}. فقد أمر الله تعالى الذين آمنوا بالإيمان، وليس من باب تحصيل الحاصل، لأن المراد: الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك.

وضع لنا صراطا مستقيما، سيبينه ويحدده، وتكون السعادة في الاستقامة عليه، والشقاوة في الانحراف عنه. ومعنى المستقيم: ضد المعوج، وليس المراد بمقابل المستقيم المعوج، ذا التمعج والتعاريج، بل المراد كل ما فيه انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهي سالكه إليها.. والمستقيم في عرف الهندسة أقرب موصل بين طرفين.. وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوي كما هو ظاهر بالبداهة، وإنما قلنا إن المراد بمقابل المستقيم: كل ما فيه انحراف لأن كل من يميل وينحرف عن الجادة، يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها في خط ذي تعاريج، لأن هذا الأخير قد يصل إلى الغاية بعد زمن طويل، ولكن الأول لا يصل إليها أبدا، بل يزداد عنها بعدا، كلما أوغل في السير وانهمك فيه.

هذه الاستقامة على الصراط هي روح العبادة، ويشبه هذه قوله تعالى:

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ {العصر: ١ – ٣}. فالتواصي بالحق والصبر، هو كمال العبادة بعد التوحيد.. والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة في المتدبر لها، وهي إشراب القلوب خشية الله وهيبته، والرجاء لفضله، لا الأعمال المعروفة من فعل وكف، وحركات اللسان والأعضاء. فقد ذكرت العبادة في الفاتحة، قبل ذكر الصلاة وأحكامها، والصيام وأيامه في القرآن. وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلفوا هذه الأعمال البدنية، وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القران، وإنما الحركات والأعمال في صورة العبادة وهيكلها، مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة الروحية المعنوية وجوهرها، وهو الفكر والعبرة والرجاء والخشية والتوكل والمحبة.

ومن فوائد هذه الآية: اهدنا الصراط المستقيم:

- لجوء الإنسان إلى الله عز وجل بعد استعانته به على العبادة، أن يهديه الصراط المستقيم، لأنه لا بد في العبادة من إخلاص، ومن استعانة يتقوى بها على العبادة، ومن اتباع للشريعة التي جاء بها محمد ﷺ.
- بلاغة القرآن، حيث حذف حرف الجر من اهدنا، لأجل أن تتضمن طلب الهداية، التي هي هداية العلم وهداية التوفيق. لأن الهداية تنقسم إلى قسمين: هداية علم وإرشاد، وهداية توفيق وعمل. فالأولى: ليس فيها إلا مجرد الدلالة، والله عز وجل قد هدى بهذا المعنى جميع الناس، كما في قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ { البقرة: 185 }. أما الثانية: ففيها التوفيق للهدى واتباع الشريعة، كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ { البقرة: 2} وهذه قد يحرمها بعض الناس، كما قال تعالى:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ { فصلت: 17}.

- إن الصراط ينقسم إلى قسين: مستقيم ومعوجّ، فما كان موافقاً للحق فهو مستقيم، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴿١٥٣﴾ ﴾ { الأنعام: 153}. وما كانَ مخالفا وموافقا للباطل فهو معوجّ.

أما الاخبار والقصص ففي قوله تعالى:

- **صراط الذين أنعمت عليهم**

نصب الصراط ليدل على أنه بدلٌ من الأول، وفائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير والإشعار بأن الصراط المستقيم هو صراط المسلمين، ليكون بذلك شهادة للمسلين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده. ويجوز أن يكون عطف بيان، وفائدته الإيضاح. أخرج ابن الأنباري عن الحسن أنه كان يقرأ "عليهِمي" بكسر الهاء والميم وإثبات الياء.

وأخرج ابن الأنباري عن الأعرج، أنه كان يقرأ: "عليهُمُو" بضم الهاء والميم وإلحاق الواو.

واخرج ابن الأنباري عن عبد الله بن كثير، أنه كان يقرأ "عليهِمُو" بكسر الهاء وضم الميم مع إلحاق الواو.

وأخرج ابن الأنباري عن ابن إسحق أنه كان يقرأ "عليهُمْ" بضم الهاء والميم من غير إلحاق الواو.

واخرج ابن أبي داود عن إبراهيم قال: كان عكرمة والأسود يقرآنها: صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين". وهو تفسير للصراط المستقيم، وهو بدل منه عند النحاة. ويجوز أن يكون عطف بيان، وتصريح بأن هناك قوما تقدموا. وقد شرع الله شرائع لهدايتهم، وصائح يصيح: ألا فانظروا في الشئون العامة التي كانوا عليها، واعتبروا بها. كما قال تعالى لنبيه ﷺ، يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴿٩٠﴾ ﴾ {الانعام: 90}. حيث بين أن القصص هي للعظة والاعتبار.

أما الذين أنعم الله عليهم، فهم المذكورون في سورة النساء، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ {النساء: ٦٩}

وفسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين وغير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى. وقيل: إنما سمي اليهود بهذا الاسم لقولهم: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ {الأعراف: ١٥٦} وسميت النصارى بهذا الاسم من كلمة عيسى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ {الصف: ١٤} وأخرج ابن جرير عن قتادة: "إنما تسموا

نصارى بقرية تسمى الناصرة (في فلسطين).

ونحن نقول: إن الفاتحة أول سورة نزلت، كما قال الإمام علي كرم الله وجهه، وهو أعلم بهذا من غيره، لأنه تربى في حجر النبي ﷺ، وأول من آمن به، وإن لم تكن أول سورة على الإطلاق، فلا خلاف في أنها من أوائل السور، ولم يكن المسلمون في أول نزول الوحي بحيث يطلب الاهتداء بهادهم، وما هداهم إلا من الوحي، ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذا السبيل، سبيل من أنعم الله عليهم من قبلهم، فأولئك غيرهم. وإنما المراد بهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ { الأنعام: 90}. وقوله: ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ { النساء: 69}. أي من الأمم السالفة. فقد أحال على معلوم أجمله في الفاتحة، وفصله في سائر القرآن بقدر الحاجة. فثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص وتوجيه للأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم: في كفرهم وإيمانهم، وشقاوتهم وسعادتهم، ولا شيء يهدي الإنسان كالمثلات والوقائع.. فإذا امتثلنا الأمر والإرشاد، ونظرنا في أحوال الأمم السالفة، وأسباب علمهم وجهلهم، وقوتهم وضعفهم، وعزهم وذلهم، وغير ذلك مما يعرض للأمم، كان لهذا النظر أثر في نفوسنا، يحملنا على حسن الأسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم، فيما كان سبب السعادة والتمكن في الأرض، واجتناب ما كان سبب الشقاوة، أو الهلاك، والدمار. من هنا يتجلى للعاقل شأن علم التاريخ، وما فيه من الفوائد والثمرات.

قد يسأل سائل: كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وإرشادات لم تكن عندهم؟ وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم، وأصلح لزماننا وما بعده؟ فالجواب: إن القرآن الكريم يبين لنا الجواب عنه، وهو أنه يصرح بأن دين الله في جميع الأمم واحد، وإنما تختلف الأحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان، وأما الأصول فلا خلاف فيها. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ { آل عمران: 64}. وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ

نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴿١٦٣﴾ ﴾ { النساء: 163}. فالإيمان بالله ورسله وباليوم الآخر، وترك الشر وعمل البر، والتخلق بالأخلاق الفاضلة مستو في الجميع.

وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا فيه، والاعتبار بما صاروا إليه، لنقتدي بهم في القيام على أصول الخير، وهو أمر يتضمن الدليل على أن في ذلك الخير والسعادة، على حسب طريقة القرآن في قرن الدليل بالمدلول، والعلة بالمعلول، والجمع بين السبب والمسبب، وتفصيل الأحكام التي هذه كلياتها بالإجمال، ونعرفها من شرعنا وهدى نبينا ﷺ، بتفصيل وإيضاح.

ومن فوائد هاتين الآيتين:

- تفصيل لما سبق، لأن النفس إذا جاء المجمل تترقب، وتتشوق للتفصيل والبيان، فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوقة إليه، مع بيان الذين أنعم الله عليهم على الصراط المستقيم.
- إسناد النعمة إلى الله تعالى وحده في هداية الذين أنعم الله عليهم، لأنها فضل محض من الله.

وفي قوله تعالى:

- **غير المغضوب عليهم ولا الضالين**

وهم الذين غضب الله عليهم، ومنعت عنهم هداية الإيمان، وهم الذين عرفوا المنهج فخالفوه، وارتكبوا كل ما حرم الله فاستحقوا غضبه. وهي بدل من الذين أنعمت عليهم.

الغضب في اللغة: الشدة، ورجل غضوب: أي شديد الغضب. والغضوب الحية الخبيثة لشدتها. ومعنى الغضب في صفة الله: إرادة العقوبة فهي صفة لذاته. أو نفس العقوبة. ومنه الحديث: "إن الصدقة لتطفئ غضب الرب". فهو صفة فعله. قال في الكشاف: هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقوبة بهم. وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده..

أما وصفه تعالى: الذين أنعم الله عليهم بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

فالمختار فيه أن المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به، والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه، ولم يتقبلوه انصرافا عن الدليل. ورضاء بما ورثوه من القليل، ووقوفا عند التقليد عكوفا على هوى غير رشيد.

أما الفرق بين عليهم الأولى وعليهم الثانية، أن الأولى في محل نصب على المفعولية، والثانية في محل رفع على النيابة عن الفاعل. أما لا في قوله: ولا الضالين: فهو تأكيد للنفي المفهوم من كلمة غير.

والحقيقة من أنه إنما جيء بلا لتأكيد النفي، لئلا يتوهم أنه معطوف على الذين أنعمت عليهم. وللفرق بين الطريقتين، ليتجنب كل واحد منهما، فإن طريقة أهل الأيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى. وقد زعم بعض النحاة أن "غير" ههنا استثنائية، فيكون على هذا استثناء منقطعا، لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم.

وأخرج عبد الرزاق وأحمد في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير والبغوي وابن المنذر وابن الشيخ عن عبد الله بن شفيق قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ وهو بوادي القرى على فرس له، وسأله رجل من بني العين،.فقال: "من المغضوب عليهم يا رسول الله؟" قال: "اليهود". قال: فمن الضالون؟ قال: "النصارى".

أما الضلال في لسان العرب، فهو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝ ﴾ {السجدة: 10}: أي غبنا بالموت وصرنا ترابا مختلطا بترابها.

أما الضالون: فهم الذين لم يعرفوا الحق البتة، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح، الذي يقرن به العمل. وقرن المعطوف في قوله ولا الضالين بلا، لما في غير من معنى النفي، أي وغير الضالين، وفيه تأكيد للنفي، لئلا يتوهم أنه معطوف عل الذين أنعمت عليهم.. وهذا يدل على أن المغضوب عليهم، ولا شك أنهم ضالون أيضا، والضالون، هم بنبذهم الحق وراء ظهورهم، واستدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها، فلا يصلون منها إلى مطلوب، ولا يهتدون فيها إلى مرغوب.

هناك فرق بين من عرف الحق فأعرض عنه على علم، وبين من لم يظهر له الحق، فهو تائه في الطرق، لا يهتدي إلى الجادة الموصلة إليها، وهم من لم تبلغهم الرسالة، أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق. فهؤلاء هم أحق باسم الضالين، لأن الضال حقيقة هو التائه الواقع في عماية، لا يهتدي معها إلى مطلوب ،والعماية في الدين هي الشبهات، التي تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ.

~~- قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: غير صراط المغضوب عليهم: هم الذين فسدت~~ إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق. وأكد الكلام بـ" لا " في قوله ولا الضالين، ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقا اليهود والنصارى.

ومنهم من زعم أن لا في قوله: ولا الضالين زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين".

أما الضالون، فهناك الضالّ والمضلّ، والضال هو الذي ضل الطريق واتخذ منهجا غير منهج الله، ومشى في الضلالة بعيدا عن الهدى، وعن دين الله. ولكن المضل، هو من لم يكتف بأنه ابتعد عن منهج الله، وسار الحياة على غير هدى، بل يحاول أن يأخذ غيره إلى الضلالة،.. يغري الناس بالكفر، وعدم اتباع المنهج، والبعد عن طريق الله، وكل واحد من العاصين يأتي يوم القيامة يحمل ذنوبه، إلا المضل، فإنه يحمل ذنوبه وذنوب من أضلهم، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (1)

وعن عائشة (رضي الله عنها)قالت: لما نزل برسول الله ﷺ، طفق يطرح خميصة على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: " لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أوليائهم مساجد". ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: " إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد". رواه أبو حاتم في صحيحه.

---

(1) سورة النحل، آية 25

قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ { التوبة: 34}.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ﴿٣٠﴾ ﴾ { التوبة: 30 }.

ولم يكتف اليهود بهذا، بل اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات، كاليد والعصا وفلق البحر، ورفع الجبل فوقهم، وتظليل الغمام عليهم، ولم يدخلوا باب بيت المقدس، أو أريحا سجّدا، ورفضوا نعمة الله عليهم، بما أنعم الله عليهم من المنّ والسلوى، وطلبوا مما تنبت الأرض من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل، وعدوا في السبت، وقتلوا الأنبياء، فطبع الله على قلوبهم بكفرهم، واستحقوا الغضب من الله تعالى فقال سبحانه وتعالى: ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ { البقرة: 65 }. حيث مسخهم الله قردة بمعصيتهم، ولم يعش مسيخ قط ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. قيل إن المسخ تم وهم لا يدرون، ولما وجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى خلق أقل من الإنسان، لم يأكلوا ولم يشربوا حتى ماتوا. وقال بعض العلماء: إن الإنسان إذا مسخ فإنه لا يتناسل، ولذلك فبمجرد مسخهم لم يتناسلوا حتى انقرضوا.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: " القردة والخنازير من نسل الذين مسخوا ". أضلهم الله بعد الهدى، فبمعصيتهم غضب الله عليهم، ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴿٦٠﴾ ﴾ { المائدة: 60}.، في الدنيا والآخرة.

وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: " انقطع ذلك النسل ". وخاسئين: مطرودين صاغرين. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم بقوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ { الجمعة: 5 }.

أما السبت في أصل اللغة فمعناه: القطع، لأن الأشياء تمّت فيه، وانقطع العمل. وقيل هو مأخوذ من السبوت، وهو الراحة والدعة. وقال في الكشاف: السبت مصدر سبتت اليهود: إذا عظمت يوم السبت.

ذكر جماعة من المفسرين أن اليهود افترقت فرقتين: فرقة اعتدت في السبت، أي جاوزت ما أمرها الله به من العمل فيه، فصادوا السمك الذي نهاهم الله عن صيده فيه، والفرقة الأخرى انقسمت إلى فرقتين: فرقة جاهرت بالنهي واعتزلت، وفرقة لم توافق المعتدين، ولا صادوا معهم، لكنهم جالسوهم ولم يجاهروهم بالنهي، ولا اعتزلوا عنهم فمسخهم الله جميعا، ولم تنج إلاّ الفرقة الأولى فقط. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ { البقرة:65–66}.

وقالت النصارى: المسيح ابن الله، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ { النساء: 171 }.

اختلف في لفظ المسيح مما أخذ، فقيل من المسح: لأنه مسح الأرض، أي ذهب بها ولم يستكنّ بكنّ. وقيل إنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، فسمي مسيحا. وقيل لأنه كان يمسح بالدهن الذي كانت الانبياء تمسح به. وقيل لأنه كان ممسوح القدمين. وقيل لأن الجمال مسحه. وقيل لأنه مسح بالتطهير من الذنوب.

وقال ابن الأعرابي: المسيح الصدّيق. أما الدجال فسمي مسيحا لأنه ممسوح إحدى العينين. وقيل لأنه يمسح الأرض أي يطوف بلدانها، إلا مكة والمدينة وبيت المقدس.

والنصارى مع تفرق مذاهبهم متفقون على التثليث، ويعنون بالثلاثة الثلاثة أقانيم، فيجعلونه سبحانه وتعالى جوهرا واحدا، وله ثلاثة أقانيم. ويعنون بالأقانيم: أقنوم الوجود، وأقنوم الحياة، وأقنوم العلم. وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب، والابن، والروح

القدس. فيعنون بالأب الوجود، وبالابن المسيح، وبالروح الحياة. وقد اختبط النصارى في هذا اختباطا طويلا، ولم ينتهوا، وظلوا يهيمون في ضلالتهم، وختم الله على قلوبهم. وظهر أثر التخبط والاضطراب في أعماله المعاشية، وحل به من الرزايا ما يتبع الضلال والخبط عادة، سنة الله في هذا العالم ولن تجد لسنة الله تبديلا.

إن الضالين على أقسام:

القسم الأول:

من لم تبلغهم الرسالة أو الدعوة، أو بلغتهم على وجه لا يسوق إلى النظر. فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية، سوى ما يحصل بالحس والعقل، وحرموا رشد الدين، فإن لم يضلوا في شؤونهم الدنيوية، ضلوا لا محالة فيما تطلب به نجاة الأرواح وسعادتها في الحياة الأخرى. على أن من شأن الدين الصحيح، وهو دين الإسلام، أن يفيض على أهله من روح الحياة، ما به يسعدون في الدنيا والآخرة معا. فمن حرم الدين حرم السعادتين.

إن الذين حرموا هداية الدين، لا يعقل أن يؤاخذوا في الآخرة، على ترك شيء مما لا يعرف إلا بهذه الهداية، وهذا هو معنى كونهم غير مكلفين. وعليه جمهور المتكلمين لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ { الإسراء: 15 }. ومن قال إنهم مكلفون بالعقل لا يظهر وجه لقوله، إلا إذا أراد أن حالهم في الآخرة، تكون على حسب ارتقاء أرواحهم بهداية العقل وسلامة الفطرة.

إذ لا شك أن من لم يبعث فيهم رسول، يتفاوتون في إدراكهم وأعمالهم، بتفاوت استعدادهم الفطري، وما يصادفون من حسن التربية أو قبحها. وبهذا يجمع بين القولين في تكليفهم وعدمه، أو يفصل بينهما. وما يعطيهم الله تعالى إياه في الآخرة، على حسب أعمالهم في الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، يكون جزاء عادلا على أعمالهم الاختيارية، ويزيدهم من فضله إن شاء.

القسم الثاني:

من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر، فساق همته إليه، واستفرغ جهده

فيه، ولكن لم يوفق إلى الإيمان بما دعي إليه، وانقضى عمره وهو في الطلب. وهذا القسم لا يكون إلا أفرادا متفرقة في الأمم، ولا يعم حاله شعبا من الشعوب، ولا يظهر له أثر في أحوالها العامة، وما يكون لها من سعادة وشقاء في حياتها الدنيا. أما صاحب هذه الحالة فلا ريب، أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذي أنكر التنزيل، واستعصى عليه الدليل. وكفر بنعمة العقل، ورضي بحظه من الجهل.

القسم الثالث:

من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها، بدون نظر في أدلتها ولا وقوف على أصولها، فاتبعوا أهواءهم في فهم ما جاءت به من أصول العقائد. وهؤلاء هم المبتدعة في كل دين، ومنهم المبتدعون في دين الإسلام، وهم المنحرفون في اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن، وما كان عليه السلف الصالح، وأهل الصدر الأول. ففرقوا الأمة إلى مشارب يغص بمائها الوارد، ولا يرتوي منها الشارب.

القسم الرابع:

ضلال في الأعمال، وتحريف للأحكام عما وضعت له، كالخطأ في فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات، والخطأ في فهم الأحكام التي وردت في المعاملات.

أما أقسام الضلال: أولها وثالثها رابعها، فيظهر أثرها في الأمم، فتختل قوى الإدراك فيها، وتفسد الأخلاق وتضطرب الأعمال، ويحل بها الشقاء عقوبة من الله لا بد من نزولها بهم، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته تحويلا.

لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه، بأن يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده، وتقويم العقول والأعمال بفهم ما هدانا إليه، وأن يجنبنا طريق أولئك الذين ظهرت فيهم آثار نقمه بالانحراف عن شرائعه، سواء كان ذلك عمدا وعنادا، أو غواية أو جهلا. فإذا ضلت الأمة سبيل الحق لعب الباطل بأهوائها، ففسدت أخلاقها، واعتلت أعمالها. ووقعت في الشقاء لا محالة، وسلط عليها من يستذلها ويستأثر بشؤونها، ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم القيامة، وإن كانت ستلاقي نصيبها منه أيضا. فإذا تمادى بها الغي، وصل بها الهلاك، ومحا أثرها من الوجود، لهذا علمناالله تعالى كيف

ننظر في أحوال من سبقنا، ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الأمم، لنعتبر ونميز بين ما بـه تسعد الأقوام، وما به تشقى.

أما تصريح بأن غير المنعم عليهم، ففريقان: فريـق ضـلّ عـن صـراط الله، وفريـق جحـده وعاند من يدعو إليه، فكان محفوفا بالغضب الإلهي، والخزي في هذه الحياة الدنيا. وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه. وباقي القرآن يفصل لنا في أخبـار الأمم هذا الإجمال، على الوجه الذي يفيد العبرة، فيـشرح حـال الظـالمين الـذين قـاوموا الحق عنادا، والذين ضلوا عنـه ضـلالا بعيـدا، بعـد أن فقـدوا العلـم، فهـم هـائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وحال الذين حافظوا عليه، وصبروا علـى مـا أصـابهم في سبيله إيمانا وتسليما.

ومن فوائد الآيتين الكريمتين:

- انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم، وقسم مغضوب عليهـم، وقسم ضالون. أما أسباب الخروج عـن الـصراط المستقيم: إمـا الجهـل، أو العناد. والذين سـبب خروجهم العناد فهم المغضوب عليهم، وعلى رأسهم اليهود. أما الذين كان سبب خروجهم الجهل، فهم النصارى.
- بلاغة القرآن، حيث جاء التعبير عن غير المغضوب علـيهم باسـم المفعـول، الدال على أن الغضب عليهم حاصل من الله تعالى.
- إن يقدم الأشد فالأشد، لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم قبل الضالين، لأنهم أشد مخالفة للحق من الضالين.

- **آمين**

إن كلمة آمين هي من كلام جبريـل لرسـول الله ﷺ، وليـست كلمـة مـن القـرآن، ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها "آمين"، وهو صوت سمي به الفعل الـذي هـو استجب. لأن مـشروعية التـأمين صـريحة وثابتـة تـواترا، بـنص الأحاديـث الـصحيحة الصريحة، مثبتة للعمل بها، ومخالفها مفهوم اجتهادي، والعملي لا يحتمل التأويـل، وهـو دعاء مشروع بخصوصه، وبأدلة عامة.

اختلف العلماء هل كلمة آمين عربية أم غير عربية؟ وهنا يثور سؤال: كيف تدخل كلمة غير عربية في قرآن حكم الله بأنه عربي؟ فالجواب: إن ورود كلمة ليست من أصل عربي في القرآن، لا ينفي أن القرآن كله عربي، فهناك ألفاظ دخلت في لغة العرب قبل أن ينزل القرآن، ولكنها دارت على الألسن بحيث أصبحت عربية، وألفتها الآذان العربية.

فليس المراد بالعربي هو أصل اللغة العربية وحدها، وإنما المراد أن القرآن نزل باللغة التي لها شيوع على ألسنة العرب. وما دام اللفظ قد شاع على اللسان قولا والآذان سمعا، فإن الأجيال التي تستقبله لا تفرق بينه وبين غيره من الكلمات، التي هي من أصل عربي، فاللفظ الجديد أصبح عربيا بالاستعمال، وعند نزول القرآن كانت الكلمة شائعة شيوع الكلمة العربية.

إن كلمة آمين ليست فعلا، فهي اسم مدلوله مدلول الفعل، معناه: استجب. كقولك: آه، فهي اسم لفعل معناه: أتوجع. وكقولك: أف، فهي اسم فعل بمعنى. أتضجر.

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: يا موسى، إني أعطيت أمة محمد أربعة أحرف، أولها من التوراة، وثانيها من الإنجيل، وثالثها من الزبور، ورابعها من القرآن". قال موسى: وما هي الحروف؟" قال تعالى: "هي حروف آمين، فمن قالها، فكأنما قرأ الكتب الأربعة".

وقيل: ألف آمين مكتوب على ركن العرش، والميم مكتوب على ركن الكرسي، والياء مكتوب على اللوح، والنون مكتوب على القلم. ومن قال بعد دعائه: آمين، تحرك هؤلاء كلهم يستغفرون لقائلها، فيقول الله تعالى: اشهدوا، فإني غفرت له".

وفي رواية: الألف مكتوب على جبهة جبريل، والميم مكتوب على جبهة ميكائيل، والياء مكتوب على جبهة إسرافيل، والنون مكتوب على جبهة عزرائيل،، فإذا قال العبد المؤمن: آمين، كلهم يسجدون لله تعالى، ويقولون: اللهم اغفر لقائل هذه الحروف. ولا يرفعون رؤوسهم حتى يغفر الله له.

وأثر عنه ﷺ قوله: "إذا قال العبد المؤمن: آمين، خلق الله تعالى من كل حرف ملكا،

لكل ملك ثلاثمائة ريشة وفم ولسان، يسبحون الله تعالى إلى يوم القيامة ويقولون: طوبى لمن قال آمين في الدنيا بالصدق والإخلاص". أخرج الديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قرأ فاتحة الكتاب، ثم قال: آمين، لم يبق في السماء ملك مقرب إلا استغفر له".

أخرج وكيع وابن ابي شيبة عن أبي ميسرة قال: "لما أقرأ جبريل رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب، فبلغ ولا الضالين قال: "قل "آمين". فقال "آمين".

وأخرج جويبر في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس قال: قلت يا رسول الله، ما معنى آمين؟ قال: "رب افعل".

وقال الجوهري: معنى آمين: "كذلك فليكن". وقال الترمذي معناه: لا تخيّب رجاءنا. وقال الأكثرون معناه: اللهم استجب لنا.

قال السلف وغيرهم: ويستحب ذلك أي التأمين، لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، سواء كان منفردا أو إماما أو مأموما، لما أخرج مالك والشافعي وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "إذا أمّن الإمام فأمّنوا، فإنه من وافق تأمينه الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه".

ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال: "إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه".

وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن أبي شيبة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قرأ – يعني الإمام – غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقولوا: آمين، يجبكم الله".

وأخرج أبو يعلى في مسنده وابن مردويه بسند جيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قال الإمام ولا الضالين: قال الذين خلفه آمين، التقت من أهل السماء وأهل الأرض. ومن لم يقل آمين، كمثل رجل غزا مع قوم فاقترعوا سهامهم ولم يخرج سهمه، فقال: ما لسهمي لم يخرج؟ قال: إنك لم تقل آمين.

وأخرج أبو داود بسند حسن عن أبي زهير النميري – وكان من الصحابة – أنه كان إذا دعا الرجل بدعاء قال: "أختمه بآمين"، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة.

وقال: أخبركم عن ذلك: خرجنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألح في المسألة، فوقف النبي ﷺ يسمع منه، فقال النبي ﷺ: أوجب إن ختم. فقال رجل من القوم: بأي شيء يختم؟ قال: بآمين، فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب". وأخرج أحمد وابن ماجة والبيهقي في سننه عن عائشة عن النبي ﷺ قال: "حسدتكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على التأمين".

وأخرج ابن ماجة بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين، فأكثروا من قول آمين".

وأخرج ابن عدي في الكامل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن اليهود قوم حسد، حسدوكم على ثلاثة أشياء: إفشاء السلام، وإقامة الصف، وآمين".

وأخرج الطبراني في الأوسط عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: "إن اليهود قوم حسد، ولم يحسدوا المسلمين على أفضل من ثلاث: رد السلام، وإقامة الصفوف، وقولهم خلف إمامهم في المكتوبة: آمين".

وأخرج الحرث بن أسامة والترمذي وابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "أعطيت ثلاث خصال: أعطيت صلاة في الصفوف، وأعطيت السلام وهو تحية أهل الجنة، وأعطيت آمين ولم يعطها أحد مما كان قبلكم، إلا أن يكون الله أعطاها هارون، فإن موسى كان يدعو وهارون يؤمن".

وأخرج وكيع وابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجة والحاكم وصححه، والبيهقي عن وائل بن حجر الحضرمي قال: "سمعت رسول الله ﷺ قرأ: "غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقال: آمين، يمدّ بها صوته". وفيه لغتان: مدّ ألفه وقصرها.

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حُجر قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ: غير المغضوب عليهم ولا الضالين" فقال: آمين، مدّ بها صوته". ولأبي داود: رفع بها صوته. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وروي عن علي وابن مسعود وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان رسـول الله ﷺ إذا تلا: غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: آمين، حتى يسمع من يليه من الصف الأول". رواه أبو داود وابن ماجة وزاد فيه: فيرتجّ بها المسجد". ورواه الدار قطني وقال هذا إسناد حسن.

الفصل الثالث

تفسير آية الكرسي

الآية 255 من سورة البقرة، وهي مدنية

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾[1].

رتبت الجمل في آية الكرسي بلا حرف عطف، لأنها وردت على سبيل البيان، على النحو التالي:

- بيان لقيمه تعالى بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه، غير ساه عنه.
- لكونه خالقا لما يدبره.
- لكبرياء شأنه.
- لإحاطته بأحوال الخلق.
- لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلالة وعظم قدره.

أخرج مسلم والترمذي وأحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة". وأخرج أبو عبيد عن أنس نحوه مرفوعا.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدارمي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: "تعلموا سورة البقرة، فإن فيها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة". ثم سكت ساعة، ثم قال: "تعلموا سورة البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان، تظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير

---

(1) سورة البقرة، آية 255.

صواف". إسناده حسن على شرط مسلم.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول:" يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله، الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدمه سورة البقرة وآل عمران تُحاجان عن صاحبهما". رواه مسلم.

وقد ورد في فضل آية الكرسي أحاديث متعددة، فأخرج أحمد ومسلم واللفظ له، ومسلم وأبو داود والهروي عن أبي ابن كعب أن النبي ﷺ سأله:: أي آية من كتاب الله أعظم؟" قال: "آية الكرسي". قال ﷺ: "ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده، إن لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش". والعرش فوق كل شيء، وفوق العرش رب العالمين.

وأخرج الحاكم من حديث زائدة مرفوعا: "لكل شيء سنام، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي". وأخرج أبو داود والترمذي وصححه، من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:" في هاتين الآيتين﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴿٢٥٥﴾ ﴾[1]، و ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[2]، إن فيهما اسم الله الأعظم".

وأخرج البغوي في معجم الصحابة وابن عساكر في تاريخه عن ربيعة قال: سئل رسول الله ﷺ: "أي القرآن أفضل؟ قال: "السورة التي يذكر فيها البقرة". قيل: فأي البقرة أفضل؟ قال: "آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، نزلت من تحت العرش".

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: "كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة، أو آية الكرسي ضحك، وقال: "إنهما من كنز الرحمن تحت العرش".

وعن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال: "ما قرئت هذه الآية في دار، إلا اجتنبتها الشياطين ثلاثين يوما، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة. يا علي، علّمها ولدك وأهلك وجيرانك، فما نزلت آية أعظم منها".

---

(1) سورة البقرة، آية 255.

(2) سورة آل عمران، آية 1.

وعن علي كرم الله وجهه قال: "سمعت نبيكم على أعواد المنبر يقول: من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت. ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد. ومن قرأها إذا أخذ مضجعه، أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره، والأبيات حوله".

وتذاكر الصحابة أفضل ما في القرآن، فقال علي: "أين انتم من آية الكرسي؟ ثم قال: قال رسول الله ﷺ: "يا علي سيد البشر آدم، وسيد العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال طور سيناء، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي".

وأخرج البخاري في تاريخه، والطبراني وأبو نعيم في المعرفة بسند رجاله ثقات عن ابن الأسقع البكري، أن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين، فسأله إنسان: "أي آية في القران أعظم؟" فقال النبي ﷺ: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم... الآية. وأخرج أحمد من حديث أبي ذر مرفوعا نحوه.

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود، أن النبي ﷺ قال: "أعظم آية في كتاب الله: الله لا إله إلا هو الحي القيوم.. الآية. وأخرج سعيد بن منصور والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن، لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسي". قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ومن الآيات التي لا نظير لها بعد آية الكرسي: قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ (1).

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها مستقلة عن التي

(1) سورة الشورى، آية 15.

قبلها، ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضا عشر فصول.

وأخرج النسائى وأبو يعلى وابن حبان وأبو الشيخ في العظمة، والطبراني والحاكم وصححه، وأبو نعيم والبيهقي معا في الدلائل، عن أبي بن كعب قال: إنه كان له جرن فيه تمر، فكان يتعاهده، فوجده ينقص، فحرصه ذات ليلة. فإذا هو بدابة شبه الغلام المحتلم، قال: "فسلمت فرد السلام". فقلت: "ما أنت؟ جني أم إنسي؟" قال: "جنّي". قلت: "ناولني يدك". فناولني، فإذا يده يد كلب، وشعره شعر كلب، فقلت: "هكذا خلق الجن؟" قال: "لقد علمت الجن أن ما فيهم من هو أشد مني". قلت: "ما حملك على ما صنعت؟" قال: بلغني أنك رجل تحب الصدقة، فأحببنا أن نصيب من طعامك." فقال له أبيّ: "فما الذي يجيرنا منكم؟" قال: "هذه الآية: آية الكرسي التي في سورة البقرة، من قالها حين يمسي، أجير منا حين يصبح، ومن قالها حين يصبح، أجير منا حتى يمسي". فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: "صدق الخبيث".

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان، ومحمد بن نصر الطبراني والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن معاذ بن جبل قال: "ضم إليّ رسول الله ﷺ تمر الصدقة، جعلته في غرفة لي، فكنت أجد فيه كل يوم نقصانا، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال لي: "هو عمل الشيطان فارصده". فرصدته ليلا، فلما ذهب هوى من الليل، أقبل على صورة الفيل، فإذا انتهى إلى الباب، دخل من خلل الباب على غير صورته، فدنا من التمر فجعل يلتقمه، فشددت عليّ ثيابي فتوسطته، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، يا عدو الله، وثبْت إلى تمر الصدقة فأخذته، وكانوا أحق به منك. لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فيفضحك. فعاهدني أن لا يعود. فغدوت إلى رسول الله ﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟ فقلت: عاهدني أن لا يعود: فقال: إنه عائد فارصده. فرصدته الليلة الثانية، فصنع مثل ذلك، فعاهدني أن لا يعود. فخليت سبيله. ثم غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: "إنه عائد فارصده". فرصدته الليلة الثالثة، فصنع مثل ذلك، فقلت: يا عدو الله عاهدتني مرتين وهذه الثالثة. فقال "أنا ذو عيال، وما أتيتك إلا من نصيبين، ولو أصبت شيئا دونه ما أتيتك. ولقد كنا في مدينتكم هذه، حتى بعث صاحبكم، فلما نزلت عليه آيتان أنفرتنا منها، فوقعنا بنصيبين، ولا تقرآن في بيت لم يلج فيه الشيطان ثلاثا، فإن

خليت سبيلي علّمتكهما. قلت: نعم. قال: آية الكرسي، وآخر سورة البقرة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ ﴾ [1]، فخليت سبيله، ثم غدوت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بما قال، فقال: "صدق الخبيث وهو كذوب". قال: فمكثت أقرأهما بعد ذلك، فلا أجد فيه نقصانا".

وأخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: "وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو.. وذكر القصة. وفي آخرها أنه قال له: "دعني أعلّمك كلمات ينفعك الله بها". قلت: "ما هي؟" قال: "إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح". فأخبر أبو هريرة بذلك رسول الله ﷺ فقال: "أما إنه صدقك وهو كذوب. تعلم من تخاطب يا أبا هريرة؟ قال: "لا". قال: "ذلك شيطان كذا".

وأخرج أحمد وابن الضريس والهروي في فضائله عن أنس: أن رسول الله ﷺ سأل رجلا من أصحابه: هل تزوجت؟ قال: لا، وليس عندي ما أتزوج به. قال: أو ليس معك قل هو الله أحد؟ قال: بلى. قال: ربع القرآن، أليس معك قل يا أيها الكافرون؟ قال بلى. قال: ربع القرآن، أليس معك إذا زلزلت؟ قال بلى. قال: ربع القرآن، أليس معك إذا جاء نصر الله والفتح؟ قال بلى. قال: ربع القرآن، أليس معك آية الكرسي؟ قال بلى. قال: فتزوج".

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ في دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي، حفظ إلى الصلاة الأخرى، ولا يحافظ عليها إلا نبي أو صديق أو شهيد".

وأخرج ابن مردويه والشيرازي في الألقاب والهروي في فضائله عن ابن عمر، أن عمر بن الخطاب خرج ذات يوم إلى الناس، فقال: "أيكم يخبرني بأعظم آية في القرآن، وأعدلها، وأخوفها، وأرجاها؟ فسكت القوم. فقال ابن مسعود: على الخبير سقطت. سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(1) سورة البقرة، آية 285.

- اعظم آية في القرآن: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾.
- وأعدل وأجمع آية في القرآن: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[1].
- وأخوف آية في القرآن: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[2].
- وأرجى وأفرح آية في القرآن: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾[3].

- وأشد آية في كتاب الله تفويضا: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝ ﴾ {الطلاق: ٢ - ٣}
- اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية من أسماء الله عز وجل، وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعا فيها اسم الله تعالى، ظاهرا في بعضها، ومستكنا في بعض.

الأول: الله، **والثاني**: هو، **والثالث**: الحي، **الرابع**: القيوم، **والخامس**: ضمير لا تأخذه، **والسادس**: ضمير له، **والسابع**: ضمير عنده، **والثامن**: ضمير إلا بإذنه، **والتاسع**: ضمير يعلم، **والعاشر**: ضمير علمه، **والحادي عشر**: ضمير شاء، **والثاني عشر**: ضمير

(1) سورة النحل، آية 90.

(2) سورة الزلزلة، آية 7-8.

(3) سورة الزمر، آية 53.

كرسيه، **والثالث عشر**: ضمير ولا يؤوده، **والرابع عشر**: وهو، **والخامس عشر**: العلي، **والسادس عشر**: العظيم. **أما السابع عشر**: فهو الضمير الخفي الذي اشتمل عليه المصدر في قوله: حفظهما.

قوله: **الله**: لفظ الجلالة، الواحد الأحد، الفرد الصمد.

لا إله إلا هو: في موضع رفع خبر المبتدأ وهو الله. أي لا معبود بحق إلا هو، وليس له شريك في الملك، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا. وكل معبود من دونه فهو خلق من خلق، لا يضرون ولا ينفعون، ولا يملكون رزقا ولا حياة ولا نشورا.

الحي: الباقي، الذي لا يموت. وقيل: الذي لا يزول ولا يحول، والذي لا سبيل عليه بالفناء. وهو على اصطلاح المتكلمين، الذي يصح أن يعلم ويقدر. وقيل: المصرف للأمور والمقدر للأشياء.

القيوم: وأصله: القيووم، اجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداهما السكون. فأدغمت الأولى في الثانية، بعد قلب الواو ياء. وقرأ ابن مسعود والأعمش: "الحي القيام" بالألف، وروي ذلك عن عمر. ولا خلاف بين أهل اللغة أن القيوم أعرف عند العرب وأصح بناء، وأثبت علة.

ومعنى القيّوم: القائم على كل نفس بما كسبت، وعلى كل شيء، والذي لا زوال له، ولا يبلى. وقيل: القائم بذاته المقيم لغيره. وقيل: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه. وقيل: هو الذي لا ينام. وقيل: الذي لا بديل له.

السِّنة: النعاس في قول الجمهور، والنعاس ما يتقدم النوم من الفتور وانطباق العينين، وهو ما يسمى بالنعاس. فإذا صار في القلب صار نوما، وفرّق أهل اللغة بين السنة والنعاس والنوم فقالوا: "السنة في الرأس، والنعاس في العين، والنوم في القلب".

أما الذي ينبغي التعويل عليه في الفرق بين السنة والنوم، أن السنة لا يفقد معها العقل، بخلاف النوم، فإنه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة، حتى يفقد معه العقل. والمراد أنه لا يعتريه سبحانه شيء منهما. وقدم السنة على النوم، لكونها تتقدمه في الوجود.

قال الرازي في تفسيره: "إن السنة ما تتقدم النوم، فإذا كانت عبارة عن مقدمة

النوم، دل على أنه لا يأخذه نوم بطريق الأولى. فكان ذكر النوم تكرارا، قلنا: تقدير الآية لا تأخذه سنة فضلا عن أن يأخذه نوم". والله أعلم بمراده.

قد يرد النوم ابتداء من دون ما ذكر للنعاس، وإذا ورد على القلب والعين دفعة واحدة، فإنه يقال له نوم، ولا يقال له سنة. فلا يستلزم نفي السنة عن النوم. وأيضا فإن الإنسان يقدر على أن يدفع عن نفسه السنة، ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه النوم. فقد يأخذه النوم ولا تأخذه السنة. فلو وقع الاقتصار في النظم القرآني على نفي السنة، لم يفد ذلك نفي النوم. وهكذا لو وقع الاقتصار على نفي النوم، لم يفد نفي السنة. وكرر حرف النفي للتنصيص على شمول النفي لكل واحد منهما.

ومعنى ذلك: أنه لا يأخذه نعاس ولا نوم، وهو تأكيد للقيّوم. لأن من جاز عليه ذلك، استحال أن يكون قيّوما.

أخرج عبد الرزاق في تفسيره، ومن طريقه الطبري عن معمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة مولى ابن عباس، وأخرجه أبو يعلى والطبري وابن الجوزي وكلهم عن الحكم ابن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة مرفوعا قال: إن موسى سأل الملائكة، وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية: أينام ربنا؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثا، ولا يتركوه ينام. ثم قال: خذ بيدك قارورتين مملوءتين، فأخذهما. وألقى الله عليه النعاس، فضرب أحدهما على الأخرى فانكسرتا. ثم أوحى الله إليه: قل لهؤلاء إني أمسك السموات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس لزالتا".

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس، أن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله. فناداه ربه: يا موسى، سألوك هل ينام ربك؟ فخذ زجاجتين في يديك وقم الليل. ففعل موسى. فلما ذهب من الليل ثلث، نعس فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعس، فسقطت الزجاجتان فانكسرتا. فقال: يا موسى، لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن، كما هلكت الزجاجتان في يديك".

وقوله سبحانه: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾{البقرة: ٢٥٥}:ملكا وخلقا وعبيدا.

وقوله سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾{البقرة: ٢٥٥}: من الملائكة والأنبياء. وفي هذا الاستفهام من الإنكار، على من يزعم أن أحدا من عباده يقدر على أن ينفع أحدا منهم بشفاعة أو غيرها، وهو بيان لملكوته وكبريائه، وأن أحدا لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة، إلا إذا أذن له سبحانه وتعالى في الكلام.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[1].

الشفاعة

بينت الأحاديث الصحيحة صفة الشفاعة، ولمن هي؟ ومن يقوم بها؟ وهي لله سبحانه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ { الزمر: 44 }. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإني قد خبأت دعوتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة".

وعن أبي نضرة قال: سمعت ابن عباس يخطب على منبر البصرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إنه لم يكن نبي إلا وله دعوة قد تنجّزها في الدنيا، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، وأن سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر. ما بال أقوام يزعمون أن رحمي لا ينفع، كيس كما زعموا، إني لأشفع وأشفع، حتى إن من أشفع له فيشفع، حتى أن إبليس ليتطاول في الشفاعة". رواه الطبراني في الأوسط.

وعن عبادة بن الصامت قال: فقد النبي ﷺ أصحابه، وكانوا إذا نزلوا تركوه وسطهم، ففزعوا، وظنوا أن الله اختار له أصحابا غيرهم، فإذا هم بخيال النبي ﷺ، فكبروا حين رأوه فقالوا: يا رسول الله، أشفقنا أن يكون الله تبارك وتعالى اختار لك أصحابا غيرنا. فقال رسول الله ﷺ: "لا، بل أنتم أصحابي في الدنيا والآخرة. إن الله تبارك وتعالى أيقظني فقال: يا محمد، إني لم أبعث نبيا ولا رسولا، إلا وقد سألني مسألة أعطيته إياها،

---

(1) سورة النبأ، آية 38.

فسل يا محمد تعط. فقلت: مسألتي شفاعة لأمتي يوم القيامة". فقال أبو بكر: يا رسول الله، وما الشفاعة؟ قال: أقول: يا رب، شفاعتي التي اختبأت عندك. فيقول الرب تبارك وتعالى: نعم. فيخرج ربي تبارك وتعالى بقية أمتي من النار، فيدخلهم الجنة". رواه أحمد والطبراني.

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: جعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأحلت لي الغنائم ولم تحلّ لنبي كان قبلي، ونصرت بالرعب مسيرة شهر على عدوي، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأعطيت الشفاعة، وهي نائلة من أمتي من لا يشرك بالله شيئا". رواه البزار بإسنادين حسنين.

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحدا قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأعطيت الشفاعة، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة"[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تبارك وتعالى خيّرني بين أن يغفر لنصف أمتي، وبين أن يجيب شفاعتي، فاخترت شفاعتي، ورجوت أن تكون أعم لأمتي".

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا.. لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر، يطوف علي ألف خادم كأنهن البيض المكنون – أو اللؤلؤ المكنون –".

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي رحزة يزيد بن عبيد الساعي قال: لما قفل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أتاه وفد من بني فزارة، فقالوا: يا رسول الله، ادع ربك أن يغيثنا، واشفع لنا عند ربك، وليشفع ربك إليك". فقال رسول الله ﷺ: "ويلكم، ما هذا؟ أنا شفعت إلى ربي، فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو العظيم، وسع كرسيه

---

(1) أخرج البخاري في كتاب التيمم، حديث رقم 335، ومسلم في مكتاب الصلاة، رقم الحديث 521.

السموات والأرض، فهي تئطّ من عظمته وجلاله، كما يئطّ الرجل الحديد".

اعلم يا أخي المسلم أن الشفاعة نوعان:

النوع الأول: الشفاعة المنفية في القرآن، وهي الشفاعة للكافر والمشرك. قال تبارك وتعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ (1). وقال تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ (2).

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (3).

أما النوع الثاني: الشفاعة التي أثبتها القرآن الكريم، وهي خالصة لأهل الإخلاص، وقيدها الله تعالى بأمرين:

الأمر الأول: إذنه للشافع أن يشفع. كما قال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ {البقرة: ٢٥٥}: وإذنه تعالى لا يصدر إلا إذا رحم عبده الموحد المذنب. فإذا رحمه الله تعالى، أذن للشافع أن يشفع له. وقال تعالى:

﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (4).

الأمر الثاني: رضاه سبحانه وتعالى عمن أذن للشافع أن يشفع فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ (5). وقال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ (6).

أخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، هل يبدأ بالشفاعة أو لا. ثم يقال له:

---

(1) سورة البقرة، آية 254.

(2) سورة المدثر، آية 48.

(3) سورة البقرة، آية 48.

(4) سورة سبأ، آية 23.

(5) سورة الأنبياء، آية 28

(6) سورة النجم، آية 26.

ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: " من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه ". فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله تعالى، ولا تكون لمن أشرك بالله. وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ ﴾ (1).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى، ثم تلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ (2).

قال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ ﴾ (3).

عن أبي هريرة قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله. قال إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة ". رواه البخاري.

وقبل أن تقوم الساعة ينفخ إسرافيل ثلاث نفخات والله أعلم.

الأولى: نفخة الفزع، وذلكم استعدادا لما بعدها. قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ (4). وقال تعالى:

(1) سورة النحل، آية 77.

(2) سورة لقمان، آية 34.

(3) سورة الأعراف، آية 187.

(4) سورة النمل، آية 87.

﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾[1].

الثانية: وهي نفخة الموت والصعق. قال تعالى: ﴿ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾[2]. وسميت كذلك، لأنها تردف النفخة الأولى، وبينهما أربعين سنة. وقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[3].

الثالثة: وهي نفخة البعث، قال تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[6]. هؤلاء هم الكفار الذين يصرخون: يا هلاكنا، من بعثنا من مرقدنا؟ فيردّ عليهم: هذا ما وعد به الرحمن وصدق المرسلون.. هذا يوم البعث الذي كنتم به تكذبون.

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾[7]. أي زجرة واحدة من الغضب. قال إبراهيم التيمي: أشد ما يكون الرب عز وجل غضبا على خلقه يوم يبعثهم." قال ابن عباس: الساهرة: الأرض كلها. وقال مجاهد: كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها،

---

(1) سورة المدثر، آية 9.

(2) سورة النازعات، آية 7.

(3) سورة الزمر، آية 68.

(4) سورة الزمر، آية 68.

(5) سورة ق، آية 44.

(6) سورة يس، آية 52.

(7) سورة النازعات، آية 14.

والساهرة: المكان المستوي. وقال الثوري: الساهرة: أرض الشام. وقال عثمان بن أبي العالية: الساهرة: أرض بيت المقدس. والصحيح أن الساهرة: هي وجه الأرض الأعلى، وهي أرض بيضاء عفراء خالية، بعد أن تبدل الأرض غير الأرض.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [1]. قيل هو جبريل. أي: استمع يا محمد إلى نداء ملك، من فوق صخرة بيت المقدس، التي هي أقرب نقطة من الأرض إلى السماء، وتبعد اثني عشر ميلا، وهي وسط الأرض: "أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، إن الله يأمركن أن تتجمّعن لفصل القضاء". حيث يجمعهم الله سبحانه بعد التفرق والشتات". وذلك أن الله سبحانه ينزل مطرا من البحر المسجور، وهو الماء الذي تحت العرش السماء، ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها، وتحيا يوم معادها، كما ينبت الحب في الثرى من الماء. بعد أن تكون عظام البشر قد بليت، وأصبحت ترابا، ولم يبق منها إلا عجب الذنب[2]، فيه يركب الخلق.

فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه، خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله عز وجل: "وعزتي وجلالي، لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره". فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ، وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا، مهطعين إلى الداع، ليجازى كل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ [3]. حيث يجمع الله في هذا اليوم أهل المحشر للجزاء، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله، وبين كل نبي وأمته،

---

(1) سورة ق، آية 42.

(2) عجب الذنب: هو أول شيء يخلق من الآدمي، وهو رأس العصعص، الذي هو عبارة عن عظم لطيف في أسفل الصلب.

(3) سورة التغابن، آية 9.

وبين كل مظلوم وظالمه، وبين الأولين والآخرين. وفي هذا اليوم يغبن فيه أهل المحشر بعضهم بعضا، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشر، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب، وأهل الجنة على العكس من ذلك، يقال: غبنت فلانا إذا بايعته أو شاريته فكان النقص فيه.

قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [1].

عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا. يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلكم جائع، إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم. يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها. فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه". رواه مسلم وأحمد.

سبحانك يا مالك يوم الدين، تشرق الأرض بنورك البهي يوم القيامة، وتتجلى

(1) سورة الزمر، آية 68-70.

للخلائق لفصل القضاء، وتحضر كتب الأعمال، وتجيء بالنبيين ليشهدوا على الأمم بأنهم بلغوا رسالاتك، ويحضر الشهداء من الملائكة الحفظة، ليشهدوا على أعمال العباد من خير وشر. وتوضع الموازين بالقسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل.

عن أبي برزة نضلة بن عبيد الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ : " لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن عمله فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه؟ ". رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وعن عائشة(رضي الله عنها)، قالت: " سمعت رسول الله ﷺ يقول:" يحشر الناس يوم القيامة حفاة غرلا. قلت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة، الأمر أشد من أن يهمهم ذلك ". وفي رواية: الأمر أهم من أن ينظر بعضهم إلى بعض ". لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه.

عن المقداد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل "[1]. قال سليم بن عامر الراوي عن المقداد: فو الله ما أدري ما يعني بالميل: أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين؟ فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما ". رواه مسلم.

وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الشمس يوم القيامة تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن. فبيناهم كذلك استغاثوا بآدم عليه السلام فيقول: " لست بصاحب ذاك ". ثم موسى عليه السلام فيقول كذلك، ثم محمد ﷺ، فيشفع، فيقضي الله بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا، يحمده أهل الجمع كلهم ". رواه الطبراني.

وفي حديث إنهم يقومون في هذا الموقف الأشد سبعين سنة ولا يتكلمون، وقيل يقومون ثلاثمائة سنة، وقيل غير ذلك، ويقضي الله بينهم في عشرة آلاف سنة، والله أعلم.

---

(1) الميل: ستة آلاف ذراع.

وعن سلمان رضي الله عنه قال: "تعطى الشمس يوم القيامة حرّ عشر سنين، ثم تدنى من جماجم الناس. ثم يأتون رسول الله ﷺ فيقولون: يا نبي الله، أنت الذي فتح الله بك وغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وقد ترى ما نحن فيه، فاشفع لنا إلى ربك. فيقول: أنا صاحبكم. فيخرج يحوش الناس حتى ينتهي إلى باب الجنة، فيأخذ بحلقة في الباب من ذهب، فيقرع الباب فيقال: من هذا؟ فيقول: محمد. فيفتح له حتى يقوم بين يدي الله عز وجل فيسجد، فينادى: ارفع رأسك.. سل تعطه، واشفع تشفع، فذلك المقام المحمود". رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

وعن أبي هريرة قال: "كنا مع رسول الله ﷺ في دعوة، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، وقال: أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون ممّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيُنظرهم الناظر، ويُسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يتحملون. فيقول الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم. فيأتونه فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة. ألا تشفع لنا عند ربك؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله. وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض، وقد سماك الله عبدا شكورا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله. وإنه قد كان لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم. فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله. وإني كنت كذبت ثلاث كذبات، نفسي نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن

ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله. وإني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله. ولم يذكر ذنبا، ويقول: نفسي نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ. وفي رواية: فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي، ثم يفتح الله علي من محامده، وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي. ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سلْ تعطه، واشفع تشفّع. فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب. فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك الباب. ثم قال ﷺ: "والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة، كما بين مكة وهجر - أو كما بين مكة وبصرى -". متفق عليه.

وزاد أحمد: "فآتي باب الجنة، فآخذ بحلقة الباب فأقرع، فيقال: من؟ فأقول: محمد. فآتي ربي عز وجل على كرسيه - أو سريره - فأخر له ساجدا، فأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد قبلي، ولم يحمده بها أحد بعدّي، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول: يا رب، أمتي أمتي".

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: أقرع باب الجنة، فيفتح لي باب من الذهب وحلقة من فضة، فيستقبلني النور الأكبر، فأخرّ ساجدا، فألقى من الثناء على الله ما لم يلق أحد قبلي، فيقال لي: ارفع رأسك.. سل تعطه، وقل تسمع، واشفع تشفّع. فأقول: أمتي. فيقال: لك، من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان. قال: ثم اسجد الثانية، ويقال لي مثل ذلك. وأقول أمتي. فيقال لك، من كان في قلبه مثقال خردل من إيمان. ثم أسجد الثالثة، فيقال لي مثل ذلك. ثم أرفع رأسي فأقول: أمتي. فيقال: لك، من قال لا إله إلا الله مخلصا". وفي رواية: فشفعت في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنسانا واحدا،

قال: فما زلت أتردد على ربي عز وجل، فلا أقوم منه مقاما إلا شفعت. حتى أعطاني الله من ذلك أن قال: أدخل من أمتك من خلق الله من شهد أن لا إله إلا الله يوما واحدا مخلصا ومات على ذلك". رواه أحمد ورجاله ثقات.

وعلى هذا، فإن الشفاعة يوم القيامة أنواع، أعظمها:

1. الشفاعة الكبرى، في موقف القيامة، بعدما يقف الناس خمسين ألف سنة، ينتظرون أن يقضي بينهم، فيشفع النبي ﷺ في أن يأتي الله عز وجل للفصل بين الناس، وهي خاصة بسيدنا محمد ﷺ وهي المقام المحمود الذي وعد إياه. قال ﷺ: " من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة".
2. الشفاعة في استفتاح باب الجنة، وأول من يستفتح بابها محمد ﷺ، وأول من يدخلها من الأمم أمته.
3. الشفاعة في أقوام قد أمر بهم إلى النار، أن لا يدخلوها.
4. الشفاعة فيمن دخل النار من عصاة الموحدين أن يُخرجوا منها.
5. الشفاعة في رفع درجات أقوام من أهل الجنة.

وهذه الثلاث الأخيرة، ليست خاصة بنبينا محمد ﷺ، ولكنه هو المقدم فيها، ثم بعده الأنبياء والملائكة والأولياء والصديقين والشهداء.

6. الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ثم يخرج الله عز وجل برحمته من النار أقواما بدون شفاعة، لا يحصيهم إلا الله، فيدخلهم الجنة.
7. الشفاعة بتخفيف عذاب بعض الكفار، وهي خاصة لنبينا محمد ﷺ في عمه أبي طالب.

أما قوله سبحانه: **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم**، فضمير الغائب يدلان على تغليب العقلاء دون غيرهم. وما بين أيديهم وما خلفهم: عبارة عن المتقدم عليهم والمتأخر منهم، أو عن الدنيا والآخرة وما فيهما، أو الأرض والسموات.

أما قوله سبحانه: **ولا يحيطون بشيء من علمه**، أي لا يحيطون ولا يعلمون شيئا

من معلوماته. وعن ابن عباس قال: ما بين أيديهم: ما قدموا من أعمال، وما خلفهم: ما أضاعوا من أعمالهم، إلا من شاء أن يعلمهم به منها بأخبار الرسل.

أما قوله سبحانه: **وسع كرسيه**: أي قدرته التي يمسك بها السموات والأرض. قال ابن عباس: كرسيه: يعني علمه. وقيل: الكرسي هو العرش. وقيل: هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له. وقيل: هو عبارة عن الملك. والحق هو القول الأول، ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي، إلا مجرد خيالات تسبب عن جهالات وضلالات.

قال الزمخشري في الكشاف: وفي قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [1]، أربعة أوجه:

الأول: إن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض، لبسطه وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [2]. من غير تصوّر قبضة وطيّ ويمين. وإنما هو تخييل لعظمة شأنه، وتمثيل حسّي.

والثاني: وسع علمه، وسمى العلم كرسيا، تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم.

والثالث: وسع ملكه تسمية بمكانه، الذي هو كرسي الملك.

والرابع: ما روي أنه خلق كرسيا هو بين يدي العرش، دونه السموات والأرض، وهو إلى العرش كأصغر شيء.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس، قال: كرسيه: علمه". والمراد بكونه: وسع السموات والأرض: أنها صارت فيه، وإنه وسعها ولم يضق عنها لكونه بسيطا واسعا.

وعن ابن عباس قال: "لو أن السموات السبع والأرضين السبع، بسطن ثم وصلن

---

(1) سورة البقرة، آية 255.

(2) سور الزمر، آية 67.

بعضهن إلى بعض، ما كن في سعته – يعني الكرسي – إلا بمنزلة الحلقة في المفازة". وعن أبي ذر الغفاري، أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسي، فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده، ما السموات السبع عند الكرسي، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن فضل العرش على الكرسي، كفضل الفلاة على تلك الحلقة".

واخرج عبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن جرير والطبراني عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "إن كرسيه وسع السموات والأرض، وإن له أطيطا كأطيط المرجل الحديد من ثقله".

وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله سبحانه: "وسع كرسيه السموات والأرض" قال: كرسيه موضع قدمه، والعرش لا يقدّر قدره إلا الله سبحانه".... فالعرش عرش العظمة والكبرياء، والكرسي كرسي الجلال والبهاء، لأن الله لا حاجة له إليهما، فقد كان قبل تكوينهما لا على مكان.

والمراد بكونه وسع السموات والأرض: أنها صارت فيه، وإنه وسعها ولم يضق عنها لكونه بسيطا واسعا. وأخرج الدار قطني والخطيب في تاريخه عن ابن عباس قال: "سئل رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه: وسع كرسيه، قال: "كرسيه موضع قدمه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله سبحانه".

وعن ابن عباس قال: "لو أن السموات السبع والأرضين السبع، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كن في سعته – يعني الكرسي – إلا بمنزلة الحلقة في المفازة". وعن أبي ذر الغفاري أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسي، فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده، ما السموات السبع عند الكرسي، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة".

واخرج عبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن جرير والطبراني عن عمر قال: "أتت امرأة على النبي ﷺ وقالت: "ادع الله أن يدخلني الجنة". فعظّم الرب سبحانه، وقال: "إن كرسيه وسع السموات والأرض، وإن له أطيطا كأطيط المرجل الحديد من ثقله".

أما قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥] معناه لا

يثقله ثقالة أدنى شيء. بمعنى أثقلني وتحملت منه مشقة. قال الزجّاج: يجوز أن يكون الضمير في قوله: " ولا يؤوده " لله سبحانه، ويجوز أن يكون للكرسي، لأنه من أمر الله.

أما قوله سبحانه: **العلي** يراد به علو القدرة والمنزلة فوق خلقه بالقهر. وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: " هو العلي عن خلقه، بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه، ولا أعلى منه ولا أعز. وقال ابن عطية: " وهذه أقوال جهلة مجسمين، وكان الواجب أن لا تحكى، وهذا اللفظ يطلق على الظاهر الغالب، كما في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [1].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [2].

أما قوله تعالى: **العظيم:** فمعناه لا أجلّ ولا أعظم منه سبحانه وتعالى.

فإذا قيل: كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي، من غير حرف عطف؟ فالجواب: ما منها جملة إلا وهي واردة على سبيل البيان، لما ترتبت عليه، والبيان متحد بالمبين. فلو توسط بينهما عاطف، لكان كما تقول العرب: بين العصا ولحائها.

قال الزمخشري في الكشاف:

إن الجملة الأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق، وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه.

والجملة الثانية: بيان لكونه مالكا لما يدبره.

والجملة الثالثة: بيان لكبرياء شأنه.

والجملة الرابعة: بيان لإحاطته بأحوال الخلق، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة، وغير المرتضى.

والجملة الخامسة: بيان لسعة علمه، وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره.

---

(1) سورة القصص، آية 4.

(2) سورة يونس، آية 83.

تفسير سورة الإخلاص

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد﴾

هذه السورة مكية عند الجمهور، وقيل مدنية عند أهل البصرة

وعدد آياتها أربع، نزلت بعد سورة الناس

وهي نسبة الله سبحانه وتعالى وصفته

كان الرسول ﷺ يقرأ بهذه السورة في الركعة الثانية في سنة الفجر، وفي سنة المغرب، وفي ركعتي الطواف، وكذلك كان يقرأ بها في الوتر، لأنها مبنية على الإخلاص التام لله.

روى الضحاك أن المشركين أرسلوا إلى رسول الله ﷺ عامر بن الطفيل، فقال له عنهم: شققت عصانا، وسببت آلهتنا، وخالفت دين آبائك، فإن كنت فقيرا أغنيناك، وإن كنت مجنونا داويناك، وإن كنت قد هويت امرأة زوجناكها. فقال رسول الله ﷺ: "لست بفقير ولا مجنون، ولا هويت امرأة، أنا رسول الله، أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته". فأرسلوه ثانية، وقالوا: قل له: بيّن لنا جنس معبودك، أم من ذهب أم من فضة" فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وأخرج الترمذي والحاكم وابن خزيمة من طريق أبي العالية عن أبيّ بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك؟ فأنزل الله قل هو الله أحد... الآية. وأخرج الطبراني وابن جرير مثله، من حديث جابر بن عبد الله، فاستدل بها على أن السورة مكية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ، منهم كعب بن الأشرف وحي بن الأخطب فقالوا: يا محمد: صف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل قل هو الله أحد.. السورة.

وأخرج ابن جرير عن قتادة وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله، فاستدل بهذا على أنها مدنية.

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال: قال قتادة: قالت الأحزاب لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك. فأتاه جبريل بهذه السورة. فاستدل بهذا على أنها مدينة.

وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة من طريق أبان عن أنس قال: أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، خلق الله الملائكة من نور الحجاب، وآدم من تراب، وإبليس من لهب النار، والسماء من دخان، والأرض من زبد الماء، فأخبرنا عن ربك. فلم يجبهم. فأتاه جبريل بهذه السورة: قل هو الله أحد... السورة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لكل شيء نسبة، ونسبة الله سبحانه: قل هو الله أحد... السورة. والصمد: ليس بأجوف. رواه الطبراني.

ومن شرف هذه السورة، تعدد أسمائها، لأن زيادة الأسماء تدل على شرف المسمى، ومن هذه الأسماء:

- الإخلاص: لأنها أخلصت الخبر عن الله، وخلصت قارئها من الشرك.
- التنزيل: لأنها أدت أكمل الأغراض بتنزيلها.
- التجريد: لأنها تجرد من يقرأها من الشرك وبواعثه، ومن تعلق بها تجرد عن الانحياز.
- التوحيد: لاحتوائها على صفات الله سبحانه وتعالى وعدله وتوحيده.
- النجاة: لأنها تنجي قائلها من النار.
- الولاية: لأن من تعلق بها أعطاه الله الولاية.
- الجمال: لدلالتها على جمال الله تعالى، أي اتصافه بالكمالات، وتنزيهه عن النقائص.
- المعرفة: لأن من فهمها وسبر أغوارها، عرف الله تعالى حق المعرفة.
- المقشقشة: من قشقشة من الجرب أو الجدري، وسميت بذلك لأنها تبرئ من يتلوها من الأوضار، ومن دواعي الشرك والنفاق.
- المعوذة: لأنها تحصن من يقرأها من فتن الدنيا والآخرة.
- الصمد: أي أن الله سبحانه باق بعد فناء خلقه.
- النسبة: لأن المشركين قالوا: انسب لنا ربك.
- الأساس: لأنها أصل الدين وعماده.
- المانعة: لأنها تمنع فتنة القبر وعذاب النار.

- المحتضر: لأن الملائكة تحضر لاستماعها.
- المنفرة: لأن الشياطين تنفر عند قراءتها.
- البراءة: لأنها براءة من الشرك.
- المذكرة: لأنها تذكر العبد خالص التوجيه.
- النور: لأنها تنوّر القلب.
- الإنسان: لأنه لا غنى للإنسان عنها.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد محمد بن ميسرة الصاغاني، حدثنا أبو جعفر الرازي، حدثنا الربيع بن أنس عن أبي العالية، عن أبيّ بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: "يا محمد، انسب لنا ربك". فأنزل الله تعالى: "قل هو الله أحد... السورة. وكذا رواه ابن جرير والترمذي قال: الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث. وإن الله عز وجل لا يموت، ولا يورث، ولم يكن له كفوا أحد، ولم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: "حدثنا سريج بن يونس، حدثنا إسماعيل بن مجالد عن الشعبي، عن جابرﷺ: أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ فقال: انسب لنا ربك". فأنزل الله عز وجل: قل هو الله أحد... السورة. إسناد متقارب ، وأرسله غير واحد من السلف.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: "انسب لنا ربك". فنزلت هذه السورة: قل هو الله أحد... رواه الطبراني وقال حديث مرسل.

وعن عائشة (رضي الله عنها)، أن النبي ﷺ بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ"قل هو الله أحد.." فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: "سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟" فسألوه فقال: لأنها صفة القرآن، وأنا أحب أن اقرأ بها". فقال النبي ﷺ: أخبروه أن الله تعالى يحبه". رواه البخاري ومسلم والنسائي.

وعن أنس ﷺ قال: "كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة، يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بـ"قل هو.. حتى يفرغ منها، ثم

كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة. فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزؤك حتى تقرأ بالأخرى. فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها، وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي ﷺ، أخبروه الخبر، فقال: " يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟ قال: " إني أحبها ". قال: " حبك إياها أدخلك الجنة ". رواه البخاري تعلقا مجزوما به، والترمذي وقال غريب.

وعن أنس ﷺ قال: " يا رسول الله، إني أحب هذه السورة: قل هو.. قال: " إن حبك إياها أدخلك الجنة ". رواه أحمد. وعن أنس رضي الله عنه قال: " جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: " إني أحب هذه السورة: قل هو.... ". فقال الرسول ﷺ: " حبك إياها أدخلك الجنة ". رواه احمد.

حديث كونها تعدل ثلث القران

هذه السورة تضمنت أهم الأركان التي قامت عليها رسالة النبي ﷺ، وهي: توحيد الله وتنزيهه، وتقرير الحدود العامة للأعمال، ببيان الصالحات وما يقابلها، وأحوال النفس بعد الموت من البعث، وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب. وقد ورد في الخبر: إنها تعدل ثلث القرآن، لأن من عرف معناها، وتدبر ما جاء فيها حق التدبر، علم أن ما جاء في الدين من التوحيد والتنزيه، تفصيل لما أجمل فيها.

كما تضمنت هذه السورة نفي الشرك بجميع أنواعه، فقد نفى الله سبحانه عن نفسه الكثرة بقوله: الله أحد، ونفى عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله: الله الصمد، لأن: أحد، والصمد يدلان على أحدية الذات المقدسة الموصوفة بجميع أوصاف الكمال، ونفى عن نفسه المجانسة والمشابهة بقوله: لم يلد، ونفىَ عن نفسه الحدوث والأولية بقوله: ولم يولد، ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله: ولم يكن له كفوا أحد.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ ، أن رجلا سمع رجلا يقرأ: قل هو.. يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالها. فقال ﷺ: " والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القران ". رواه البخاري وأبو داود والنسائي.

وعن أنس ﷺ قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ قل هو... ثلاث مرات في ليلة، فإنها تعدل ثلث القران.

وعن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: "أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القران في ليلة؟ "فشقّ ذلك عليهم، فقالوا: "أيّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ "فقال: "الله أحد الله الصمد، تعدل ثلث القران". تفرد بإخراجه البخاري مرسلا.

~~وعن أبي سعيد ﷺ قال: بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ: قل هو.. فذكر~~ ذلك للنبي ﷺ فقال: "والذي نفسي بيده، إنها لتعدل نصف القرآن – أو ثلثه –".(رواه أحمد).

وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما)، أن أبا أيوب الأنصاري كان في مجلس وهو يقول: "ألا يستطيع أحدكم أن يقوم بثلث القران كل ليلة؟ "فقالوا: "وهل يستطيع ذلك أحد؟ "قال: "فإن قل هو.. ثلث القرآن". قال: فجاء النبي ﷺ وهو يسمع أبا أيوب، فقال: "صدق أبو أيوب". رواه أحمد.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "احشدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلث القران". فحشد من حشد. ثم خرج نبي الله ﷺ، فقرأ: قل هو الله أحد. ثم دخل فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: "فإني سأقرأ عليكم ثلث القران، إني لأرى هذا خبرا جاء من السماء". ثم خرج نبي الله ﷺ، فقال: "إني قلت سأقرأ عليكم ثلث القران، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن". رواه مسلم والترمذي وقال: حسن صحيح غريب.

وعن أبي أيوب ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: "أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القران في ليلة؟ فإنه من قرأ: قل هو... في ليلة، فقد قرأ ليلتئذ ثلث القران". رواه أحمد والترمذي والنسائي. وعن أبيّ بن كعب أن رجلا من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ بـ: قل هو الله أحد، فكأنما قرأ ثلث القران". رواه أحمد ورواه النسائي: "في اليوم والليلة". مرفوعا وموقوفا.

وعن أبي الدرداء ﷺ إن رسول الله ﷺ قال: "أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القران؟ قالوا: "نعم يا رسول الله، نحن أضعف من ذلك وأعجز". قال: "فإن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فقل هو الله.. أحد ثلث القران". رواه مسلم والنسائي. وعن أم

كلثوم بنت عقبة قالت: قال رسول الله ﷺ: "قل هو.. تعدل ثلث القرآن". رواه أحمد ورواه النسائي: "في اليوم والليلة".

حديث في كون قراءتها توجب الجنة

قال مالك بن أنس ﷺ : سمعت أبا هريرة يقول: أقبلت مع النبي ﷺ، فسمع رجلا يقرأ: قل هو.. فقال رسول الله ﷺ: "وجبت". قلت: وما وجبت؟ قال: "الجنة". رواه النسائي والترمذي وقال: حسن صحيح غريب.

وعن زيان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: "من قرأ قل هو حتى يختمها عشر مرات، بنى الله له قصرا في الجنة". فقال عمر: إذا نستكثر يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: "الله أكثر وأطيب". تفرد به أحمد، ورواه الدارمي في مسنده أن سعيد بن المسيب سمع نبي الله ﷺ يقول: "من قرأ قل هو عشر مرات، بنى له الله قصرا في الجنة. ومن قرأها عشرين مرة، بنى له الله قصرين في الجنة. ومن قرأها ثلاثين مرة، بنى له ثلاثة قصور في الجنة". فقال عمر ابن الخطاب: إذا نكثر قصورنا. فقال رسول الله ﷺ: "الله أوسع من ذلك". رواه الدارمي في مسنده مرسلا جيدا.

وعن أنس بن مالك ﷺ ، عن رسول الله ﷺ. "من قرأ: قل هو.. في يوم مائة مرة، كتب الله له ألفا وخمسمائة حسنة، إلا أن يكون عليه دين". رواه الترمذي وضعف البخاري إسناده. وعن النبي ﷺ: "من أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه ثم قرأ: قل هو... مائة مرة، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب عز وجل: "يا عبدي، ادخل على يمينك الجنة". قال الترمذي غريب.

وقال النسائي عند تفسيرها: "عن عبد الله بن بريدة عن أبيه، إنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد، فإذا رجل يصلي، يدعو يقول: "اللهم إني أسالك بأني أشهد أن لا إله إلا الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، قال: "والذي نفسي بيده، لقد سأله باسمه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب". قال الترمذي حسن غريب.

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة من جاء بهن مع الإيمان، دخل من أي أبواب الجنة شاء، وزوّج من الحور العين حيث شاء: من عفا عن قاتله،

وأدّى دينا خفيا، وقرأ في دبر كل صلاة مكتوبة عشر مرات: قل هو.. قال: فقال أبو بكر: أو إحداهن يا رسول الله. قال: "أو إحداهن". وعن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ قل هو... حين يدخل منزله، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل والجيران". إسناده ضعيف.

وعن معاذ بن عبد الله بن حبيب عن أبيه قال: أصابنا عطش وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا، فخرج، فأخذ بيدي فقال: "قل". فسكت فقال: "قل". قلت: ما أقول؟ قال: "قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثا، تكفيك كل يوم مرتين". رواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال حسن صحيح غريب.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور، لم نرها طلعت فيما مضى بمثله. فأتي جبريل إلى النبي ﷺ فقال: "يا جبريل، مالي أرى الشمس طلعت اليوم بضياء وشعاع ونور، لم أرها طلعت بمثله فيما مضى؟" قال: "إن ذلك معاوية بن معاوية الليثي، مات بالمدينة اليوم، فبعث الله إليه سبعين ألف ملك يصلون عليه". قال: "وفيم ذلك؟" قال: "كان يكثر قراءة: قل هو... في الليل والنهار، وفي ممشاه وقيامه وقعوده، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض فتصلي عليه؟" قال: نعم". فصلى عليه". رواه البيهقي في كتاب دلائل النبوة.

وعن أنس ﷺ قال: نزل جبريل على النبي ﷺ وقال: "مات معاوية بن معاوية الليثي، أتحب أن تصلي عليه؟ قال: "نعم". فضرب بجناحه الأرض، فلم تبق شجرة ولا أكمة، إلا تضعضعت، فرفع سريره فنظر إليه، وكبّر عليه، وخلفه صفّان من الملائكة، في كل صف سبعون ألف ملك. فقال النبي ﷺ: يا جبريل، بم نال هذه المنزلة من الله تعالى؟" قال: "بحبه قل هو.. وقراءته إياها ذاهبا وجائيا، قائما وقاعدا". رواه البيهقي وقال أبو حاتم الرازي ليس بالمشهور.

وعن عقبة بن عامر قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده فقلت: يا رسول الله، بم نجاة المؤمن؟ قال: "يا عقبة، أخْرِسْ لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك". قال: ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني، فأخذ بيدي فقال: "يا عقبة بن عامر، ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم؟" قال: قلت:

بلى، جعلني الله فداك. قال: فأقرأني قل هو.... وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعـوذ بـرب الناس، ثم قال: "يا عقبة، لا تنسهن، ولا تبت ليلة حتى تقرأهن". قال: فما نسيتهن مـذ قال لا تنسهن، وما بت ليلة قط حتى أقراهن. قال عقبة: ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده فقلت: "يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: "يا عقبة، صل مـن قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك". رواه أحمد الترمـذي وقـال الحـديث حسن،.

وعن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه، ثم نفث فيهما وقرأ فيهما: قل هو، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثـم يمـسح بهمـا مـا استطاع من جسده.. يبدأ بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ثلاث مرات". رواه أهل السنن من حديث عقيل بن شهاب.

قال عكرمة: لما قالت اليهود: نحن نعبد عزيرا ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقال المـشركون: نحـن نعبـد الأوثان، أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ قل هو الله... الآية.

هو: ضمير الشأن، الدال على لفظ الجلالة، والله أحد هو الشأن.

الله أحد: إن الله واحد لا ثاني له، وأحد خبر لمبتدأ محذوف تقديره هـو. قـال ابـن خالويه: الأصل في أحد: وحد، أي واحد، فانقلبت الواو ألفا، وليس في كلام العرب واو قلبت همزة وهي مفتوحة إلا حرف أحد. ويستحب الوقـف علـى أحـد، ولا يـستحب الوصل.

الله، إشارة إلى أن خالق الأشياء وفاطرها، وفي طي ذلك وصفه بأنه قادر عالم، لأن الخالق يستدعي القدرة والعلم، لكونه واقفا على غايـة إحكـام، واتـساق، وانتظـام. وفي ذلك وصفه بأنه حي، لأن المتـصف بالقـدرة والعلـم لا بـد وأن يكـون حيـا. وفي ذلـك وصفه بأنه سميع بصير، عظيم متكلم، إلى غير ذلك من صفات الكمـال، إذ لـو لم يكـن موصوفا بها، لكان موصوفا بأضدادها. وهذه نقائص مـن إمـارات الحـدوث، فيـستحيل اتصاف القديم بها. وقوله: أحد، وصف بالوحدانية ونفي الـشرك، وبأنـه المتفـرد بإيجـاد المعدومات، والمتوحد بعلم الخفيات.

والدليل على أنه واحد من جهة العقل، أن الواحد إما أن يكون في تدبير العالم وتخليقه كافيا أو لا. فإن كان كافيا، كان الآخر ضائعا غير محتاج إليه. وذلك نقص والناقص لا يكون إلها. وإن لم يكن كافيا فهو ناقص، ولأن العقل يقتضي احتياج المفعول إلى فاعل، فالفاعل الواحد كاف، وما وراء الواحد فليس عددا أوليا من عدد، فيقتضي ذلك إلى وجود أعداد لا نهاية لها، وذا محال. فالقول بوجود إلهين محال، لأن أحدهما إما أن يقدر على أن يستر شيئا من أفعاله عن الآخر ولا يقدر، فإن قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلا، وإن لم يقدر لزم أن يكون عاجزا، والعاجز لا يكون إلها، وإن قدر أحدهما دون الأخر فالآخر لا يكون إلها، وإن قدرا جميعا، فإما أن يوجداه بالتعاون فيكون كل منهما محتاجا إلى إعانة الآخر، فيكون كل منهما عاجزا، وإن قدر كل منهما على إيجاده، بالاستقلال، فإن أوجده أحدهما، فإما أن يبقى الثاني قادرا عليه وهذا محال، لأن إيجاد الموجود محال. فإن لم يبق يكون الأول مزيلا قدرة الثاني، فيكون عاجزا ومقهورا تحت تصرف الأول، فلا يكون إلها. وذلك مصداق قوله تعالى: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.

الله أحد: وصف بالوحدانية ونفي للشركاء والنظراء. لا كثره له في ذاته، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة مادية، ولا من أصول متعددة غير مادية. ويعني الواحد لا إله غيره، والذي لا نظير له ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل. ولا يطلق هذا اللفظ على أحد بالإثبات إلا على الله عز وجل.. لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وقوله تبارك وتعالى: الله الصمد، قال عكرمة عن ابن عباس: يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي كمل في حلمه، والعليم الذي كمل في علمه، والحكيم الذي كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في جميع أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه وهذه صفته، لا تنبغي إلا له..

أما المعنى الجملي لـ: قل هو الله أحد، إي: قل لمن سألك عن صفة ربك " الله هو الواحد المنزه عن التركيب والتعدد، لأن التعدد في الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى تلك

الأجزاء، والله لا يفتقر إلى شيء. وهذه الأحدية هي عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة. وهي أدق من لفظ واحد،

وقال الأعمش عن سفيان عن أبي وائل:

الصمد: لغة: السيد الذي انتهى سؤدده، والمقصود الذي لا يقضى أمر إلا بإذنه، وهو الباقي بعد فناء خلقه، وهو الحي القيوم الذي لا زوال له، الذي لم يلد ولم يولد، كأنه جعل ما بعده تفسيرا له. والصمد: هو المصمت الذي لا جوف له.. لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب،. وهو الذي يقصد في الحاجات. وهو الكامل في صفات السؤدد، أي إثبات صفات الكمال، وهذه كلها هي صفات ربنا جل وعلا..

أما المعنى الجملي لقوله: الله الصمد، أي هو الله الذي يقصده العباد ويتوجهون إليه، لقضاء ما أهمهم دون واسطة إلى شفيع، وبهذا أبطل عقيدة مشركي العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء، وعقيدة غيرهم من أهل الأديان الأخرى، الذين يعتقدون أن لرؤسائهم منزلة عند ربهم، ينالون بها التوسط لغيرهم في نيل مبتغاهم، فيلجأون إليهم أحياء وأمواتا، ويقومون عند قبورهم خاشعين، كما يخشعون لله أو أشد خشية.

لم يلد: وهو نفي للشبه والمجانسة، حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا لأن كل مولود محدث وجسم، والله قديم لا أول لوجوده، إذ لو لم يكن قديما لكان حديثا لعدم الواسطة بينهما، ولو كان محدثا لافتقر إلى محدث، وكذا الثاني والثالث، فيؤدي إلى التسلسل وهو باطل.

والله ليس بجسم، لأن الجسم اسم للمتركب، ولا يخلو حينئذ من أن يتصف كل جزء منه بصفات الكمال، فيكون كل جزء منه إلها، فيفسد القول به، كما فسد بإلهين، أو يكون غير متصف بها، بل بأضدادها من سمات الحدوث، وهذا محال.

لقد تنزه ربنا عن أن يكون له ولد، وفي هذا رد لمزاعم مشركي العرب، الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، ولمزاعم النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله. قال تعالى:

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ ﴾ (1).

ولم يولد: وهو وصف بالقدم والأولية، ويعني ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، لأن كل مولود محدث وجسم، وهو قديم لا أول لوجوده، وليس بجسم. وهذا كما قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ ١٠١ ﴾ (2). أي هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه تعالى وتقدس وتنزه. قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥ ﴾ (3).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ ﴾ (4).

وقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ ﴾{ المؤمنون: ٩١}

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٥٨ ﴾ (5).

ولم يكن له كفوا أحد: ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار. ومن زعم أن نفي الكفء وهو المثل في الماضي، لا يدل على نفيه للحال. إذ

---

(1) سورة الصافات، آية 149 - 152.

(2) سورة الأنعام، آية 101.

(3) سورة مريم، آية 88-95.

(4) سورة الأنبياء، آية 26 - 27.

(5) سورة الصافات، آية 158.

الحادث لا يكون كفوا للقديم، وهذا يؤدي إلى الإشراك والتشبيه والتعليل.

أما بالنسبة لقراءة كفوا: فقد قرأ حمزة وخلف: كفْؤاً، بسكون الفاء والهمزة. وقرأ حفص: كفوًا الواو المثقلة غير مهموزة. أما الباقون فقرأوها كفؤًا مثقلة مهموزة.

تفسير سورتي المعوذتين

بين الله تعالى في كتابه الكريم لعباده كل ما يحتاجون إليه: من توحيده ومعرفته وعبادته، وأحكام شرعه وحكمه، لتزكية أنفسهم وإعدادها لسعادة الدارين، بقدر الاستعداد البشري، وافتتحه بالسبع المثاني (الفاتحة) التي أجمل فيها أصول الهداية لهم، وختمه بالمعوذتين، اللتين حذرهم فيهما من مصادر الشر الظاهرة والباطنة، في هذه الحياة الدنيا، ليعوذوا بالله منه، ويتذكروا ما ينبغي لهم من اتقاء أسبابه.

واعلم أن الشر اسم جامع لمعاني المضار والمساوئ والمفاسد، وما يضاد الخير الجامع لمعاني المنافع والمحاسن والمصالح.

إن الخير هو الأصل في المخلوقات، والشر عارض أو نسبي، فقد يكون ما هو خير لأناس، شرا لآخرين وبالعكس، من حيث النفع والضر، فالماء الذي هو الأصل للحياة النباتية والحيوانية، خير عميم لمنافعه الكثيرة. وقد يضر بكثرته فيغرق بعض الناس والحيوان والزرع، ويقوض بعض الأبنية، فيكون شرا لمن أصابه ضرره، لا لذاته، وخيرا لمن لم يصبه.

أخرج البيهقي في دلائل النبوة من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: مرض رسول الله ﷺ مرضا شديدا، فأتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه. فقال الذي عند رأسه للذي عند رجليه: ما بال الرجل؟ قال: طُبّ. قال: وما طُبّ؟ قال: سُحر. قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي. قال: وبم طبّه؟ قال: بمشط ومشاطة. قال: وأين هو؟ قال: في جفّ طلعة ذكر[1]، تحت راعوفة في بئر ذروان". فأنزل الله المعوذتين.

هاتان السورتان توجيه من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ ابتداء، وللمؤمنين من بعده

---

(1) الجفّ: قشر الطلع، والراعوفة: حجر ناتئ في أسفل البئر يقوم عليه الناتح.

جميعا، للعياذ بكنفه، واللياذ بحماه من كل مخوف، خاف وظاهر، أو مجهول ومعلوم، على وجه الإجمال والتفصيل. وكأنما يفتح الله حماه، ويبسط لهم كنفه، ويقول لهم في مودة وعطف: تعالوا إلى هنا، تعالوا إلى الحمى، تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه، فأنا أعلم أنكم ضعاف، وأن لكم أعداء، وأن حولكم مخاوف، هنا الأمن والطمأنينة والسلام.

قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا عاصم بن بهدلة عن زرّ بن حبيش قال: "قلت لأبيّ بن كعب: إن ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه "، فقال: " أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل قال له: " قل أعوذ برب الفلق فقلتها ". قال: قل أعوذ برب الناس فقلتها ". فنحن نقول ما قاله النبي ﷺ ".

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: لقد أنزلت علي آيات لم ينزل علي مثلهن: المعوذتين ".

وروى أبو بكر الحميدي في مسنده عن سفيان بن عيينة حدثنا عبدة بن أبي لبابة وعاصم بن بهدلة أنهما سمعا زرّ بن حبيش قال: " سألت أبي بن كعب عن المعوذتين فقلت: يا أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يحكّ المعوذتين من المصحف. فقال: إني سألت رسول الله ﷺ فقال: " قيل لي قل: فقلت ". ونحن نقول كما قال رسول الله ﷺ.

وقال أحمد: حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عاصم عن زرّ قال: سألت ابن مسعود عن المعوذتين فقال: " سألت النبي ﷺ عنهما فقال: " قيل لي فقلت لكم فقولوا ". قال أبي: فقال لنا النبي ﷺ فنحن نقول ". وقال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا عبدة بن أبي لبابة عن زرّ بن حبيش، وحدثنا عاصم عن زرّ قال: " سألت أبي بن كعب فقلت: يا أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا ". فقال: إني سألت النبي ﷺ فقال: " قيل لي فقلت ". فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ.

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا الأزرق بن علي حدثنا حسان بن إبراهيم حدثنا الصلت بن بهرام عن إبراهيم بن علقمة قال: كان عبد الله يحكّ المعوذتين من مصاحفه ويقول إنهما ليستا من كتاب الله ". وقال الأعمش وحدثنا عاصم عن زرّ بن حبيش عن أبي ابن كعب قال: سألنا عنهما رسول الله ﷺ فقال: " قيل لي فقلت".

هذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في

مصحفه، فلعله لم يسمعهما من النبي ﷺ، ولم يتواتر عنده. ثم قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة.

روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط؟ (قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس). ورواه أحمد والنسائي ومسلم والترمذي وقال حسن صحيح.

وقال أحمد عن عقبة بن عامر قال: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من النقاب، إذ قال لي: يا عقبة، ألا تركب؟ " قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنيهة، ثم ركب ثم قال: "عقب: ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟ قلت: بلى يا رسول الله. فأقرأني (قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس) ، ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مر بي فقال: كيف رأيت يا عقب، اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت".

وعن عقبة بن عامر قال: " أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة ". وعن عقبة بن عامر أنه قال: إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شهباء فركبها، فأخذ عقبة يقودها، فقال رسول الله ﷺ: "اقرأ: قل أعوذ برب الفلق". فأعادها لي حتى قرأتها، فعرف أني لم أفرح بها جدا. فقال: لعلك تهازيت بها، فما قمت تصلي بشيء مثلها".

وأخرج أحمد وابن الضريس بسند صحيح عن أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير قال: قال رجل: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، والناس يعتقبون، وفي الظهر قلة، فجاءت نزلة رسول الله ﷺ ونزلتي، فلحقني فضرب منكبي فقال: قل أعوذ برب الفلق. فقلت: قل أعوذ برب الفلق. فقرأها رسول الله وقرأتها معه، ثم قال: قل أعوذ برب الناس، فقرأها رسول الله وقرأتها معه، قال: إذا أنت صليت، فاقرأ بهما ".

وروى النسائي عن ابن عابس الجهني أن رسول الله قال له: " يا أبا عابس، ألا أدلك – أو ألا أخبرك – بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟ " قال: بلى يا رسول الله. قال: " قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس".

وعن عائشة أن رسول الله كان يقرأ بهن، وينفث في كفيه، ويمسح بهما رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده". وقال الإمام مالك من حديث عائشة: إن رسول الله ﷺ

كان إذا اشتكى، يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث. ولما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات، وأمسح به عليه رجاء بركتها".

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان، ولما نزلت المعوذتان، أخذ بهما وترك ما سواهما". رواه النسائي وابن ماجه والترمذي وقال" حسن صحيح.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: "كان رسول الله ﷺ يكره الرقى إلا بالمعوذات".

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفلق

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ {الفلق: ١ - ٥} سورة مدنية ويقال مكية، وآياتها خمس، ونزلت بعد الفيل

الفلق: من فلق يفلق، أي شقّ يشقّ. وعن جابر رضي الله عنه قال: **الفلق**: الصبح، وهو كقوله سبحانه تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۝٩٦﴾ (1). أي شاق عمود الصبح، وهو أول ما يبدو من نور النهار عن ظلمة الليل. ومن معانيه الخلق كله، بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۝٩٥﴾(2). أي شاق الحب عن النبات، وشاق النوى عن النخل. والمراد به كل ما يفلقه الله كالأرض التي تنفلق عن النبات، والجبال التي تنفلق عن عيون الماء، والسحائب التي تنفلق عن ماء الأمطار، والأرحام التي تنفلق عن الأولاد.

وعن علي بن أبي طالب عن ابن عباس قال: الفلق: الخلق، وكذا قال الضحاك:

(1) سورة الأنعام، آية 96.

(2) سورة الأنعام، آية 95.

أمر الله نبيه ﷺ أن يتعوذ من الخلق كله.

وقال الزمخشري: الفلق والفرق: الفلق الصبح، لأن الليل يفلق عنه، ويفرق: فعل بمعنى مفعول يقال في المثل: هو أبين من فلق الصبح، ومن فرق الصبح. وقيل: الفلق واد في جهنم أو جبّ فيها.

أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ، فقرأ: قل أعوذ برب الفلق، فقال: يا ابن عنبسة، أتدري ما الفلق؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: بئر في جهنم، إذا سعرت جهنم فمنه تسعر، وإنها لتتأذى به كما يتأذى بنو آدم من جهنم".

وقال كعب الأحبار: الفلق: بيت في جهنم، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حرّه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن زين العابدين علي عن آبائه أنهم قالوا: الفلق: جبّ في قعر جهنم عليه غطاء، فإذا كشف عنه خرجت منه نار تضج منه جهنم، من شدة حرّ ما يخرج منه.

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول" قل أعوذ برب الفلق، قال: هو سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون، وإن جهنم لتعوذ بالله منه.

وقال ابن جرير: والصواب: القول الأول، إنه فلق الصبح.

أما معاني هذه الآية: **قل أعوذ برب الفلق:**

قل أيها المؤمن: أعوذ وأعتصم بالله رب الفلق، وهو الصبح الذي يفلق بضوئه ظلمة الليل، بما وضعه الله تعالى من النظام لهذه الشمس وسياراتها، بحسبان كان منه الليل والنهار.

وقوله تعالى: **من شر ما خلق:** أي من جميع المخلوقات، وقال ثابت البناني والحسن البصري: جهنم وإبليس وذريته مما خلق. ومعنى الآية: أعوذ بك يا رب من كل ضرر وأذى يصيبني من أي شيء خلقه الله تعالى، وشر الذنوب والهوى وشر النفس وشر العمل. وليس المراد بالاستعاذة من كل ما خلق الله، فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر،

وكذلك الأنبياء والملائكة فإنهم خير محض.

وقوله تعالى: ومن شر غاسق إذا وقب، قال مجاهد: غاسق: الليل، إذا وقب: غروب الشمس. وقال ابن عباس والقرظي والضحاك والحسن وقتادة: إذا وقب الليل: إذا ذهب. ودخل ظلامه في كل شيء. وقال أبو المهزم عن أبي هريرة: ومن شر غاسق إذا وقب: القمر في دخوله في الكسوف واسوداده ، وقال ابن يزيد: كانت العرب تقول: الغاسق: سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها. والغاسق: الليل إذا اعتكر ظلامه. لأن الليل هو محل سلطان الأرواح الشريرة، وفيه تنشر الشياطين، لأن سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة، ولهذا كانت القلوب المظلمة، الخالية من الإيمان الحق، محل الشياطين وبيوتهم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فأراني القمر حين طلع وقال: "تعوّذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب". رواه النسائي الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ومعنى الآية: أعوذ بك يا رب من شر ما يقع ويشتد في ظلام الليل، الذي يغسق عقب زوال النهار بغروب الشمس، وخفي به على الإنسان ما يدب فيه من الهوام السامة، والوحوش المفترسة، واللصوص المستخفية.

وقوله تعالى: ومن شر النفاثات في العقد، النفاثات: السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس، وخداع الأعصاب، والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر، وهن يعقدن العقد في خيط ونحوه، وينفثن فيه كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء. والنفث: هو النفخ مع الريق، وهو دون التفل. والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده الساحر بالمسحور، واستعان بالأرواح الخبيثة، نفث في تلك العقد نفخا مع ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر، مقترن بالريق الممازج. وقد تساعده الروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني والقدري.

عن السحر حقيقة، ولا خلاف في ما تواترت به الآثار عن الصحابة واتفق عليه الفقهاء. والسحر يؤثر مرضا وثقلا، وحلا وقتلا وحبا وبغضا.

قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك: يعني السواحر. وقال مجاهد: إذا رقين ونفثن في العقد. وفي الحديث أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ، فقال: اشتكيت يا محمد؟" فقال: "نعم"، فقال: "بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك". رواه مسلم. ولعل هذا كان شكواه ﷺ حين سحر، وعافاه الله تعالى وشفاه، وردّ كيد السحرة والحساد من اليهود في رؤوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم.

ومعنى الآية: أعوذ بك يا رب من شر النفاثات في العقد، الذي لا يعرف له وقت من ليل أو نهار يتقى فيه. والنفاثات: جمع نفاثة، ويطلق على الرجل والمرأة، لأنه صيغة مبالغة كعلاّمة وولاّدة.

إن المجترحين لهذا النفث صنفان من الناس، يقترف كل واحد منهما طائفة من النفث في العقد. الطائفة الأولى: منتحلو السحر بالدجل والشعوذة والحيل الخفية. ومن الوسائل القديمة لسحر هؤلاء: عقد يعقدونها في خيط، مثلا: لمنع الرجل من وظيفته الزوجية، ومنها عقد يحلونها لإزالة هذا المنع ولأعمال أخرى. وجرت عادتهم عند ذلك أن يقرأوا شيئا مما يسمونه العزائم على هذه العقد وينفثون فيها.

هذه العادة لا تأثير لها في نفسها، ولا في خاصة خفية فيها. وإنما يقع التأثير لبعض المسحورين باستيلاء الوهم عليهم، إذا أعلموا بأنهم سحروا أو عُقدوا.

أما النوع الثاني، فهو أكثر رواجا وأعسر علاجا، وهم النمامون المقطعون لروابط الألفة. لأن النميمة تضلل وجدان الصديقين، كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته. ولهذا ذكرها عقب الغاسق إذا وقب.

روى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم، قال: سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياما. قال: فجاءه جبريل فقال: إن رجلا من اليهود سحرك، وعقد لك عقدا في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها". فبعث رسول الله ﷺ فاستخرجها، فجاء بها فحللها. قال: فقام الرسول ﷺ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه حتى مات.

وقال البخاري في كتاب الطب من صحيحه، من حديث عائشة قالت: "كان رسول

الله ﷺ سحر، حتى أنه كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن". قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر، إذا كان كذا. فقال ﷺ: يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ قالت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن عاصم رجل من بني زريق حليف اليهود، وكان منافقا. قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة (ما يسقط من الشعر). قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر، تحت راعوفة ببئر ذروان، وهو بئر ليهود بني زريق. قالت: فأتى البئر حتى استخرجه فقال: هذه البئر التي أريتها، كأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين. قال: فاستخرج. فقلت: أفلا تنشرت؟ فقال: أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا". ثم أمر رسول الله ﷺ بالبئر فدفنت.

وعن عائشة قالت: لبث النبي ﷺ ستة أشهر، نرى أنه يأتي ولا يأتي، فأتاه ملكان، فجلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه. فقال أحدهما للآخر: ما باله؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن عاصم".

وقال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ، فدبت إليه اليهود، فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ، وعدة من أسنان مشطه، فأعطاها اليهود، فسحروه فيها. وكان الذي تولى ذلك رجل منهم يقال له ابن أعصم، ثم دسّها في بئر لبني زريق، يقال له ذروان. فمرض رسول الله ﷺ، وانتثر شعر رأسه، ولبث ستة أشهر يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. وجعل يذوب ولا يدري ما عراه. فبينما هو نائم إذا أتاه ملكان، فجلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه. فقال الذي عند رأسه للذي عند رجليه: ما بال الرجل؟ قال: طُبّ. قال: وما طُبّ؟ قال: سُحر. قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي. قال وبم طبّه؟ قال: بمشط ومشاطة. قال: وأين هو؟ قال: في جفّ طلعة ذكر، تحت راعوفة في بئر ذروان". فانتبه رسول الله ﷺ مذعورا وقال: "يا عائشة، أما شعرت أن الله أخبرني بدائي؟" ثم بعث رسول الله ﷺ عليا والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء البئر، كأنه نقاعة الحناء. ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجفّ. فإذا فيه مشاطة رأسه، وأسنان من مشطه. وإذا فيه وتر معقود

فيه إحدى عشرة عقدة، (بعدد آيات السورتين) مغروزة بالإبر، فأنزل الله تعالى السورتين، فجعل كلما قرأ آية، انحلت عقدة، ووجد رسول الله ﷺ خفّة حين انحلت العقدة الأخيرة، فقام وكأنما نشط من عقال، وجعل جبريل يقول: "بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من حاسد وعين، الله يشفيك". فقالوا: يا رسول الله، أنأخذ هذا الخبيث نقتله؟ "فقال رسول الله ﷺ: أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شرا". والله أعلم.

وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن لبيد بن الأعصم اليهودي، سحر النبي ﷺ وجعل فيه تمثالا فيه إحدى عشرة عقدة، فأصابه من ذلك وجع شديد، فأتاه جبريل وميكائيل يعودانه، فقال ميكائيل يا جبريل إن صاحبك شاك، قال: أجل. قال: أصابه لبيد بن الأعصم اليهودي، وهو في بئر ميمون في كدية تحت صخرة الماء. قال: فما وراء ذلك؟ قال: تنزح البئر، فتأخذ الكدية وفيها تمثال فيه إحدى عشرة عقدة، فتحرق فإنه يبرأ بإذن الله تعالى. فأرسل إلى رهط فيهم عمار بن ياسر، فنزح الماء فوجدوه قد صار كأنه ماء الحناء. ثم قلبت الصخرة إذا كدية فيها تمثال فيه إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله: يا محمد، قل أعوذ برب الفلق، فانحلت عقدة، من شر ما خلق، فانحلت عقدة، ومن شر غاسق إذا وقب، فانحلت عقدة، ومن شر النفاثات في العقد فانحلت عقدة، ومن شر حاسد إذا حسد، فانحلت عقدة.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[1].

روى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار، في صفة كرسي سليمان عليه السلام خبرا عجيبا، قال معاوية: يا أبا إسحق، أخبرني عن كرسي سليمان، وما كان عليه، ومن أي شيء هو؟ قال كعب الأحبار: كان كرسي سليمان عليه السلام من أنياب الفيلة، مرصعا بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ، وقد جعل له درجة منها مفصصا بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أمر بالكرسي فحف من جانبيه بنخل من ذهب، شماريخها من الدر والياقوت والزبرجد، وجعل على رؤوس النخل التي على يمين الكرسي طواويس من ذهب، ثم جعل على رؤوس النخل التي على يسار الكرسي نسورا من ذهب مقابلة

(1) سورة ص، آية 34.

للطواويس. وجعل على يمين الدرجة الأولى شجرتي صنوبر من ذهب، وعن يسارها أسداناً من ذهب، وعلى رأسي الأسدين عمود ين من الزبرجد، وجعل من جانبي الكرسي شجرتي كرم من ذهب قد أظلتا الكرسي، وجعل عناقيدهما درا وياقوتا أحمر، ثم جعل فوق درج الكرسي أسدين عظيمين من ذهب، مجوفين محشوين مسكا وعنبرا، فإذا أراد سليمان عليه السلام أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة، ثم يقعان فينضحان ما في أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسي سليمان. ثم يوضع منبران من ذهب: واحد لخليفته والآخر لرئيس أخبار بني إسرائيل في ذلك الزمان، ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبرا من ذهب، يقعد عليها سبعون قاضيا من بني إسرائيل وعلمائهم، وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبرا من ذهب ليس عليها أحد. فإذا أراد أن يصعد على كرسيه، وضع قدميه على الدرجة السفلى، فاستدار الكرسي كله بما فيه، ويبسط الأسد يده اليمنى، وينشر النسر جناحه الأيسر، ثم يصعد سليمان عليه السلام على الدرجة الثانية، فيبسط الأسد يده اليسرى، وينشر النسر جناحه الأيمن، فإذا استوى سليمان عليه السلام على الدرجة الثالثة، وقعد على الكرسي، أخذ نسر من تلك النسور تاج سليمان، ووضعه على رأسه، فإذا وضعه على رأسه، استدار الكرسي بما فيه، كما تدور الرحى المسرعة. قال معاوية: وما الذي يديره يا أبا اسحق؟ قال: تنين من ذهب ذلك الكرسي، وهو عظيم مما عمله صخر الجني، فإذا أحست بدورانه تلك الأسود والنسور والطواويس، التي في أسفل الكرسي، دون التي أعلاه، فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن، على رأس سليمان عليه السلام. وهو جالس، ثم ينضحن ما في أجوافهن من المسك والعنبر، على رأس سليمان عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر التوراة، فتجعلها في يده، فيقرأها سليمان على الناس". حديث غريب جدا.

قال تعالى:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ

بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [1].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أراد سليمان ﷺ أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه، وكانت الجرادة امرأته، وكانت أحب نسائه إليه، فجاء الشيطان (قيل اسمه صخر، وقيل اسمه حقيق، وقيل اسمه آصف) في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي. فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين. ولما خرج سليمان من الخلاء، قال لها:: هاتي خاتمي". قالت: قد أعطيته سليمان. قال: أنا سليمان. قالت "كذبت، ما أنت بسليمان. فجعل لا يأتي أحدا يقول له أنا سليمان إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأى سليمان ذلك، عرف أنه من أمر الله سبحانه. وقام الشيطان يحكم بين الناس (مدة أربعين يوما). فلما أراد الله تبارك وتعالى أن يرد على سليمان ﷺ سلطانه، ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان. قال: فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم، وأرسلوا إلى نساء سليمان، فقالوا لهن: أتنكرن من سليمان شيئا؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حيّض، وما كان يأتينا قبل ذلك. ولما رأى الشيطان أنه قد فطن له، ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتبا فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسي سليمان. وبعث ذلك الشيطان بالخاتم، فطرحه في البحر فتلقفته سمكة فأخذته، وكان سليمان يعمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكا، فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم. فدعا سليمان ﷺ فقال: تحمل لي هذا السمك؟ فقال: نعم. قال بكم؟ قال: بسمكة من هذا السمك. قال فحمل سليمان ﷺ السمك ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى بابه، أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان وشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه فلبسه. قال: فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، وعاد إلى حاله. وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزر البحر، فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطانا مريدا، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه؛ حتى وجدوه يوما نائما، فجاءوا فبنوا عليه بنيانا من رصاص، فاستيقظ فوثب، فجعل لا يثب في مكان إلا انماط معه من الرصاص،

---

(1) سورة البقرة، آية 101.

قال: فأوثقوه فأخذوه، وجاءوا به إلى سليمان، فأمر به فنقر له تحت من رخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سد عليه بالرصاص، ثم أمر به فطرح في البحر".

إن السحر معروف منذ القدم، اتبعت الشياطين السحر، وكانت قد دفنته تحت كرسيه لما نزع ملكه، أو كانت تسترق السمع، وتضم إليه أكاذيب وتلقيه إلى الكهنة، فيدونونه في كتب يقرؤونها، ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في عهد سليمان، حين قالوا: أن الجن تعلم الغيب. وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه سخر الجن والإنس والريح. ولما مات سليمان دلت الشياطين الناس على الكتب المدفونة، فاستخرجوها فوجدوا فيها السحر، فقالوا إنما ملككم بهذا، فتعلموه، ورفضوا كتب أنبيائهم.

ولو كان الجن يعلمون الغيب، لعلموا بموت النبي سليمان، قبل أن تأكل دودة الأرضة عصاه، ولو كانوا يعلمون الغيب، ما لبثوا في العذاب المهين.

لا شك أن سليمان هو نبي من أنبياء الله سبحانه، الذي آتاه الله الملك والسلطان في الأرض، وجعله نبيا، فعمل بما آتاه ربه من قدرات سخرها جميعا لنشر الإيمان والتوحيد في الأرض والناس.

صحيح أن القرآن يذكر أن الله تعالى قد أعطى سليمان قدرات عظيمة، ميزه بها عن كثير من النبيين، إذ جعله ملكا وسلطانا قويا وقائد جيش كبير، وجعله واسع الثراء والعلم والمعرفة، ولكن أخطأ الكثير من الناس في فهم فهم حقيقة العطاءات التي أنعم الله بها عليه، فبالغوا مبالغة كبيرة إلى حد الخرافة والخيال، زاعمين أنها كانت معجزات من الله القادر على كل شيء.

أما هاروت وماروت فقال ابن عباس: هما ساحران كانا يعلمان السحر، وقيل: هما ملكان أنزلا لتعليمه ابتلاء واختبارا من الله للناس.

وقيل: هما ملكان اختارتهما الملائكة لتركب فيهما الشهوة، حين عيرت بني آدم، فكانا يحكمان في الأرض، ويصعدان في الليل، وكان قد أحبا امرأة اسمها زهرة، فحملتهما على شرب الخمر فزنيا، فرآهما إنسان فقتلاه، فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة، فهما يعذبان منكوسين في جبّ ببابل، والله أعلم.

اتفق العلماء أن للسحر أثرا، وعلى كفر من يعتقد حلّه. ويختلفون في أن له حقيقة، أو أنه تخيل، كما يختلفون في السحر: هل هو كفر أو ليس بكفر؟ وتبع ذلك اختلافهم في الساحر.

قال أبو حنيفة وأحمد: "يقتل الساحر بتعلم السحر، وبفعله، ويكفره دون استتابة. وقال الشافعية والظاهرية: إن كان الفعل أو الكلام الذي سحر به كفرا، فالساحر مرتد، ويجري عليه حكم الردة إلا أن تاب. وإن كان ليس كفرا، فلا يقتل، لأنه ليس كافرا وإنما هو عاص".

وقال الشيخ أبو منصور الماتريدي: "القول بأن السحر على الإطلاق كفر، بل يجب البحث عن حقيقته، فإن كان في ذلك رد ما لزم في شرط الإيمان فهو كفر، وإلا فلا. ثم السحر الذي هو كفر تقتل فيه الذكور لا الإناث، وما ليس بكفر، وفيه إهلاك النفس، ففيه حكم قطاع الطريق، ويستوي فيه المذكر والمؤنث، وتقبل توبته، ومن قال لا تقبل فقد غلط، فإن سحرة فرعون قبلت توبتهم"[1].

والحقيقة إن السحر معصية، ولهذا اعتبر الرسول ﷺ السحر من الكبائر. فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات: قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: "الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات".

أما بالنسبة للكاهن الذي يتخذ من الجن ما يأتيه بالأخبار، والعراف الذي يتحدث بالحدس والظن، مدعيا أنه يعلم بالغيب، فيرى الإمام أبو حنيفة أنهما يستحقان القتل لقول عمر: اقتلوا كل ساحر وكاهن. وفي رواية: "إنهما إن تابا لم يقتلا".

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رسول الله ﷺ أناساً عن الكهان، فقال: ليسوا بشيء. فقالوا يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحيانا بشيء فيكون حقا. فقال رسول الله ﷺ: تلك الكلمة من الحق، يخطفها الجني فيقرها في إذن وليّه، فيخلطون معها مائة كذبة".

---

(1) تفسير العلامة النسفي.

متفق عليه.

وفي رواية للبخاري عن عائشة، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الملائكة تنزل من العنان، وهو السحاب، فتذكر الأمر قضي في السماء، فيسترق الشيطان السمع، فيسمعه فيوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم".

وعن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: " من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوما". رواه مسلم.

فإذا كان المرض الذي أصاب العبد سحرا، فإن العلاج بإذن الله يكون بأحد أمرين:

- أن يعلم محل السحر، فإذا وجد فكت عقده، أثناء قراءة المعوذتين، ثم يتم إحراقه.
- الرقية الشرعية، كما سنبين لاحقا.
- النشرة، وهي نوعان: الأول: محرم، وهو حل السحر بالسحر، والذهاب إلى السحرة لفكه. والثاني: جائز، وهو أخذ سبع ورقات سدر، ودقها بين حجرين، ثم القراءة عليها ثلاث مرات بسورة (الكافرون) و (الإخلاص) و (الفلق) و (الناس)، ثم جعلها في ماء، ثم الشرب والاغتسال منها، وتكرار ذلك حتى الشفاء إن شاء الله. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه.
- الاستفراغ بالمسهلات، إذا كان السحر في البطن، وبالحجامة إن كان في غيره[1].

أما قوله سبحانه وتعالى: " ومن شر حاسد إذا حسد"، فالحسد انفعال نفسي، إزاء نعمة الله على بعض عباده، مع تمني زوالها، وسواء اتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه، لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي، فإن شرا يمكن أن يعقب هذا الانفعال.

---

(1) تفسير العشر الأخير من القرآن الكريم، الشيخ محمد بن سليمان الأشقر، الرياض، صفحة 113.

فإذا حسد الحاسد، ووجه انفعالا نفسيا معينا إلى المحسود، فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن لدينا من العلم وأدوات الاختبار، لا نصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته، فنحن لا ندري إلا القليل في هذا الميدان، وهذا القليل يكشف لنا عنه مصادفة في الغالب، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك.

كان أول الحاسدين من الجن: إبليس، الذي حسد آدم فعصى الله بالامتناع من السجود، فصار عدوا له ولذريته. ومن البشر قابيل بن آدم، الذي حسد أخاه قابيل، بعد أن تقبل الله قربانه دونه، فطوعت له نفسه قتله فقتله.

أخرج ابن عدي في الكامل، والبيهقي في شعب الإيمان، عن الحسن في قوله: ومن شر حاسد إذا حسد، قال: هو أول ذنب كان في السماء.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: هو نفس ابن آدم وعينه. وقيل: من شر عينه ونفسه. وقيل: يعني اليهود، وهم حسدة الإسلام.

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: " إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب ".

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها ". متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: " لا حسد إلا في اثنتين: رجل أعطاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار ". متفق عليه.

إن الحسد ثلاث مراتب:

- تمني زوال النعمة، وهو حسد على شيء محقق.
- تمني اصطحاب عدم النعمة، فالحاسد يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص أو عيب.

- حسد الغبطة، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود، من غير أن تزول النعمة، فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة، قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ {المطففين: ٢٦} وفي الصحيح عن النبي ص أنه قال: لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها للناس؟. فهذا حسد غبطة.

الرقية الشرعية

أما عن الرقية الشرعية، فإن المتأمل في سنن الله، ليعلم أن البلاء سنة من سننه الكونية القدرية، يقول الله عز وجل﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾{ البقرة: ١٥٥}. ويخطئ من يظن أن الصالحين من عباد الله هم أبعد الناس عن المصائب والبلاء. سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس.. يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه". إن البلاء هو من علامات حب الله للعبد، قال ﷺ: إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم". رواه أحمد والترمذي. وهو من علامات إرادة الله بعبده الخير قال ﷺ: "إذا أراد الله بعبده الخير، عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافى به يوم القيامة". رواه الترمذي.

إن البلاء كفارة للذنوب مهما صغرت، قال ﷺ: "ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها". متفق عليه.

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: "العين حق، لتورد الرجل القبر، والجمل القِدْر، وإن أكثر هلاك أمتي من العين".

وعن علي بن أبي طالب، أن جبريل أتى النبي ﷺ، فوافقه مغتما، فقال: يا محمد، ما هذا الغم الذي أراه في وجهك؟ قال: الحسن والحسين أصابتهما عين. قال: صدق

بالعين، فإن العين حق، أفلا عوذتهما بهؤلاء الكلمات؟ قال: وما هن يا جبريل؟ قال: قل اللهم ذا السلطان العظيم، والمن القديم، ذا الوجه الكريم، وليّ الكلمات التامات، والدعوات المستجابات، عاف الحسن والحسين، من أنفس الجن وأعين الإنس. فقالها النبي ﷺ، فقاما يلعبان بين يديه. فقال النبيﷺ: عوذوا أنفسكم ونساءكم وأولادكم بهذا التعويذ، فإنه لم يتعوذ المتعوذون بمثله". تفرد بروايته أبو رجاء محمد بن عبد الله الحنطي، وذكره ابن عساكر في ترجمة طراد بن الحسين من تاريخه.

إن العين لا تؤثر بمجرد نظرها إلى الشيء نظرة لاه، أو ساه، أما إذا نظر العائن نظر من تكيفت نفسه الخبيثة، واتسمت فصارت نفسا غضبية، خبيثة حاسدة، أثمرت بها تلك النظرة، وأثرت في المحسود بحسب ضعفه وقوة نفس الحاسد.

عن هذه العين تؤثر بواسطة النفس الخبيثة، وهي بمنزلة الحية، إنما تؤثر بسمها إذا عضت، فإنها تتكيف بكيفية الغضب، فتحدث فيها تلك الكيفية السم، فتؤثر في الملدوغ.

أما بالنسبة للوقاية من العين والسحر، فينبغي علينا أن نعرف الأسباب قبل وقوعها ، وتكون الوقاية بأشياء كثيرة منها:

- تقوية النفس بالتوحيد والإيمان بأن المتصرف بالكون هو الله والإكثار من الحسنات.
- إذا اشتهر عن إنسان أنه عائن أو ساحر، فإن يتجنب من باب فعل الأسباب وليس خوفا.
- ومن أسباب الوقاية من السحر، التصبح بسبع تمرات.
- اللجوء إلى الله والاستعانة به من العين والسحر، والمحافظة على الأذكار والتعاويذ في كل يوم وليلة صباحا ومساء. وهذه التعاويذ والأذكار لها أثر يزيد وينقص بحسب أمرين:

1. الإيمان بأن ما جاء فيها صدق وحق، وأنه نافع بإذن الله، وعلى قدر الإيمان يكون التأثير.
2. أن ينطق لسانه بهذه الأذكار والتعاويذ وقلبه حاضر، لأن ذلك لا يستجاب والقلب غافل لاه، وعلى قدر حضور القلب يكون التأثير.

أما علامات الإصابات بالعين وغيرها فهي:

لا جدال ولا شك، في أن القرآن الكريم فيه شفاء من الأمراض. فإذا كان الإنسان سليما من الأمراض العضوية، فإن الأعراض تكون غالبا على هيئة صداع متنقل، وصفرة في الوجه، مع كثرة العرق والتبول، وفقدان للشهية، وتنمل أو حرارة أو برودة في الأطراف، وخفقان في القلب، وألم متنقل أسفل الظهر والكتفين، وحزن وضيق في الصدر، وأرق في الليل، وانفعالات شديدة من خوف وغضب غير طبيعي، وحب الاعتزال، والرغبة في النوم، ومشاكل صحية أخرى لا سبب طبي لها.

قد توجد هذه العلامات أو بعضها بحسب قوة المريض وضعفه، ولا بد للمسلم أن يكون قوي الإيمان، قوي القلب، لا تدخله الوساوس، لأن مرض الوسواس من أصعب الأمراض علاجا.

فإذا كان المرض بسبب العين، فإن العلاج بإذن الله تعالى، يكون بأحد أمرين:

- إن عرف العائن، فإنك تأمره أن يغتسل، وتأخذ هذا الماء، ثم تغتسل به.
- إن جهل العائن، فإن الاستشفاء يكون بالرقية، والدعاء بأن يكشف الله كربه.

أما أذكار الصباح فإنها تقال بعد صلاة الفجر ـ وأما أذكار المساء فإنها تقال بعد صلاة العصر، وإذا نسي المسلم أن يقولها أو غفل عنها فليقلها عند تذكره لها. وفيما يلي بعض الأوراد والأذكار الواردة:

1. آية الكرسي، فتقال بعد الفرائض وعند النوم، ومن قرأها لا يقربه شيطان.
2. آخر آيتين من سورة البقرة، وتقرأ قبل النوم، وتكفي من شرور كل شيء.
3. سورة الإخلاص والفلق والناس، ثلاث مرات صباحا، وثلاث مرات مساء، وثلاث مرات قبل النوم، ومرة بعد الفرائض، فإنها تكفي من كل شيء وتحفظ من الجن وعين الإنسان.
4. قول: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، وتقال ثلاث مرات في الصباح والمساء، وعند نزول منزل،

فهي حامية من كل ضرر، ولا يصيب قائلها فجأة بلاء ولا يضره شي.

5. قول: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، يقولها من نزل منزلا، وثلاثا في المساء، فهي محصنة للأماكن من كل شيء.
6. قول: حسبي الله الذي لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، تقال سبع مرات صباحا، وسبع مرات مساء، فهي كافية من هم الدنيا والآخرة.
7. قول: بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، تقال مرة بعد كل خروج من المنزل، لأن الشيطان يتنحى عن قائلها.
8. اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم، تقال صباحا ومساء، فإنها تحمي قائلها من وساوس الشيطان.

أما الرقية، فلها عدة طرق منها:

- قراءة الرقية مع النفث.
- أو القراءة بدونه.
- أو خلط الريق بالتراب.
- أو قراءة الرقية مع مسح موضع الألم.

أما شروط الرقية، فهي:

1. أن تكون بأسماء الله وصفاته.
2. أن تكون باللسان العربي، أو بما يفهم معناه.
3. الاعتقاد بان الرقية لا تؤثر بنفسها، وأن الشفاء من الله.

أما شروط الراقي فهي:

1. يستحب أن يكون مسلما صالحا تقيا في نفسه، وكلما كان أصلح كان أثر الرقية أقوى.
2. أن يتوجه أثناء الرقية إلى الله بصدق، بحيث يجتمع فيها القلب مع اللسان.

أما شروط المرقي فهي:

1. يستحب أن يكون مؤمنا صالحا، فعلى قدر الإيمان يكون أثر الرقية عليه.
2. التوجه إلى الله بصدق أن يشفيه.
3. أن لا يستبطئ الشفاء، لأن الرقية دعاء، وإذا استعجل الداعي الإجابة.فإنه قد لا يستجاب له. قال ﷺ: "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي" متفق عليه.

ومن الآيات التي يقترح أن يرقى بها المريض:

- سورة الفاتحة، وآية الكرسي، والكافرون، والإخلاص، والفلق، والناس، وآخر آيتين من سورة البقرة وهي: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[1].
- الآية 190 – 191 من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾
- الآية 117–119: من سورة الأعراف ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا

---

(1) سورة البقرة، آية 285-286.

هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ {الأعراف: ١١٧ – ١١٩}

- **الآيات 65–69 من سورة طه:**

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾

- **الآية 82 من سورة الإسراء:** ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾
- **الآية 44 من سورة فصلت:** ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴿٤٤﴾ ﴾ .
- **الآية 21 من سورة الحشر:**

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

- الآية 51 من سورة القلم: ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ .

ومن الأحاديث التي يقترح أن يرقى بها المريض:

- **أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك (سبع مرات).**
- **أعيذك بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة (ثلاث مرات).**

- **اللهم رب الناس، أذهب البأس، أشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما (ثلاث مرات).**
- **اللهم أذهب عنها حرها وبردها ووصبها.. حسبي الله لا إله إلا هو عليه** توكلت وهو رب العرش العظيم (سبع مرات).
- بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك. ثم تضع يدك على موضع الألم وتقول: بسم الله (ثلاث مرات) أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر (سبع مرات).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الناس

سورة مدنية ويقال مكية، وآياتها ست

قال تعالي:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

قل أعوذ برب الناس: أضاف الله سبحانه وتعالى إلى الناس خاصة وهو رب كل شيء، لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس على الناس بربهم، وهو إلههم ومعبودهم، ومربيهم ومنميهم، ومراعي شؤونهم، وحاميهم، ومصلحهم.

ملك الناس: مالكهم ومدبر أمورهم، الذي تملك عليهم أمورهم، وواضع الشرائع والأحكام التي فيها سعادتهم في معاشهم ومعادهم.

إله الناس: عطف بيان لملك الناس، أو كلاهما عطف بيان لرب الناس، والثاني أبين، لأن ملك الناس قد يطلق لغير الله تعالى، وأما إله الناس فلا يطلق إلا له سبحانه. وهو المستولي على قلوب الناس بعظمته، ولا يحيطون بكنه سلطانه، بل يخضعون بما يحيط منها بنواحي قلوبهم، ولا يدرون من أي جانب يأتيهم ولا كيف يسلط عليهم.

قدم سبحانه وتعالى الربوبية، لأنها من أوائل نعمه على عباده، ثم ثنى بذكر

المالكية، لأن العبد إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلا مفكرا، ثم ثلّث بذكر الألوهية، لأن المرء بعد أن يدرك ويعقل، يعلم أنه هو المستوجب للخضوع والعزة، والمستحق للعبادة. وإنما قال: رب الناس، ملك الناس، إله الناس، لأنه رب كل شيء، ومالك كل شيء، وإله كل شيء. لأن الناس أخطأوا في صفاته وضلوا عن الطريق السوي، فجعلوا لهم أربابا ينسبون إليهم بعض النعم، ويلجأون إليهم في دفع النقم، ويلقبونهم بالشفعاء، ويظنون أنهمَ هم الذين يدبرون حركاتهم ويرسمون لهم حدود أعمالهم.

وإن قيل: ملك الناس إله الناس، ما هما من رب الناس؟ فالجواب هما عطف بيان، بيّن ملك الناس، ثم زيد بيانا بإله الناس. لأنه قد يقال لغيره: رب الناس، كقوله: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله.

أما إله الناس، فخاص لا شركة فيه، فجعل غاية للبيان.

من شر الوسواس: الوسواس: اسم بمعنى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة. أما المصدر فوسواس، بكسر الواو، والمراد به الشيطان سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه. والوسوسة: الصوت الخفي ومنه وسواس الحلي. وهو ما يخطر بالقلب من الشر وكل ما لا خير فيه. وهو حديث النفس الأمارة بالسوء.

إن هذا الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور البشر قد يكون من الجنة، وقد يكون من الناس، كما جاء في قوله تعّالى: وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الأنس والجن. فشيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى. وشيطان الإنس كذلك، فكثيرا ما يريك أنه ناصح شفيق، فإذا زجرته خنس وترك هذه الوسوسة وإذا أصغيت إلى كلامه استرسل واستمر في حديثه وبالغ فيه.

الخناس: الذي عادته أن يخنس، وهو من الخنوس والاختفاء، وخنس عنه: تأخر ودخل بابه، وأخنسه غيره لما روي عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولّى. فإذا غفل وسوس إليه. ويقال: في أنفه خنس، وهو انخفاض القصبة وعرض الأرنبة، ومنه لقبت تماضر الشاعرة بالخنساء أو خناس. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَآ

أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ﴾[1]. والخنّس: جمع خانسة، وهي النجوم التي تخنس، أي ترجع، فبينما تراها في أعلى الأفق، إذا بها راجعة إلى آخر الأفق، وذلك – والله أعلم – لارتفاعها وبعدها، فيكون ما تحتها من النجوم أسرع منها في الجري بحسب رؤية العين.

والخناس، ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة الطويلة التي لا تنتهي، فهو أبدا قابع خانس، مترقب للغفلة جعل الوسوسة في الصدور من قبل أنه عهد في كلام العرب أن الخواطر في القلب والقلب مما حواه الصدر عندهم، ألا تراهم يقولون: وإن الشك يحوك في صدرك، ويجيش في صدري كذا، ويختلج ذلك بخاطري، وما الشك إلا في نفسه وعقله. وأفاعيل العقل تكون في المخ، ويظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيقه وانبساطه.

وعن عاصم قال: سمعت أبا تميمة يحدث عن النبي ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ حماره، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي ﷺ: "لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته. وإذا قلت: باسم الله تصاغر، حتى يصير مثل الذباب". تفرد به أحمد بإسناد جيد وقوي.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أحدكم إذا كان في المسجد، جاء الشيطان فالتبس به، كما يلتبس الرجل بدابته، فإذا سكن له زنقه أو ألجمه". قال أبو هريرة: وأنتم ترون ذلك، أما المزنوق فترونه مائلا كذا لا يذكر الله، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل". تفرد به أحمد.

من شر الوسواس الخناس: أي ألجأ إليك رب الخلق وإلههم ومعبودهم أن تنجينا من شر الشيطان الموسوس الكثير الخنوس والاختفاء، لأنه يأتي من ناحية الباطل ولا يستطيع مقاومة الحق إذا صدمه، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوأ مصير، إذا انجرّت مع وسوسته، وانساقت معه إلى تحقيق خطر ذي بال.

وعن ابن عباس قال: "الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإن سها وغفل وسوس، وإن ذكر الله خنس". وهو ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح، فإذا

(1) سورة التكوير، آية 15.

ذكر الله خنس.

الذي يوسوس في صدور الناس: الذي يلقي حديث السوء في الصدور التي تحوي القلوب،

وإذا سأل سائل: ماذا يريد الشيطان من الإنسان؟ فالجواب: يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، إذا عجز عن واحدة انتقل إلى ما بعدها.

العقبة الأولى: عقبة الشرك والكفر.

العقبة الثانية: فإن لم يستطع فبالبدعة في الاعتقاد، وترك الاقتداء بالنبي ﷺ وأصحابه في ذلك.

العقبة الثالثة: فإن لم يستطع فبالكبائر.

العقبة الرابعة: فإن لم يستطع، فبالصغائر.

العقبة الخامسة: فإن لم يستطع فبالانشغال بالمباحات والإكثار منها عن الطاعات.

العقبة السادسة: فإن لم يستطع فبالطاعات التي غيرها أفضل منها وأعظم أجرا.

العقبة السابعة: فإن لم يستطع، فبتسليط جنده من شياطين الجن والأنس على المتقين، ليؤذوهم بما يستطيعون من أنواع الأذى.

من الجنّة والناس: بيان للذي يوسوس. والجنّة: جمع مفرده جنّي، كإنس وإنسي. على أن الشيطان ضربان: جني وإنسي، كما قال تعالى: شياطين الإنس والجن. وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شيطان الأنس؟ وسمي الجن جنّا لاجتنانهم، وسمي الناس ناسا لظهورهم، من الإيناس وهو الإبصار، كما سموا بشرا.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: الخناس الذي يوسوس مرة، ويخنس مرة من الجن الإنس، وكان يقال شيطان الإنس أشد على الناس من شيطان الجن، شيطان الجن يوسوس ولا تراه، وهذا يعاينك معاينة.

والموسوسون قسمان:

قسم الجنّة: وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم، وإنما نجد في أنفسنا أثرا ينسب إليهم، ولكل واحد من الناس شيطان، وهو قوة نازعة إلى الشر، ويحدث

منها في نفسه خواطر السوء. ووسوستهم لا ندري كيف تتم، ولكننا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة، ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قدم البشرية، وأن الشيطان قد أعلنها حربا تنبثق من خليقة الشر فيه، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان، وإنه قد استصدر بها من الله إذنا، فإذن الله سبحانه فيها لحكمة يراها، ولم يترك الله سبحانه وتعالى الإنسان فيها مجردا من العدة، فقد جعل له من الإيمان جنّة، وجعل له من الذكر عدّة، وجعل له من الاستعاذة سلاحا. فإذا أغفل الإنسان جنّته، وعدّته، وسلاحه، فهو إذن وحده الملوم.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا أغفل وسوس". أخرجه البخاري معلقا.

وأخرج ابن شاهين عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن للوسواس خطما كخطم الطائر، فإذا غفل ابن آدم، وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس، فإن ابن آدم ذكر الله نكص وخنس، فلذلك سمي الوسواس الخناس".

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان وأبو يعلى وابن شاهين بالترغيب في الذكر والبيهقي عن أنس عن النبي ﷺ: إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس".

وأخرج ابن مردويه عن الحكم بن عمير الثمالي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: الحذر أيها الناس، وإياكم والوسواس الخناس، فإنما يبلوكم أيكم أحسن عملا".

وأخرج أبو بكر بن أبي داود في كتاب ذم الوسوسة عن معاوية بن أبي طلحة، قال: كان من دعاء النبي ﷺ: اللهم اعمر قلبي من وسواس ذكرك، واطرد عني وسواس الشيطان".

قسم الناس ووسوستهم، فهو ما نراه ونشاهده بأعيننا ونسمعه بآذاننا، ونعرف عن وسوستهم الشيء الكثير، ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين.. رفيق السوء، وحاشية الشر، والنمام الواشي، وبائع الشهوات، وعشرات أمثالهم.

هذا التصور لطبيعة المعركة ومواقع الشر فيها، سواء عن طريق الشيطان مباشرة، أو عن طريق عملائه من البشر، من شأنه أن يشعر الإنسان أن إبليس مغلوب على أمره في هذه المعركة، فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله، وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب، فهو آخذ بناصيته، ولم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم، وملكهم، وإلههم. أما من يذكرونه، فهم في نجوة من الشر ودواعيه الخفية، فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها.. يستند إلى الرب الملك الإله، والشرّ يستند إلى وسواس خناس، يضعف عن المواجهة، ويخنس عند اللقاء، وينهزم أمام العياذ بالله.

كيفية قراءة سورة ياسين مع الدعاء

لا يخفى على المسلم ما ورد في فضل سورة يس، من قوله ﷺ: "كل شيء له قلب، وقلب القرآن ياسين". وقوله ﷺ: "يس لما قرئت له".

أما قراءة عديّة سورة يس، فهي كالتالي:

أن تتلو سورة يس سبع مرات، ثم تقرأ بعدها من أول السورة إلى قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾{ يس: ٩}

ثم تقول: "اللهم يا من نوره في سرّه، وسرّه في خلقه، إخفِ عني أعين الناظرين، وقلوب الحاسدين والباغين، واحفظني كما حفظت الروح في الجسد، إنك على كل شيء قدير".

ثم تقرأ: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ {يس: ١٠}

إلى قوله تعالى﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ {يس: ٢٧} ثم تقول: "اللهم أكرمني بقضاء حاجتي". (تذكر حاجتك).

ثم تقرأ: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾{يس:28 }إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ {يس: ٣٨} وتكررها إحدى عشرة مرة. ثم تقول: "اللهم إني أسألك من فضلك السابغ، وجودك الواسع، أن

تغنيني عن جميع خلقك".

ثم تقرأ: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾{ يس: ٣٩ }

إلى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ {يس: ٨١ }، وتكررها أربع مرات، ثم تقول: " اللهم سلمنا من آفات الدنيا" ثلاث مرات.

ثم تقرأ: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾{يس: ٥٩}إلى قوله تعالى:

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ {يس: ٨١.}

ثم تقول: " والله قادر على أن يقضي حاجتي " ثلاث مرات.

ثم تختم السورة، وتدعو ما تشاء، ثم تختم بالإخلاص، والمعوذتين، وألم نشرح [1].

دعاء القنوت

أخرج البيهقي عن خالد بن أبي عمران قال: بينما رسول الله ﷺ يدعو على مضر، إذ جاءه جبريل، فأومأ إليه أن سكت فسكت، فقال يا محمد، إن الله لم يبعثك سبّابا ولا لعّانا، وإنما بعثك رحمة للعالمين، ولم يبعثك عذابا، ليس لك من الأمر شيء، أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون. ثم علمه هذه القنوت: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونؤمن بك، ونخضع لك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، إليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق ".

وقال ابن الضريس في فضائله: أخبرنا موسى بن إسماعيل، أنبأنا حماد قال: " قرأنا في مصحف أبي بن كعب: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك الخير، ولا نكفرك، ونخلع ونطفر من يكفرك ". قال حماد: " هذه الآن سورة، وأحسبه قال: اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نخشى عذابك ونرجو رحمتك، إن عذابك

(1) سورة يس ودعاؤها، وكيفية استعمال قراءة العدية، ودعاء نصف شعبان، والسبع آيات المنجيات، عنيت بطبعها: دار القرآن، ميدان الأزهر الشريف، القاهرة.

بالكفار ملحق. وفي مصحف ابن عباس قراءة أبي وأبي موسى: بسم الله الرحمن الرحيم: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك الخير ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك. وفي مصحف حجر: اللهم إنا نستعينك".

وأخرج ابن الضريس عن عبد الله بن عبد الرحمن عن أبيه قال: صليت خلف عمر ابن الخطاب، فلما فرغ من السورة الثانية قال: الله إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك الخير كله، ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك بالكفار ملحق".

دعاء ختم القرآن

أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان الرسول ﷺ، إذا ختم القرآن دعا قائما". وأخرج البيهقي في شعب الإيمان أن أبي جعفر قال: كان علي بن حسين يذكر عن النبي ﷺ أنه إذا ختم القرآن حمد الله بمحامده وهو قائم، ثم يقول: "الحمد لله رب العالمين الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، لا إله إلا الله، وكذب العادلون بالله، وضلوا ضلالا بعيدا، وكذب المشركون بالله من العرب والمجوس واليهود والنصارى والصابئين، ومن دعا لله ولدا، أو صاحبة، أو ندّا، أو شبيها، أو مثلا، أو سميّا، أو عدلا، فأنت ربنا أعظم من أن تتخذ شريكا فيما خلقت، والحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبّره تكبيرا.. الله الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيها أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا... الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الغفور الرحيم... الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد

في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم.. الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله خير أما يشبركون بل الله خير وأبقى واحكم وأكبرم وأعظم مما يشركون، فالحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون، صدق الله وبلغت رسله، وأنا على ذلك من الشاهدين، اللهم صل على جميع الملائكة والمرسلين، وارحم عبادك المؤمنين من أهل السموات والأرضين، واختم لنا بخير، وبارك لنا في القرآن العظيم، وانفعنا بالآيات والذكر الحكيم، ربما تقبل منا إنك أنت السميع العليم".

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم اجمعين

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- كتاب التوراة السامرية للكاهن السامري أبو الحسن إسحق الصوري.
- إنجيل برنابا، ترجمة الدكتور خليل سعادة، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 15 آذار 1908م.
- إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مطبعة حجازي، القاهرة، ط 3، 1941م.
- أخلاق النبي ﷺ وآدابه، الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، مؤسسة الأهرام، القاهرة، 1981م.
- الاستشراق، إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت، 10
- الاستشراق، د. محمد عبد الله الشرقاوي، جامعة القاهرة، كلية العلوم.
- الاستشراق بين الموضوعية والانفعالية، قاسم السامرائي، دار الرفاعي، الرياض، 1983م.
- الاستشراق رسالة استعمار، د. محمد ابراهيم بيومي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993،
- الاستشراق والخلفية الحضارية، محمود حمدي زقزوق، الدوحة، قطر.
- الإسلام والتكافل الاجتماعي، مونتجمري واط، لندن، 1961م.
- الإسلام في الفكر الغربي، د. محمود حمدي زقزوق، طباعة الكويت، 1981م.
- الإسلام والغرب، فيليب حتي، نيوجيرسي، 1962م.
- الإعجاز الطبي في القرآن، د. السيد الجميلي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2، 1985م.
- إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين درويش، دار ابن كثير، بيروت، 1992م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، الطبعة الجديدة، عشرة أجزاء.

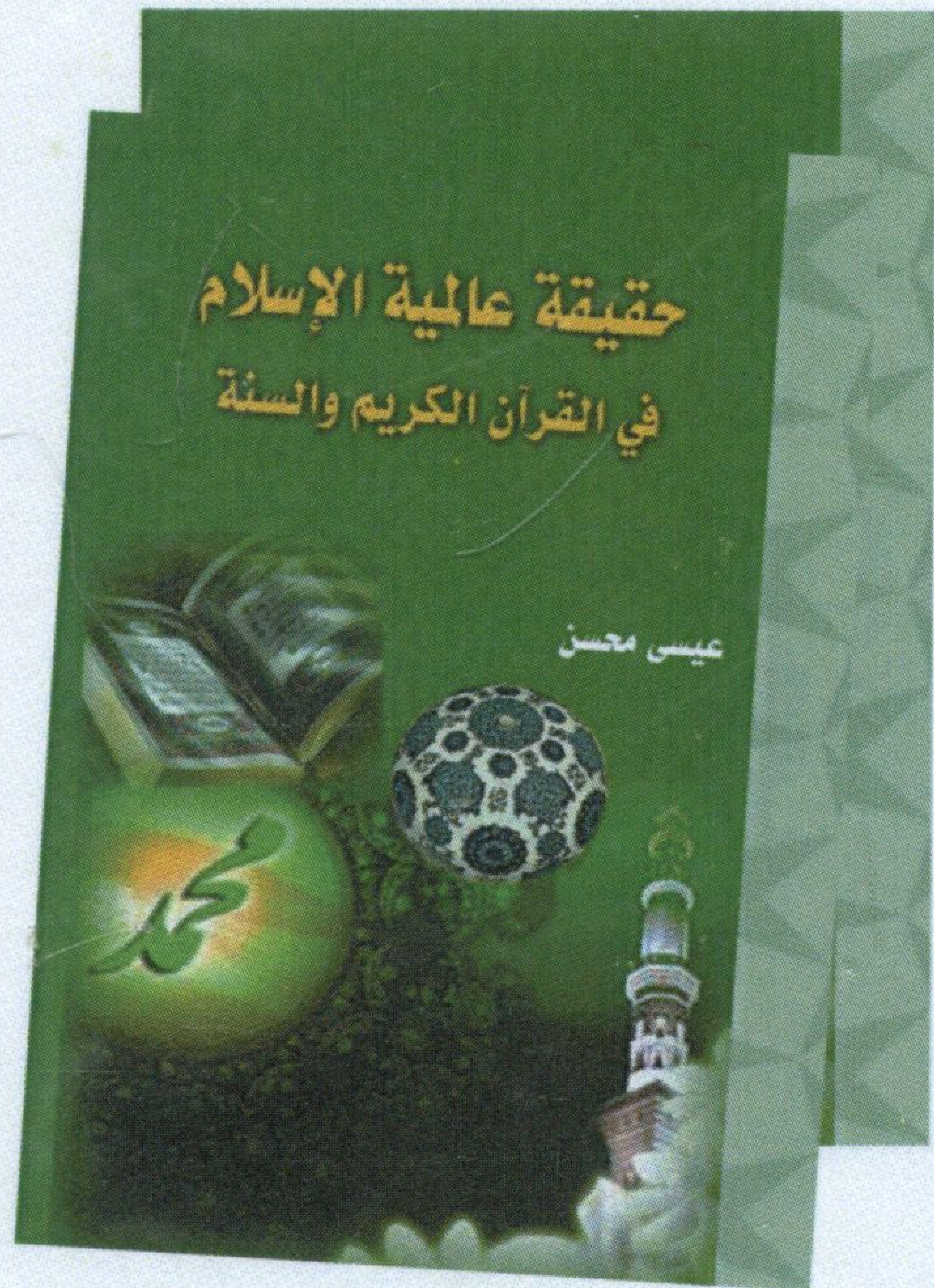
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1955م.
- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، قاضي القضاة مجير الدين الحنبلي، مكتبة المحتسب، عمان 1973م.
- أنيس الإعلام في نصرة الإسلام، محمد صادق فخر الإسلام، الناشر مرتضوي، طهران، إيران، 1364هـ .
- البداية والنهاية في التاريخ، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر بيروت 1978م. وطبعة أخرى تدقيق وتحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، ط 3، بيروت 1987م.
- البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1957م.
- البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، د. أحمد حجازي السقا، دار البيان العربي، مصر 1985م.
- بشائر الأسفار بمحمد
- بغية الوعاة، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، طبعة الخانجي، مصر، 1931م.
- تاريخ الحضارة، جورج حداد.
- تاريخ الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز عثمان.
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف، فوزية مطر، طباعة سنة 1404هـ
- تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور، ترجمة د. محمد أبو ريدة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م.
- تاريخ كنيسة أنطاكية، ترجمة الأسقف اسطفانوس حداد، مكتبة النور، بيروت.
- تذكرة الحفاظ، الذهبي، طبعة حيدر آباد، 1334هـ.
- تفسير العلامة أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي.
- تفسير الجلالين، دار المعرفة، بيروت.

- تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، القاهرة، 1321هـ.
- تفسير العشر الأخير من القرآن الكريم، الشيخ محمد بن سليمان الأشقر، الرياض.
- تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، السيد محمد رشيد رضا، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1988م.
- تفسير القران العظيم، الحافظ عماد الدين أبو النداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.
- تفسير القرآن الكريم، جزء عم، الشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر، الرياض، 2002م.
- التفسير الكبير، الإمام فخر الرازي.
- تفسير الشيخ العلامة محمد متولي شعراوي.
- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، القاهرة، الحلبي وأولاده، 1974.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط3، القاهرة، 1937م.
- تفسير الميزان، الطباطبائي.
- تقييد العلم، الخطيب البغدادي، تحقيق د. يوسف العش، دمشق، 1949م.
- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، طبعة حيدر آباد، 1327هـ.
- جامع بيان العلم، ابن عبد البر، القاهرة، إدارة الطباعة الأميرية، بدون تاريخ.
- جامع العلوم والكلم، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الحنبلي البغدادي، دار الفكر، بيروت.
- الحركة الصليبية، سعيد عبد الفتاح عاشور.
- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة أكرم زعيتر.
- الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بارت، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي، 1967م.
- دراسات في الفكر الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، نشر مكتبة الزهراء، 1990م.
- الدر المنثور في التفسير المأثور، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الفكر، بيروت، 1983م.

- الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد. (مترجم).
- ذخائر العقبى في فضائل ذوي القربى، محب الدين الطبري، مكتبة القدس، القاهرة، 1960م.
- رحلة مع الرقم 7، عبد الرحمن سليمان ياسين، مطبعة أسعد، بغداد، 1990
- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1991م.
- سورة يس ودعاؤها، وكيفية استعمال قراءة العدية، ودعاء نصف شعبان، والسبع آيات المنجيات، عنيت بطبعها: دار القرآن، ميدان الأزهر الشريف، القاهرة.
- سنن ابن ماجه الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، مطبعة الحلبي، مصر.
- سنن الترمذي، شرح الإمام أبي بكر بن العربي المالكي، مطبعة الصاوي، القاهرة، ط1، 1353هـ، وطبعة بولاق، القاهرة، 1292هـ.
- السنن الكبرى، الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، مطبعة مجلس المعارف الهندية، ط1، 1344هـ.
- سنن أبي عبد الرحمن بن علي بن شعيب النسائي، المطبعة الأزهرية.
- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، 1978م.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: مجموعة من العلماء بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1981م. وطبعة من تحقيق صلاح المنجد (25 مجلداً) القاهرة.
- السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، مكتبة الرياض الحديثة، ضبط طه عبد الرءوف سعد. أربعة أجزاء.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن حجاج بن مسلم القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط 1، مطبعة بولاق، القاهرة 1290هـ/ 1955م.
- صحيح البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، طبعة دار الشعب، القاهرة.

- الصوفية في الإسلام، نيكلسون، ترجمة نور الدين شريبة، القاهرة.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين.
- العقيدة والشريعة في الإسلام، جولدزيهر، ترجمة محمد يوسف موسى وزميله، 1948م.
- غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، الآستانة، 1935م.
- ~~فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.~~
- فتح القدير في تهذيب تفسير ابن كثير، الشيخ محمد أحمد كنعان، دار لبنان للطباعة، 1992م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، 1988م.
- قصص الأنبياء المسمى بالعرائس، العلامة أبو أسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم التغلبي.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، القاهرة، 1343هـ.
- كتابات يوحنا شوهاس الدمشقي عن الإسلام، طبعة ليدن، 1972م.
- الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2001م.
- مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ط 5، دار العلم للملايين بيروت، 1968م.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1982م.
- مجموعة التوحيد، محمد بن عبد الوهاب، مكتبة الرياض الحديثة.
- محمد الإنسان وعقيدته، تور أندريه، نيويورك، 1939م.
- محمد في التوراة والإنجيل، عبد الأحد داود،
- مخطوط إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، تفسير وأسرار سورة الفاتحة.
- المستدرك على الصحيحين، الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي، بيروت. وطبعة مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب. وطبعة مطبعة حيدر

آباد الدكن، الهند، 1342هـ.
- المستشرقون وترجمة القرآن، د. صالح البنداق، دار الآفاق، بيروت.
- المسند، الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت 1995م.
- مكة في عصر ما قبل الإسلام، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1978م.
- مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، د. مصطفى الأعظمي.
- منهل الواردين، شرح رياض الصالحين، الإمام محيي الدين بن شرف النووي
- موسوعة المعرفة، جنيف، العدد 8، 20 نيسان 1971م.
- الوضع في الحديث النبوي، د. عمر حسن فلاتة، مكتبة الغزالي، بيروت، 1981م.
- اليهود والعرب، المستشرق جويتين، نيويورك، 1955م.






9789957493028



دار المعتز للنشر والتوزيع
الأردن- عمان- شارع الملكة رانيا العبدالله- الجامعة الأردنية
مقابل كلية الزراعة عمارة رقم ٢٣٣ الطابق الأرضي
تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٥٣٧٣٠٣٥ ص.ب: ١٨٤٠٣٤ عمان: ١١١١٨ الأردن
e-mail: daralmuotaz@yahoo.com e-mail: daralmuotaz.pup@gmail.com